

مِخْلَافَاتُ الْإِسْلَامِ وَالصَّلَاةِ
(المشرف)

دمشق

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

الجزء الأول

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

١ - (اوضاع المشرق)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أصدرت منذ أكثر من عشرين سنة خلت كتابي «مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية» وكان بنيتي وقتها اتباع هذا المدخل بكتاب عن تاريخ الحروب الصليبية وفق منهج علمي جديد روحه عربية اسلامية ، ومرت الأيام وأنا أقوم بجمع المصادر والمواد لهذا الكتاب حتى كان عام ١٩٧٦ ، ففي تلك السنة أعرت للتدريس في جامعة فاس ، وفي فاس تعمقت معارفني بتاريخ الأندلس والمغرب العربي الكبير ، وتجلت لدي صورة الصراع الاسلامي الصليبي على انها كانت - وما زالت - صورة شاملة ، فالحروب الصليبية قامت على جميع الجبهات في الشرق والغرب والشمال والجنوب في البر والبحر ، ومن ثم إن قصر دراسة تاريخ الحروب الصليبية من حيث المقدمات لا بل حتى من حيث الوقائع على المشرق فيه نقص وتشويه ، وفي ساعة من ساعات الصفاء الفكري رسمت وأنا في فاس صورة مخطط لمشروع كتاب كبير عن تاريخ الحروب الصليبية يتضمن كتابه - مدخل آخر للحروب الصليبية أشرح فيه أوضاع المغرب والأندلس قبيل نهاية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد.

وهكذا تابعت عملي في الدراسة وجمع المصادر ، وهذه مهمة ثقيلة ومكلفة من جميع النواحي على الفرد أن يقوم فيها بدور عدة مؤسسات ، وهكذا يتقسط المشروع ويطول الزمن ، وكان لهذا بعض الفوائد ، من حيث تعميق التصور وتطوير طرائق معالجة

الموضوع ، وخطوت في عام ١٩٨٤ خطوة هامة في سبيل تنفيذ المشروع الذي خططت له وذلك باصدار كتابي « الحروب الصليبية» في جزأين ، ثم تابعت العمل وهنا عقدت النية على إصدار كتاب موسوعي كبير طورت خطته أصدره في عام ١٩٩١ ، وذلك بمناسبة مرور سبعة قرون على طرد آخر محتل فرنجي من أرض الشام إثر تحرير عكا وأرسوف ، غير أنني لم أتمكن من تنفيذ ذلك وأصبحت بلعنة رقم - ٩١ - ويؤسفني القول إن عدة سنوات بعد ١٢٩١ حملت رقم - ٩١ - كانت سنوات أسي وذل وتراجع للعرب والمسلمين ، ففي عام « ١٤٩١ » انتصرت الصليبية وطرد العرب من غرناطة في الأندلس وفي سنة « ١٩٩١ » ذهب العرب مرغمون الى مدريد لاستجداء السلم من الارهابي الصهيوني شامير ، وذلك في أعقاب وقائع مأساة التاريخ العربي والاسلامي على مر العصور ، وأعني بذلك حرب الخليج ، إثر اقدام صدام حسين بعمالة وصدفاقة على احتلال الكويت وتدمير طاقات العراق العزيز وقتل شعبه بمختلف صنوف الافناء.

ومع هذا تابعت العمل بجد في سبيل تحقيق مشروع كتابي وقمت أكثر من مرة بادخال تعديلات على مخططه ، وكان هديفي تغطية مجمل وقائع قرني الصراع ، ولكن لم أتمكن من الوصول الى هذه الغاية حيث لم تتوفر لي مصادر أصلية كافية بغير العربية عما يعرف باسم «الحملتين الخامسة والسادسة» ولهذا إن كتابي سيتوقف في هذه المرحلة مع وقائع الحملة الرابعة ، وأملني كبير في أن أتمكن في المستقبل القريب من الحصول على المصادر المرغوب بها مع المزيد من المصادر العربية الجديدة غير المذشورة .

لم ادخل سوى تعديلات طفيفة على محتويات كتابي «مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية» وقد استخدمت جميع مواد كتابي الآخر «الحروب الصليبية» لكن لم أعتمد الترتيب التي أقمته عليه ، وبات قوام كتابي الجديد :

أولا : مدخل يأتي في ثلاثة أجزاء ، بحثت في الجزء الاول اوضاع

المشرق في القرن الخامس هـ - الحادي عشر م ، وتناولت في الثاني أوضاع المغرب والأندلس حتى غاية الفترة نفسها ، وسيحتوي الجزء الثالث على عرض مختصر موجه للأوضاع في أوروبا في العصور الوسطى والعوامل السياسية والعسكرية والدينية التي أدت الى توجه حشود شعبية هائلة من أوروبا نحو بلاد الشام محدثة ما عرف باسم الحروب الصليبية ، وسأبحث في هذا الجزء باختصار مراحل أحداث الحروب الصليبية وفق تفسير أراه واعتمده ، واعتقد أنه يمثل وجهة نظر عربية اسلامية تجاه الموضوع ، ولدى تقديمي لهذا العرض سأوضح مسوغاته ، وسأختتم هذا الجزء بالتعريف بالمصادر التي اعتمدتها وبأصحاب النصوص المنشورة ، وهذه النصوص من حيث الواقع الجغرافي : شرقية وأوروبية ، والشرقية : عربية وسريانية ، والأوروبية : أغريقية ولاتينية ، ومن حيث الحجم تحتل العربية واللاتينية الحجم الأكبر والأوفى والأكبر هذا وبالوقت نفسه يمكن اعتبار نصوصنا تنقسم من حيث الواقع الديني الى قسمين :

إسلامي ومسيحي ، وكتبت الاسلامية بالعربية حصرا أما المسيحية فكتبت بالسريانية واللاتينية والاغريقية وسيكون هناك في مستقبل الأيام عندما اتابع العمل بهذا المشروع بعض النصوص الأرمنية ، ويجمع بين النصوص المسيحية بشكل عام الانتماء الديني والهوى والعاطفة ، وهي تمثل ثلاث كنائس رئيسية ، ومعروف أن تاريخ الحروب الصليبية قد كتب في أيامنا هذه من وجهة نظر الكنيسة الاغريقية ، وكتب أكثر من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ، فهذه الكنيسة قد تحملت الوزر الأعظم في جميع وقائع الحروب الصليبية ، وجاء دور الكنيسة السريانية هامشيا ، وحتى الآن لم تجر أية محاولة - فيما أعرف - للتأريخ للحروب الصليبية من وجهة نظر هذه الكنيسة ، وفي الوقت نفسه ما تزال محاولات التأريخ للحروب الصليبية من وجهة نظر عربية اسلامية بدائية لم تتبلور لتفرض ذاتها في ميادين التأريخ المحلية والعالمية وأعد جهدي الذي أقدمه للقارئ العربي الآن محاولة جدية لارساء أسس هذا المسعى المنشود والمتوجب أيضا ذلك أن العدوان الصليبي وقع على

العرب المسلمين وعلى ديارهم ، وبفضل الجهود العربية الاسلامية
أخفق المشروع الصليبي وتحررت الأرض وتحرر الانسان.

ودوافعي للبحث في الحروب الصليبية دوافع علمية خالصة وهي
متأثرة الى أبعد الحدود بواقع الاحتلال الصهيوني القائم في بلاد
الشام حاليا وبالحملة الصليبية ضد الأمة العربية والتشعوب
المسلمة ، وهي حملة شرسة جدا ، ثم ان نشري لعدد كبير جدا من
المصادر الاصلية لتاريخ الحروب الصليبية بعد تحقيق بعضها
وترجمة بعضها الآخر فيه إسهام بناء في مشروع كتابة تاريخ الأمة
العربية ككل وتاريخ بلاد الشام بشكل خاص ، فالأساس لأعمال
التأريخ تأمين المصادر وهذه هي المرة الأولى التي يوضع فيها تحت
تصرف القارئ العربي المختص وغير المختص هذا الحشد الكبير
من النصوص المتوائمة حيناً والمتناقضة أحياناً لكنها جميعاً تساعد
على رسم صورة متوازنة للأحداث ومتكاملة ورتبت النصوص
حسب الانتماء اللغوي والجغرافي ، ولقد وجدت من المفيد جدا بعد
تألفي لكتاب المدخل في أجزائه الثلاثة أن أتولى ترجمة كتاب
«السعي وراء الفترة الألفية السعيدة» لذورمان كاهن ، وهو كتاب
فريد في بابه ، لا يوجد له مثيل في أية لغة من اللغات ، موضوعه
وصف الأوضاع الدينية في أوروبا في العصور الوسطى لا سيما ما
تعلق بأحداث الحروب الصليبية ولا مسها مباشرة ، وفائدة هذا
الكتاب لن تقتصر على التعرف على الحركات المسانحة
والشخصيات التي ادعى كل منها أنه المسيح المنتظر أو رب من
الآرباب ، ومن ثم أدوارهم في صنع أحداث الحروب الصليبية ، بل
الفائدة ستتجاوز هذا كله ، إنها ستمتد الى العديد من جوانب تاريخ
العرب ، خاصة تاريخ بعض الفرق •

لهذا كله وزيادة رأيت أن محتويات هذا الكتاب تصلح كمدخل آخر
للكتاب ، أخذا بعين الاعتبار أن وظيفة المدخل هي التمهيد لما يليه •
إن ضخامة حجم مشروع كتابي هذا وتدفع مشاربه جعلته يأخذ
الشكل الموسوعي ، وبالنظر لاستقطاب أحداث الحروب الصليبية في

الشام قديم وحديثا والانتماء الى بلاد الشام بات اسـم الكتاب«الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية».

إن تاريخ بلاد الشام من حيث العمق هو البداية في التاريخ الانساني والحضارة والعطاء وهو تاريخ لم يعرف التوقف أو الانقطاع ، ولهذا ولأسباب أخرى استعصت أرض الشام على القضم والابتلاع بشكل دائم من قبل المعتدين ، نعم لقد احتلت أجزاء من الشام من قبل الغرباء لبعض الوقت وادعى هؤلاء الغزاة أن الأرض ارضهم وأرض الآباء والأجداد ، لكن ما لبث أن زال العدوان ، فهوية الأرض العربية شامية ولم تستطع قوة من القوى أن تغيرها فيما مضى ولن تستطيع فيما لحق ، ذلك أن «الزبد فيذهب جفاء وأما ما يدفع الناس فيمكث في الأرض».

خلق الله الشام أرضا عربية مقدسة ، فهي أرض الابدال وأرض الابطال الفر الميامين ، اعتادت على أنجابهـم خاصة في أيام الأزمات ، فهذه الأرض المعطاء التي أنجبت أيام الحروب الصليبية أبطال التحـرير ، ذوي الاصلـة والأخلاق والشرف والحضارة ، أنجبت لهذا الجيل ولأزماته الحاضرة البطل الكبير ، العربي الأصل ، رجل الدولة والحضارة والثقافة والشهامة العربية والكرم والآباء والمروءة والرجولة ، الرئيس حافظ الأسد ، فوجوده ورعايته أعطتني الدافع والأمل لاكمال مشروع هذا الكتاب الكبير والتخطيط لمشاريع أخرى أكبر يتصدرها اخراج تاريخ دمشق لابن عساكر وأنشاء مصرف للمعلومات التاريخية العربية والاسلامية من أجل كتابة كتاب في تاريخ الاسلام سياسيا وحضاريا سيكون فيما لايقـل عن عشرين من المجلدات وفق منهج في التأليف جديد ومتطور ورؤية تاريخية عربية اسلامية علمية مؤمنة ، ذلك أن الايمان يصنع المعجزات.

لقد شجع السيد الرئيس على انجاز هذا المشروع وأمر بتأمين كل ما يلزم لطباعته ونشره ، فله الشكر الصادر من القلب ، و الى الله

تعالى أبتهل أن يمد في عمره وأن يمنحه الصحة والتوفيق والنجاح الدائم ، ففي ذلك وفاء بما تعهد به جل وعلا في قوله «إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون» فحفظ الذكر بالرجال المؤمنين والعلماء وهو حفظه الله عالم مؤمن ، يرعى العلم والعلماء ويرى أن مستقبل بقاء هذه الأمة مرتبط بتقدمها العلمي والثقافي ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وهو أيضا يقول: «إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء» ، وقال الامام محمد بن الحسن الشيباني: «إن الله تعالى حكم ببقاء الشريعة الى يوم القيامة ، والبقاء بين الناس يكون بالتعلم والتعليم ، فيفترض التعليم والتعلم جميعا» وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الذين لا يعلمون والذين لا يتعلمون .

اللهم امنحنا العلم النافع ووفقنا الى ما فيه منفعة العرب والمسلمين ففي منفعتهم مرضاتك «رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وأجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا» . يا رب يا كريم يا من أمره بين الكاف والذون لك الحمد بلا حدود ، منك أستمد العون وأطلب الهداية يا إله العالمين. والصلاة والسلام على محمد النبي العربي وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ - ٤ - ١٤١٣ هـ / ١٧ - ١٠ - ١٩٩٢

سهيل زكار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

درج الذين عملوا على دراسة تاريخ الحروب الصليبية على الانطلاق من أوربة الغربية موطن الصليبيين. ولقد فعل هذا الباحثون الأوربيون وجرى على سنتهم معظم الباحثين الشرقيين مقلدين إياهم فدرسوا الحياة في أوربة الغربية خلال القرنين العاشر والحادي عشر من كافة الوجوه والجوانب، ثم سايروا نشوء الحركة الصليبية والتبشير بها ، وبعد هذا واكبوا جموع الصليبيين عبر أوربة الى القسطنطينية ثم أسية الصغرى فبلاد الشام.

من الطبيعي أن يقوم أوربي باتباع مثل هذا المنهج، برغم ما فيه من تضليل وتغافل عن حقيقة الأمور ووقائع التاريخ، ذلك أن الجيوش والجموع الصليبية عندما وصلت الشام لم تكن أول قوات نصرانية - دافعها الأساسي ديني - تغزو هذه البلاد، ثم لم يكن الفرنجة - خاصة في جيش البارونات - يتعرفون لأول مرة على أسية الصغرى وأعلى بلاد الرافدين، ذلك لأن عددا كبيرا من الفرنجة كانوا قد خدموا كمرتزقة في الجيوش البيزنطية، وقاتلوا ضد المسلمين في الشرق، وعرفوا طرائق الحرب وفنون القتال لديهم وما ورد في خطبة البابا أوربان الثاني - المبشر الأول بالحروب الصليبية - من نصائح قتالية لهو برهان كاف للتدليل على صحة هذا ولا حاجة للتذكير بأن الفرنجي الذي لم يسبق له القتال ضد مشاركة المسلمين ربما كان قد نال حظه في القتال ضد المغاربة .

لا ريب أن الحملات الصليبية كانت حلقة من حلقات الصراع بين

الاسلام والمسيحية ، لكن الاوربي مهما تجرد تبقى هذه الحروب جزءا من تاريخه وامجاده - خاصة في عصر المناداة بالوحدة الاوربية - ورجالها هم ابطاله نشأ على حبهم واتخاذهم مثلا أعلى لذا قام الباحثون الاوربيون - سواء عن ادراك وقصد أو بدون ادراك وقصد - بتمجيد رجالات الصليبيين فأضفوا عليهم صورا من القدرة والشجاعة والطاقت هي في كثير من الاحيان فوق الصفات العادية للبشر ، مع أن واقع الحال لم يكن هكذا أبدا ، فالصليبيون كانوا بشرا أدنى من سواهم ثقافة وحضارة وحتى شجاعة ومعرفة بفنون القتال ، ولقد انتصروا ، حين وصلوا بلاد الشام ، لا لانهم تمتعوا بصفات التفوق ، بل لأن الخصم الذي واجهوه كان من التفكك والهزال بحال لا يستطيع معه أن يصمد لهبات النسيم العليل. فما بالك ببعض الريح العاتية؟!

في نصف القرن الذي سبق مجيء الصليبيين كان العالم الاسلامي يعيش في حالة من الفوضى والدمار لانظير لها ، ولقد نشأت هذه الحالة عن هجرة الغز البداة إليه مع التوسع السلجوقي ، وطالما أن مسرح الحروب الصليبية كان في بلاد الشام والجزيرة فلننظر بإمعان إلى حال هذين البلدين قبيل مجيء الصليبيين ، وإذا فعلنا هذا نجد الشام والجزيرة مثل الشطرنج فيه رقع كثيرة فيها دمي متفاوتة الهجوم متصارعة دائما ، ولقد سهل هذا التمزق مهمة الغز عند ما دخلوا الشام والجزيرة فاستطاعوا بسهولة الاستيلاء عليهما ولم يجدوا كبير عناء في تهديمهما ، كما أن هذا التمزق ناسبهم ووافق طبيعتهم ، فالغز بالأصل كانوا عشائر بدوية يكرهون التوحد ويمجونه ، ويألفون الفرقة ويحبونها ، ولم يناسبهم أكثر من أن يجدوا بلدا كالشطرنج فيه مربعات كافية لكل العشائر مع زعمائها المتفاوتين في الأهمية مثل حال الدمى.

لكن من هم الغز ، ومن أين جاءوا ، ثم ما الذي فعلوه بالتحديد حتى كانوا هكذا من أسباب نجاح الصليبيين ؟ الجواب على هذه الأسئلة يتطلب المضي الى سهوب بلاد ما وراء النهر موطن الغز

الأول ، فمن هذه السهوب ينبغي ان ينطلق بارس الحروب الصليبية وهذا ما صنعه في هذه الدراسة.

ومفيد أن نتذكر هنا بأن البابا أوربان الثاني ، عندما بشر بالحروب الصليبية ودعا لها كان مدفوعا بشكل رئيسي للعمل على اتحاد بيزنطة النصرانية من الغز المسلمين وربما بالتالي إيجاد فرصة لتوحيد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تحت زعامة خلفاء القديس بطرس ، وجدير أن نذكر هنا أن الصليبيين قد وصلوا الشام جمعا واحدا ، ولكن ما أن توغلوا فيه وانتزعوا بعض أراضيه حتى فرض عليهم طبيعته في التمزق ، فاندقسموا الى عدة دويلات ، وبما أن كثيرا من صليبي الحملة الأولى قد استقروا في الشام ، فقد انجذبوا هناك جيلا جديدا قد تمتع بصفات خاصة ، ولما كان تدفق الفرنجة من أوربة على الشام لم يقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متميزتين ، هما مجموعة البلبيين ومجموعة الوافدين ، وبالإضافة الى هذا فقد قام بين الصليبيين تنظيمات ، غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية. ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن وازدادت الفرقة عمقا والخلافات حدة ، وزالت من بين الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الأولى خاصة بين صفوف الفقراء Tafurs منهم.

وفي الوقت الذي حصل فيه هذا بين صفوف الصليبيين كان المسلمون قد أصابهم انقلاب هائل أيضا ، حيث أن الضربة التي تلقوها أفاقتهم من رقبتهم وأثبت العقاقيل منهم الى رشدهم ، وزالت القيادات القديمة وتكونت قيادات جديدة ، وخلق انسان مسلم جديد مع روح جديدة ، ولقد ظهر هذا خاصة زمن نور الدين محمود ابن زنكي حيث عاش الناس مع الجهاد ، نبذوا الفرقة ، وجاهدوا من أجل الوحدة ، ولقد استطاعت القيادات الجديدة مع الانسان الجديد المتشبع بروح الجهاد الجديدة احلال الوحدة بين المسلمين وإزالة الفرقة ، فاتحدت الموصل مع حلب ، فزالت بفضل ذلك مملكة الرها الصليبية ، ثم انضمت دمشق الى هذا الاتحاد وتبع ذلك انضمام

مصر وإزالة الخلافة الفاطمية ، وهكذا استطاع المسلمون نيل النصر في حطين واسترداد القدس ، ثم قامت مصر التي دخلت إليها الروح الجديدة بتحمل تبعات تصفية الصليبيين وقامت مع الشام بالتصدي للخطر المغولي فهزمت في عين جالوت...

إن مهمة هذا المجلد لن تتجاوز الحديث عن قيام السلطنة السلجوقية وبحث حالة الشام والجزيرة ، كجزء من العالم الإسلامي ، وذلك قبيل مجيء الصليبيين ، وسنوقف مع دخولهم الشام واحتلال بعض أراضيه ، وسأترك أمر دراسة المراحل التالية ، مراحل الاستفاقة ، والتوحد ، والاسترداد إلى المجلدات القادمة إن شاء الله.

ولن أحاول القيام بتقديم سرد بأسماء المصادر التي اعتمدتها مع وصف لها وتقويم ، لأنني فعلت هذا في كتابي بالانكليزية

The Emirate of Aleppo 1004- 1094 Beirut 1971

كما أن كل من

Barthold في كتابه Turkestan Down to the Mongol invasion و Bosworth

في كتابه The Ghaznavids

قد قاما باستعراض ودراسة لكل ما هو معروف من المصادر المتعلقة بتركستان مع بداية تاريخ التركمان ثم هجرتهم إلى خراسان واستيلاء السلاجقة على هذا الصقع. ثم إن كتاب

Historians of the middle East

يحتوي عدداً من الأبحاث الجيدة المتعلقة بمصادر الحروب الصليبية خاصة الشرقية منها ، ولقد قام عزيز سوريال عطية في كتابه

The crusade. Historiography and Bibliography, London, 1962.

بتقديم احصاء كامل بأسماء ما كتب عن الحروب الصليبية ولشعوري بأنني لن أقدم الآن شيئاً جديداً في هذا المجال ، لم أقم كما ذكرت باستعراض وتقويم للمصادر ، وربما سأفعل ذلك في المستقبل

لأن هناك ما يزال يوجب الكثير من المصادر العربية التي لم تستخدم أبدا أو لم يستفد منها كما ينبغي.

وأملني وطيد بأن تقدم هذه الدراسة للقارئ العربي في أيامنا هذه شيئا جديدا يرى فيه أنه لا يعيش الآن أسوأ حقب تاريخه الطويل لأن هذا التاريخ قد مر بفترات أشد قسوة ومرارة.

ومهما يكن الأمر فإنه ينبغي التنبيه إلى وجود الفوارق بين العصور ، وإلى أن وجود فترات ماضية أشد قسوة لايجوز أن تكون إلا دافعا لعدم اليأس ، ثم معلما وحافزا نحو حذو خط الأوائل وتبني حلولهم في التوحيد والاخلاص وخلق الإنسان العربي المجاهد الجديد ، والله الموفق.

دمشق ٩ رجب الفرد ١٣٩٢
١٨ آب ١٩٧٢

سهيل زكار

الفصل الأول

الهجرة الغزية واستيلاء السلاجقة على خراسان

تركستان وسكانها • الوضع السياسي في
خراسان وبلاد ما وراء النهر في القرن
العاشر والنصف الأول من الحادي عشر •
الأسرة السلجوقية • الاجتياح السلجوقي
لخراسان^١

« وعاش الأمير سلجوق مائة سنة ، ورأى في منامه ذات ليلة أنه
يبدول ناراً يتلظى. شرارها في مشارق الأرض ومغاربها • فسأل
المعبر ، فقال: سيولد من نسلك ملوك يملكون أقاصي الأرض » (١) .

« تعلق الإمام الأعظم أبو حنيفة الكوفي رضي الله عنه بحاقيات
الكعبة في حجه الأخيرة - ودعا الله قائلاً: إذا كان اجتهادي
صحيحاً ومذهبي حقاً فأنصره، فلقد وضحت مسائل الشريعة
الإسلامية من أجل وجهك ، فصاح هاتف من الكعبة قائلاً: حقاً
قلت ، مازال مذهبك مادام السيف في يد الأتراك ، وحمداً لله تعالى
أن قوى ظهر الإسلام به ، وما هم أصحاب أبي حنيفة هانئون
ياعمون ، قريرو الأعين لأن السيف في يد الأتراك في بلاد العرب
والعجم والروم والروس ، وقد رسخ سلكناهم في القلوب وهم
سلاطين آل سلجوق ، رحم الله الماضين منهم وأبقى الباقين ،
فلطالما اختصوا العلماء من أصحاب أبي حنيفة بالعطف والرعاية
بحيث استقرت محبتهم في قلوب الناس جميعاً شيوخاً وشباباً » (٢)

« يظهر عز الملك... بثلاثة أشياء : حفظ الأطراف مع دفع العدو عن الحوزة ، وأكرام العلماء واعزازهم ، وحب أهل الفضل... وإن أجل النعم بعد نعمة الاسلام الصحة والامن ، والامن إنما يكون من سياسة السلطان ، فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة ، وأن يكون مع السياسة عادلا لأن السلطان خليفة الله ، ويجب أن تكون هيئته بحيث إذا رآته الرعية خافوا ولو كان بعيدا » (٣) .

عندما يتفحص الباحث تاريخ بلاد الشام والجزيرة ، وذلك كجزء مما يعرف الآن باسم الشرق الأوسط ، يلاحظ المدى الذي تأثر به هذا التاريخ في العصور القديمة والوسطى - حسب المصطلحات السائدة - بتحركات الشعوب البدوية وهجراتها داخل اسية ، وفي الوقت نفسه يرى كيف نعمت بقاع هذين البلدين ، أو عانت ، أو تغيرت عقب وصول كل موجة جديدة من المهاجرين إليها ، ومن المعروف أن البداية الذين عرفتهم بقاع الشام والجزيرة كثر ، جاءوا من اتجاهات وأصول متعددة .

ليس في النية هنا التصدي لدراسة كافة الموجات البدوية التي جاءت في مختلف العصور الى بلاد الشام والجزيرة ، إنما الغرض سينحصر بتبيان بعض ما حدث بعد قيام الفتوحات الاسلامية في القرن السابع للميلاد ، حيث نجد أن العرب والترك كانا أشهر الشعوب البدوية التي هاجرت الى هذين البلدين وأكثرها أهمية ، وكانا أيضا أكثرها تأثيرا في حياتهما من كافة الجوانب .

وعلى الرغم من تفاوت العرب والترك من حيث الأصول العرقية ، واللغة والطبائع ، والوطن الأم ، فإن كلا من هذين الشعبين قد ساهم في اقامة الحضارة الاسلامية وتطويرها مع نشر الاسلام والحفاظ عليه ، وليس من المغالاة القول في يومنا هذا : إنه إذا كان فضل نشر الاسلام وإقامة الخلافة الاسلامية يعود للعرب ، فإن كبير فضل حماية هذا الدين في اوقات المحن ، ثم التمكين من احياء السنة ، واخيرا تثبيت صبغة الدين الاسلامي الحالية يعود كله للترك .

إن الشطر الأول من هذا الكلام بديهي ومعروف بالنسبة للعرب وغيرهم لكن الشطر الثاني يحتاج - على الأقل بالنسبة لكثيرين من قراء العربية - إلى توضيح وتبيان، كما يحتاج إلى تقويم علمي وعلماني، وهذا ما سأحاول صنعه وشرح بعض جوانبه في هذه الدراسة، وأقول بعض جوانبه لأن هذه الدراسة هي مدخل لتاريخ الحروب الصليبية التي كان مسرحها الأساسي الشام والجزيرة، والشام والجزيرة لم تكونا تعدوان أكثر من دارين من ديار الإسلام التي حكمها الأتراك، ثم إنني لن أتعرض، إلا بقدر ما تمليه الضرورة، لتاريخ اتصال الترك بالإسلام منذ البداية، بل سأركز الجهد على الفترة ما بعد القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد، لأن في القرن الخامس - الحادي عشر كان أمر ظهور الغز - التركمان - وفيه قامت السلطنة السلجوقية *

إن هجرة التركمان إلى خراسان والعراق والجزيرة والشام وأسية الصغرى مع الاجتياح السلجوقي هو حدث في غاية الخطورة لأنه قد افتتح مرحلة جديدة متباينة عما سبقها ليس فقط في تاريخ الإسلام ودياره وإنما في تاريخ المسيحية والامبراطورية البيزنطية مع عالم العصور الوسطى، فمنذ هذا القرن بدأت أجزاء من العالم الإسلامي تخضع بصورة متوالية تحت الحكم التركماني السلجوقي حتى جاء وقت وجد فيه حكام أتراك الأصل في مناطق نائية عن موطنهم الأصلي كالجزائر والبنغال واليمن أحياناً، ولقد استمر هذا وعاش طويلاً وكان له آثاره حتى بات كثير من المسلمين يرون أن الحكم لا يصح ولا يمكن أن ينجح فيه إلا تركي (١)، وهذا له ما يسوغه فالشام مثلاً حكم من قبل الترك منذ أواخر القرن الحادي عشر وحتى أوائل هذا القرن *

والتغيرات التي أحدثها قدوم التركمان مع الاجتياح السلجوقي - كما سنرى - هي تغييرات هائلة تناولت جوانب الحياة في العالم الإسلامي، وصحيح أن الكثير من التغييرات التي

تمت كان له جذوره التي تعود الى ما قبل القرن الحادي عشر ، إلا أن التركمان بقيادة السلاجقة قد عجلوا في قيام التغيير ومكنوا من أحداثه واتممه بنجاح .

وبالنسبة للمسيحية والامبراطورية الرومانية الشرقية، لقد تمكن التركمان من تحقيق ما أخفق الفرس والعرب من قبل في تحقيقه ، ألا وهو احتلال الاناضول ، ومن ثم التمهيد للقضاء على بيزنطة واحلال تركية محلها .

لم يكن التركمان أول ترك يتصلون بالعالم الاسلامي وبيزنطية، فمنذ قرون عديدة مضت قبل القرن الحادي عشر كان هناك ترك كثيرون يعيشون داخل الاراضي الشرقية للخلافة أو على تخومها، ومعروف أن حركة الفتوح الاسلامية خاصة في العصر الاموي قد اصطدمت بالترك الذين وقفوا في وجه هذه الحركة وحالوا لزمان بينها وبين التقدم، والى أن تحول الترك الى الاسلام لم يكن له « دار حرب أشد شوكة من الترك » (١٠) .

ومعروف أنه منذ القرن التاسع اعتمدت الخلافة العباسية على تجنيد العبيد الترك في جيوشها، وأنه قد ظهر من بين صفوف هؤلاء العبيد عدد كبير من الحكام والقادة، نجح بعضهم في التحكم بالخلافة، وبعضهم الآخر في إقامة دول مستقلة كما فعل آل طولون ثم الاخشيد في مصر، والغزنويون في افغانستان اليوم الحالي، ولما كان هؤلاء العبيد قد جلبوا الى العالم الاسلامي وهم أطفال ، فإنه من المرجح أنهم قد كسبوا عادات وتقاليده المجتمع الذي ربوا فيه ونشأوا ، وأنهم قد نسوا أو تخلوا عن معظم - إن لم يكن عن كل - تقاليد وعادات مواطنهم الأصلية وأهلهم، لذا لا يمكننا أن نعددهم - حين أسسوا دولهم المستقلة، وحين تحكموا ببغداد والخلفاء - ممثلين للعنصر التركي، وإنما ينبغي النظر اليهم من زاوية وضع الخلافة العباسية ومجتمعها ومشاكله ومشاكل قومياته وعناصره البشرية، ثم الدور الذي شغله الجند والقوى والجماعات العسكرية

في حياة هذه الخلافة، وهو دور قام بعد الهجرة النبوية حين أذن بالقتال ، وأمر بالاعتماد على الجهاد كاحدى وسائل نشر الاسلام، ولقد بانّت بدايات النتائج السلبية للاعتماد على الجند والقتال، منذ زمن الخليفة الراشدي الثالث، وربما قبل ذلك، وتطورت وتعمقت مع تطور الدولة الاسلامية وتعمد نظامها الامبراطوري، وربما مازالت مستمرة حتى يومنا الحالي *

ولعله ليس من الغريب أن سنجد عند حديثنا عن الهجرة التركمانية مع الاجتياح السلجوقي أن العناصر العسكرية التركية الاصل لدول الخلافة العباسية، وخاصة الدولة الغزنوية هي التي وقفت في وجه هذه الهجرة، وتصدت لهذا الاجتياح، ثم عانت وخيم العواقب من آثاره * وينطبق هذا الى حد ما على الامبراطورية البيزنطية، لأنها عرفت الترك قبل القرن الحادي عشر، وكان لها علاقاتها معهم، فاستخدمت الكثيرين منهم كمرتزقة في جيوشها، لهذا كثيرا ماحدث ، اثناء القرن الحادي عشر وبعده، أن كان بعض قادة القوات البيزنطية مع الكثير من العساكر التي كلفت وعملت في سبيل صد التركمان ومنعهم من التغلغل في اسية الصغرى والحيلولة بينهم وبين احتلال الأناضول كانت من أصل تركي *

لقد أدرك الأوائل هذا الامر وميزوا بين تركمان القرن الحادي عشر وأتراك القرون التي سبقتة، فعندما عبر في عام ١٠٧١ م السلطان السلجوقي الب أرسلان الفرات في طريقه إلى الشام قال له أحد مرافقيه(١): «يا مولانا أحمد الله تعالى على ما أنعم به عليك ، فقال: وما هذه النعمة؟ فقال: هذا النهر لم يقطعه قط تركي إلا مملوك وأنتم اليوم قد قطعتموه ملوك ».

إنه لمن الضروري قبل الشروع في الحديث عن وصول الغز التركمان الى الجزيرة والشام ، ثم عن الاجتياح السلجوقي والدويلات التي قامت بعد هذا الاجتياح، أن نذكر باختصار بعض ما يتعلق بأصل الغز وعاداتهم قبل تبنيهم للاسلام ودخولهم مهاجرين

غزاة لدياره، ثم نبين كيف تم وصولهم الى بغداد وكيف اجتاحتها الشام والجزيرة*

قبل أن يتحول الغز الى الاسلام كانوا أعدى اعداء هذا الدين، ولكن ما أن تبناه حتى أصبحوا حماة المخلصين، لذلك إن من العلامات المميزة لتبني التركمان للاسلام كمال هذا التبني، حيث أسلموا أنفسهم كليا للاسلام، فتنازلوا عن ماضيهم، وعاشوا كليا مع الدين الجديد، ومرد هذا ربما بسبب أنهم أخذوا الاسلام وتبنوه في أرض وأجواء الصراع بين الاسلام والكفر على الحدود الشرقية لبلدان الخلافة العباسية، وربما أيضا بسبب أنهم وجدوا أنفسهم منذ لحظة اعتناقهم للدين الاسلامي ينخرطون بجهاد مرير ضد بني جلدتهم من كفار الترك، وهكذا نسي التركمان ماضيهم وأغرقوا شخصيتهم القومية في الاسلام، الأمر الذي لم يفعله العرب ولا الفرس. فليس لدى التركمان ذكريات «جاهلية تركية تعدل بأي حال أو تشابه بأي محتوى الذكريات المجيدة لوثنيات الجزيرة العربية» أو مفاخر الامجاد التليدة الماضية للفرس وماعدا بعض المقطوعات الشعرية الشعبية، وبعض قصص الانساب ذات مسحة أسطورية. فان حضارة التركمان وثقافتهم وآدابهم وديانتهم قبل الاسلام قد جبتها الاسلام جميعا فذست، وليس من الغلو والمبالغة القول بأنه لم يوجد بين الأمم التي اعتنقت الاسلام من عدل التركمان في ايمانهم المخلص به والذي لم يشبهه ريب، لهذا ليس عجبا كما سنرى أن استطاع التركمان الاسراع في إحياء قوة الاسلام السني، وإقامة سيطرته ونشرها الى أجزاء بعيدة، ولقد صنعوا هذا ونجحوا به في الوقت الذي هدد الاسلام فيه مع الحضارة العربية الاسلامية بالزوال كليا من الشام والجزيرة ومصر، وكان التهديد داخليا نجم عن نشاط بعض الفرق غير السنية، وخارجيا نجم عن مجيء الصليبيين الذين قدموا من اوربا الغربية الكاثوليكية، ومفيد هنا أن ننبه إلى أن النجاحات التي حققها التركمان كانت باهظة التكاليف من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والسياسية وحتى الدينية *

أنهى في عام ٤٦٦هـ - ١٠٧٣ م محمود بن الحسين الكاشغري تأليف أول معجم عربي تركي سماه ديوان لغات الترك، وحينما كان الكاشغري يصنف كتابه هذا كانت الدولة السلجوقية تحكم من قبل السلطان الب أرسلان، ثاني سلاطنة السلاجقة، ومن أكثرهم شهرة وعظمة، وقبل ذلك عندما كان الب أرسلان ماي زال أميراً يافعا صنف له كتاب اسمه ملك نامه تحدث به صاحبه عن أخبار التركمان والسلاجقة وذكر « أنه استفاد أنسابهم وأحسابهم من الأمير اينانج بك ، إذ كان أسن القوم وأعرفهم بأنسابهم وأحسابهم » (٧) .

ويقدم هذا الكتاب بعض المعلومات شبه الاسطورية عن التركمان قبل تبنيهم للإسلام من ذلك ما يتعلق ببعض العقائد والعادات، فمن العقائد على سبيل المثال أن « الترك تزعم أن أرواح الموتى تجتمع في كل سنة ليلا فتدخل الأمصار التي كانت فيها حياة أجرامها وتزور أهاليها، فمن صادف ذلك الدوي ليلا مات » ، « والترك تزعم أن الجمعيين إذا تلاحما، فقبل ذلك الجن الذي يسكن ولاية هذين الجمعيين يتحاربان تعصبا لصاحب ولايتهما من الانس فمن ظفر منهما يكون الظفر لصاحب ولايته غدا، ومن انهزم منهما ليلا تكون الدبرة على الملك الذي يسكن هذا الحزب من الجن في ولايته، وجيوش الترك تتستر في ليلة الميعاد، وتدخل الخيام تدقها عن وقع نبال الجن » (٨) .

ومن بعض الأخبار الأخرى يمكن تلمس آثار عقائد طوطمية وشامانية:

« ذلك أن الترك أخذت أسماء اثني عشر صنفا من الحيوان وسمت به اثنتي عشرة سنة » ، « والترك تزعم في كل سنة منها حكمه ويتفعلون بها، فتقول: إذا كانت سنة (أوديلي أي سنة البقر تكثر فيها الحروب لما أن في البقر نطاحا ، وإذا دخلت سنة الدجاج يكثر فيها الطعام ولكن يقع بين الناس التشويب وإذا دخلت سنة التمساح يكون الأمطار والخصب لأن مسكنه الماء، وإذا دخلت سنة الخنزير يكثر فيها البرد والثلج والفتن » ، « ولقد كانت غالبية

أسماء رجالات التركمان التي وصلتنا هي أسماء حيوانات من جوارح الطير وغيرها من ذلك : جفري أي الصقر، وطفريل وهو طائر أعلى منزلة من الصقر ، وأرسلان أي أسد ٠٠٠٠

ويبدو أن الغز كانوا في القرن العاشر شامانيين وهذا يمكن استخلاصه من كتابات الجغرافيين والرحالة العرب ومن أخبار بعض المؤرخين (٩) ولعل في طبيعة التطور الذي أصاب الصوفية الإسلامية بعد قيام الامبراطورية السلجوقية دليل على أن هذه الشامانية لم تزل باعتراف الغز للإسلام بل جاءت معهم وقامت بتأثيرها ، فمن المعروف أن الشامان هو كاهن أو رجل دين، وهو منجم وطبيب وساحر وله القدرة على القيام ببعض الخوارق ولا تزول هذه القدرة بزوال الحياة بل تنتقل معه إلى القبر، ومعروف أن الصوفي أصبح بعد القرن الحادي عشر ليس فقط رجل دين وإنما يفهم السحر ويمارسه وينبئ بالمستقبل ، ويشفي من الأمراض، وله القدرة على فعل الخوارق - الكرامات - وتستمر هذه القدرة حتى بعيد الوفاة (١٠) .

وأخيرا يمكن من الكاشغري تحصيل بعض المعرفة فيما يتعلق بعادات الصيد عند الترك، وأمور القتال لديهم مع إيلاء استخدام القوس أهمية خاصة ، ثم ما يتعلق بالخمر وطرق تحضيره الخاصة ، كما أن هناك بعض الأساطير ذات الصبغة الاخبارية العالمية مثل تلك التي تتعلق « بالاسكندر ذي القرنين » وغير ذلك (١١) .

إن الموطن الأصلي للشعوب التركية هو سهوب ما وراء النهر التي هي الآن مناطق تابعة إما للاتحاد السوفياتي سابقا أو للصين الشعبية ، ولقد عرف الجغرافيون العرب هذا الموطن باسم تركستان واعتبروا تركستان جزءا من منطقة بلاد ما وراء النهر، وطبعاً عذوا بالنهر نهر جيحون الذي أصبح يعرف منذ العصر المغولي باسم (أموداريا) ، ويعرف الجغرافيين العرب شملت منطقة ما وراء النهر جميع الأصقاع الواقعة بين جيحون والصين ، وقد قطنت من قبل البداية الأتراك والمغول (١٢) .

لقد كان جيحون في كثير من العصور أكثر من حد جغرافي ، فهو بالنسبة للفردوسي صاحب الشاهنامه كان حدا تقليديا متفقاً عليه بين إيران وتوران ، وكما أن هناك تمايزا وعداوة أصيلة بين الماء والنار ، كذلك هي العداوة والتمايز بين الإيرانيين والتورانيين ، وحديث ووقائع هذه العداوة هو الموضوع المسيطر على الشاهنامه (١٣) .

ولكن على الرغم مما قاله الفردوسي ، ومن أن دول إيران قد قامت خلال عصورها التاريخية بالدفاع عن حدودها الشمالية الشرقية ضد غزوات البدو سكان السهوب فإن التمايز بين الأيرانيين والتورانيين ليس ، ولم يكن قط بهذه الحدة نفسها فلقد عرف هذان الشعبان بعضهما بعضا منذ زمن طويل ، وأقاما علاقات متعددة الجوانب ومتدوعة الوجوه بينهما ، وهي بلا ريب لم تتسم دائما بالصراع والروح القتالية ، ولقد كان هناك دائما ترك يقطنون إيران حيث إما هاجروا إليها أو جلبوا أو خلفوا بعد كل غزوة قام بها بداية السهوب .

لقد ذكرنا أن معظم سكان السهوب الواقعة في أعالي جيحون وورائه كانوا من أصل تركي أو مغولي ، ولقد قامت في بلاد ماوراء النهر مدن كثيرة ذات نظام يشبه أنظمة دول المدينة ، كما قامت فيه عدة امبراطوريات ، وكان من السهل دائما على شعوب ماوراء النهر التسلسل والتغلغل في السهول الإيرانية أو الهندية أو الهجرة إليها ، ولقد كان في أوائل العصور الإسلامية هناك عناصر تركية تسكن ما نعتبره الآن شرقي أفغانستان مع قبائل غزية وخليجية تجوب الهضبة الواقعة بين كابل وغزني ، وهكذا كان سكان التخوم الشرقية لخراسان دائما ممزوجين بالأتراك ، ونجد صدى هذا عند الجاحظ في قوله :

« إن الخراساني والتركي أخوان ، وإن الحيز واحد ، وإن حكم ذلك الشرق ، والقضية على ذلك الصقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير

متفاوت . وإن الأعراق في الأصل إن لم تكن راسخة فقد كانت متنسجة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لم تكن متساوية فإنها متناسبة ، وكلهم خراساني في الجملة ، وإن تميزوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعض الوجوه ... وإن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلي والزنجي والحبشي ، فضلا عما هو أبعد جوهرًا وأشد خلافاً ، بل كاختلاف ما بين المكي والمدني والبدوي والحضري والسهلي والجبلي ، وكالاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ... (١٤) .

ولقد كان لمراكز الحضارة والحياة المستقرة في بلاد ماوراء النهر صلات وثيقة مع البداية الأتراك سكان السهوب ليس فقط جغرافيا وإنما اقتصاديا وحضاريا وسياسيا ، وعند قيام الفتوح الإسلامي كانت بلاد ماوراء النهر ممزقة سياسيا ، وكانت المدن ومراكز الاستقرار فيها تحكم من قبل الدهاقين أو التجار ، ولقد قاومت هذه العناصر الحاكمة دائما - بسبب مصالحها - أي تدخل خارجي مباشر وأية محاولة لتبديل الأوضاع السائدة ، واهتمت بتأمين سلامة طرق القوافل واستمرار الحركة التجارية وتدفق البضائع والأرباح ، وحققت هذا بإقامة علاقات طيبة مع سكان السهوب البداية وعندما كان يقوم أي تهديد أو عدوان خارجي ، أو عندما كانت تحدث أية مشاكل داخلية كان هؤلاء الحكام من التجار والدهاقين يستصرخون البداية الأتراك ويعتمدون على مساعدتهم ، وبإمكاننا أن نسوق مثالا يبرهن على هذا كله ما ذكره النرشخي صاحب تاريخ بخارى ، أثناء تكلمه عن قيام هذه المدينة وسكنائها وتطورها حيث يقول : « واجتمع الناس من كل صوب ، وازدهر ذلك المكان وأقبل الناس من ناحية التركستان ، وكان بهذه الولاية كثير من الماء والشجر والصيد ، فأعجب هؤلاء الناس بها وأقاموا فيها ، وكانوا أول الأمر يعيشون ويقيمون في الخيام والسرادات فتجمعوا وتكاثروا على مر العصور وبنوا العمائر واختاروا من بينهم واحدا

اسمه « أبروي » نصبوه أميرا عليهم ... وبعد مدة كبر « أبروي » وسلك طريق الظلم في هذه الولاية ، فلم يستطع الناس الصبر طويلا ، وفر الدهاقين والأغنياء منها الى التركستان - أي الشرق - حيث بنوا شبه مدينة سموها « حموكت » لأن دهبانا عظيما اسمه « حموك » كان رئيس تلك الطائفة التي ذهبت الى هناك ... ثم أرسل الناس الذين بقوا في بخارى رسولا الى عظمائهم طالبين النجدة من جور « أبروي » فتوجه هؤلاء العظماء والفلاحون (الدهاقين) الى ملك الترك ... واستنجدوا به فأرسل ... ابنه ... مع جيش عظيم ، فلما وصل الى بخارى قبض على « أبروي » ... وقيدته ثم أمر فملأوا جوالا بالزنابير وأدخلوا فيه « أبروي » حتى مات ... وأوفد رسولا الى « حموكت » لاعادة هؤلاء الذين هربوا من بخارى مع ذسائهم وأطفالهم ، ثم صدر فرمان باعتبار كل عائد من حموكت من جملة الخواص ، لأن كل من كان غنيا ودهبانا كبيرا كان قد فر ، وبقي المعدمون والفقراء » (١٥) .

لقد كان هناك علاقات تجارية كبيرة بين العالم الاسلامي والترك قبل تحولهم الى الاسلام وبعده ، ويعود الى التجار فضل نقل بعض صور الحضارة الاسلامية مع الدين الاسلامي الى اوساط البداة سكان السهوب * إنما - كما يبدو - يعود فضل نشر الاسلام بين سكان السهوب الى جهود عدد من رجال الدين من المتصوفة بشكل خاص وليس الى جهود رسمية موجهة (١٦) .

ونتيجة لوجود العلاقات الحربية والسلمية والاقتصادية مع الترك فقد توفر لدى المسلمين خاصة منذ القرن العاشر بعض المعلومات عن قبائل وجماعات الترك الذين كانوا عبارة عن « عدة أجناس وعدة ممالك ... ولكل جذس مملكة منفردة ، ويحارب بعضهم بعضا ، وليس لها منازل ولا حصون وإنما ينزلون القباب التركية المضلعة ، ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر وأغشيتها لبود ، وهم أحذق قوم بعمل اللبود ، لأنها لباسهم ، وليس بتركستان زرع إلا الدخن ، وإنما غذاؤهم البان الحجور ، ويأكلون لحومهم وأكثر

ملياً كلون لحوم الصيد، والحديد عندهم قليل، وهم يعملون سهامهم من عظام» (١٧). وأهم المجموعات التركية التي عرفها العرب دعوها باسم التغز غز أو الأغز وبشكل عام باسم الغز، فهم عرب الترك... وهم رماة الحديق (١٨). ويبدو أن الغز كانوا في القرن العاشر متحدين سياسياً لذلك كانوا أقل شأنًا من الناحية السياسية من غيرهم من المجموعات التركية •



انه لضروري قبل الاسترسال في الحديث عن الغز أن نبين بشكل موجز الوضع السياسي في منطقة خراسان وبلاد ماوراء النهر في القرن العاشر وبدايات القرن الحادي عشر •

عندما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد قامت في كثير من المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة ، وإنما كلها دان اسمياً بالطاعة لخليفة بغداد العباسي، وأهم الدول التي قامت في المشرق في خراسان وبلاد ماوراء النهر هي : الدولة الطاهرية (٢٠٥-٥٩ هـ / ٨٢١-٧٣ م)؛ والدولة الصفارية (حوالي ٢٥٣ - ٢٩٨ هـ / ٨٦٧ - ٩١١ م)؛ والدولة السامانية (٢٠٤ - ٣٩٥ هـ / ٨١٩ - ١٠٠٥ م)؛ والدولة الخوارزمية (٣٠٥ - ٤٠٧ هـ / ٩٩٥ - ١٠١٧ م)؛ والدولة القراخانية (٣٨٢ - ٦٠٧ هـ / ٩٩٢ - ١٢١١ م)؛ والدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٨٢ هـ / ٩٧٧ - ١١٨٦ م) .

والذي يعني هنا مباشرة هو الحديث عن الدولة السامانية ثم الغزنوية والقراخانية، دون سواهم • لقد كان سامان خداه جد الأسرة السامانية دهقاناً من بلخ، اعتنق الإسلام في مرو- بعد أن فر إليها- على يد أسد بن عبد الله القسري والي خراسان المتوفى في بلخ سنة ١٢٠ هـ - ٧٣٧ م، وقد أكرم أسد سامان خداه « وخمائه وقهر

اعداءه واعاد إليه بلخ « ولما رزق سامان خداه بغلام اسماء اسدا لمحبته إياه » ولقد خدم اولاد اسد الأربعة الخليفة المأمون العباسي الذي كافأهم بأن عين نوحا واليا على سمرقند وأحمد على فرغانة ويحيى على الشاش والياس على هراة، وبهذا وطد السامانيون أنفسهم وحصلوا على مكانة طيبة في منطقة ماوراء النهر، وفي سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٥ م قام الخليفة المعتمد بتعيين نصر بن أحمد واليا على كل بلاد ماوراء النهر، وبهذا التعيين قامت الدولة السامانية فعلا، وغدت منطقة ماوراء النهر الغنية قلبا لها، ولقد أخذ السامانيون على عاتقهم أمر حماية الأراضي الاسلامية من غزوات بداء السهوب الاتراك، وتأمين استمرار التجارة وتدفق البضائع، ونجحوا في تحقيق ذلك بواسطة الدفاع : باقامة الرباطات في الثغور، وبواسطة الهجوم : بالقيام بحملات على مناطق الاتراك داخل السهوب ، وبذلك أضعفوا تجمعات الاتراك ومدوا نفوذهم وهيبتهم الى داخل السهوب ، وهكذا أمن السامانيون الاستقرار السياسي والاقتصادي لبلادهم مما مكنهم بعد ذلك من الالتفات نحو خراسان، ومنذ القرن التاسع تدفق من اراضي السامانيين سيل من العبيد الاتراك على بغداد وغيرها من مراكز الاسلام وعواصم دياره ، ولقد استخدم غالبية هؤلاء العبيد في جيوش خلفاء بغداد وحكام الدويلات.

ولقد كانت مدينة بخارى مركز الدولة السامانية، وفي بلاط السامانيين في بخارى عاشت الثقافة العربية الاسلامية مزدهرة ، ولكن الأهم من هذا هو أن هذا البلاط شهد بعث اللغة الفارسية مع الثقافة الايرانية واسهم في نموها ، ففي زمن السامانيين بدأ الفردوسي بنظم الشاهنامه ملحمة فارس القومية .

في عام ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م ربح إسماعيل بن أحمد ثقة سلطات بغداد والخليفة وذلك بعد أن هزم عمرو بن الليث الصفار، لذلك عين واليا على خراسان بالإضافة الى بلاد ماوراء النهر، وبهذا غدا السامانيون قوة هائلة تحكم أراضي شاسعة تمتد من جهة الى الأراضي والممتلكات البويهية في العراق ومن جهة أخرى الى أطراف

افغانستان المتصلة بحدود الهند، ولما كان السامانيون سنة وكان البويهيون شيعة، وبسبب هذا الخلاف في العقيدة مع تضارب المصالح والمطامح بالتوسع فقد كان لابد من أن تصطدم قوى الطرفين ، وهذا أمر لايعنينا الحديث الآن عنه هنا .

وفي منتصف القرن العاشر بدأت علامات الضعف والتفتت تظهر على الأمبراطورية السامانية . ولقد بدا هذا في عدد من ثورات وانقلابات البلاط التي قادها بعض القادة العسكريين . لهذا لم يكن صعبا أن انفصلت خراسان عن سلطنة بخارى ، ثم لم يكن صعبا على الغزنويين والقراخانيين الاجهاز على الدولة السامانية ووراثة: القراخانيون فيما وراء النهر ، والغزنويون في المناطق الأخرى (١١٩) .



لقد احتلت بخارى عاصمة الدولة السامانية وطرد منها آخر امير ساماني من قبل بغراخان هارون (أو حسن) الذي كان يعرف بلقب إيلك خان، ولقد عرفت أسرة هارون باسم الإيلك خانية ، ولكن بما أن الكثير من أفراد هذه الأسرة استعملوا كلمة قره – التي تعني أسود أو شديد القوة – رديفا لأسمائهم فقد أطلق المستشرقون اسم « القراخانية » على هذه الأسرة ، وهكذا فإن اسم « القراخانية » إذن هو اسم محدث بديل للإيلك خانية .

لقد ادعى أفراد هذه الأسرة انهم من نسل أفراسياب البطل التركي الاسطوري للشاهنامه، ولكن يبدو أنهم كانوا في الواقع عبارة عن البيت الحاكم لاحدى المجموعات التركية المعروفة باسم القرلق، وهي مجموعة قد قامت بدور هام ومؤثر في التاريخ القديم للترك سكان السهوب، ولقد اعتنق القراخانية الاسلام كما يبدو في منتصف القرن العاشر، وتبنوا أسماء – وحتى القباب – إسلامية ، ويظهر أن بغراخان جد محتل بخارى هو أول من اعتنق الاسلام وتسمى باسم عبد الكريم، ولقد أقام القراخانية بعد قضائهم على

السلطة السامانية امبراطورية واسعة سيطرت على اجزاء واسعة من بلاد ماوراء النهر واقامت هذه الدولة علاقات خاصة بالامبراطورية الغزنوية ولقد شكل نهر جيحون الحد الفاصل بين هاتين الامبراطوريتين *

ولقد كانت الامبراطورية القراخانية عبارة عن اتحاد قبلي ولم تكن قط دولة مركزية متحدة ، فعلى الرغم من انه كان على راسها حاكم حمل لقب خان فلقد وجد احيانا عدد من افراد الاسرة الحاكمة ادعوا لانفسهم اللقب نفسه او القابا من الدرجة الثانية، وبسبب انه وجد في الوقت نفسه أكثر من حاكم من الاسرة نفسها حمل الاسم نفسه واللقب ، ثم بسبب قيام الخلافات والحروب الداخلية بين امراء الامبراطورية فإنه من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، الوصول الى صورة واضحة يقينية مفصلة حول سلسلة حكام القراخانية (٢٠)



لقد ذكرنا بأن الدولة الغزنوية كانت شريكة الدولة القراخانية في الاستيلاء على ميراث الدولة السامانية، وتنسب هذه الدولة الى مدينة غزنة- احدى مدن افغانستان الحالية وتقع الى جنوب غربي كابل-، ومؤسس هذه الدولة هو سبكتكين الذي كان عبدا تركيا من ضباط الجيش الساماني ، ولقد كان استلامه لحكم غزنة في سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م *

في الحقيقة إن قصة قيام الدولة الغزنوية تبدأ قبل هذا التاريخ بعدة سنوات ، ففي عام ٣٥٠ / ٩٦١ توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح ، « ولما دفنوه ثار العسكر وتمردوا وطمع كل شخص في الملك وظهرت الفتن » (٢١) « وكان الاسفهلار (اي القائد) البتكين في نيسابور حين بلغه خبر وفاة الأمير ٠٠٠٠٠ فقصد الحضرة للقبض على الأمير « الساماني الجديد ومن ثم إحلال نفسه محل الأمير عبد الملك على عرش السامانيين ، وأخفق البتكين، وأجبر على الفرار فذهب الى غزنة واستقر بها ، وكان بصحبته غلمانه وقواته الخاصة ، وبعد فترة تصالح البتكين مع الأمير

الساماني الجديد لبخارى وهو منصور بن نصر ، ونظرا لقرب الاراضي الافغانستانية من اراضي الهند غير المسلمة ، فقد شغل ضباط البتكين وجنده انفسهم بالغارة على هذه الاراضي، وكان القصد الاساسي من هذه الغارات هو كسب المغانم ولم يكن قط هدفها نشر الاسلام ، مع ان الكثيرين ممن كان يقوم بها لقب نفسه بلقب غازي ، ولقد ظل البتكين وضباطه تابعين اسميا للدولة السامانية ، وبعد وفاته خلفه احد ضباطه واسمه سبكتكين .

وبعدما استلم سبكتكين زعامة الجيش لم تنقطع اعمال الغارة على السهول الهندية ، واستمر بالاعتراف بالسيادة السامانية ، ولكن عقب وفاة سبكتكين في سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، وعندما أصبح ابنه محمودا صاحب السلطة في غزنة ، غدت الدولة الغزنوية دولة مستقلة عن السامانية ، ونظم محمود اعمال الغارة على الاراضي الهندية وحولها إلى أعمال توسع وفتوح تحت عنوان الجهاد ، وبذلك نال محمود لقب غازي عن جدارة ، وأصبح من أكثر شخصيات عصره شهرة ، فلقبته الخلافة العباسية بلقب يمين الدولة .

ولقد استطاع محمود توسيع رقعة دولته ، فأوصل حدودها الشمالية الى جيحون وبعد ذلك تجاوزه فقام بضم واحة خوارزم الى امبراطوريته وحقق الاتفاق مع الدولة القراخانية ، ثم التفت نحو خراسان فأخذها ، وبات يتطلع نحو بغداد ونحو القضاء على الاسرة البويهية الشيعية فيها ، وأخذ مكانها في التحكم بخلفاء بغداد ، ذلك لأن محمود كان سنيا شافعيًا متعصبا .

وعندما مات محمود في سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م كانت امبراطوريته من أضخم امبراطوريات عصره ومن أعظم مآقام في التاريخ الاسلامي ، وكان جيشه وقواته الحربية على غاية من القوة والعظمة وجودة التسليح ، وفي زمن محمود وبسبب طبعه وشغفه بالابنية تطورت التقاليد الفارسية الاوتوقراطية في الحكم مع الثقافة الايرانية .

ولقد واجه محمود في أواخر حياته بداية مشكلة التركمان بقيادة السلاجقة فاستطاع أن يتدارك تفجيرها ، وتمكن من أن يؤجل هذا التفجير ، وذلك بما أوتيه من حزم وبصيرة ، ولكن لما كان ابنه وخليفته مسعود لم يكن يتمتع بصفات والده ، فقد أخفق في حل مشكلة التركمان عندما واجهها ، ولقد استطاع التركمان كما سنرى أن يقهروا مسعودا ويستخلصوا منه خراسان ، ولكن هزيمة الغزنويين لم تعن أبدا نهاية الدولة الغزنوية ، بل استمرت هذه الدولة تحكم شرقي أفغانستان وشمالى الهند واستمر هذا الحال حتى قيام الدولة الغورية التي استطاعت تصفية الغزنويين والقضاء على بولتهم في سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ٢٢ .

لقد احتاجت الامبراطورية الضخمة التي أسسها محمود مع قواته العسكرية الكبيرة وبلاطه الضخم الى تكاليف باهظة ومبالغ من المال هائلة ، وما كانت المبالغ التي كانت تحصل من الغارات على الهند لتكفي سد أكثر من جزء من النفقات ، لهذا فرض الغزنويون ضرائب ثقيلة على خراسان ، وحصلوها دون تهاون وبأعنف الوسائل ، ولقد أفقرت هذه السياسة المالية خراسان وجعلت الحكم الغزنوي غير محبوب على كافة المستويات ، كما ان هذه السياسة سببت تدهورا في اقتصاد خراسان وفقرها عاما ، مما أدى الى هجرة بعض التجار والدهاقين من خراسان الى بلاد ماوراء النهر حيث دولة القراخانية ولاشك أن هذه الحالة كانت من اسباب نجاح السلاجقة - فيما بعد - في انتزاع خراسان لأنفسهم ، ورغم سوء الاحوال الاقتصادية وثقل الضرائب فقد كانت غالبية عامة الخراسانيين ساكتة عن الحكم الغزنوي أو راضية عنه ، لقوة هذا الحكم ولاستطاعته تأمين الحماية الخارجية مع الأمن الداخلي ، ولكن ما ان مات محمود حتى بدا بأن خليفته مسعود لا يستطيع ، ولن يستطيع أن يؤمن هذه الأمور ، لذلك تطورت الأمور بسرعة ولغير صالح الغزنويين *



لم يكن جديدا بالنسبة لخراسان أن تتعرض لهجرات وغارات البدو الترك من سكان السهوب، والذي كان يحدث عادة إما أن تصد الغارات، أو أن المغيرين يحدث أن تمتصهم بعد فترة الحضارة والحياة في خراسان، لذلك لم يول الغزنويون في البداية أهمية كبيرة لبعض جموع الغز عندما أخذوا يعبرون نهر جيحون ويدخلون خراسان مهاجرين أو مغيرين (٢٣). علما بأن نشاط الغز على أطراف جيحون أقدم من الدولة الغزنوية.

يبدو أن الغزوا كانوا حتى القرن الثامن – عندما أصبح لهم نوع من الزعامة الخاصة – عبارة عن قبائل تابعة للامبراطورية الخزرية وفي نهاية القرن الثامن قام هؤلاء الغز، وقد أصبح لهم زعامتهم الخاصة، فتحركوا غربا عبر سهوب سيبيريا نحو بحر الأرال وإلى الفولغا وجنوبي روسيا، وأغاروا في عهد الخليفة المأمون على أشروسنة، وهكذا وصلت أخبارهم إلى أسماع العلماء والكتاب المسلمين فأخذوا بالاهتمام بذكرهم، ومنذ ذلك الوقت أخذ الغز يتحركون إلى قرب الأراضي الإسلامية وباتجاهها، وعندما قام الرحالة العربي ابن فضلان في ٣٠٩ – ٣١٠ هـ ٩٢١ – ٩٢٢ م برحلته نحو الفولغا قابل ورأى جماعات من الغز، ولقد وصف ابن فضلان حالة الفقر والتعاسة التي كان يعاني منها هؤلاء القوم كما ذكر بأن زعيمهم كان يحمل لقب يبغو في حين أن القائد العسكري عندهم كان يعرف بسباشي – أي صاحب الجيش – وكان هناك قائد أدنى مرتبة منه دعي باسم ينال (٢٤).

إن حمل زعيم الغز للقب يبغو له دلالاته لأن يبغو أو « يغفو لقب من كان بعد الخاقان بدرجتين » ، و« الخان هو الملك الأعظم منهم – الترك ... وهو الخاقان » (٢٥).

وهذا يعني ليس فقط أن الغز لم يتطلعو ا أنذاك نحو تشكيل امبراطورية، بل لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة من التطور

السياسي والحضاري تساعد على ذلك. ولقد كانوا في القرن الثامن مؤلفين من تسع قبائل (٢٦) وكان لكل قبيلة أمير أو مقدم – بك – دعاه المسلمون « دهقان » (٢٧) ، ويصف صاحب كتاب حدود العالم وهو جغرافي فارسي مجهول من القرن العاشر ، بلاد الغز بقوله : « يقع الى الشرق منها بلاد الصين والى جنوبها تقع أجزاء من التبت ... وهذه البلاد هي أوسع دار في موطن الترك ، ولقد كان الغز أكثر الأقوام التركية عدداً ، ومنهم كان في الأيام الخالية ملوك جميع تركستان ، إنهم رجال حرب ، في حوزتهم الكثير من السلاح ، وهم يرحلون في الشتاء والصيف من مكان الى آخر طلباً للمرعى وحسب الطقس الملائم » (٢٨).

ودعا العرب الغز أحياناً باسم التركمان ، ونلاحظ في البداية – في القرن العاشر – تمييزاً بين الأسمين (٢٩) ، ولكن منذ أواخر هذا القرن أخذ بالاكثار من استعمال كلمة تركمان كبديل أو مرادف لكلمة غز ، ويقول محمود كاشغري : « أغز قبيلة من الترك وهم التركمانية » ويقول أيضاً : « تركمان هم الغزية » ويبدو أن اسم تركمان كان اسماً سياسياً شمل عدداً من القبائل التركية ، لذلك كان – كما يبدو – بين التركمان عناصر غير غزية ، ويقول الكاشغري متحدثاً عن القبيلة التي جاء منها القراخانية : « قرلق جيل من الترك أهل الوبر سوى الغزية وهم التركمانية أيضاً » (٣٠).

ويذكر الكاشغري بأن « التركمانية هم اثنان وعشرون بطناً لكل بطن منها علامة وسمة على دوابهم يعرف بعضهم بعضها بها ، وعندما عدد أسماء هذه البطون بين بأن قنق هي القبيلة المتقدمة بين كل القبائل » ومنها السلاطين « السلاجقة الذين يبدو أن أسرهم لم تكن في الأصل أكبر أسر القنق أو أكثرها قوة وشهرة ولكنها غدت كذلك بفضل بعض الشخصيات التي ظهرت منها (٣١) عندما جاءت الى أراضي الدولة السامانية.

إن مصدرنا الأساسي بالنسبة لأخبار وأصل الأسرة السلجوقية –

كما ذكرنا من قبل - هو كتاب ملك نامه ، وعلى ما جاء فيه اعتمد المؤرخون العرب مثل ابن الاثير في كتابه الكامل في التاريخ والحسن في كتابه اخبار الدولة السلجوقية - او زبدة التواريخ - وابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب وغيرهم ، ولعل ما نقله ابن العديم اوضح النقول واكثرها امانة ، ويقول ابن العديم : « ذكر صاحب كتاب ملك نامه الذي صنفه لالب أرسلان محمد بن داود انه استفاد انسابهم واحسابهم من الامير اينانج بك اذ كان اسن القوم واعرفهم بانسابهم واحسابهم ، قال كان الامير سلجوق بن تقاق من اعيان ترك خزر ، وكان تقاق يلقب بتمر بالغ اي شديد القوس .

قال اينانج بك : « لما مر زمان على الامير تقاق ولد له مولود مبارك سماه سلجوقا ، وكان يلقبه بسباشي يعني مقدم الجيش ، وكان لسلجوق اربعة اولاد : ميكائيل وموسى وارسلان الملقب ببيغو اكلان وآخر توفي في زمان شبابه ، وكان للامير ميكائيل بن سلجوق ولدان طغرل بك وداود جفري بك » (٣٢) .

لقد قدم ابن العديم نصه هذا عرضا اثناء ترجمته للسلطان الب أرسلان ، لذلك جاء قصيرا لايفي بالغرض ، وما اورده ابن الاثير في الكامل اوفى بكثير مما جاء عند ابن العديم ، لكن ابن الاثير على عكس ابن العديم لا يصرح باسم مصدره ولعله ذقل بتصريف عن ملك نامه وأضاف الى معلومات هذا الكتاب معلومات من مصادر أخرى ، يقول ابن الاثير : « فأما تقاق فمعناه القوس الحديد ، وكان شهما ذا رأي وتدبير وكان مقدم الأتراك الغز ومرجعهم إليه لا يخالفون له قولا ولا يتعدون أمرا ، فاتفق يوما من الأيام أن ملك الترك الذي يقال له يبغيو جمع عساكره وأراد المسير إلى بلاد الاسلام فنهأ تقاق عن ذلك وطال الخطاب بينهما فيه ، فأغلظ له ملك الترك الكلام فلطمه تقاق فشج رأسه فأحاط به خدم ملك الترك ، وأرادوا أخذه ، فماتعهم وقتلهم واجتمع معه من أصحابه من منعه فتفرقوا عنه » .

وأقام دقاق عنده وولد له سلجوق ، فإنه لما كبر ظهرت عليه
أمارات النجابة . ومخايل التقدم ، فقرّبه ملك الترك وقدمه ولقبه
سبأشي ، ومعناه قائد الجيش ، وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق
لما ترى من تقدمه وطاعة الناس له والانقياد اليه ، واغرته بقتله
وبالغت في ذلك ، وسمع سلجوق الخبر ففسار بجماعته كلهم ومن
يطيعه من دار الحرب الى ديار الاسلام وسعد بالايمان ومجاورة
المسلمين ، وازداد حاله علوا وامرة وطاعة وأقام بنواحي جند ،
وأدام غزو كفار الترك » ، ولقد حدث هذا ربما في حوالي سنة
٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م وهذا ما يمكن استنتاجه من بقية سياق الخبر
لأنه في هذه السنة كان أرسلان بن سلجوق يساعد السامانيين ضد
البغراخان هارون الذي أخذ في هذه السنة بخارى فأزال الحكم
الساماني وأحل محله الدولة القراخانية ، هذا ويقدم الراوندي
سببا أكثر اقناعا لتحرك السلاجقة نحو الأراضي الإسلامية فيقول :
« وقد اضطر هؤلاء السلاجقة العظماء بسبب ازدياد ديارهم وضيق
مراعيهم أن ينزحوا من تركستان الى ما وراء النهر » . وواضح أن
خبر سبب الخلاف بين دقاق والبيغو ثم سبب نزوح سلجوق قد
لا يعدوان أكثر من اختراع قد صنع بعد قيام الدولة السلجوقية
لتحسين سمعة السلاجقة واعطائها نوعا من أنواع الهالة الإسلامية
الروحانية ، ويستنتج مما نقله ابن العديم عن ملك نامة قول صاحبها
« وأرسلان الملقب ببيغو » أن السلاجقة مع أتباعهم عندما انفصلوا
عن الغزية ادعوا لأنفسهم نفس الألقاب التي كانت لدى أمراء الغز
الذين كانوا يدينون بالطاعة لهم .

ونتابع مع ابن الاثير رواية قصته : « وكان لسلجوق من الأولاد
أرسلان وميكايل وموسى وتوفي سلجوق بجند وكان عمره مائة وسبع
سنتين ، ودفن هناك ، وبقي أولاده ، فغزا ميكايل الكفار الأتراك ،
فقاتل وياشر القتال بنفسه فاستشهد في سبيل الله ، وخلف من
الأولاد بيغو وطغرلبك محمد وجفري بك داود ، فأطاعتهم عشائرهم

ووقفوا عند أمرهم ونهيههم، ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها ، فخافهم أمير بخارى فأساء جوارهم وأراد إهلاكهم والايقاع بهم ، فالتجأوا الى بغراخان ملك تركستان وأقاموا في بلاده واحتموا به وامتنعوا ، واستقر الأمر بين طغرلبك وأخيه داود أنهما لايجتمعان عند بغراخان ، إنما يحضره أحدهما ويقيم الآخر في أهله خوفا من مكر يمكره بهم ، فبقوا كذلك ، ثم ان بغراخان اجتهد في اجتماعهما عنده فلم يفعل ، فقبض على طغرلبك وأسره ، فنار داود في عشايره فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان وكثر القتل فيهم وخلص أخاه من الأسر وانصرفوا الى جند وهي قريب بخارى فأقاموا هناك».



إن عندما أصبح السلاجقة مع أتباعهم في منطقة بخارى تورطوا في الأعمال والاضطرابات التي أدت إلى تصفية الدولة السامانية ، كما وجدوا أنفسهم طرفاً في النزاعات بين أمراء القراخانية ، كل هذا يعني أنهم كانوا دائماً جاهزين لتقديم خدماتهم لمن يطلبها ويدفع أكثر ، ومع ازدياد الفوضى التي رافقت زوال الدولة السامانية كان هناك دائماً حاجة ماسة إلى المقاتلين ، وكان هناك دائماً من يدفع بسخاء سواء في مناطق ما وراء النهر أو الجهة الأخرى حيث محمود الغزنوي ومشاريعه التوسعية التي كانت تحتاج إلى أعداد كبيرة من المقاتلين ، ونمضي مع ابن الأثير في رواية قصته : « فلما انقرضت دولة السامانية وملك إليك الخان بخارى أعظم محل أرسلان بن سلجوق عم داود وطرغربك بما وراء النهر ، وكان علي تكين – من أمراء القراخانية – في حبس أرسلان خان وهو إليك خان ، فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتدعا واستفحل أمرهما وقصدهما إليك أخو أرسلان خان وقتلتهما فهزماه وبقيا ببخارى ، وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين فيما يجاوره في بلاده ويقطع الطريق على رسله المترددين إلى ملك الترك ، فلما عبر محمود جيحون ... هرب علي تكين من بخارى وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المفازة والرمل فاحتّموا من محمود ، فرأى محمود قوة السلجوقية وما لهم من الشوكة وكثرة العدد فكاتب أرسلان بن سلجوق واستماله ورغبة ، فورد إليه فقبض يمين الدولة عليه في الحال ولم يمهله وسجنه في قلعة ، ونهب خراكهاته – خيمه – واستشار فيما يفعل بأهله وعشيرته ، فأشار أرسلان الجانب ، وهو من أكبر خواص محمود ، بأن يقطع أباهمهم ، لئلا يرموا بالنشاب ، أو يفرقوا في جيحون ، فقال له : ما أنت إلا قاسي القلب ، ثم أمر بهم فعبروا نهر جيحون ففرقهم في نواحي خراسان ، ووضع عليهم الخراج ، فجار العمال عليهم وامتدت الأيدي إلى أموالهم وأولادهم » (٣٣) .

ويقدم لنا الراوندي صاحب راحة الصدور آية السرور رواية

أخرى حكى فيها كيف تم الاتصال بين محمود والسلالة وقدم بعض التفاصيل الإضافية الجديرة بالاعتبار ، ولكنه اعتبر ينبغي أن يرافق بالحذر ، يقول الراوندي : « فلما أقبل إسرائيل بالغ محمود في إكرامه وأجلسه على العرش إلى جواره وعني بتقريبه والترحيب به ، والاهتمام بأمره ، ثم قال له في أثناء الحديث : عندما نذهب إلى بلاد الهند لغزو الكفار يلزمنا جيش جرار نسير به إلى هذه الديار ، وينتج عن ذلك أن بلاد خراسان تبقى معطلة مهملة ، ولي رغبة في أن أعقد معكم ميثاقا وتحالفا على أنه إذا خرج علي عدو أو ثار ثائر واحتجت إلى مدد استعنت بخيلكم وفرسانكم » وأجاب إسرائيل قائلا : « لن يكون منا تقصير عن خدمتكم ، وقال محمود : وإذا عرضت لنا حاجة فبأي إمارة يصلنا المدد ، وما مقدار عده ؟ . وكان إسرائيل يعلق قوسه في ساعده ، ويتلى من رباط رداءه سهمان ، فأخذ سهمًا منهما وأعطاه لمحمود وقال له : أرسل هذا السهم إلى جنودنا إذا عرضت لك حاجة اليك منا مائة ألف فارس ، قال محمود : وإذا لم يكف هذا العدد فماذا نفعل ؟ فتناول إسرائيل السهم الآخر وقدمه إلى محمود وقال : أرسل هذا السهم إلى جبل بلخان ياتك على الفور خمسون ألف فارس غيرهم . قال محمود : فإذا لم يكف هذا العدد أيضا فماذا نصنع ؟ عند ذلك ناوله إسرائيل قوسه وقال : أرسل هذا إلى إمارة تركستان ياتك إذا شئت مائتا ألف فارس ، وتدبر محمود هذا الحديث وشغل باله فاحتجز إسرائيل عنده ... وطلب محمود الطعام ، فلما تهيأ المجلس طعما وشربا وظلا يشربان ثلاثة أيام بلياليها ، وخلع محمود على إسرائيل وفرسانه أطيب الخلع والهدايا ، ثم أمر كل واحد من أمراء جيشه أن يستضيف في معسكره واحدا من أمراء فرسان إسرائيل وأن يسقيه شرابا قويا ، حتى إذا لعبت الخمر برؤوس الضيوف قيدهم بالقيود الثقيلة وفعل محمود بإسرائيل مثل ذلك ، وحمله في أثناء الليل إلى بلاد الهند وحبسها في قلعة كالانجر .. فأما الرؤساء الآخرون من جيش إسرائيل ممن قبضوا عليهم فإن محمود قد أرسلهم إلى القلاع الأخرى وأمنهم على حياتهم ...

وبقي اسرا ئيل اسيرا في قلعة كالنجر مدة سبع سنوات ، ثم جاء اثنان من التركمان من فرسانه واشتغلا بالسقاية وحمل الماء الى هذه القلعة ، حتى اذا حانت لهما فرصة في احد الايام قابلاه ودبرا معه حيلة لكي يقوموا بخطفه واخراجه من القلعة في اثناء الليل ، ولكن الطريق كانت ملاءى بالغابات والاحراش ، فلما فعلا ذلك ضلوا جميعا الطريق .. فلما كان اليوم التالي وتنبه حارس القلعة للأمر سار في اثره ، وتمكن من القبض عليه ، وكان اسرا ئيل عندما احس بأن الجيش يقترب منه قد قال للتركمانيين : اقطعوا الأمل في تخليصى واذهبوا الى اخوتي وقولا لهم : اجتهدوا في طلب الملك ولا تيأسوا ولو اصبتم بالهزيمة عشرات المرات ، وحذار أن تتراجعوا فإن السلطان محمود ما هو الا ابن عبد لانسب له ، وهو رجل غدار لن يبقى الملك له وستدول دولته على ايديكم... وكان قتلمش بن اسرا ئيل يطوف متخفيا حوالي القلعة ، فلما بلغه الخبر بوفاة أبيه خرج .. حتى أتى الى بخارى وحكى لأعمامه سائر الأحوال ، وكان أعمامه يتأهبون لطلب الملك ويتحينون الفرصة للانتقام ... ثم أرسلوا الى السلطان محمود رسولا زوده برسالة فحواها: إن مقامنا أصبح يضيق بنا ،

وإن مراعيينا أصبحت لاتفي بحاجة مواشينا ، فأنن لنا أن نعبّر النهر وأن نجعل مقامنا بين نسا وباورد ، ولكن أرسلان الجانب حاكم طوس... قال للسلطان : ليس من الصواب أن تسمح لهم بالعبور الى

خراسان ، فإنهم فرسان كثيرون ويملكون العدة والعتاد ، واني أخشى أن يكونوا سببا في متاعب لايمكن تلافيها وتداركها .. ولكن السلطان محمود لم يلتفت الى قوله وقال : انني لاهتم بأمرهم ولاخشية لي

من أمثالهم ثم سمح لهم فعبروا النهر « (٢٤) . إن هذه التفاصيل التي قدمها كل من ابن الأثير والراوندي لايمكن قبولها لغلبة الخيال والمبالغة عليها ، على أنه رغم ذلك فانها تدل على قيام علاقات متقلبة

بين محمود والسلاجقة وعلى ازدياد اضطراب الأحوال في بلاد ما وراء النهر مما اضطر قسما من التركمان الى عبور النهر الى بلاد خراسان .

ويبدو أن حادث العبور هذا قد وقع حوالي سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ، وسواء أكان عبور التركمان قد تم بالاكراه أو بالانن ، فإن التركمان - كما يبدو - كانوا منذ تحولهم الى الاسلام ، يحاولون - وهم تحت الضغوط المعاشية والسياسية الشديدة التي كانوا يحيونها - أن يجدوا مخزجا وارضا يهاجروا اليها ، ويروي عدد من المؤرخين أنه في سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ أو ٤١٢ / ١٠٢١ قاد جفري بك فرقة من التركمان وقطع معها المسافة الشاسعة نحو أرمينية وأذربيجان ، ولعل الهدف من ذلك كان التحضير لأعمال غزو أو كان مجرد محاولة اكتشاف مكان مناسب يقدم اليه الغز مهاجرين (٣٥).

لقد كان التركمان الذين عبروا النهر هم جماعة أرسلان فقط وكان عددهم يقدر بأربعة آلاف أسرة ، ولقد عبروا مع حوائجهم وأغنامهم وجمالهم وخيولهم وبغالهم ، وبعد عبورهم أسكنهم محمود داندنقان ، وهي « بلدة من نواحي مرو الشاهجان على عشرة فراسخ منها بالرمل .. وهي بين سرخس ومرو » (٣٦). ويروي المؤرخ الفارسي الراوندي بأن هؤلاء التركمان « قد لزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياة السلطان محمود ، وفي هذه الاثناء نشأ ولدان ليكائيل بن سلجوق أحدهما « جفري بك أبو سليمان داود » والآخر « أبوطالب طغرل بك محمد » وفاز كلاهما بمكان الصدارة والتقديم في جيوش السلاجقة (٣٧) . ويبدو أن هذا لم يكن حقيقة مما حدث فالذين عبروا النهر كانوا جماعة إسرائيل فقط وأما جماعة ميكائيل فقد بقوا في منطقة ما وراء النهر ، وبسبب أن اتباع إسرائيل قد حرموا من قياداتهم باعتيال محمود لها وبسبب تكوينهم البدوي وحالتهم المعاشية فقد تحولوا الى عصابات شغلت أنفسها بأعمال الاغارة على مدن وقرى خراسان ونهبها ، مما أدى الى اضطراب حبل الأمن في خراسان وجعل الكثيرين من أهالي مدن خراسان يتوجهون بالشكوى الى محمود ويطلبون منه القيام بعمل حازم يضع حدا للاضطراب ، ويقول مصدر معاصر لمحمود : « فلما وصلت سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) الى نهايتها خرج أهل نسا وباورد الى

الحضرة (أي مدينة غزنة) وشكوا الى السلطان فساد التركمان ، فأمر السلطان محمود بكتابة رسالة الى أمير طوس رابي الحارث إرسال الجاذب وأمره أن يعاقب التركمان ... فنفذ أمير طوس حكم السلطان وأغار عليهم فتجمع التركمان وتقدموا اليه وحاربوه وقتلوا كثيرا من الخلق ، وأغار عليهم أمير طوس ، بعد ذلك عدة مرات ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا ... وتراسل السلطان محمود مع أمير طوس فأجابه الأمير قائلا : لقد قوي شأن التركمان ، ولايستطاع دفع فسادهم الا اذا خرج اليهم السلطان بشخصه ... فلما قرأ محمود هذه الرسالة ضاق صدره وجرد الجيش ، ثم خرج من غزنه في سنة ٤١٩ (١٠٢٨) فذهب الى بست ثم سار منها الى طوس وهناك استقبله أميرها وبين له حقيقة الحال ، فأمر محمود بأن يخرج أمير طوس ومعه فوج كثيف من الجيش لمحاربة التركمان ، فلما وصلوا الى رباط فراوة تقابل الجيشان ... وكانت الغلبة لجيش محمود فأعملوا سيوفه في رقاب التركمان وقتلوا منه أربعة آلاف من خيرة الفرسان ، وأسروا عددا كبيرا منهم وفر الباقون الى بلخان ودهستان .»

ويستلخص من ابن الأثير أن أعمال محمود وولاته العسكرية ضد التركمان والنجاحات التي حققت مع الانتصارات التي تمت لم تكن حاسمة ، فلقد سببت فقط تمزق التركمان وتوزعهم في مناطق خراسان مما زاد من اضطراب حبل الأمن ، ويبدو أنه خلال هذا الوقت لم يقطع سيل تدفق التركمان وعبورهم لنهر جيحون الى خراسان في مجموعات متفاوتة الهجوم ولقد حدث أثناء تمزق التركمان أن جماعة من حوالي « ألفي خركاه » توجهوا الى أصفهان باتجاه العراق العجمي وأصبحت منطقة نشاطهم أصفهان والري وأصبحوا يعرفون منذ ذلك الوقت باسم العراقية (٣٨) .

عندما عاد السلطان محمود من حملته ورجع الى غزنة أبقى ابنه مسعودا وراءه في خراسان ، ولقد قام مسعود أثناء وجوده في خراسان باستخدام بعض التركمان في قواته ، وفي سنة ٤٢١ هـ /

١٠٣٠ م توفي السلطان محمود الغزنوي ، ولقد كانت العلاقات بين السلطان محمود في سنواته الأخيرة وبين ابنه الأكبر مسعود سيئة الى حد ان محمودا حاول أكثر من مرة أن يلقي القبض على مسعود وقام محمود أيضا في أخريات أيامه فعين ابنه محمدا وليا للعهد ، وعندما توفي محمود كان مسعود في خراسان ، لذلك سارع أخوه محمد الى غزنه وأعلن نفسه سلطانا جديدا على الامبراطورية الغزنوية ، وهنا قرر مسعود الزحف على غزنة ، وأثناء مسيره نحو غزنه أدخل مسعود عددا لابأس به من التركمان في قواته ، وطبعاً استطاع مسعود دونما صعوبة كبيرة أخذ غزنه ونفى أخاه عن السلطنة عنها (٣٩).

وأثناء الصراع على العرش الغزنوي عاد التركمان الذين كانوا قد « ذاقوا حلاوة غنائم خراسان ... سيرتهم الأولى من النهب والسلب » وبعد أن أصبح مسعود سلطانا على الامبراطورية الغزنوية تتابع تدفق التركمان على خراسان وازداد نشاطهم فيها ، ويذكر البيهقي أنه في صيف سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م « جلس السلطان مسعود ذات يوم للاستقبال ، وكانت رسالة من صاحب بريد الري قد وصلت وفيها أن التركمان لا يقر لهم قرار ... وأنهم على وشك أن يفسدوا في الأرض ». وحاول يتصرف صبياني أن يحل مشكلة التركمان بالري وغيرها ، وذلك بأن يدبر أولاً بنوع من التامر أمر القبض على التركمان الذين كانوا في هراة ، ومن ثم ينقلون الى غزنة ، وبعدها تتابع الخطة مع غيرهم من تركمان مدن خراسان ، ولقد بدت صورة مستقبل الأمور في خراسان للذين كانوا على بينة ومعرفة ببواطن الأمور وهم رجال السياسة والخبرة في الدولة الغزنوية الذين وجدوا أنفسهم يقانون من قبل سلطان « مستبد برايه عن غير روية » ، بدت هذه الصورة سوداء لاتبشر بالخير لا في خراسان ولا في غيرها من أراضي الغزنويين ، ويروي البيهقي - الذي شغل وظيفة نائب رئيس ديوان الرسائل في عهد السلطان مسعود - في كتابه صحائف مسعودي الذي ترجم الى العربية باسم تاريخ البيهقي ، بأنه عندما خطط مسعود للقضاء على تركمان الري

كما ذكرنا أعلاه قال له استناذه أبو نصر مشكان رئيس ديوان الرسائل : « اكتب الى وكيل جوزجان وكروان رسالة مني لكي يعرض للبيع ، بمجرد قراءة هذه الرسالة عشرة آلاف من غنمي كباشا ونعاجا ، وان يبيعها بسعر اليوم ويرسل ثمنها ذهباً وفضة الى غزنة ، فكتبت الرسالة فذيلها بخطه ثم اودعت ظرفاً ووضعته في بريد جوزجان ، ثم وضعت الحلقة في كيس البريد واغلق وارسل واسترسل استاذي في تفكير عميق ، وكنت احدث نفسي بأن السلطان اذا كان قد امر بالقبض على التركمان في الري ، فما معنى بيع غنم رباط كروان بسعر اليوم ؟ قال لي استاذي : اراك قد استغرقت في التفكير في حديث التركمان والقبض عليهم ، ورسالتني لوكيلي لبيع الغنم ؟ فقلت : والله وحياء مولاي اني افكر في هذا . فقال : اعلم ان القبض على التركمان امر مخالف للصواب ، لان من المحال ان تقبض على ثلاثة آلاف او اربعة آلاف فارس ، ولم يأت كتاب للسلطان يبين الحيلة في القبض على التركمان ، ولكنه يسارع ويأمر بالقبض على نفر منهم في هراة وبان تجلى خيامهم وامتعتهم وبهذا يثيرون هؤلاء القوم الذين جاءوا مع رحالهم وتصل الاخبار الى الري فيثيرون تركمانها ويجيء ابن يغمر - احد قادة تركمان خراسان - من بلكان كوه مع فرسان آخرين اقوياء فينضم التركمان بعضهم الى بعض ويدخلون خراسان ويسلبون كل ما يجدون من الماشية ، لقد تنبأت بهذه الامور فامرت ببيع غنمي لانها لو بيعت بأقل من ثمنها الاصلي فاني سأحصل من ثمنها على شيء ، ولا تذهب أموالى سدى » (١٠).

لقد كانت اوضاع خراسان سيئة بقدر كبير ، لكن ليس بسبب التركمان وأعمالهم فقط وانما - اكثر - بسبب سوء الادارة الغزنوية وسياستها المالية فقد كان حاكم خراسان زمن مسعود اسمه سوري ، وسوري هذا « كان رجلاً مشهوراً بالظلم ، فإنه حين اطلقت يده في خراسان استأصل شأفة اعيانها ورؤسائها واستحوذ على أموال لاتحصى ، وامتد ظلمه الى الضعفاء ، وكان يقاسم السلطان ، يعطيه خمسة من كل عشرة دراهم يفتصبها ، أما الاعيان

فقد تقطعت بهم الأسباب فكتبوا الرسائل الى وراء النهر ، واوفدوا
رسلم شاكين لامراء الترك كي يغروا التركمان بالفرنويين ، واما
الضعفاء فإنهم بثوا الله الامهم» (٤١).

☆ ☆ ☆

واذا ما عدنا الى منطقة بلاد ما وراء النهر حيث بقية السلاجقة
اتباع موسى وميكائيل ولدي سلجوق نجدهم في خدمة علي تكين خان
بخارى ، ويبدو أن موسى كان قد أصبح اليفغو لهؤلاء التركمان ،
ولكن القيادة الفعلية والزعامة الحقيقية لم تكن له انما لولدي اخيه
ميكائيل: جفري بك وطغرل بك ، ويبدو مما رواه ابن الاثير أن
العلاقات بين علي تكين والسلاجقة لم تكن دائما سليمة وذلك بسبب
طبيعة التركمان البدوية ثم لتدفق أعداد كبيرة من الغز من السهوب
على أراضي الدولة القراخانية والانضواء تحت راية السلاجقة. ومهما
تكن الحال فإن علي تكين كان « نكيا فذا محنكا يعرف كيف يعمل
المدارة مع الجانبين ، وكان يتخذ له عدة من التراكمة والسلاجقة
ويكسبهم لجانبه بالقول الطيب والمال فقد كان يرى أنهم لو ابتعدوا
عنه ضعف مركزه ». وفي سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م توفي علي تكين «
ولما مات انتقلت أمور - ولايته - الى ولدين ضعيفين ... وساءت
العلاقات بين السلاجقة من ناحية وبين هذين الولدين وقووش
سبسهلار - قائد قوات - علي تكين من ناحية أخرى » ، ولم يعد
باستطاعة السلاجقة البقاء في بلاد القراخانية ، ولم تكن لهم القوة
الكافية للذهاب لخوارزم واحتلالها ، ولم يكن من المعقول عودتهم
الى السهوب ، أو الهجرة نحو دربند لوجود دولة الخزر ، لذلك لم يكن
« لهم مأوى في غير خراسان » فقد الجأتهم « الضرورة اليها ،
وخاصة بعدما سمعوا عما حصل عليه أتباعهم » الذين عبروا قبلهم
من المكانة (٤٢) لذلك قام « التركمان والسلاجقة مع جمع كبير من
الرجال » قدر « بعشرة آلاف فارس تركي مع كثير من القادة » .
فعبروا النهر وساروا الى مدينة نسا ، وبعد عبورهم كتبوا الى
سوري حاكم خراسان الفرنوي كتابا نصه : « الى حضرة الشيخ
الرئيس الجليل السيد مولانا أبي الفضل سوري . من العبيد ييغو
وطغرل وداود موالى امير المؤمنين ، لقد استحال علينا الاقامة في

بخارى ، في بلاد ماوراء النهر ، فقد كانت صلتنا بعلي تكين إبان حياته صلة مجاملة وود وصداقة ، واليوم وقد مات وال الأمر الى ولديه ، وهما طفلان طائشان قد استولى عليهما وعلى الدولة والجيش السبھسلار قودش قائد والدهما ، وقد عادانا حتى استحال علينا العيش هناك ، وإن خوارزم مضطربة احوالها ... مما يجعل مسيرنا اليها متعذرا ، ولذلك جئنا نلوذ بسلطان العالم ولي النعم ليكرمنا الشيخ سوري والسلطان يقبلنا عبيدا له ، فيقوم احدا بالخدمة في الدركاه وينفذ الأخران ما يأمر به السلطان من خبمات ، فندستريح في ظله الوارف ، ويمن علينا بولايتي نسا وفراوة ، وهما على حدود الصحراء حتى نستقر فيهما ويهدأ بالنا ، ولن ندع مفسدا يخرج على الدولة من بلخان كوه ودهستان وحدود خوارزم وجوانب جيحون ، وسنطارد تركمان العراق وخوارزم .

ولاندري إذا رفض السلطان ، والعياذ بالله ، التماسنا كيف تصير الأمور ، فليس لنا على وجه الأرض مكان نقيم به .. ويستخلص من هذه الرسالة عدة أمور خطيرة ، فقد اعتبر السلاجقة انفسهم جماعة مستقلة ، وذلك حين ذكروا بأنهم موالى امير المؤمنين وليس موالى السلطان مسعود ، ثم انهم لجأوا الى التهديد وطالبوا بالقبول بما كان قد حدث كأمر واقع ، وباختصار لقد قدموا الى خراسان لا كرعاة ابل بل كأمرء « ممن يلون الولايات » .

ولقد كتب سوري في رسالته التي ارسلها الى مسعود يخبره فيها بأمر عبور التركمان « أن عشرة الاف فارس من السلاجقة والينالين قد جاءوا الى نسا » . كما أن السلاجقة في رسالتهم الى سوري قد تعهدوا بمطاردة تركمان العراق ، ولقد كنا قد تعرضنا مسبقا لتركمان العراق فأشرنا الى انهم كانوا جماعات التركمان الاولى التي توغلت نحو العراق العجمي ، وهؤلاء العراقية كانوا – كما يبدو من البهيقى وابن الاثير – مؤلفين من عصابات مستقلة من التركمان وقد بقوا هكذا فلم يعترفوا فيما بعد بسلطان الاسرة السلجوقية ، ويمكن أن يكون لهم صلة بالناوكية ، جماعة التركمان الاولى التي

دخلت بلاد الشام ، والتي سنأتي على دراستها ودراسة الدور الذي قامت به في الفصول المقبلة ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي نسمع بها بجماعة الينالية .

للوهلة الاولى توحى رسالة سوري بأن « الينالية » كان عبارة عن اسم اطلق على احدى اسر أو قبائل التركمان ، ولكن واقع الحال ليس كذلك ، فالينالية اسم اطلق على اتباع ينال أو اينال ، وينال عبارة عن لقب اطلق على « ولي عهد » اليبغو إذ كان « لكل رئيس من رؤساء الترك من ملك أو دهقان ينال ، أي ولي عهد » . وابراهيم كان هو اسم زعيم الينالية الذين عبروا النهر ، وتجعله المصادر أخا لطرز لبك من أمه ، وسيقوم ابراهيم ينال - كما سيمر معنا - بعدة حركات تمرد وثورات ضد طغر لبك خاصة سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م حيث أخفق ولقي حتفه ، وعلى هذا الاساس ، وبسبب المكانة التي احتلتها الجماعة الينالية بين السلاجقة ، لايجوز ان تفسر الاعمال التي قام بها ابراهيم ينال حركات تمرد وإنما حركات هدفت لاستعادة حقه في السلطة التي اغتصبت من قبل طغر لبك (٤٦) .

عندما وصلت اخبار عبور التركمان مع رسالتهم ورسالة سوري الى السلطان مسعود قامت في بلاطه مشاورات طويلة حول أنجع الوسائل وأفضل السبل لمعالجة هذه القضية الخطيرة ، ويقدم لنا البهيقى وصفا شاملا وبقيا لما حدث من مناقشات ، فقد دعا مسعود اليه أركان بولته من مدنيين وعسكريين وخطابهم شارحا لهم الوضع بقوله : « ليس هذا أمرا هينا ، لقد جاء عشرة الاف فارس تركي مع كثير من القادة ، واقاموا وسط بلادنا ويقولون لم يبق لنا من مكان ناوي اليه ، والحق انهم استضعفوا بلدنا ، لن نمهلهم ليجنوا في بلادنا مستقرا يترعرعون فيه ، انظروا ماذا كان من هؤلاء التراكمة من البلاء والازعاج بعد أن جاء بهم أبي ، واتاح لهم عبور النهر واقامتهم في خراسان ، كانوا رعاة إبل ، وهم الآن ... طالبوا إمارة ، فيجب ألا ندعهم يتنفسون في بلادنا ، والصواب أن نسير

بأنفسنا لطردهم ... مع غلمان السراي وجند مختارين ... وأن
نزحف الى نسا زحفا قويا حتى نستأصل شأفتهم » .

لقد كان مسعود عندما وصله خبر عبور التركمان في مدينة جرجان
« فلما قرأ رسالة سوري توجه الى نيسابور » ، ولقد وجد بعند
مناقشات طويلة واستعراض للأحوال أن مسعود « لا يستطيع أن
ينهب الى السلاجقة بشخصه » لأن « جيشه كان قد أصيب بوهن
شديد بسبب السفر ... وفسد سلاحه بسبب الرطوبة فعلاه الصدا ،
وضعت دوابه لأنها لم تأكل علف الربيع » لذلك اختار مسعود « جملة
من أمراء جيشه ، زودهم بالعدة والعتاد وأرسلهم لقتالهم » . لقد كان
عدد هؤلاء الأمراء عشرة على رأسهم الحاجب بكتغدي الذي كان
مسنا لكن صاحب تجربة وحكمة عسكرية ، وكانت جملة الجيش «
خمسة عشر ألف فارس من كل صنف في أهبة تامة والفين من غلمان
السراي » ، ومنذ البداية وقبل أن يتحرك الجيش كان بكتغدي يتوقع
في رايه « القدر لا ينضج اذا كثر الشركاء » و« ينبغي أن يكون القائد
الأعلى واحدا » .

وعرض الحال على السلطان مسعود فقال بعناد « لا بد من أن
يذهب بكتغدي » وهكذا تحركت الحملة في يوم الخميس التاسع من
شعبان سنة ٤٢٦ هـ / ١٩ حزيران ١٠٣٥ م صوب نسا ،
وأرسل معها عدد من الفيلة ، ولقد كان معسكر السلاجقة
وتركمانهم قرب نسا ، وفي رمضان - سنة ٤٢٦ هـ - أشرف
الجيش الغزنوي على هذا المعسكر ، وأعمل الغارة عليه دون أن
يأخذ بالحيلة ويحذر طرائق البداية في القتال ، فلقد ترك التركمان
قبيل دنو الجيش الغزنوي منهم معسكرهم شبه خال من المقاتلين ،
وانسحب المقاتلون الى حافة الصحراء ، وهناك أعدوا المكامن ،
وأدى هجوم الجيش الغزنوي على المعسكر التركماني الى افلات
زمام القيادة فيه واختلاط الحابل بالنابل واختلال نظام تعبئته ،
الفرصة التي أعد لها السلاجقة فاغتنموها بالانقضاض على
أعدائهم « وكان اليوم شديد القحط ، واشتعلت الرمضاء وجفت شفاء

الجند والدواب من العطش « ولقد كان الماء وراء الجيش الغزنوي فحاولت بعض فرقه التراجع نحو الماء « رويدا رويدا بالكر والفر « فلم يستطيعوا تدبر ذلك ، فولى الجيش مديرا وتفرق أيدي سبأ ، وهكذا حقق السلاجقة أول انتصار رائع لهم بشر بأن خراسان ستكون لهم ، ولقد غنموا كل ما كان لدى الجيش من آلات وعدد ، ويقول الراوندي : « واستولى السلاجقة على ما قيمته عشرة ملايين من الدينار من الألبسة والأسلحة والأمتعة والدواب » .

لقد كانت « هذه أول هزيمة جدية وقعت « على السلطان مسعود « وتوالت الهزائم بعدها وهنا على وهن « ولقد تملكت التركمان الحيرة ودهشوا للنصر المؤزر الذي نالوه ، ولكثرة الآلات والنعم والدواب والذهب والفضة والألبسة والأسلح والعديد التي وقعت في أيديهم ، ولم يصدقوا أن هذا كله قد حدث فعلا ، لهذا « حين أمنوا عقدوا مجلسا وجلس الأعيان والمقدمون والشيوخ في خركاه وأخذوا يتشاورون ، قالوا : إننا قد ظفرنا بهذا كله دون تفكير أو تمهيد ، وإن من المحال الوقوف عند هذا الحد ، ولأننا نحن الذين غلبنا هذا الجيش العظيم ، ولم يتجاوز الأمر أننا حافظنا على أنفسنا وأنهم لم يحسنوا تدبير أمرهم ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى وقوع هذا وحتى لا نذهب هباء دفة واحدة ، فغنمنا بغير قصد كل هذه الآلات ، وكنا فقراء فأصبحنا بفضل الله أغنياء ، والسلطان مسعود ملك عظيم ، وليس له في بلاد المسلمين نظير ، وقد حلت الهزيمة بجيشه لسوء التدبير وضعف القيادة ، ولكن له جندا وقادة كثيرون ، فعلينا أن لا نغتر بنصرنا ، وعلينا أن نوفد إليه رسولا يتحدث إليه عن ولائنا له ، ويلتمس العذر ، ويبين أن راينا هو دائما ما كنا عليه من قبل ، وأنه لم يكن لنا من حيلة سوى المقاومة حين قصد الجند بيوتنا ومتاعنا ، ولنرى ما سيكون جوابه حتى نستطيع أن نتبين طريقنا بعد ذلك » .

على هذا الأساس ارسل السلاجقة رسولا الى السلطان مسعود مع رسالة ترجو العفو والاعذار ، ولقد وجدت الرسالة أننا صاغية

لدى السلطان ، وادت الى تهدئة خاطره ومنعته من ارسال حملة اخرى ، لهذا قام - ردا على رسالتهم - بارسال رسول من قبله يفاوضهم ، ومضى هذا الرسول الى معسكر السلاجقة وامضى فترة من الزمن لديهم ثم عاد الى السلطان ومعه ثلاثة رسل من مقدمي السلاجقة ، احدهم يمثل طغرل بك ، والاخر جفري بك والثالث اليبغو

(٤٤) .

ان ارسال السلاجقة لهذا العدد من السفراء يدل على ان التركمان ، على الرغم من ان اليبغو كان من المفروض ، ولو على الاقل نظريا ، ان يكون المقدم عليهم جميعا ، لم يكن لديهم في هذه المرحلة قيادة موحدة ، او بالحري انهم لم يكن يدينون فعليا في هذه المرحلة بالولاء لزعيم واحد ، بل لأكثر من زعيم ، وأن هؤلاء الزعماء كانوا مستقلين الى حد ما عن بعضهم بعضا ، وليس لهم سياسة وهدف واحد يجمعهم ، ولنتذكر أن زعماء السلاجقة عندما ارسلاوا اولى رسائلهم الى سوري عذونوها « من العبيد ييبغو وطغرل وداود » .

إن التمزق هذا - كما سنرى - سيكون وسيبقى احدى مزايا التركمان ، وسنجد من الاسباب الكبرى التي اعاققت قيام الامبراطورية السلجوقية ، ثم اعاققت تطورها الى دولة مركزية ، كما سيؤدي الى الانهيار السريع لهذه الامبراطورية ، وهذا التمزق قد لاءم خير ملائمة وضع العالم الاسلامي الذي كان في القرن الحادي عشر ممزقا ، وسنرى كيف عمل عمله في بلاد الشام والجزيرة وكيف كان من الاسباب الرئيسية التي أدت الى نجاح الحملة الصليبية الاولى ، ثم كيف ساعد في انجاح الفرنجة في البقاء في بلاد الشام حتى زال أخيرا بفضل قيام الدولة الأتابكية التي نجحت في توحيد الشام والجزيرة ثم في ضم مصر الى هذه الأجزاء الموحدة.

☆ ☆ ☆

لقد كانت نية السلطان مسعود آنذاك التوجه نحو الهند ، ولهذا استجاب لمطالب رسل التركمان وأعطى ، متنازلاً ، لمقدمي السلاجقة ولايات نسا وفراوة ودهستان وأرسل لكل منهم خلعة ومنشورا ولواء كما أعطى كل واحد منهم رتبة غزنوية « ووجهت اليهم رسائل منه ، خطبوا فيها بلقب « الدهقان » وأعدت لهم ثلاث خلج كما هو الرسم في خلج الولاة ، تشتمل الواحدة على قلنسوة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة (برسم الدولة الغزنوية) وسج وكمر من ذهب (برسم التركمان) وثلاثين ثوبا غير مخيطة لكل واحد منهم .

يروى ابن الأثير بأن مراسلة السلاجقة للسلطان مسعود كانت مخادعة ، ويتضح من البيهقي أن رجال دولة مسعود كانوا مدركين لهذا الأمر ، ولكن عناد السلطان وطفغيانه ثم فراره من مواجهة الواقع المر بالحزم والجد قد حال دون القيام بعمل مجد (٤٤) ، على أن مصادر أخرى توحى بأن السلطان قد حاول أن يفتت السلاجقة ويخلخل صفوفهم بأن يفصل البيغو عنهم ، وبالوقت نفسه أراد أن يؤمن لنفسه بعضاً من النفوذ عليهم باقتراح قيام علاقات زواج بين الزعماء الثلاثة والسلطنة ، فاقترح زواج البيغو من ابنة سوري عميد خراسان وزواج طغرل بك من ابنة أحد أمراء الغزنويين ، وجفري بك من امرأة أخرى حرة ، وقبل البيغو الاقتراح بينما رفض الأخران وأزدادا جراءة وثقة بالنفس (٤٦) ، وأخذوا يثيران الفتن ويخيفان الناس ويسلبان كل ما يجدانه ، ولقد أخفقت كل جهود والي خراسان في إخضاعهما (٤٧) وتقديراً منهما لقوة مركزهما ولضعف السلطنة عن نيلهما بأنى أرسل في أول سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م بعثة إلى السلطان مؤلفة من رسولين أحدهما كان فقيهاً من أهل بخارى ، وكان الثاني تركمانياً يمت إلى السلاجقة بصلة القرابة ، وكان مع الرسولين رسالة نصها « إننا إلى الآن لم نتجاوز حدنا بشيء ، ولكن في خراسان - كما لا يخفى - تركمان آخرون ، وهم لا يزالون يفدون عليها لأن طريق جيحون وبلخان كوه مفتوحين أمامهم ، وهذه الولاية التي منحها إيانا السلطان قد أخذت تضيق علينا ، وأصبحت لا تكفي لسكنى من معنا من الناس ، وكان يرجى

أن «...يمنحنا - السلطان - بعض المدن الصغيرة مثل مرو وسرخس وباورد ، على أن يكون صاحب البريد والقضاة وصاحب الديوان فيها من قبل السلطان ، فيجبوا الأموال ويصرفوا أرزاقنا ونكون نحن جند السلطان ، فنظهر أرض خراسان من المفسدين ، ونؤدي ما يوكل إلينا من خدمات في العراق ، أو أية ناحية أخرى ، طائعين ، ونقدم على أخطر الأعمال بأمره ، ومن الجائز أن يربط الحاجب سباشي بجيشه في نيسابور وهراة ، ولكن إذا قصدنا بسوء فسنضطر إلى الدفاع عن أنفسنا فتزول الهيبة من بيننا ، هذا هو ملتصنا والأمر للسلطان » (٤٨).

لقد عاد السلطان مسعود إلى غزنة في سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م قادما من الهند ، ومن غزنة تحول إلى بلخ ، والذي سبب تحوله هذا هو أخبار خراسان وندشاط التركمان فيها ، فوجه جيشا عظيما مع الحاجب سباشي ، وكان رد السلاجقة على تحرك مسعود وأرساله جيش الحاجب سباشي حازما: المطالبة بالتخلي لهم عن أجزاء جديدة من خراسان ، وتجميد وإيقاف الأعمال العسكرية ضدهم ، وعندما وصلت رسالة السلاجقة إلى السلطان مسعود أثرت بيه واغضبته وقال لوزيره : « لقد تجاوز هؤلاء القوم الحد في تعديهم وتحكمهم فقد دمروا خراسان من جهة ، بينما يتحايلون بالكر وزخرف القول من ناحية أخرى ، فيجب صرف هذين الرسولين بعد أفهامهما بأن الحكم سيكون السيف وأن الجيوش قد سيرت للقتال » .

لقد كانت ردات فعل السلطان مسعود آنية ، ولم يكن لديه القدرة على مواجهة الأمور كما ينبغي ثم الأخذ بالحزم والتسلح بالمعانة والصبر ، فما أن رجع رسولا السلاجقة من عنده حتى انصرف مسعود إلى لهوه وخمره وصيده وترك خراسان للقدر .

وفي مطلع سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م وصلت السلطان مسعود أخبار تفيد بمجيء دفعات جديدة من التركمان إلى خراسان ونهبها لبعض مدن الاقليم مثل الطالقان وفرياب والري ، ومرة أخرى ثار مسعود للأخبار ولام الحاجب سباشي ووصمه بالتخايل والتقصير وكتب إليه

أمر أن يلتحم بالعدو في معركة فاصلة ، وحاول سبباشي أن يدافع عن نفسه ويدفع أمر السلطان ويؤجل تنفيذه إلى أن تقوم الفرصة المواتية لانزال ضربة قاصمة بالتركمان ، ولقد أرسل سبباشي إلى السلطان وصفا للتركمان وأحواله معهم قال فيه : « انهم » قسموا رجالهم إلى عشرين أو ثلاثين فرقة ، وهم يعتبرون الصحراء بمثابة الأب والأم منهم ، كما هو حال المدن بالنسبة لنا ، وإنني سبباشي لا أزال في الحرب معهم حتى الآن ، وواليت إرسال الطلائع ومواصلة القتال ، وقد تعرفت بحقيقة أحوالهم وأساليبهم في الحرب ، وقد حفظت الذخيرة ، ولم نستطيعوا تثبيت أقدامهم في أي بلد في خراسان حتى الآن ... وليس من الممكن أن يصمد جيش السلطان بغير مدد يعينه فإن خطة هؤلاء الخوارج من طراز خاص ... - حرب التعبئة - ضدهم - ليست من الصواب ، والرأي ما يرى السلطان ، وإنني منتظر جوابه وأنا على أهبة تامة ، ولو رأى السلطان ضرورة ضربهم ضربة قاضية والحملة عليهم حملة رجل واحد ، فليأمر ... بوجوب المبادرة بالقتال ، إذ حين تصلني - الأوامر - لن أبقي يوما واحدا في نيسابور بل سأزحف فورا إلى سرخس ومرو وأبائر بالقتال » .

وبعد مشاورات طويلة خرج أمر السلطان مسعود : على الحاجب سبباشي « أن يبادر بقتال العدو حتى نرى ما يقدره الله لنا ، وإن رجاءنا في الله عز وجل أن ينصرنا والسلام » .

لقد كانت مرو قد غدت مركزا للسلاجقة آنذاك ، وكانت نيسابور كبرى مدن خراسان وأشهرها مركزا للجيش الغزنوي بقيادة سبباشي ونفذ الحاجب سبباشي أوامر السلطان مسعود والتحم بالسلاجقة « ولم يكذب يبدأ المعركة حتى أصابته الهزيمة . ولندسمع سبباشي ، يصف ما حدث بنفسه : » لقد قامت حرب مع العدو لم أر أصعب منها ، وظلت المعركة من الصباح حتى صلاة العصر ... - لقد خان السلطان - المنهون - للأخبار - حين حدثوه عن الأعداء ، فهونوا من شأنهم وكنت أعمل في صبر يؤدي إلى فرارهم ، ولكن المنهين ضللوا

السلطان حتى أوغروا صدره علي ، فأمر جزما بوجوب حرب المصاف ، فلما لقيت الأعداء وجدتهم نخبة من المحاربين المعدين ، وقد أراحوا أنفسهم من أثقالهم ، وجرت موقعة ليس أشد هولا منها

لقد كانت قوات التركمان خفيفة مرنة ليس معها أثقال ولا مؤن ولاذساء بينما كان الجيش الغزنوي جيشا نظاميا يتحرك بثقل وحسب النظم العسكرية ، يتحرك فيتحرك بحركته الكثير من الأثقال والاذساء والحاجيات (٤٩) ، لذلك كان حين يدخل المعركة كان لا يستطيع التحرك بمرونة ولا يستطيع أن يقاتل وهو خالي البال ، بل كان يقاتل وخاطره مشغول بما لديه من ذخائر وأهل أكثر مما هو مصروف لربح المعركة والانتصار على الخصم ، يضاف الى هذا أن التركمان كانوا يفضلون الجيش الغزنوي ليس بهذا فقط بل في الروح المعنوية مع المرونة والبراعة في القتال وايضا في نوعية الأسلحة ، لقد كان الفارس التركماني يعتمد بالدرجة الأولى على قوسه ، يقوم بالهجمات الخاطفة على خصمه فيصرع فرسه أولا بأنه يرميه ، ثم ينقض بعد ذلك على هذا الخصم المثلث بدرعه أو سايغته وأسلحته الثقيلة الخاصة التي يصعب استخدامها عليه وهو مترجل فيجهز عليه بسيفه أو دبوسه ، وإذا ما حدث وكان جيش الخصم مؤلفا من فرسان ومشاة لحماية الفرسان ، كان التركمان يجهدون في البداية لفصل المشاة عن الفرسان ومن ثم كان يتم الاجهاز على كل سلاح على حدة ، وفنون التركمان القتالية هذه سنراها في معركة دندانقان ثم بعد ذلك في معركة منازکرد ، وستظهر خلال جميع معارك الحروب الصليبية وخاصة في معركة حطين •

يعتبر ابن الأثير النصر الذي ناله السلاجقة ضد جيش سباشي نصرا حاسما فالمعركة التي خاضوها ضد هذا الجيش الضخم « هي الواقعة التي ملك السلجوقية بعدها خراسان ، ودخلوا قصبات البلاد » فدخل طغرل بك مدينة نيسابور بعد أن تخلى عنها سوري حاكم خراسان ، وبعد أن هجرتها الحامية الغزنوية ، ودخل داود جفري بك مدينة هراة ، وبعيد دخول طغرل بك الى نيسابور أعلن

نفسه سلطانا واصبح يعرف باسم – السلطان المعظم ركن الدنيا والدين ابو طالب – واستقبل مع اخيه واليغو وفادة أرسلها الخليفة العباسي من بغداد مع رسالة ينهاهم فيها عن النهب والقتل والاضرار ويعظهم ، وربما يمنيهم بالاعتراف بهم كسلطة شرعية لخراسان ، ويرى مدى قوتهم ويتعرف بها على ماهية مشاريعهم واهدافهم بالنسبة للمستقبل .

ويذكر ابن الاثير وغيره بأن جفري بك أراد أن ينهب مدينة نيسابور فمنعه طغرل بك ، واحتج عليه بشهر رمضان الذي تم فيه أخذ نيسابور ، فلما انسلخ رمضان صمم جفري بك على القيام بعملية النهب ، ومرة أخرى منعه طغرل بك « واحتج عليه برسول الخليفة وكتابه ، فلم يلتفت داود إليه وقوى عزمه على النهب ، فأخرج طغرل بك سكينا وقال له : والله لن نهب شيئا لأقتلن نفسي ، فكف عن ذلك . »

لقد حدث هذا سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٤٨ م ، ويدل هذا الخبر على الروح البدوية التي كانت تمتلك السلاجقة وتحكم بهم آنذاك ، هذه الروح التي كانت تحب النهب ولا تتخلى عنه ، كما ان هذا الخبر يشير الى ان طغرل بك كان قد اصبح الشخصية الاولى بين السلاجقة والى انه كان يعمل ويخطط من اجل بناء دولة سلجوقية كبرى ، عليها منذ البداية اقامة علاقات طيبة مع الرعية ومع الخليفة في بغداد ، واخيرا لاحاجة للتذكير على ان هذا الحدث يدل ايضا على مدى نفوذ الروح الاسلامية بين السلاجقة .

ويقدم لنا البيهقي وصفا وثائقيا دقيقا لاحتلال السلاجقة مدينة نيسابور ودخول طغرل بك اليها فيه : « بعد ان جاءت الاخبار بما حل بالحاجب سباشي اقبل ابراهيم ينال بعد اثني عشر يوما على حدود نيسابور ومعه مائتا رجل . وابلغ انذارا مع رسول له : بأنه يمثل مقدمة جيش طغرل بك وداود ويغو ، فاذا كنتم ستحاربون فإنه يعود ليخبركم بالامر ، واذا كنتم مسالمين فليدخل المدينة وليغير

الخطبة ، فان جيشا كبيرا يسير في اثره » . انزل اهل نيسابور رسول ينال في مكان لائق ، واخذ اعيان المدينة المؤلفين من القاضي والتجار وسواهم يناقشون مآلاتهم وتذكروا قول السلطان محمود غزنوي لجماعة مثلهم واجهوا الحالة نفسها وقرروا المقاومة : « ماشان الرعية بالقتال » . فان كل ملك يتسلط عليكم - ايتها الرعية - ويلزمكم بالخراج ويؤمنكم ، عليكم ان تدفعوا له الخراج وتحافظوا على انفسكم » (٥٠) لهذا قرر رأي اهل نيسابور على الازعان بالطاعة وتسليم مدينتهم ، فنادوا رسول ابراهيم ينال وسلموه جواب رسالته : « باننا رعية ولنا سلطان ، والرعية ليس من شأنها ان تحارب ، وللامراء السلاجقة ان يدخلوا المدينة فانها مفتوحة لهم » ، فاذا كانت لازمة للسلطان فانه سيأتي للمطالبة بها او سيرسل قائدا لهذا الامر ، ولكن عليكم ان تعرفوا ان الناس قد خافوا لما حدث منكم في بلاد اخرى من النهب والمثلة وقطع الرقاب ، ولا بد من انتهاج سبيل آخر ، فان هناك اخرة غير هذه الدنيا ، وقد رأت نيسابور كثيرا مثلكم ، وسلاح اهل هذه البقعة هو دعاء القوامين منهم بالليل ... فلما اطلع ابراهيم ينال على الجواب ... ظهر ... مع اكثر من مائتي فارس وكان معه لواء وجنبيتان وكان في زينة ذابلة وبسيطة ... وكان شابا جميلا الطلعة ، حلو الحديث ... وبلغ طغرل نيسابور بعد ثلاثة ايام ، وخرج الاعيان جميعا لاستقباله ... كان مع طغرل ثلاثة الاف فارس اكثرهم مدرعون (٥١) وكان له قوس بذشاب معلق في كتفه ، وفي وسطه ثلاث سهام ، وكان مدججا بالسلاح ... وكان السلاجقة كيانهم من الغوغاء لانظام لهم ، وكان من يريد التحدث لطغرل يتجرا عليه ويتحدث اليه : « وبعدما دخل طغرل لبك قصر نيسابور » اعتلى سرير السلطان ، وهكذا اعلن نفسه سلطانا جديدا لخراسان (٥٢)

كان السلطان مسعود قد عاد الى غزنة عقب هزيمة الحاجب سباشي ، وفي غزنة تكونت لديه صورة كاملة عما تم في خراسان وبعد مناقشات تقرر ان يتحرك السلطان بنفسه على رأس جيش كبير من اجل استرداد خراسان وطرد التركمان منها ، وكان اول ما فعله ان

ارسل الى خراسان بالتصريح التالي : « إنا زاحفون مع خمسين ألف فارس وراجل وثلاثمائة فيل ، ولن نعود الى غزنة مهما تكن الظروف حتى نخلص خراسان » ، وفي الأيام الأخيرة من سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م « استعرض - السلطان مسعود - الجيش ، وكان جيشا كثيفا ، قيل انه ضم أكثر من خمسين ألف فارس وراجل كلهم مجهزون بالخيول القوية والسلاح التام » ، وفي الرابع من محرم سنة ٤٣٠ هـ / ٧ تشرين الأول ١٠٣٨ م سار السلطان مسعود من غزنة ، وفي الرابع عشر من صفر / ١٥ تشرين الثاني وصل مع قواته الى مدينة بلخ ، وأطال السلطان الإقامة في بلخ وقامت عصابات من التركمان بقيادة بعض أمراء السلاجقة بالانغارة على أطراف بلخ حيث قوات مسعود ، وفي منتصف مايس تحرك مسعود نحو سرخس « وكان معه جيش كامل الأهبة وقد أجمع الناس على انه قادر على غلبة اهل تركستان اجمعين لو واجهوه » وتجمع السلاجقة مع قواتهم التي قدرت بعشرين ألف فارس قرب منطقة سرخس ، ويبدو انهم كانوا يخشون الالتحام مع مسعود وقواته لذلك عقدوا مجلسا ناقشوا فيه الوضع وحاولوا ايجاد مخرج. ولقد تشعبت آراؤهم حول هذا المخرج ، فكان رأي طغرل بك واليناليين التوجه غربا نحو العراق وهجر خراسان ، ولم يكن ذلك صعبا « لأن - كما قالوا - حفنة من المرتزقة والديلم والكرد سيقابلوننا هناك ، والصواب أن نذهب ونغتزم الفرصة لأن ثغور الروم ليس فيها مقاتلون ، وأن نترك خراسان وهذه النواحي مع هذا السلطان العظيم القوي صاحب الجيوش الجرارة والرعية العديدة ، ورفض جفري بك هذا الرأي قائلا : « ما أفدح ما وقعتم فيه من الخطأ ، لو انكم تزحزحتم عن خراسان ، فلن يقر لكم على الأرض قرار لغارات هذا السلطان علينا ، ولما سيثيره من كل جانب اعداء اشداء علينا ولقد رأيت حرب - هذا السلطان وجنده في - الميدان ... لقد كان له كل ما يريد من رجال وعتاد ، ولكن الأحمال الثقيلة ليس في وسعهم أن يكونوا بعيدين عنها فبغيرها لا عيش لهم ، هي سبب عجزهم لانهم مضطرون الى حماية انفسهم وحماية متاعهم ، أما

نحن فخفاف لامتاع لنا ، وقد حلت الهزيمة بيكتفدي وبسباشي بسبب
ثقل متاعهم ، ومتاعنا خلفنا على مسيرة ثلاثين فرسخا ، ونحن بهذا
قانعون ، فينبغي أن نمضي في الحرب كالرجال حتى نرى تقدير الله
عز وجل .»

إن رأي جفري بك هذا كان فيه الصواب كله، وهو يدل على فهم
عسكري ممتاز ، فيه تقدير لمزايا الصديق ومعرفة بمساوئ ونقاط
ضعف العدو وكيفية استغلالها .

لقد قدر عدد جند السلاجقة في هذه الأونة - كما أسلفنا الذكر-
بـعشرين ألف فارس وهناك إشارات إلى أن هذا العدد في الواقع لم
يتجاوز الستة عشر ألفا، ولقد حافظ هؤلاء التركمان ما أمكنهم على
تقاليدهم في القتال ، فكانوا فارغي البال - كما ذكرنا- من الأثقال
والأمتعة لهذا عمدوا الى عدم الالتحام بقوات مسعود في اشتباك
مباشر بل أخذوا، بعد أن تخلوا عن نيسابور وغيرها من المدن ،
يجرون جيش مسعود الثقيل هنا وهناك ، ويعملون النارة عليه
فيتعبون أفراد جسدنا ومعنوا . وهكذا كان الحال الى أن جاء
صيف عام ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م ، حيث سار السلطان من نيسابور
فسار الجند وراءه متخاذلين ، « كأنهم حقا يقدمون رجلا ويؤخرون
أخرى ، وكان اليوم شديد القيظ ، والمؤن قليلة، والعلف لاوجود له،
والدواب هزيلة، والناس صيام، وقد مر السلطان في الطريق على
كثيرين يجرون جيادهم ويبكون فامتلا قلبه حسرة، وقال: ما أسوأ
حال هذا الجيش » . لقد كانت وجهة مسعود نحو مرو ، وفي الطريق
لم يتركه السلاجقة يتحرك بحرية ، بل كانوا يعملون الغارات
المفاجئة على أطراف قواته، يقتلون ويأسرون ويعودون بالغنائم ،
وأكره جيش مسعود على التوجه حسب مشيئة السلاجقة والتحرك
والتصرف حسبما أرادوه أن يفعل ، وهكذا سيق هذا الجيش
العرمرم نحو حواف صحراء الدندانقان، وجعل يعسكر في مكان قليل
الماء كثير الرمال لاكلأ فيه ولاحوله، وكان التركمان قد القوا الجيف
في كافة آبار المنطقة ، ولم يبق هناك سوى آبار حصن دندانقان فأخذ

الجند يتخاصمون على شربة ماء ويتصارعون من أجل الوصول الى بئر داخل الحصن ، وهكذا انعدم النظام داخل صفوف الفزنويين وفر الكثيرون نجاة بأرواحهم ، أو انضموا الى صفوف التركمان الذين أخذوا يغيرون غارات شعواء : ويحملون حملات منكرة على من بقي مع السلطان ، واستمرت المعارك عدة أيام كاد السلطان مسعود نفسه أن يفقد حياته فيها . لذلك لاند حفاظا على حياته بالفرار ، وتوجه نحو غزنة ليخلع ثم يلقي حتفه - وهكذا تخلى نهائيا عن خراسان للسلاجقة (٥٣) . ولقد آذن نصر الدندانقان هذا بقيام امبراطورية اسلامية جديدة ، وباندحار ظل واحدة ، وتعتبر هذه المعركة من كبريات المعارك الفاصلة في تاريخ الاسلام ، ولم تنحصر نتائجها في حدود عالم الاسلام ، إنما تعدته فاثرت على عالم العصور الوسطى كله .

لقد كانت الغنائم التي كسبها الغز في معركة دندانقان اكثر من أن تحصى ، وليس هذا بالمهم ، إنما المهم أن طفر لبك عاد بعد نصره الى نيسابور ودخلها مع جموعه في آخر سنة ٤٣١ هـ أو اوائل سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م ولم تنج نيسابور هذه المرة من النهب ، ويقول الراوندي : « فلما أحرز السلاجقة النصر في هذه المعارك ازدادوا قوة ولحقت بهم جيوشهم المتفرقة في أطراف خراسان ، فاشتد وقعهم في القلوب ، وتقرر الملك لهم ، وسخرت الدنيا لامرتهم ، واستحقوا السلطان عن جدارة واستحقاق ... واجتمع بعد ذلك الاخوان جفري بك وطرل بك مع عمهما موسى بن سلجوق (٥٤) الذي يطلق عليه اسم « يبيغو اكلان » ومع ابناء اعمامهم وكبار قومهم وقواد جنودهم ، و تعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم ، ولقد سمعت أن طغرل بك اعطى لأخيه سهما وقال له : اكسره ، فتناول أخوه السهم ، وكسره في هوادة ، ثم جمع له سهمين فكسرها أيضا في هوادة ، ثم اعطاه ثلاثة فكسرها بصعوبة فلما بلغ عدد السهام أربعة تعذر عليه كسرها ، فقال له طغرل بك : إن مثلنا مثل ذلك ، فإذا تفرقنا هان لأقل الناس كسرنا ، وأما إذا اجتمعنا فلا يستطيع أحد أن يظفر بنا . فإذا دشأ خلاف بيننا لم يقيسر لنا فتح العالم ، وتغلب علينا الأعداء

ونذهب الملك من أيدينا «(٥٥)».

أرسل السلاجقة بعد ذلك رسالة الى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ هـ / ١٠٣١-٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م) يخبرونه بها بما تم في خراسان، ويسوغون خربهم ضد السلطان مسعود ويعلنون تعلقهم بالخلافة العباسية والاسلام السنني، ومما قالوه في رسالتهم كما رواها الراوندي: «إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائماً الحضرة النبوية المقدسة وأحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار وعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة، وكان لنا عم مقدم محترم بيننا اسمه اسرائيل بن سلجوق، قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين بغير جرم أو جناية، وأرسله الى قلعة «كالنجر» ببلاد الهند، فبقي في أسره سبع سنوات حتى مات». واحتجز كذلك في القلاع الاخرى كثيراً من أهلنا وأقاربنا، فلما مات محمود وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب... فلا جرم إذا طلب منا اعيان خراسان ومشاهيرها أن نقوم على حمايتهم». ولكن مسعوداً وجه إلينا جيشه، فوقع بيننا وبينه معارك تناوبنا فيها كر وفر وهزيمة وظفر. حتى ابتسم لنا الحظ الحسن... وظفرنا بالغلبة بمعونة الله عز وجل وبفضل أقبالنا على الحضرة النبوية المقدسة المطهرة، وانكسر مسعود وأصبح ذليلاً، وانكفأ علمه وولى الادبار تاركاً لنا الدولة والاقبال... وشكراً لله على ما آفأ علينا من فتح ونصر، فذشرنا عدلنا وانصافنا على العباد، وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد، ونحن نرجو أن نكون في هذا الامر قد نهجنا وفقاً لتعاليم الدين ولأمر أمير المؤمنين «(٥٦)».

بعد هذا قام السلاجقة بتقسيم خراسان بينهم، بحيث أخذ جفري بك جزءاً منها وترك للييغو وبقية الأمراء بقية الأجزاء، وكانت الخطة تهدف الى احاطة الدولة الغزنوية والحيلولة بينها وبين محاولة استعادة خراسان، ثم تهدف الى ترك طريق جيغون مفتوحاً من أجل قدوم مهاجرين غز جدد من أجل العمل على اكمال احتلال

أراضي الخلافة العباسية وغيرها من ديار الإسلام ، والأراضي البيزنطية، لقد أوكل لطغربك تحقيق هذه المهمة الأخيرة وترك معه إبراهيم ينال واتباعه، وابن عمه قتلмыш (قتلмыш) بن أرسلان بن سلجوق واتباعه، وياقوتي بن جفري بك، وتيسر لطغربك احتلال الري - قرب طهران الحالية- فاتخذ منها قاعدة لملكه، ومنها أخذ يبيت قواته لإكمال احتلال الهضبة الإيرانية.

إن ما أوكل إلى طغربك ، ثم ما حققه من نجاحات في الوصول إلى بغداد وإقامة الامبراطورية السلجوقية هي أعظم منجزات السلاجقة وأخطرها وأبعدها تأثيراً ليس فقط بالنسبة للتاريخ الإسلامي وإنما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية أيضاً.

لقد كانت مهمة طغربك ذات شقين، أو بالحري كان عليه تأمين غرضين أساسيين : الأول الوصول إلى بغداد وبالتالي تأمين طريق الحج إلى مكة ، والثاني تأمين الطريق نحو أرمينية فممتلكات بيزنطة في أسية الصغرى وممتلكات الخلافة الفاطمية في الشام وغيره، ويدل هذا على مطامح واضحة لطغربك ثم على فهم سياسي جيد ، وبين ٤٣٢ - ٤٣٦ هـ / ١٠٤٠ - ١٠٤٤ م استطاع طغربك احتلال المناطق الواقعة على شواطئ البحر القزويني، وبعد ذلك مد سلطانه على باقي اجزاء الهضبة الإيرانية ، فاحتل بعد الري همذان ثم أذربيجان وقضى على كل مقاومة، خاصة من قبل الكرد والديلم، وأصبح الآن الطريق مفتوحاً أمامه نحو بغداد وكذلك الطريق نحو أرمينية.

أن يهتم طغربك ويعمل للسيطرة على بغداد ذلك أمر مفهوم ، فكل الذين سبقوه في السيطرة على خراسان كان دائماً هدفهم السيطرة على بغداد والتحكم بالخلافة العباسية، وفي تاريخ الدولة السامانية والدولة الصفارية وأعمال محمود الغزنوي أمثلة كافية للبرهان على هذا ، ولكن لماذا اهتم طغربك بطريق أرمينية؟

لقد كان طغرل بك يقود جماعة من البداءة الغز، وكان هناك سيل غير منقطع من المهاجرين من بلاد ماوراء النهر الى خراسان ، والبداءة الغز كغيرهم من بني جلدتهم من البداءة كان ما يهتمهم دائماً هو تأمين المراعي والقيام بالسلب والنهب ، ومن الصعب السيطرة على البدوي ووضعه تحت سيطرة سلطة مركزية، أو ضمن أنظمة محددة معينة، وكان طغرل بك بعد معركة دندانقان بصدد إقامة امبراطورية سنوية ذات سمعة طيبة فيها أمن ونظام وكان من المحال والحالة هذه أن يترك بداته يذهبون، ولكن بداته كانوا أقوى منه ، لهذا وجد طغرل بك أن أفضل الحلول للتخلص من بداته هو توجيههم نحو فتوح خارجية في بلدان غير اسلامية أو بلدان لاتدين بالاسلام السنني، ولقد كانت أرمينية وبيزنطة البلد الكافر، وكانت الجزيرة والشام البلد الذي لا يدين بالسننة، والتوجه نحو الفتوح الخارجية لم يخلص فقط طغرل بك من مشاكل البداءة ، واشتباع رغبات هؤلاء في السلب والنهب والحصول على الغنائم، بل كان توجيههم بالنسبة لطغرل بك عملاً في سبيل مد رقعة دار الاسلام ، وكانت اعمالهم جهادا في سبيل الله لذا كان كل واحد من التركمان يطلق على نفسه لقب « غازي »!

يروى سبط ابن الجوزي وغيره من المؤرخين أنه في سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م « قصد الغز نيسابور ، فقال لهم ابراهيم ينال: هذه البلاد خربت وما تحملكم، اطلبوا بلاد الروم فهي أحمل لكم ، فساروا الى الروم ... فاوغلوا في بلاد الروم فقتلوا وأسروا ونهبوا أشياء كثيرة ، وعادوا الى اطراف ارمينية . وقيل انهم بلغوا الى خليج القسطنطينية ، وكان معهم محمد بن ابراهيم ينال، فغنم ابن ينال وحده مائة ألف رأس ، وأخذوا من السلاح والمال ما حملوا على عشرة الاف عجلة ، وقيل بل كان ابراهيم ينال بنفسه معهم » (٥٧) —

في هذه السنة تعرضت أراضي الجزيرة لأول مرة لغارات التركمان واصطدمت دولها بهم ، وإنه لمن الضروري قبل القيام بدراسة ذلك ان نتعرف أولاً على الوضع السياسي والديني والاجتماعي الذي

كان سائدا آنذاك في الجزيرة والشام ، وبذفس الوقت نتعرف الى
أوضاع بغداد والخلافة العباسية في هذه الآونة التي كان طغرلبيك
يجهد نفسه للسيطرة عليها ، وهذا سيكون موضوع الفصل التالي.



الفصل الثاني

قيام السلطنة السلجوقية

اوضاع بلاد الشام والجزيرة واحوالهما قبل
السلجوقية . تأسيس السلطنة السلجوقية من
قبل طغرل بك

كانني بالترك قد اتتكم على برانين مخدمة الاذان حتى يربطوها
بشط الفرات . (عبد الله بن مسعود) .

اتركوا الرايضة ما تركوكم ، فانهم سيخرجون حتى ينتهوا الى
الفرات فيشرب منه اولهم ، ويجيء آخرهم فيقولون قد كان هاهنا
ماء

(معاوية بن ابي سفيان) (١)



الشام عند الجغرافيين هو صقع يحده من الشرق الفرات ومن
الغرب البحر المتوسط ، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر
ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل طويلا حتى ما بعد
طرسوس في تركية اليوم ، وقد جعل العرب المسلمون ، بغد فتحهم
للاشام ، هذه البلاد خمسة اجزاء او مناطق عسكرية اطلق على كل

منطقة منها اسم جند وهي: جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قدسرين ، ومن حيث الواقع العملي كان عمر هذا التقسيم قصيرا واستمر نظريا ليس أكثر (٢) .

سكن الشام قبل الفتوحات الاسلامية من قبيل عدد من القبائل العربية كان اكثرها - تبعا لروايات النسابين العرب - منحدرًا من اصل يمانى ، ومن اشهر هذه القبائل قبيلة كلب ، ولقد استقرت كلب جنوب بلاد الشام وكان لها دورها البالغ الأهمية في العصر الأموي ، كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القبائل الى شمالي بلاد الشام ، ولقد كانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال من اصل قيسي ، وكان من اشهر هذه القبائل قبيلة كلاب ، وفي سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م بعد وفاة الخليفة الأموي ، يزيد بن معاوية التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك بن قيس بقوى كلب ومن ساندتها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط ، ولقد هزمت قيس وانتصرت اليمن ، وكانت قبيلة كلاب اكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة ، ولقد فر زعيمها زفر بن الحارث شمالا واعتصم في قرقيسيا (البصيرة في سورية حيث يلتقي الخابور مع الفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة ، ولم يستطع مروان ان يقسره على مثل هذا الاعتراف (٣) .

ولعل من اهم نتائج هذه المعركة انها قسمت بلاد الشام الى قسمين شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية ، وخاصة كلب وتسيطر عليه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعا عبارة عن دارين دار لكلب في الجنوب ودار لكلاب في الشمال ، وكان الحد الفاصل بين ديار كلب وديار كلاب نقطة وهمية تقع جنوب حمص وغالبا ما كانت عند الرستن على نهر العاصي .

لقد كانت كلاب كما ذكرنا قبيلة قيسية وكلب يمانية وتبعًا للنسابين العرب ، انحدر العرب من ابوين : واحد جنوبي وآخر

شمالي ، ومن العجيب ان تقطن القبائل ذات الأصل الجنوبي جنوب بلاد الشام وتقطن القبائل الشمالية شمالي بلاد الشام ، متبعين هكذا نمط التقسيم الذي كان موجودا ، في الجزيرة العربية - الوطن الأم - قبل الاسلام ! ويتساءل المرء أحدث هذا بعامل الصدفة ، ام تم عن قصد وعمد ، أم أن القضية كلها عبارة عن جزء من اسطورة الانساب العربية المخترعة ؟

إن قضية الانساب العربية مع تشكل القبائل قبل الاسلام ، وتأثر هذا التشكل بالهجرة بعد الفتوحات الاسلامية بحاجة الى دراسة علمية حديثة على ضوء الدراسات الاجتماعية الحديثة وقوانينها ،

انما يبدو أن من الاسباب التي ساعدت على تركيز القيسيين وسكناهم شمال الشام هو أن اليمانيين دخلوا بلاد الشام واستقروا في جنوبها قبل الفتوحات الاسلامية ، ثم إن هجرة القيسيين تمت بالاتجاه الى الشام عن طريق بلاد الرافدين فالجزيرة فالشام.

المهم اننا لم نسمع بعد معركة مرج راهط بسكنى اية قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام والعكس هو الصحيح ايضا ، ومع مرور الزمن اعتبرت قبيلة كلاب شمالي بلاد الشام ديارا لها واعتبرت اي تحرك قبلي من الجنوب هو عملا عدائيا موجهها ضدها ، ويلحظ المرء هذا بشكل واضح في القرن الخامس للهجرة حينما اقام الكلابيون الدولة المرداسية في حلب ، فقد دخلت الدولة المرداسية في صراع مستمر مع الخلافة الفاطمية ، واستعان الفاطميون بالكلبيين في حملاتهم ضد حلب ، وقاتلت كلاب بضراوة ضد الحملات الفاطمية لأن جنودها كانوا كلبيين وليس لسبب حماية حلب فقط ، ويمكن ايجاد شواهد على هذا في شعر ابن أبي حصينة ، شاعر المرداسيين ، وفي ما عمله المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي حينما أرسل من القاهرة في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م لمساعدة البساسيري في ثورته ، فبعدها وصل المؤيد في الدين الى دمشق جاءته التعليمات من الوزير في القاهرة بتجنيد قوة كلبية واصطحابها معه والتوجه شمالا الى حلب

ومنها الى الرحبة حيث كان البساسيري ، ولقد تجاهل المؤيد اوامر القاهرة ، وراسل ثمال بن صالح أمير حلب ليسمح له بدخول أراضيه ، لأنه كان يعلم بأن اصطحاب قوة كلبية وادخالها الى ديار كلاب سيؤدي الى إخفاق مهمته .

ويلحظ المرء انه منذ القرن الخامس - الحادي عشر ان اسم الشام بات يطلق احيانا ليعني القسم الشمالي منه ، وكلمة الشام الأعلى لتعني القسم الجنوبي ، روى غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء في تاريخه بأن السلطان ملكشاه كتب في سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م الى اخيه تتش « ان لا يتعرض الى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب » (٤) .

لقد كانت مدينة حلب دائما مركزا لشمالى بلاد الشام وفيها قام عدد من الدويلات المستقلة ، ولقد كانت دمشق كبرى مدن جنوبي بلاد الشام ، وأقول كبرى وليس مركزا لأن الجنوب انقسم الى قسمين : قسم فلسطيني ومركزه الرملة والنفوذ فيه كان لقبيلة طيء ، وقسم دمشق والنفوذ فيه بقسي لقبيلة كلب . ولقد كان الصراع دائما بين دمشق وحلب ، وكانت بلاد الشام ممزقة دائما سياسيا ، ولم تنعم بالوحدة السياسية ولا حتى الدينية والاجتماعية في تاريخها ابدا ، وغالبا ما تورطت طيء بمشاكل ذات صلة بمضر وسياستها .



في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد كانت اجزاء كبيرة من سواحل شمال بلاد الشام وشمالها الغربي خاضعة للحكم البيزنطي . ولقد كانت انطاكية ، واللاذقية وجبلة اهم المدن في هذه الاجزاء . وكانت هذه الاجزاء قد دخلت تحت الحكم البيزنطي في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد زمن الصراع مع الدولة الحمدانية بحلب بزعامة سيف الدولة .

وكان الجزء الجنوبي من بلاد الشام مع سواحلها رغم وجود طيء وكتب فيه خاضعا في القرن الخامس هـ لحكم الخلافة الفاطمية ، وهذه الخلافة كانت اسماعيلية لها سياستها الخاصة تجاه هذا الجزء . وكانت هذه السياسة جزءا من السياسة الخارجية العامة للخلافة الفاطمية تجاه بلاد الشام ككل والعالم الاسلامي بأسره . وقد نبعت هذه السياسة من مصدرين أساسيين :

واحد نظري والآخر عملي ، وقد قام النظري على عقيدة هذه الدولة التي هدفت للسيطرة على العالم الاسلامي - لا بل على العالم كله - ولإسقاط الخلافة العباسية وإزالتها من الوجود . ولتحقيق هذا الهدف ، وحتى تصل القوات الفاطمية من مصر الى العراق كان عليها ان تبسط سيطرتها أولا على بلاد الشام . وفعلا ما ان استولى الفاطميون على مصر وسيطروا عليها حتى تابعت جيوشهم سيرها نحو بلاد الشام ، وبعد صعوبات جمة استطاع الفاطميون احتلال دمشق مع القسم الجنوبي من بلاد الشام (هـ) . ولكنهم اخفقوا في بسط نفوذهم بشكل دائم على شمالي بلاد الشام ، وذلك بسبب مواجهتهم لعدة عقبات لم يستطيعوا تجاوزها ، وكان اهم هذه العقبات : أولا بعد شمالي بلاد الشام عن مصر . ثانيا ضعف الطاقات العسكرية والموارد الحربية للخلافة ، ثالثا وهو اكثر اهمية وجود بيزنطة في جوار شمالي بلاد الشام ، فهذه الامبراطورية لم ترض ابدا بوجود الفاطميين على حدودها ، وحالت بينهم وبين احتلال حلب وشمالي بلاد الشام ، ولقد رغبت بيزنطة بوجود دولة اسلامية صغيرة مستقلة او شبه مستقلة تقف حائلا بينها وبين الخلافة الفاطمية ، وأخيرا لقد قاوم اهالي بلاد الشام مثلهم مثل اهل الجنوب - رغم ان غالبيتهم كانت تدين بالتشيع - محاولات التوسع الفاطمي ، ورفضوا وجود الفاطميين في بلادهم ، وكانوا يبغضون الحكام الفاطميين بسبب السياسة المالية والاقتصادية والادارية للخلفاء والولاة الفاطميين الذين اعتمدوا على العناصر البربرية التي جلبوها معهم من شمالي افريقيا ، ولقد كان بداية شمال بلاد الشام ، كجزء من السكان ملكت قبائله خاصة كلاب قوة

مؤثرة ، لا يكرهون ويرفضون الحكم الفاطمي فقط بل كانت لهم مطامحهم الخاصة في اقامة دولة خاضعة بهم ، وعندما اقام صالمح بن مرداس الدولة المرداسية في حلب - كما سنتحدث بعد قليل - تحالف مع حسان بن المفرج امير طيء وسنان بن عليان زعيم كلب ، على طرد الفاطميين من الشام ومن ثم اقتسامه بين قبائلهم بحيث تقام دولة طائفة في فلسطين مركزها الرملة ودولة كلبية في دمشق وثالثة كلابية في حلب ، ولقد حقق هذا الحلف الثلاثي بعض النجاحات وطرد الفاطميين لفترة من الشام ، ولكن الخلافة الفاطمية استطاعت بعد فترة في سنة ٤١٩ هـ - ١٠٢٨ م هزم قوات الحلفاء واعادت سيطرتها على جنوبي بلاد الشام ، ولكن ليس على الشمال .

في الواقع كانت السياسة الفاطمية تجاه بلاد الشام ، وان اتخذت من العقيدة الاسماعيلية لبوسا ، هي في الحقيقة امتدادا للسياسة الخارجية لمصر الاسلامية المستقلة التي سعت دائما للسيطرة على الشام ، ذلك ان مصر كما هو معلوم ليس لها حدود طبيعية مع سورية وقد غزيت دائما عن طريقها لذلك عمل حكام مصر المستقلة دائما على احتلال سورية ومواجهة الغزاة بعيدا عن ارض مصر . ومعروف ان هذه السياسة التي تبنتها مصر المستقلة في كل ادوارها التاريخية وما حققته من نجاحات قد اثارت الرغبة في اقامة امبراطورية مصرية تحكم سوريا وغيرها .

ولقد ادى اخفاق الفاطميين في احتلال شمال بلاد الشام بشكل دائم إلى تعديل سياستهم النظرية وإلى تبني واحدة عملية تقنع بالولاء الاسمي في شمال بلاد الشام ، ولكن لا تتساهل مطلقا باستقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الاستقلال كان تهديدا مباشرا وخطيرا للوجود الفاطمي كله في مصر ، ويكفي أن نسوق هنا كدليل وصية يعقوب بن كلاس اعظم وزراء الدولة الفاطمية ، وهو على فراش الموت ، للعزیز الفاطمي وفيها يقول : «سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبق على دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة (٦) .

لقد استولى الفاطميون على سواحل جنوبي بلاد الشام ، وكان للفاطميين اسطولهم القوي الذي مكّنهم ، لفترة ، مع حامية دمشق وقوات فلسطين من الاحتفاظ بالسيطرة على مدن هذا الساحل التي كان أهمها طرابلس ، وصور ، وصيدا ، وعكا ، وفي النصف الثاني للقرن الخامس هـ - الحادي عشر للميلاد ضعف الفاطميون وبدأ نفوذهم يندسر ، وقد أفسح هذا المجال لقيام بعض من أنواع «الجمهوريات» المستقلة في كل من طرابلس وصور .

تولى عين الدولة بن أبي عقيل قاضي صور عليها ، وامتنع بها عن الاعتراف بالنفوذ الفاطمي ، وعقب موته ولي صور أولاده واستمروا يحكمونها حتى سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م حيث جاءت حملة فاطمية قوية استطاعت انتزاع المدينة منهم وأعادتها للحضرة الفاطمية (٧) .

لقد كانت الدولة التي قامت في طرابلس أطول عمرا وأبعد شهرة وأكثر أهمية من دولة صور ، ويعتقد أن مؤسس هذه الدولة هو القاضي أبو طالب الحسن بن عمار الذي كان من شخصيات الشام البارزة ، ومن المرجح أنه استقل بحكم طرابلس بعد سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٩ م وبعد وفاته في سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٨٢ م ، استبد ابن أخيه جلال الدولة أبو الحسن علي بن عمار بحكم طرابلس وظل يحكمها حتى سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ويعد جلال الدولة أعظم أفراد آل عمار الذين تولوا حكم طرابلس ، وفي عهده ازدهرت طرابلس ، ولقد استطاع جلال الدولة الحفاظ على استقلال طرابلس وحماها ودفع عنها الفاطميين والسلاجقة . بعد وفاة جلال الدولة خلفه أخوه فخر الملك أبو علي الذي ظل محتفظا بطرابلس حتى قبيل سقوطها بيد الصليبيين في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م (٨) .

وكما ضعف النفوذ الفاطمي في القرن الحادي عشر وانحسر عن مناطق الساحل الجنوبي لبلاد الشام ، كذلك حصل بالنسبة للنفوذ البيزنطي في بقية مناطق الساحل الشامي ، الفرصة التي استغلها

البعض لاعلان الاستقلال ، كما فعل منصور بن صليحة قاضي جبلة ، وعقب وفاة منصور خلفه ابنه عبيد الله في حكم جبلة ، ودافع عبيد الله عن جبلة ضد آل عمار حكام طرابلس وضد الصليبيين ، وأخيرا تنازل عنها الى طغتكين أتياك دمشق وذلك في سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٤م (٩) .



هكذا كانت اوضاع جنوب بلاد الشام وساحله في القرن الخامس الهجري الحادي عشر للميلاد أما الشمال حيث كانت جلب مركزه فقد حكم معظم الوقت من قبل الدولة المرداسية التي أسسها صالح ابن مرداس أمير قبيلة كلاب ، ومفيد قبل اعطاء تاريخ موجز لهذه الدولة أن نقف قليلا لننظر بشيء من الأمعان أكثر مما فعلنا من قبل سابقا الى القاعدة القبلية لهذه الدولة ، هذا وبسبب طبيعة اصل هذه القبيلة ، وبسبب علاقاتها بغيرها من القبائل خاصة في الجزيرة ، فإننا سنضمطر هنا الى توسيع هذه النظرة لتشمل الوضع القبلي ليس في شمال الشام فقط بل في الجزيرة أيضا .

كانت قبيلة كلاب قبل قيام الاسلام إحدى مشاهير القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية ، وكانت تقطن في منطقة المدينة ، وبعد قيام الاسلام هاجر جزء من كلاب مع من هاجر من القبائل العربية ، وقطن هذا الجزء شواطئ الفرات الشامية (١٠) ومد نفوذه وسيطرته على شمالي بلاد الشام كما سلف البيان ، لكنه لم يعمل لاقامة حكم دولة مستقلة تحكم شمال بلاد الشام حتى جاء القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد ، ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى اوضاع الخلافة العباسية وقوتها آنذاك ، ثم إلى التأثيرات الحضارية التي لابد وقد أثرت في الكلابيين ، إنما أصاب قبيلة كلاب منذ مجيء القرن العاشر للميلاد تغييرات كبيرة ، ففي هذا القرن الذي شهد حركات القرامطة ونشاطها في شبه الجزيرة العربية

والشام والعراق والجزيرة وصل إلى شمالي بلاد الشام وأعلى الجزيرة موجة كبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة وهي : كلاب وعقيل ونمير وقشير وخفاجة ، وبعد فترة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها ، فعقيل قامت بسكنى منطقة الموصل ، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها ، حيث استطاعت بعد أمد وراثته الدولة الحمدانية في الموصل وإقامة الدولة العقيلية مكانها ، وسنتعرض بعد قليل لتاريخ هذه الدولة ، أما نمير فقد اتخذت من منطقة حران والرها ديارا لها ، واتخذت من حران مركزا لنفوذها ، وأما قبيلة قشير فقد توطنت حول قلعة دوسر التي تبدل اسمها إلى قلعة جعبر نسبة إلى جعبر بن سباق أحد شيوخ قشير الذين حكموها ، ويقول ابن حوقل الذي عاصر وصول الموجة الجديدة واصفا حال الجزيرة في أيامه :

« وبالجزيرة براري ومفاوز وسبخ بعيدة الاقطار تنتجع لامتياز الملح والاشنان والقلي ، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، أهل خيل وغنم وأبل قليلة ، وأكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة ، فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير وعقيل وبني نمير كلاب ، فأزاحوهم عن بعض ديارهم بل جلها ، وملكوا غير بلد وأقليم منها ، كحران وجسر مذبح والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسيا والرحبة في أيديهم يتحكمون في خفائرها ومراقفها» (١١) .

وكما استقرت قبائل عقيل ونمير وقشير في الجزيرة فقد استقر الكلابيون الجدد في شمالي بلاد الشام مع اخوانهم الكلابيون القدماء لكن عملية استقرار هذه القبائل كلها لم تمر بسلام ، بل أن هجرة هذه القبائل قد سببت الكثير من الفوضى وبعض الدمار لأراضي شمالي الشام والجزيرة ، وقد هيأت الفوضى السياسية التي نشأت الفرصة لظهور عدد من المغامرين مثل المتنبي الشاعر والأصفر الغازي . كما أكرهت عددا من القبائل القديمة في الجزيرة وخاصة بقايا قبيلة تغلب على الهجرة إلى الأراضي البيزنطية

ويتحدث ابن حوقل عن خروج بني حُبيب «بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم وخفهم الذي يمكن بمثله النقلة ، ومن ساعدتهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من العصب لعقارهم في نحو عشرة الاف فارس » إلى الأراضي البيزنطية حيث استقروا ثم « تنصروا بأجمعهم وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم » ذكر ابن العديم أن قبيلة بني نمير وصلت الجزيرة في سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م كما روى أنه في ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وصلت كلاب إلى شمالي بلاد الشام ، وبين أن قبيلتين من هؤلاء الكلابيين الجدد وهما سببيرة وذؤيبة قد أغارتا في سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م على معرة النعمان وذلك بعد أن نخرُوا الشام الشمالي

لقد تألفت كلاب من عدة قبائل متفاوتة الحجم ولا بد أن قدوم المهاجرين الجدد واختلاطهم بالقدماء قد أثر عليها فغير من تركيبها ، إنما على العموم تميزت هذه القبيلة مثلها مثل بقية قبائل عامر بن صعصعة بتحكم روح الفوضى والفرقة بينها ، فلقد أثر الكلابيون وغيرهم دائماً التمزق ولم يدينوا باخلاص لقائد واحد ، ولقد كانت لديهم «مثلهم» الخاصة في الاخلاص السياسي .

وكانت جميع قبائل عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية ، ونحن لا نعرف مدى التعلق الجدي بهذا المذهب ، سوى أن بعض الأسماء الشيعية ، مثل علي ، عليان ، علوان ، وجعفر قد تبناها بعض افراد هذه القبائل ، وفيما خلا هذه الأسماء التي كانت قليلة جداً فإن أسماء الكلابيين والقشيريين والنميريين والعقيليين كانت عربية صرفة وغير متأثرة بالأسماء التي عم انتشارها بعد قيام الاسلام خاصة الأسماء المركبة التي تبدأ بعبء وتنتهي باسم أو صفة من صفات الله (١٢)

استولى في سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م صالح بن مرداس على بلدة الرحبة (الميادين الحالية في سورية) على الفرات ، وبعدها فعل هذا ، اعترف صالح بن مرداس بسلطان الخليفة الفاطمي في القاهرة (١٣) ولقد كانت الرحبة من أكثر مدن الشام أهمية نظراً لموقعها

الاستراتيجي الخطر ، فقد كانت هذه البلدة تقع على الفرات ، وهذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية ، كما كانت قريبة من العراق غير بعيدة عن حلب ولا عن دمشق أيضا ، ثم إن البادية كانت وثيقة الصلة بها ، وفي البادية أقامت العشائر البدوية التي شغلت أعظم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام ، وبايجاز لقد كانت الرحبة أول محطة نحو الشام للبداة المهاجرين من شبه الجزيرة العربية ، وكان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال بلاد الشام وأجزاء من الجزيرة ، وهذا ما حدث لصالح بن مرداس .

ولقد حافظت الرحبة على أهميتها هذه ومكانتها حتى أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م حيث حلت محلها مدينة الموصل ، التي كانت إحدى كور الجزيرة الثلاث : ديار بكر وديار مضر وديار ربيعة ، والجزيرة كانت أصلا تشتمل على البلاد التي بين دجلة والفرات Mesopotamia ولقد ضم بعض من الجغرافيين العرب قسما من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات من بر الشام إلى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها .

وكانت الموصل أعظم مدن الجزيرة (١٤) وكانت دائما متورطة في مشاكل العراق السياسية وغيرها ، وقلما كان لها دورها في مشاكل الشام ، وظل الحال هكذا حتى أواخر القرن الحادي عشر م عندما ازداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البدااة العرب ، وكانت الموصل أول محطة لهم نحو الشام ، وسبب هذا تحولا هاما في تاريخ الموصل مع الجزيرة والشام فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف وغدت هذه المدينة بالتدريج جزئا من الشام ، وتورطت في مشاكله ، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والاساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام وربما على الشام بأسره ، وسنرى في تاريخ الدولة العقيلية والدولة الاتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

وبعدما احتل صالح بن مرداس الرحبة أخذ يتطلع بمطامحه نحو

حلب ، فتورط من أجلها في صراع طسويل اثمير في سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م عن احتلال حلب وإقامة الحكم المرداسي فيها . ولم تقف مطامح صالح عند حدود حلب وشمال بلاد الشام بل إنتزع بعض أجزاء الساحل الشمالي من الفاطميين وساهم في العمل من أجل طرد الفاطميين من الشام ، فذهب ضحية مطامحه حيث قتل في سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٩ م في معركة الاقحوانة ، في وادي الأردن قرب طبرية (١٥) ومقتل صالح لم يزل من الوجود الدولة التي أقامها ، فقد احتفظ أولاده بحكم حلب فحكم ثلاثة منهم بعده بشكل متوالي وهم : نصر ثم ثمال ثم عطية . ثم حكم بعد عطية حفيد صالح محمود بن نصر ، ثم نصر بن محمود ، وأخيرا سباق بن محمود الذي سقطت الدولة المرداسية في زمنه .

بعد وفاة ثمال في سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م دخلت أول جماعة غزية بلاد الشام وسندرس هذا في الفصول المقبلة بشكل مفصل وسنوضح آثاره وكيف أنه سبب سقوط الدولة المرداسية وعمل على إزالة القوة العربية من الشام .

لقد كانت الدولة المرداسية دولة بدوية . تطبعت بالأخلاق العربية ، وبالمفهوم العربي البدوي في الحكم ، لذلك إزدهرت في ظلها الحضارة العربية وثقافتها ، ففي زمن المرداسيين وفي ظلهم عاش المعري وكتب نثره وشعره ، وكذلك فعل ابن أبي حصينة الشاعر وابن سنان الخفاجي الكاتب الشاعر ، وأخيرا ابن حيوس كبير شعراء الشام في أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م .

ولقد كانت علاقات الدولة المرداسية بالخلافة الفاطمية سيئة بشكل عام ، برغم ان المرداسيين قد اعترفوا رسميا بسلطان خليفة القاهرة ، ولم يكن لهم اية علاقة - حتى ما قبل ١٠٧٠ م - بالخلافة العباسية ، ولكن بذفس الوقت الذي اعترف فيه المرداسيون بسلطان الفاطميين كانت علاقتهم بالامبرطورية البيزنطية جيدة

بشكل عام ، وغالبا ما وضع الامراء المرداسيون انفسهم تحت الحماية البيزنطية ودفعوا جزية سنوية للقسطنطينية

اعتادت بيزنطة أن تقيم دولا على حدودها ، لحماية هذه الحدود من غارات البدو بشكل عام ، ولتكون هذه الدول حاجزا بين بيزنطة وقوى كبرى أخرى . وعلى هذا فقد عمدت بيزنطة للعمل على حماية الدول البدوية التي أقامتها وعلى مساندتها بالمال وغير ذلك من الأسباب ، أما أن تدفع دولة بدوية الجزية لبيزنطة . فلا بد أن ذلك حالة شاذة لها أسباب غير اعتيادية ؛ ويعود سبب دفع المرداسيين الجزية للامبراطورية البيزنطية إلى وجود التهديد الفاطمي الدائم . ثم إلى طبيعة قبيلة كلاب من فوضى وتمزق وعدم اخلاص وعدم انقياد لزعيم واحد



لقد عاش مع كلاب في شمال بلاد الشام قبائل أقل شأنًا منها وقوة . إنما ينبغي التعرض لها لأن بعضها قد قام بدور سياسي هام ، لقد كان هناك بنو أسد النين عاشوا في منطقة معرة مصرين ، وجبل السماق ، ونقرة بني أسد بين خناصره والأحص وفي أطراف وادي بطنان كجيران لبني عبس النين سكنوا هذا الوادي مع حيار بني القعقاع ، ولقد قطن قسم من عبس في حاضر قدسرين ، وفي معرة النعمان عاشت بقايا تنوخ

ويهمنا أكثر من هؤلاء جميعا بنو منقذ الذين سكنوا المنطقة الشمالية الغربية لمدينة حماة ، وكان مركزهم بلدة كفر طاب ، وذلك حتى سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م عندما تمكنوا من احتلال قلعة شيزر وخرائب كفر طاب ، ما تزال قائمة وهي على بعد حوالي ٣ كم إلى الغرب من خان شيخون الواقعة على الطريق العام الواصل بين دمشق وحلب . وقد زرت موقع هذه البلدة وشاهدت ما بقي من أثارها .

ولقد كان لبني منقذ من القوة والعدد ما مكنهم من شغل دور هام في تاريخ الشام في أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م ثم في القرن السادس هـ / الثاني عشر م . ومن أشهر رجالات بني منقذ في القرن الحادي عشر علي بن مقلد الذي كان أخا بالرضاعة لمحمود بن نصر بن صالح بن مرداس أمير حلب ، وقد قام علي بدور هام في أمور حلب السياسية وفي أمور مدينة طرابلس وكان هو الذي احتل قلعة شيزر وأقام حكم الأسرة المنقذية فيها ، وفي القرن الثاني عشر أسامة بن منقذ الفارس الشاعر صاحب كتاب الاعتبار وغيره من الكتب (١٦) .

كان غالبية سكان بلاد الشام في القرن الخامس هـ - شريعة معظمهم من أتباع المذهب الاثني عشرية ، وكان بين الشيعة بعضا من الاسماعيلية في الشمال والجنوب ، وبعضا من الدروز في شمالي

غربي حلب ، وكان هناك النصيرية في جبل بهسراء - العلويين الآن - وكان السنة يقطنون في المدن الكبرى وكانوا في جنوب بلاد الشام أكثر منهم في الشمال ، وكالعادة وجد نزاع حاد بين الجماعات الإسلامية وكان هذا النزاع من الأسباب التي زادت تجزؤ بلاد الشام عمقا وقوته ضعفا ، وبالإضافة للمسلمين وجد في المدن الكبرى كدمشق وحلب طائفة لا بأس بحجمها من اليهود ، وكان النصارى منتشرين في ريف الشام ومدنها الكبرى ، وكانوا كثرة مؤثرة في شمالي البلاد وغربيها وكان بعض هؤلاء النصارى من أصل أرمني ، ولم تكن العلاقات بين النصارى واليهود والمسلمين دائما سليمة بل غالبا ما توفرت أسباب الخلاف ووجد النزاع ، إنما كانت الحرية الدينية على العموم متوفرة ، وكانت أحوال النصارى المعاشية جيدة وكانت معظم أعمال الإدارة في أيديهم ، ويمكننا أن نعد القرن الخامس هـ / الحادي عشر م العصر الذهبي لنصارى الشام ، ذلك أن قدوم الصليبيين إلى الشام أدى إلى بعض ردات الفعل العنيفة ضد النصارى الشاميين (١٧) .



لقد عرف مجتمع مدن بلاد الشام في القرن الخامس وقبله بعض التنظيمات الشعبية البلدية ، ويمكن تقسيم هذه التنظيمات من حيث الأطر العامة إلى قسمين رئيسيين : واحد صغير مثل القشرة العليا من المجتمع من تجار وأثرياء وأشراف وبعض من شغلوا الوظائف الدينية من قاضي ومحتسب ، وقسم كبير مثل الجزء الأكبر من الناس وعرف باسم الأحداث ، ولقد قام التعاون والتآلف أحيانا بين هذين القسمين ، ولكن نظرا لطبيعة القسم الأول الخاصة وبالتالي بسبب مصالحه الذاتية المتميزة فإن دوره كان في الغالب سلبيا ، اتسم بالمداينة للحكام والاعتدال في المنهج .

وفي التاريخ الاسلامي إذا كان من السهل تصور قيام اتحاد بين أغنياء وتجار وأشراف مدينة ما ، وبالتالي تكوين شريحة إجتماعية وتنظيم جامع ، فإنه لمن الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، التعرف إلى بداية نشوء منظمة شعبية ثم كيفية تطور هذا التنظيم وتكامله . والسبب الرئيسي لهذا هو أن المؤرخ المسلم كان غالباً من الشريحة العليا ونادراً ما أولى المحكومين اهتمامه ، فلقد تحدث فقط عن الأمراء والملوك ذوي المؤسسات الظاهرة التي كانت تميز الدول .

وينطبق هذا على أصل منظمة الأحداث في بلاد الشام ، حيث إنه من الصعب تحديد تاريخ لقيامها ، ثم أسباب هذا القيام ، وبعد ذلك المراحل التي اجتازها التنظيم حتى تكامل وأخذ شكله . ويقترح المستشرق الفرنسي كلود كاهن بأن من الممكن أن تكون منظمة أحداث الشام ذات صلة ، أو بالحري هي امتداد للمنظمات التي عرفت لها الأمبراطورية البيزنطية التي كانت تحكم الشام قبل الفتح الاسلامي

ليس هناك شواهد مادية تؤيد هذا الاقتراح ، وبصورة : إن منظمة الأحداث قد ولدت في بلاد الشام المسلمة ونمت في إطار هذه البلاد ونبتت من مشاكلها الخاصة السياسية والاجتماعية الاقتصادية ، ولم يكن للمنظمة الأحداث أية علاقة بمنظمات الامبراطورية البيزنطية ، فلقد نشط الأحداث أكثر ما نشطوا في حلب ودمشق ، وكانت هاتان المدينتان ، وخاصة حلب ، من الدرجة الثانية زمن البيزنطيين ، لأن القدس وأنطاكية كانتا تحتلان مركز الصدارة ، ولقد قلل الفتح الاسلامي من مكانة القدس وأنطاكية وزاد من أهمية دمشق وحلب ، ثم إنه ليس من الضرورة أبداً أنه عندما تتحكم امبراطورية اجنبية بأمة من الأمم أن تنجح في فرض عاداتها وأحزابها ومنظماتها على الأمة المحكومة ، يضاف الى هذا أن بلاد الشام كانت دائماً المؤثرة في بيزنطة من كافة النواحي وخاصة النواحي الاجتماعية والدينية منها ، ثم إن بلاد الشام كانت مشغولة قبل الفتح الاسلامي بالمشاكل الدينية التي كانت ناجمة عن

الاذن سلمات داخل الكنيسة ، علما بأنه لم يرد في أي مصدر من المصادر إشارة الى وجود منظمات محلية سياسية أثناء الفتح الاسلامي وزمن الحكم الأموي *

بعد سقوط الخلافة الأموية كان ظل الحكم العباسي في الشام دائما ضعيفا ولما ازداد ضعف الحكم العباسي تعرض الكثير من مدن الشام لعدد من المخاطر، وربما لما وجد أهالي هذه المدن أن العباسيين ليس بمكنتهم درء هذه المخاطر ، قام بعضهم بإنشاء بعض التنظيمات الدفاعية، وإليك مثالا موضحا . لهذا : في سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ - ٩٠٢ م، أخفق جيش عباسي عداة عشرة آلاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار المدينة ، ولما رأى الحلبيون أخفاق الجيش العباسي ووقوعهم تحت الحصار كونوا قوة محلية لم تتول فقط الدفاع عن المدينة ، إنما قامت بهجوم مفاجيء على القرامطة نتج عنه هزيمتهم وفك الحصار عن حلب *



عقب قيام الدولة العباسية وجعلها من العراق مركزا لها ثم لانشغالها بمشاكل الشرق ، اعتمدت هذه الدولة على النظام الدفاعي في علاقاتها مع بيزنطة ، فاقامت عددا من الحصون والقلع التي وضعت فيها الحاميات العسكرية للتصدي لأي هجوم بيزنطي ، وبات اسم خط الحدود الأول مع بيزنطة يعرف باسم العواصم ، ولقد تطور في هذه العواصم نظام دفاعي خاص، كان ذا اسس عسكرية تعتمد على سكان كل ثغر من الثغور، ومن حسن الحظ أنه وصلنا جزء كبير من كتاب اسمه سير الثغور كتبه أبو عمرو الطرسوسي

المتوفى في حوالي سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م، وذلك ضمن المجلد الأول من كتاب بغية الطلب لابن العديم (الذي قمت أخيرا بتحقيقه) *

لقد قدم أبو عمرو في كتابه سير الثغور وصفا رائعا مفصلا للحياة العسكرية في الثغور وكان أروع وصف ذاك الذي تناول به هذه الحياة في مدينة طرسوس، كبرى مدن الثغور وأبعدها شهرة: لقد كان غلمان طرسوس يدفعون قبل بلوغهم الحلم الى بعض الشيوخ الأساتذة الثقاة من أهل المدينة، فيقوم هؤلاء بتصنيف الغلمان الى فئات ثم يأخذون في تدريبهم على الشؤون العسكرية، ويستمر ذلك حتى يبلغ هؤلاء الغلمان سن الرجولة حيث يلتحق انذاك كل فتى منهم بسرية من سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر (١٨) .

إنه لمن المتصور والحالة السياسية كما وصفت من حيث الاضطراب ، وتجارب العواصم العسكرية كما بينت، أن قام اهالي كل مدينة و بلدة في الشام بتشكيل منظمات عسكرية شعبية لأغراض الدفاع ، ثم إن الاضطراب السياسي مع التبدل السريع في الدول الذي شهدته المنطقة لابد وقد جعل بعض العسكريين الذين فقدوا مناصبهم مع قيام كل دولة جديدة يلتحقون بمثل هذه المنظمات، وهكذا أعاروها خبراتهم وساعدوا على تطويرها وزيادة صيغتها العسكرية ، إلى أن غدت نوعا من « الميليشيا الشعبية »، ثم إن ضعف جميع الحكومات التي قامت في الشام منذ ما قبل القرن العاشر لابد وأن جعل الحكام لا يتغاضون فقط عن نشاط هذه « الميليشيا » بل يستخدمونها من أجل مآربهم وأغراض حكمهم الخاصة، وهذا لابد أيضا قد أثر في تطور منظمة الأحداث وساعد على توطدها، وإن في بعض الأمثلة التي سأقدمها عن نشاط الأحداث ما يكفي للتدليل على صحة جميع ما افترضته *

إن الفترة المحصورة ما بين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وأواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م قد شهدت ذروة نشاط الأحداث ، وتجلى هذا بصورة واضحة بشكل

رئيسي في مدينتي دمشق وحلب، وخلال هذه الفترة خضعت أجزاء كبيرة من الشام للحكم الفاطمي، ولما كان الفاطميون قد قام مذهبهم في الحكم على اطاعة الامام بشكل مطلق، فإنهم لم يسمحوا بوجود أي هيئة أو تنظيم إلى جانبهم، لهذا اضطدوا عندما حاولوا الاستيلاء على جنوبي بلاد الشام بالأحداث ولم يتمكنوا من دمشق إلا بعد القضاء بشكل مبرم على غالبية أفراد منظمة الأحداث، وبرغم ذلك فقد بقي للأحداث قوتهم في شمالي بلاد الشام وخاصة في حلب، وعندما قدم السلاجقة إلى الشام والحقوقه بامبراطوريتهم التي اتخذت من الأوتوقراطية العسكرية قاعدة لحكمها قاموا بتصفية الأحداث، لذا عندما جاء الصليبيون إلى الشام وجدوه خاليا من جميع القوى والتنظيمات الشعبية المحلية فاستطاعوا انتزاع أجزاء كثيرة منه ومن مدنه دون كبير عناء.

بعيد أن استولى الفاطميون على مصر زحف في سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م جيش فاطمي على رأسه القائد البربري جعفر ابن فلاح، نحو بلاد الشام كي يعمل على ضمها إلى الحكم الفاطمي ولقد لقي هذا الجيش أثناء زحفه في فلسطين مقاومة من الجيوش الاخشيدية، لكنه تغلب عليها، وتابع سيره نحو دمشق، وقبيل وصوله إليها فر حاكمها الاخشيدي منها، فخلت المدينة « من السلطان، فطمع الطامع وكثر الذعار وحمال السلاح » ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم بأن أغلقوا أبوابها، وأوقفوا الرماة على شرفات الأسوار، وأقاموا الحواجز داخل المدينة، وكسروا قني الماء، وحفروا الخنادق. ولقد اشترك الرجال والنساء والصبية في الاعداد للدفاع عن دمشق، وكاد أهالي دمشق أن يتمكنوا من صد قوات الفاطميين عندما هاجمت مدينتهم لولا أن جماعة من التجار والأشراف قامت فشلت وفدا قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح، وأخذ يبت التخاذل بين المدافعين مما سبب إيقاف المقاومة وفتح أبواب دمشق لجيش ابن فلاح.

لقد كان القائم بأمر الدفاع عن دمشق رجلا من أهلها اسمه أبو

اسحق محمد بن عسودا، وبعدهما دخل جعفر بن فلاح دمشق هرب محمد بن عسودا الى الأحساء فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الأعصم، فحضره على مساعدة دمشق، فلقى الاستجابة منه، وجاء جيش قرمطي نحو دمشق فالتقى بجيش ابن فلاح فهزمه، ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة * وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي، وعين القرامطة عليها من يحكمها وتابعوا سيرهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي، ولكنهم أخفقوا وهزموا، وجردت الجيوش الفاطمية مجددا في إثرهم لملاحقتهم ولإعادة جنوب الشام الى حظيرة الخلافة الفاطمية *

وحدث هذا كله سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يحكم في القاهرة لذا قام بتعيين ظالم بن مرهوب (أو مرهوب) العقيلي حاكما على دمشق، وحاول ظالم العربي الأصل أخذ دمشق بالحديد والنار فأوقع الحرائق بعدة أماكن من المدينة، لكن ذلك لم يفت من عضد الدمشقيين بزعامة الأحداث، وأخيرا تم الوصول الى تسوية غادر بموجبها ظالم بن مرهوب المنطقة، وسمح الأحداث لحاكم فاطمي آخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم، وكان هذا حلا مؤقتا وغير ناجح، إذ حالما عادت الاضطرابات الى دمشق، وهنا تدخل المعز لدين الله بالأمر فأوعز إلى واليه على طرابلس بالقدوم الى دمشق لحل مشاكلها فقام هذا بصرف القوات الفاطمية وأجلاها عن دمشق، وهكذا تم الوصول الى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق الذين أحكموا قبضتهم على المدينة وأمورها، ولقد كان زعيم الأحداث في هذه الأونة عاميا عرف باسم ابن الماورد، وكانت منطقة باب الصغير هي نقطة تركز الأحداث أو مكان ثكنتهم *

حدثت في هذه الأونة مشاكل سياسية كبيرة في بغداد أدت الى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (٣٢٤ / ٩٤٦ - ٣٦٣ / ٩٧٤) واستخلاف ولده الطائع ودفع هذا بعض العسكريين الأتراك الى القيام بهجر بغداد * وكان من بين هؤلاء البتكين الحاجب، الذي ترك

العراق وجاء نحو دمشق، وعندما وصلها عسكر مع غلمانته خارجها، فخرج إليه شميوخ المدينة وأشرافها فرحبوا به، وسألوه «الاقامة عندهم، والنظر في أحوالهم، وكف الأحداث الذين بينهم، ودفع الأذية المتوجهة عليهم منهم» * وقبل البكتين العرض ودخل دمشق فرتب أمورهما، إنما بالاتفاق مع الأحداث الذين كانت علاقته بهم جيدة ولم تتأثر أوضاعهم بدخوله دمشق ولم يضعف نفوذهم بها، لأنه اهتم بالمشاكل الخارجية وترك أمور المدينة الداخلية لزعماء الأحداث ومقدميهم، وكان أكبر هؤلاء رجل عرف باسم قسام التراب، وقسم هذا كان أصله من إحدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون، وقد نشأ في دمشق وكان يعمل في التراب، ثم انضم إلى الأحداث فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل فيهم *

وهكذا سارت أمور دمشق بشكل جيد لكن الخلافة الفاطمية ماكانت لتسمح باستمرار الأوضاع هكذا، لما قد يسبب لها من مشاكل، لهذا جرد الخليفة العزيز قواته بإمرة جوهر الصقلي فاتح مصر، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن، وأخفق جوهر واستطاع البكتين صد الفاطميين وهزمهم في أكثر من معركة، مما اضطر العزيز إلى الخروج بنفسه لحربه، واستطاع العزيز إيقاع الهزيمة بالبكتين، وأخذ أسيراً وعاد به إلى مصر في سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م * لكن ماحل بالبكتين لم يؤد إلى سقوط دمشق، بل حافظت المدينة على استقلالها، واستبد قسام وأحداثه بأمورها فضبطوها ضبطاً جيداً، وكأجراء احتياطي قام قسام بمراسلة الخليفة العزيز فاعترف اسمياً بسلطانه، ودافعه عن دمشق، وتظاهر العزيز بالرضى، إلا أنه قام في السنة التالية ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م بإرسال جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل من أجل استعادة دمشق، وقدم هذا الجيش نحو دمشق، لكنه أخفق في دخولها، واضطر إلى الانسحاب راضياً بتعهد من قسام وأحداثه أن لايسلموا البلاد لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين، ودام الحال على هذه الصورة حتى سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م، حين جهز جيش فاطمي جديد لإعادة السيطرة على دمشق، وذلك بعد ما أخفقت محاولات

أخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها، وإثارة الأعراب ضدها في إسقاط حكم قسام*.

ووصل الجيش الفاطمي إلى أسوار دمشق، وأخذ بحصارها، وطال الحصار واشتدت مقاومة قسام وأحداثه، وفي ذروة المعركة قام أشراف وأثرياء دمشق بالاتصال بقائد القوات الفاطمية، ثم أخذوا بتبذير الناس عن قسام، وضاغطوا عليه كي يوقف المقاومة ويسلم المدينة، وفي لحظة إعياء نفسي وجسدي شديد وخوف قبل قسام بتسليم دمشق للفاطمين على شرط الأمان له ولأصحابه، وهكذا فتحت دمشق أبوابها. تدخلت القوات الفاطمية وأخذت بمقابلة الأمور بها، ولكن سلطتها لم تتعد الواقع النظري، فقد احتفظ الأحداث بسيطرتهم الفعلية وبنفوذهم المؤثر، ودام الحال هكذا حتى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م زمن الخليفة الحاكم بأمر الله، حين ثار أحداث دمشق على واليهم الفاطمي وطردوه من مدينتهم*.

ويبدو أن مدن الشام الأخرى قد وجدت فيها في هذه الفترة تنظيمات مشابهة للأحداث لها قوتها، ففي صور تزعم الأحداث رجل اسمه العلاقة الملاح، وثار هذا الملاح أيضا بالفاطمين وطردهم من صور، وأعلن استقلال صور، وضرب نقوده الخاصة به، وهنا كانت ردة فعل الدولة الفاطمية شديدة، حيث جهزت قواتها البرية والبحرية من أجل القضاء على أحداث جنوب الشام، واستطاع الأسطول الفاطمي أخذ صور، وأوقع الهزيمة بالعلاقة وأخذه أسيرا، حيث تم حمله إلى القاهرة، وهناك سلب هذا الثائر حيا وصلب بظاهر القاهرة، ولانعرف بالدقة موقف أحداث دمشق من ثورة العلاقة، كما أنه ليس لدينا ما يشير إلى أن هناك صلات وتعاون وتنسيق بين أحداث مدن بلاد الشام*.

ويبدو أن هذه الضربة القاسية التي حلت بأحداث صور قد أثرت على معنويات أحداث دمشق، لذلك عندما وصل الجيش الفاطمي إلى دمشق لم يقاوموه، بل استقبلوه بالطاعة المشروطة، ورضى الجيش الفاطمي بذلك، أو على الأقل تظاهر بالرضا، ولم يدخل المدينة

وعسكر خارجها، وأخذ يحضر لضربة قاصمة ضد دمشق وأحداثها وأرسلت القاهرة واليا جديدا لتولي شؤون دمشق مع خطة غدر للقضاء على الأحداث، وكان اسم الوالي الجديد بشارة الاجشيدي الذي وصل دمشق في سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م، لكنه لم يدخلها بل اقام خارجها في إحدى قراها، وأخذ يقيم علاقات الود والصداقة مع مقدمي الأحداث الذين كانوا الآن اثنا عشر رجلا، على رأسهم زعيم اسمه الدهيقين، وكان بشارة يدعوهم دائما الى ولائهم حتى اطمأنوا له، ووثقوا به. وفي شتاء هذا العام دعا بشارة مقدمي الأحداث مع حوالي مائتي رجل منهم الى وليمة، وكان بالوقت نفسه قد أعد قواته مع أوامر بالاستعداد للهجوم على دمشق، وعين لكل قائد من قادة جيشه حيا من أحياء المدينة كي يبطش به وبأهله، وعندما فرغ الأحداث من تناول الطعام ودخلوا الحمام من أجل غسل أيديهم، أغلقت عليهم الأبواب، وفتك بهم جميعا بطريقة ليس من الصعب تصورها^(١٩) حيث تكرر وقوع ما يشابهها مرارا في تاريخ الاسلام. سواء حين جرى ذبح الأمويين من قبل العباسيين أو أخيرا حين فتك محمد علي بالمماليك في قلعة القاهرة.

لقد كانت ضربة مروعة قضت على أحداث دمشق وأخدمتهم، فلم نعد نسمع بوجودهم المؤثر فيها، ورزحت دمشق تحت الحكم الفاطمي حتى انتزعها اتسز الزعيم التركماني كما سيمر معنا بالتفصيل، وكانت الحامية الفاطمية في دمشق مؤلفة من جند من أصل بربري. وإن وجود حكم مكروص مع حامية شبيه اجنبية، ثم خلو المدينة من التنظيمات المحلية كان من أسباب تعثر دمشق وأخذها دورا سلبيًا في بداية تاريخ الحروب الصليبية، وهذه مسألة ستتناول حظا أوفى من البحث في المستقبل، على أننا إذا ما تركنا جنوب بلاد الشام وتوجهنا نحو شماله، نجد الأحداث يشغلون في حلب دورا هاما جدا، فالأحداث هم الذين ساعدوا صالح بن مرداس على الاستيلاء على حلب، وكانوا إذا ما قام صراع بين اميرين من آل مرداس انتصر الذي ساندوه، ولقد وقف الأحداث من التركمان موقف المعادي، وسيمر معنا بالتفصيل ما قاموا به من أعمال

ضدهم، ثم كيف أن قيام أول حكم تركماني في حلب قد أذن بانتهاء وجودهم ونفوذهم فيها .

لقد كان الأحداث يتقاضون أحيانا بعض المرتبات، وكانوا يقومون بوظائف الشرطة البلدية، يسهرون على الأمن ويراقبون النظافة والنظام العام في المدينة (٢٠) .

إن القضاء على الأحداث في بلاد الشام يمكننا من الإجابة على إحدى مشاكل تاريخ هذا البلد الاجتماعية والعمرانية، فلو نظرنا إلى مدن الشام وخطط البناء الفوضوي بها ثم تطور عمران هذه المدن، وقارنا تطور الحياة الاجتماعية في المدينة الشامية بأحدى مدن أوربة لشاهدنا فوارق ضخمة، وحين نبحث عن السبب نجد أن المدينة الأوربية قد عرفت منذ زمن التنظيمات البلدية ونجد أن هذه التنظيمات التي رافقت تطور المدينة في أوربة وأشرفت عليه كانت معدومة حتى أواخر القرن الماضي في بلاد الشام .

إن القضاء على الأحداث وإزالتهم من مدن الشام قد حرم هذه المدن من هيئة اجتماعية كان - ربما لو كتب لها الحياة والاستمرار - وضع المجتمع والمدينة في الشام مخالف لما عليه الآن بشكل كبير .



حكمت الجزيرة في أوائل القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد من قبل الدولة الحمدانية في الموصل، وأيام حكم هذه الدولة وصلت قبيلة عقيل إلى الجزيرة مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بن صعصعة كما أسلفنا الحديث، وعندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م سهل القضاء عليها وورثتها دولتان واحدة كردية في الشمال عرفت باسم الدولة المروانية، وأخرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية .

استولى في سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م محمد بن المسيب العقيلي على نصيبين وبلد ، ثم ضم بعد سنة الموصل الى املاكه وذلك بعدما قتل الامير الحمداني ابو طاهر بن ناصر الدولة الحمداني (٢١) واعترفت السلطة البويهية في بغداد بحكم محمد بن المسيب ، لكن لما لبثت ان عزلته في سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، وبأشر البويهيون حكم الموصل بأنفسهم ، لكنهم فقدوها في سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م حين تمكن المقلد بن المسيب أخو محمد من الاستيلاء عليها واقسامه الدولة العقيلية فيها (٢٢). وظل المقلد بن المسيب يحكم الدولة العقيلية حتى اغتيل في سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م (٢٣) وخلف عقب اغتياله من قبل ابنه قرواش الذي ظل يحكم حتى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م حين سجنه أخوه بركة. وحكم بركة قرابة السنة ، ثم توفي ، وهنا اجتمعت عقيل على انتخاب قريش بن بدران اميرا جديدا ، فأخرج قريش عمه قرواش بن المقلد من السجن ودير قتله .

ولقد كان قرواش بن المقلد من أعظم شخصيات عصره البدوية ، فقد كان اديبا شاعرا ، نهابا وهابا على دين الأعراب وجاهليتهم ، وقد جمع بين أختين في الزواج ، فلامته العرب على ذلك لأنه محرم بالاسلام ، فقال لهم : « خبروني بالذي نستعمله مما تبيحه الشريعة ، وكان يقول في مجالسه : ما على رقبتى غير خمسة او ستة من البادية قتلتهم ، أما الحاضرة فلا يعبا بها الله » وقد استطاع قرواش ان يقيم علاقات شبه متوازية بين الخلافتين العباسية والفاطمية (٢٤) وفي أيام قرواش تعرضت الموصل لأول غارة غزية ، الأمر الذي سبب انتفاجا على ذكره بالتفصيل بعد قليل .

حكم قريش بن بدران حتى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٦١ م حيث خلفه ابنه مسلم بن قريش أعظم شخصيات الأسرة العقيلية ، وعقب مقتل مسلم خلفه أخوه ابراهيم في سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ولم يطل حكم ابراهيم فقد قتل في الصراع مع السلاجقة ، وتوزع إمارة الموصل ولدا أخيه محمد وعلي ، وبقي الحال هكذا حتى ازال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل نهائيا في سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م .

ان تاريخ الدولة العقيلية منذ ان استلم امارتها قريش بن بدران حتى يوم سقوطها هو جزء من تاريخ هجرة التركمان الى الجزيرة والشام ، جزء من الصراع العربي السلجوقي للسيادة على هذين البلدين . ولكن قبل ان نأخذ في دراسة هذا الصراع علينا ان نكمل حديثنا عن الوضع السياسي في الجزيرة .

لقد ذكرنا بأن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها عندما سقطت بالاضافة الى الدولة العقيلية الدولة المروانية الكردية ، فلقد سكنت المناطق الواقعة شمال الموصل من قبل عدد من القبائل الكردية ، وغالبا ماكانت هذه القبائل تغير على الاراضي البيزنطية ، ولقد ظهر بين افرادها عدد من الغزاة الذين تجمع حولهم عصابات خاصة ، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع هـ / العاشر م ، ولقد استغل باذ ضعف الدولة الحمدانية ثم ضعف السلطة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهى (٣٧٢ هـ / ٩٨٣ م) فأخذ يقيم لنفسه دولة ، فاستولى على اهم بلدان منطقة ديار بكر ، مثل آمد ونصيبين وميافارقين « ودخل باذ الموصل واستولى عليها ، وقويت شوكته ، وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وازالة الديلم عنها ، وخرج من حد المتطرفين وصار في عداد اصحاب الاطراف » واثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ ببقايا الحمدانيين وبقبيلة عقيل ، وحصلت بين الفريقين عدة معارك كان من اهمها واحدة في سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م فقد باذ فيها حياته بعدما انهزمت قواته الكردية (٣٥) .

بعدما قتل باذ ورث مملكته ابن اخته الحسن بن مروان الذي بقي في الحكم حتى مقتله سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، وفي زمن حسن توطد حكم المروانيين في منطقة ديار بكر ، وبعيد مقتله خلفه اخوه سعيد الذي عرف بلقب ممهد الدولة ، وحكم ممهد الدولة حتى قتل سنة ٤٠١ هـ / ١٠١١ م وهنا خلفه احمد الذي عرف باسم نصر الدولة .

وبعد نصر الدولة المرواني من اشهر حكام الاسرة المروانية ، وقد

استمر حكمه لمدة زادت على الخمسين عاما ، استطاع خلالها ان يرفع من مكانة الدولة المروانية ، وبالتالي ان ييسط نفوذها حتى على بعض من اجزاء جورجيا الحالية (في الاتحاد السوفياتي) ، ولقد احسن استغلال الموقع الاستراتيجي لديار بكر الذي كان يتحكم بطرق المواصلات والتجارة بين العراق وبلاد المشرق الاسلامي من جهة وبلاد الشام والاناضول من جهة اخرى .

كما تمكن ببراعته السياسية وحكمته الدبلوماسية من المحافظة على دولته وعلى استمرار حكمه بين قوى متعادلة قوية كان كل منها يطمح ويسعى للتوسع والسيطرة ، ولقد كانت علاقاته مع الخلافة العباسية في بغداد جيدة ، وكذلك كانت هي الحال مع الامبراطورية البيزنطية ، وايضا مع الخلافة الفاطمية حيث كانت العلاقات طيبة مع ان آل مروان كانوا سنة وكانت رعايتهم على العموم شوافع .

لم تكن العلاقات بين الدولة المروانية والدولة العقيلية في الموصل على العموم جيدة ، ومع ذلك فقد جهد نصر الدولة في تجنب الاصطدام المباشر او المستمر مع عقيلي الموصل فتنازل لهم سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م عن مدينة نصيبين كما دفع لهم الجزية لفترة من الزمن . وكانت علاقة نصر الدولة بالدولة المرداسية في حلب طيبة بشكل عام وكذلك كان الحال بالنسبة لعلاقاته بالقوى البدوية الاخرى التي كانت موجودة في الجزيرة كقشير اصحاب قلعة جعبر ، وقبيلة نمير اصحاب حران ، ولقد استطاع نصر الدولة التخفيف من اثار مضار هجرة التركمان على بلادهم ، فقام بمراسلة طغرل بك واعترف له بالسلطة والسيادة واقام الخطبة باسمه .

وكانت آمد وميا فارقين وحصن كيفا أشهر بلدان الدولة المروانية ، فازدهرت في عهد نصر الدولة ازدهارا كبيرا ، وشهدت قيام نهضة ثقافية وتطور اقتصادي عظيم ، ويقدم لنا المؤرخ ابن الأزرقي الفارقي في كتابه تاريخ الفارقي (أو تاريخ ميافارقين) صورة جيدة عن هذا الازدهار الاقتصادي مع الازدهار الحضاري الذي كان ذا ملامح واصول عربية واسلامية .

وبعد وفاة نصر الدولة في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م قسمت اراضي دولته - كما سيمر معنا - بين اولاده ، وبدأت قوة المروانيين تسير في طريق الانحدار والضعف واستمرت اخذة بالاضمحلال شيئاً فشيئاً حتى تمكن السلاجقة اخيراً من القضاء عليها نهائياً سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م (٢٦) .



لقد اتينا في الفصل المتقدم على ذكر التركمان العراقية، كما ذكرنا أن السلاجقة قد فوضوا لطرغلبك - بعد نصرهم على مسعود - أمر الوصول الى بغداد ، وأن طغرلبك عمل على تأمين الطريق الى بغداد والطريق الى ارمينية، وعندما نجح طغرلبك في تأمين هتذه السبل اخذت جموع التركمان تتدفق باتجاه العراق وباتجاه ارمينية ، وقد ضغط هذا التدفق على التركمان العراقية ودفعهم نحو الولوج الى ارمينية والتفتيش على مواطن و اراضي جديدة ، لهذا توجه بعضهم نحو الجزيرة إما للاستقرار بها أو للذهاب منها نحو الشام ، ويقول ابن الاثير : « في سنة ٤٣٣ هـ . (١٠٤١ - ١٠٤٢ م) فارق الغز انريجان ، وسبب ذلك ان ابراهيم ينال - وهو اخو طغرلبك - سار الى الري ، فلما سمع الغز الذين بها خبره اجفلوا من بين يديه ، وفارقوا بلاد الجبل خوفاً ، وقصدوا انريجان ، ولم يمكنهم المقام بها لما فعلوا باهلها ، ولأن ابراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه ... فأخذوا بعض الاكراد وعرفهم الطريق ، فأخذ بهم في جبال وعرة ... وخرجوا الى جزيرة ابن عمر » ، ويذكر ابن العميد ان عدد هؤلاء الغز كان « ألفاً وستمائة وخمسون فارساً ومعهم أربعة أمراء » ، وعندما وصلوا الى الجزيرة اتصلت بهم الدولة المروانية وتم بينها وبينهم الاتفاق « في المصالحة والمقام بأعمال الجزيرة الى ان يذكشف الشتاء ، ويسير ... الغز الى الشام » ، لكن المروانيين حاولوا الغدر بالغز ، ونجحوا فقط في أسر أحد مقدميهم واسمه منصور ، وهنا تفرق الغز في انحاء الجزيرة مغيرين على املاك المروانيين و اراضي العقيليين ، وتجمعت قوات عقيلية عربية مع قوات كردية مروانية ضد الغز واشتبكت معهم في معركة انجلت عن نصر الغز ،

فازداد عيشتهم في الجزيرة ، وتوجهت القبائل العربية البدوية نحو العراق كي تشتوا به» فأخربت الغز ديار بكر ونهبوا وقتلوا ، فأخذ نصر الدولة منصورا أمير الغز...وراسل الغز وبذل لهم مالا واطلاق منصور ليفارقوا عمله، فأجابوه، فأطلق منصورا وأرسل بعض المال فغدروا وزادوا في الشر، وسار بعضهم الى نصيبين وسنجار والخابور فنهبوا ٥٥٠ فدخل قرواش الموصل خوفا منهم «، ويبدو من حديث للعظيمي حول هذه الحادثة ان حكم قرواش لم يكن شعبيا في الموصل وان بعضا من اهالي الموصل قد راسلوا الغز وشجعوهم على غزو الموصل وامتلاكها:» فلما راوا ذلك تقدموا الى الموصل فأرسل اليهم يستعطفهم ويلين لهم ، وبذل لهم ثلاثة آلاف دينار ، فلم يقبلوا فأعاد مراسلتهم ثانية، فطلبوا خمسة عشر ألف دينار، فالتزمها . وأحضر أهل البلاد ، وأعلمهم الحال، فبينما هم بجمع المال وصل الغز الى الموصل ونزلوا بالحصبا ، فخرج اليهم قرواش وأجناده والعامه ٤ فقاتلوهم عامة نهارهم، وأدركهم الليل ، فافترقوا، فلما كان الغد عادوا الى القتال ، فانهزمت العرب وأهل البلد ، وهرب قرواش في سفينة نزلها من داره ، وخرج من جميع ماله إلا الشيء اليسير ، ودخل الغز البلد فنهبوا كثيرا منه ، ونهبوا جميع ما لقرواش من مال وجوهر ، وحلي وثياب وأثاث ونجا قرواش في السفينة ، ومعه نفر، فوصل الى السن وأقام بها ، وأرسل الى دبيس ابن مزيد والى غيره من أمراء العرب والأكراد يستمددهم ويشكو مائزله به ، وعمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من القتل ، وهتك الحريم ونهب المال ٥٥٠ فلما استقروا فيها قسطنوا على أهلها عشرين ألف دينار وأخذوها، ثم تتبعوا الناس، وأخذوا كثيرا من أموالهم بحجة أموال العرب، ثم قسطنوا أربعة آلاف دينار أخرى «، وهنا لم يعد باستطاعة اهالي الموصل التحمل أكثر فثاروا بالغز فقتلوا بعضا منهم وقذفوا ببعضهم الآخر خارج مدينتهم ، وعندما حصل هذا جمع الغز جموعهم التي كانت متوزعة في الجزيرة ، ودخلوا الموصل عنوة « ووضعوا السيف في أهله ، وأسروا كثيرا ، ونهبوا الأموال وأقاموا على ذلك اثني عشر يوما يقتلون وينهبون وبقي القتلى في الطريق فأنتنوا لعدم من يواريههم « وطال هذا

الحال بالموصل أكثر من عامين»، وهنا كتب جلال الدولة البويهى الى طغرل بك حول هذا البلاء وكتب اليه نصر الدولة المرواني يشكو اليه منهم ، فأجاب طغرل بك بالاعتذار ووعد بالعمل على طردهم وملاحقتهم حتى تنتهي اذيتهم وقال في صدد ذلك: «إن هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيدا وخداما ورعايا وتبعنا يمثلون الأمر ويخدمون الباب ، ولما نهضنا لتدبير خطب آل محمود بن سبكتكين، وانتدبنا لكفاية أمر خوارزم ، انحازوا الى الري فعاثوا فيها وافسدوا ، فزحفنا بجنودنا من خراسان اليهم مقدرين انهم يلجئون الى الامان، ويلوذون بالعفو والغفران ، فملكتمهم الهيبة ، وزحزحتهم الحشمة ولا بد أن نردهم الى راياتنا خاضعين ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين ، قربوا ام بعدوا ، أغاروا ام انجدوا ».

في هذه الآونة كان قرواش قد تمكن اخيرا من جمع جيش عربي من قبيلة عقيل وامده ال مزيد وحكام اسفل وادي الرافدين وعشائرها العربية ، فتوجه نحو الموصل ، فانسحب الغز منها وجمعوا جموعهم المتفرقة في الجزيرة ، ويبدو ان هذه الجموع كان قد زاد عددها الى درجة كبيرة حتى ان ابن الاثير يروي بانهم اصبحوا — نيفا وثلاثين الفاً — واشتبكت القوات العربية بالغز فاستظهرت الغز ، وانهزمت العرب حتى صار القتال عند حللهم ، ونسألتهم يشاهدن القتال ، فلم يزل الظفر للغز الى الظهر، ثم انزل الله نصره على العرب، وانهزمت الغز واخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وقتل ثلاثة من مقدميهم ، وملك العرب حلل الغز وخركاواتهم وغنموا أموالهم » . ولوحق الغز في الجزيرة حتى اضطر من نجا منهم الى الهرب نحو الاراضي الارمنية او الاراضي البيزنطية (٢٧) وسيمر ما يزيد على العشر سنوات قبل أن تطرق الجزيرة مرة أخرى من قبل جماعة كبيرة من الغز وسيكون الذين سيطرقون اراضي الموصل من اتباع طغرل بك وذلك أثناء دخول طغرل بك بغداد وسعيه من أجل اقامة الامبراطورية السلجوقية المتحكمة بالخلافة العباسية ، والوارثة للأسرة البويهية .



كانت بغداد مع خليفاتها في هذه الآونة تحت سلطان أمير الأمراء البويهى وكان اسمه أبو كاليجار، وكان أبو كاليجار هذا قد وقع تحت تأثير الدعاية الفاطمية الاسماعيلية بعد أن اتصل به المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله بن موسى بن داود الششيرازي (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م)، ولاعتبارات كثيرة اضطر أبو كاليجار الى نفي المؤيد في الدين الى ماوراء الفرات حيث تابع سيره نحو القاهرة وفي سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م - بعدما توفي أبو كاليجار - خلفه في إمرة الأمراء في بغداد أكبر اولاده أبو نصر خسرو الذي حصل من الخليفة القائم على لقب الملك الرحيم ، ولم يصف الحال للملك الرحيم ونازعه سلطانه في كرمان أخوه فولاستون وفي البصرة أخوه أبو علي^٣ (٢٨) ولايهمنا هنا التبسط بالحديث عن نزاعات البيت البويهى هذه إنما مايهمنا هو أن نلفت نحو بغداد كي ندرس أحوالها والأسباب التي أدت الى مجيء طغرل بك اليها ، ومن ثم إزالته للدولة البويهية واقامته السلطنة السلجوقية .

من الناحية السياسية لم تكن السلطة في بغداد والمناطق التابعة لها والمحكومة من قبلها مباشرة في يد أمير الأمراء البويهى فقط او في يد الخليفة ، بل وجد في بغداد عدة قوى تصارعت على السلطة فيها، ويمكن - على العموم - تقسيم القوى التي كانت تتصارع في بغداد الى قوتين رئيسيتين ، واحدة عسكرية والأخرى مدنية ، ولقد مثل الجانب العسكري ضابط اسمه البساسيري ، ومثل الجانب المدني ابن المسلمة وزير الخليفة القائم ، ولقد كان البساسيري شيعيا من الاثني عشرية وكان ابن المسلمة سنيا حنبليا ، وهكذا أيضا كان أهل بغداد مقسمين بين شيعة أكثرهم اثني عشرية وسنة أغلبهم حنابلة.

والبساسيري هو أبو الحارث ارسلان التركي ، نسب الى بسا بلدة بفارس « والعرب تسميها قيسا، وينسبون اليها فسوي، وأهل فارس يقولون بسابين الباء والفاء وينسبون اليها البساسيري، وكان مولاه رجل من أهل بسا، فنسب الغلام اليه ، واشتهر بهذه النسبة » ، ولقد بدأ البساسيري حياته كعبد تركي في خدمة الحاكم

البويهى بهاء الدولة فيروز (٣٨٨ - ٤٠٣ هـ / ٩٩٨ - ١٠١٢ م) وتدرجت به المناصب حتى أصبح - ربما - في سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٣٣ م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد ، وفي سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٤ م كان قد أصبح من كبار شخصيات بغداد وهكذا ومع الأيام « عظم شأنه واستفحل أمره ، وقويت هيئته وانتشر ذكره » .

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه مكانة السياسي ترفع وسلطته تقوى قام الخليفة القائم بتعيين رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسلمة كاتبا له ، وكان هذا سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٤ م ، وكان ابن المسلمة « عذده - أي القائم - في منزلة عالية » ، وفي السنة التالية « خلع الخليفة علي أبي القاسم علي بن الحسن بن المسلمة واستوزره ، ولقبه رئيس الرؤساء » وكان طبيعيا أن يمارس ابن المسلمة سلطاته ويشترك - إن لم يأمر - السياسي ، ولاختلاف طبيعة الرجلين وطبيعة منصبيهما وعقائدهما ثم لكونهما من أصحاب المطامح والأهواء كان لابد من حصول اصطدام بينهما ، خاصة وأن الخلافة مع الأسرة البويهية كانتا قد وصلت إلى درجة من الضعف عجزتا فيه عن أن تقيما توازنا بين الطرفين أو تسخرهما حسب مصلحة الدولة ، ومما ساعد على اتساع رقعة الخلاف بين ابن المسلمة والسياسي ، الأوضاع السياسية الخارجية التي كانت محيطة ببغداد ، فقد كانت هناك قوة الدولة الفاطمية ومطامحها والمؤيد في الدين داعي الدعاة في القاهرة ، ثم من جهة أخرى كانت هناك القوة النامية الطموحة لطغرل بك السني .

وأثناء الصراع اتهم كل من المتصارعين خصمه بالاتصال بدولة خارجية : اتهم السياسي ابن المسلمة بالاتصال بطغرل بك والعمل لجلبه لبغداد ، وهذا طبعاً كان يعني الخروج عن السلطة البويهية وخيانتها ، واتهم ابن المسلمة بدوره السياسي باتصاله بالقاهرة سرا والتمهيد للإطاحة بالخلافة العباسية ، وفي أثناء أزمة الصراع هذه فتش كل من المتخاصمين عن حلفاء محليين وغير محليين ، فتحالف ابن المسلمة مع قريش بن بدران صاحب الموصل ، لما ملكه

من قوة ، ولما تمتع موقع الموصل به من أهمية ، ذلك أن أي عمل فاطمي ضد بغداد كان بإمكان الموصل إضعافه إن لم يكن إحباطه ، وأخذ البساسيري يسعى لإيجاد حلفاء لنفسه ، وتوجه بأنظاره نحو بني أسد وزعيمهما دبيس بن علي بن مزيد .

وفي شعبان سنة ٤٤٦ هـ / تشرين ثاني ١٠٥٤ م « حصر الأمير أبو المعالي قريش بن بدران صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحها ، وخطب لطغرل بك فيها وفي سائر أعماله ، ونهب مآكان فيها للبساسيري وغيره ، ونهب حلل أصحابه بالخالص وفتحوا بثوقه ، فامتعض البساسيري من ذلك » ، وفي رمضان من السنة ذاتها قدم بعض من أصحاب قريش إلى بغداد فانزعج البساسيري من ذلك ، وقال : « هؤلاء وصاحبهم كذبوا حلل أصحابي ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا في إهلاك الناس ، وأراد أخذهم ، فلم يمكن منهم » .

وبدا البساسيري ينتقم ويعد العدة للتخلص من ابن المسلمة وللتفرد بالتحكم في بغداد ، فكان أول ما قام به أن احتجز سفينة كانت لأحد أقرباء ابن المسلمة ثم قام بعد فترة وجيزة بإسقاط « مشاهرات الخليفة - أي رواتبه - من دار الضرب - أي مركز الخزانة وكذلك مشاهرات الرؤساء وحواشي الدار » .

وبالطبع لم يقف ابن المسلمة مكتوف اليدين تجاه تصرفات البساسيري هذه ، ولم يلق سلاحه بل تابع صراعه معه ، ففي السنة التالية ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ م سافر البساسيري إلى واسط ، فاستغل ابن المسلمة تغيبه عن بغداد وبدأ يعمل على إثارة أهالي بغداد السنة وسواهم ضده ، وقام « جماعة من أهل السنة ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحضروا الديوان وطلبوا أن يؤذن لهم في ذلك وأن يتقدم إلى أصحاب الديوان بمساعدتهم ، فأجيبوا إلى ذلك » ، وأخذت هذه اللجنة تمارس عملها ، وصدف « أن أبا سعد النصراني صاحب البساسيري حمل في سفينة ستمائة جرة خمرا ليحدرها إلى البساسيري بواسط » ، وسمع جماعة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر بهذا فتوجهوا فوراً في مظاهرة كبيرة مثيرة نحو السفينة ، فكسروا جرار الخمر ، وبصرف النظر عن إراقته ٦٠٠ جرة من الخمر كانت تكلف مبلغاً كبيراً من المال وتحبط الكثير من مشاريع الطرب والمتعة ، فإن هذه الحادثة قد أضرت باليساسيري وزادت سمعته سوءاً ، وزادت شققة الخلاف بينه وبين ابن المسلمة اتساعاً ، ولم يكتفِ ابن المسلمة بهذا القدر بل أخذ يعمل على إثارة الجند ضد اليساسيري وأخذ يتدخل في شؤون العساكر – رغم كونه رجلاً مدنياً – ، فقد اغتزم تأخر وصول بعض أرزاق حامية بغداد ، فذهب ذلك إلى عمل متعمد من اليساسيري ، وأخبر وفداً من الجند جاء يشكو إليه أن اليساسيري هو السبب في ذلك وأنه هو الذي يقف وراء مشاكلهم التي يعانون منها ، وقال لهم : إن أموالكم قد أخذها اليساسيري وهي محجوزة في داره ، وإذا أردتم أخذها فنحن معكم ، فطمع الجند « واستأذنوا في قصد دور اليساسيري ونهبها ، فأذن لهم في ذلك ، فقصدوها ونهبوها وأحرقوها ، ونكلوا بنسائه وأهله ونوابه ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه ببغداد » .

وفي هذا الجو المشحون عزم ابن المسلمة على توجيه ضربته القاضية ضد اليساسيري ، فأطلق « لسانه في اليساسيري وذمه وذهب به إلى مكاتبة المستنصر صاحب مصر » وذلك أمام الخليفة القائم ، و« صبح عند الخليفة سوء عقيدته ، وشهد عنده جماعة من الأتراك أن اليساسيري عرفهم – وهو إذ ذاك بواسط – عزمه على نهب دار الخلافة ، والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة أبا طالب محمد بن مكيال المعروف بطغرليك أمير الغز ، وهو بنواحي الري ، يستنهضه على المسير إلى العراق » ، « وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد اليساسيري فأبعده » ، « وانفض أكثر من كان مع اليساسيري ، وعادوا إلى بغداد ... ومضى اليساسيري على الفرات إلى الرحبة » ، « وأقبل ... طغرليك في مائة ألف وعشرين ألفاً من الترك والغز والأعاجم والكرد والديلم وغيرهم من الأجناس فوصل بغداد وهاجمها وقتل منها خلقاً عظيماً ونهبها » « ولم يترك الترك ورداً إلا شفهوه ، ولا حسناً إلا شوهوه ولا ناراً إلا أرشوها ، ولا داراً

الا شعثوها ، ولا عصمة الا رفعوها ، ولا وصمة الا وضعوها ، وكان دخول طغرل بك بغداد في اواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ / اواخر كانون الأول سنة ١٠٥٥ م وفر جند بغداد الترك والديلم منها ، وتلاحق خلق كثير بالبسا سيرى في الرحبة (٢٩).

عندما لحق البسا سيرى بالرحبة « لقيه معز الدولة - يعني ثمال ابن صالح - (أمير حلب الذي كانت الرحبة إحدى بلدان امارته) وأكرمه ، وحمل اليه مالا عظيما ، وكان قد وصل في قلة » ، ولم يكن اختيار البسا سيرى لبلدة الرحبة قد تم عن عبث ، فقد كان بإمكانه البقاء في العراق في بلاد « نور الدولة ديبس بن مزيد لمصاهرة بينهما » لكنه اثر المضي الى الرحبة لما تمتعت به هذه البلدة من مزايا كنا قد أتينا على ذكرها ، ومن الرحبة اتصل - او ربما جدد اتصالاته - البسا سيرى بالخلافة الفاطمية في القاهرة ، ووعد الخليفة المستنصر أنه اذا أرسل اليه مالا كافيا ، فسيقوم بطرده الغز من العراق وبازالة الخلافة العباسية واحلال الدعوة الفاطمية مكانها ، ويذكر المقرئ أن البسا سيرى قد طلب من الخليفة المستنصر أن يسمح له بالقدوم الى القاهرة لشرح خططه ، لكن أشير على الخليفة المستنصر رفض طلبه هذا ، كما أشار رجال دولته عليه أن يرسل اليه الاموال اللازمة ، وفي سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م « جهز الوزير اليازوري خزائن الاموال على يد المؤيد في الدين لأبي الحارث البسا سيرى ، بحيث لم يبق في بيوت الاموال بالقصر شيئا الا أخذ لفتح بغداد » . ويذكر المقرئ بأن ١٠٠٠ ر ٣٠٠ ر ٢ من الدنانير هو قيمة ما جهز للبسا سيرى وأرسل اليه من عين ومقاع ، ولندسمع الى المؤيد بالدين يصف رحلته من القاهرة الى حلب : « وسرت في جلبة عظيمة قد التف فيها من الوحش والركابية المقودين وسفاسف الناس من البالغين والحمالين عسكر لو لم يمسنى غير عذابهم عذابا كان فيه مايغني ويكفي ، وكان الناس يتعجبون من أمري ، وقد كان موضع العجب لعمرى كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتي من دون أن يتبعني من شيء يسمى العسكر اثنان ... فكان

فيما مثل لي انني استتبع ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين اطلق بهم بلاد ابن صالح وابلغ بهم الى الرحبة ، فكنت طول المسافة ما بين مصر ودمشق ارتأي في هذا الباب ، فصدتني نفسي بمنافاته للصواب ، فلما وصلت الى صور واجتمعت مع ابن عقيل ، وجرى بيني وبينه الحديث في مثل ذلك ، وجدت عنده من تهجين ذلك الرأي مثل ما عندي ، ووجدت

قصده في التدبير ، بغير ذلك التدبير ، قصدي ، وبلغت الى دمشق ، وعرضته على والي الموضع اخذا بفضل الاستظهار ، فلم يكن الرأي واقعا موقع الاختيار ، فحينئذ كاتبت ابن صالح اشعره بالنصبة التي انا مامور بها ، وذكرت انني متوقف عنها تصونا من ان اوطىء اقدام خصومه بلاده ، وامتطي مطية امر ربما ضمن فسادا ، وأقول له : هل لك في خدمة سلطانك بما يكشف عن اخلاصك غاشية التهمة والظن ، ويغشي عينك وسن الامان والامن ، وذلك اني اسلم نفسي وهذه الاموال والخزائن كلها اليك ، ولا استظهر الا بمروتك وانسانيتك في حفظي وحفظها عليك ... وكاتبت الى الوزير اذكر توجهي الى ابن صالح غير مستتبع من الكلبيين احدا ، وان العدول عن نصبة ما مثل من استصحبهم اقرب الى الصواب رشدا ، فقامت قيامته في هذا الباب ، وكاتبني يحذرني من تبديل قوله وتعتدي حده ورسمه ، فلم يجد كلامه مني اننا سميعة ولا نفسا مطيعة ، (وتردد من المكاتبات الكثيرة والمخاطبات الطويلة بيني وبين الوزير نهيا عن المسير الى ابن صالح على غير المثالة التي مثلها ، واباء مني له وامتناعا عنه ... وسرت بما صحبني من الاموال العظيمة والسلاح والخيول ، ولقد شققت العصا بالخلاف عليه ، وانا على تخوف مما ينتهي الحال اليه اخشى اكل لحمي ونهش عظمي في سقيفة كلب وكلاب من قبل دخول ترك وتركمان ، فلا ادري بأيهما انا اكثر فرحا بالسقيفة ام بالدار ، وكلاهما محيط به سرادق من نار

وتواعدنا انا وابن صالح على ان يلقاني الى موضع يلي حمص يقال له الروستان (الرستن) على جسر نهر العاصي ، فما زلت اسير عن دمشق مرحلة ، وهو يسير عن حلب مرحلة ، ومعني صليبة

عسكر الشام ، ومعه جمهرة بني كلاب الى ان التقت الفئتان منا ومنهم في المكان المذكور ، ف ضرب عسكرنا مصافهم على شاطئ الوادي من العدو الغربية ، ووقف عسكرهم من العدو الشرقية ، وكان الموقف موقفا عجيبا حسنا ، والناس يظنون الظنون ، ويحسبون حساب ما كان وما يكون ، فسقت جمال الخزائن والاموال والسلاح امامي وسرت في اعقابها على هون وسكينة ووقار ، وسكون ، وابتت ان يمشي بين يدي الا اثنان من الشاكرية (المرافقين) لا يحملون بايديهم حديدة ، حتى التقيت بوجه ابن صالح بوجهي ، والتقيت عليه السلام في نفسي ، وما يشتمل عليه صحي .

ومن الرستن انطلق موكب ثمال بن صالح برفقته المؤيد في الدين ، انطلق هذا الموكب شمالا نحو حلب ، وعند وصوله الى معرة النعمان التقاهم وفد من رجالات البساسيري ومن جنده ، فطلب منهم المؤيد التوجه الى الرحبة لاختبار سيدهم بوصول الامداد ، وما ان وصل المؤيد الى حلب حتى بدا نشاطاته في تأليب جميع حكام وامراء الجزيرة ضد التركمان وتجميع قواهم الى صف قوى البساسيري ، فراسل نصر الدولة المرواني ، وراسل مانع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران وامير قبيلة زمير ، وبعد هذا انحدر الى الرحبة وبرفقته ثمال بن صالح وجموع قبيلة كلاب ، وفي الرحبة التقى المؤيد بالبساسيري واصل اليه كل ما جلبه من القاهرة ، وهنا اخذ البساسيري بمساعدة المؤيد في تجنيد جيش من العرب البدو والكرد والديلم مع اترك بغداد ، ويذكر المؤرخ العظيمي ان الجيش الذي جمعه البساسيري قد بلغ خمسين الفا ، وعوضا عن ان يعبر هذا الجيش الفرات نحو العراق فقد لزم شاطئ الفرات مصعدا شمالا ، وبدأت هذه القوات بالضغط على ثمال بن صالح واخذت بتهديده ، فسلم ثمال الى البساسيري بلدة الرحبة وتنازل له عنها ، فاتخذها البساسيري مقرا وجعل فيها ماله واهله .

ويتساءل المرء هنا لماذا قبل ثمال بن صالح بالبساسيري وسمح له بالدخول الى اراضيه ، ثم لماذا قام بعد ذلك باستقبال المؤيد في

الدين ورافقه الى الرحبة ؟ او لم يرى ثمال في حركة البساسيري تهديدا لوجوده ودولته ؟ يبدو ان ثمال الذي كان بدويا من قبيلة كلاب قد رأى في حركة البساسيري ضمانا لحكمه وعونا لدولته ضد الخطر التركماني ، وهذا يعطي تعليلا لما رواه ابن العديم من ان بعض رجال بني كلاب قد ارادوا القاء القبض على البساسيري عندما جاء الرحبة فارا من العراق فمنعهم ثمال من ذلك ، ولكن لماذا اراد الكلابيون القاء القبض على البساسيري ، هل لمسوا فيه خطرا على سلطانهم ، ام انهم ارادوا القبض عليه باعتباره شخصية سياسية هامة يمكن بيعها للخلافة في بغداد او لطغرل بك بمبلغ كبير ؟ لعل هذا هو السبب وان الكلابيين ارادوا تحصيل مبلغ من بغداد ، فان لم يكن منها فمن القاهرة التي كان يمكن ان تساهم على حياة البساسيري . يضاف الى كل هذا ان كون ثمال كان شيعيا وحركة البساسيري كانت شيعية ضد التركمان السنة يمكن ان يكون من الاسباب الهامة التي دفعت بثمال للتورط في الثورة واعمالها .

تابع المؤيد في الدين نشاطه واتصالاته ، فكاتب ديبس بن مزيد امير بني اسد الذي كان قد سافر الى بغداد ، وحاول ان يقيم تسوية مع طغرل بك ، ذلك انه كان يخشى تحريك طغرل بك وتركمانه باتجاه الشام ، لان مثل هذا التحرك كان سيسبب الكثير من المضار ولقد اقنع المؤيد في الدين ديبس بالتخلي عن اتصالاته بطغرل بك وبان ينضم الى معسكر البساسيري . وفي الوقت نفسه انضم بعض امراء عقيل ، وخاصة مقلد - الاخ الاصغر لقريش - بن بدران ، الى معسكر البساسيري ، والذي دفعهم الى هذا هو خصوماتهم مع قريش الذي اعترف الان بسلطان طغرل بك ، متابعا بذلك السير على محور تحالفه القديم مع ابن المسلمة ، والتصديق الذي اصاب صفوف قبيلة عقيل قد اضعف من مركز قريش واثّر على قوته ، خاصة وان العقيليين تابعوا التخلي عنه والانخراط في معسكر البساسيري حيث وجدوا اموالا طائلة وجوائز ثمينة ، وامالا زاهية في مغانم كثيرة ستاتي عند اخذ بغداد ونهب دار الخلافة (٣٠) .

يقدم لنا المؤيد في الدين في سيرته لنفسه وصفا مفصلا لكل الحوادث التي وقعت في أراضي الدولة المرداسية أثناء ثورة البساسيري وبزهد شاذ وصوفية غريبة كتب المؤيد رواياته ، فلقد حرص دائما أن يظهر أنه هو ولا أحد سواه كان وراء كل حادث ، وأنه فعل كل شيء بدون تكلف أو مشقة بل كل ما حصل كان بسبب التوفيق الرباني لمبعوث الامام الذي أكرمه بكرامة صنع المعجزات ، كما ألان لنبه داود الحديد ، ونظرا لهذا الشذوذ وهذه البساطة والسذاجة المتكلفة ينبغي أخذ روايات المؤيد بعين الحذر ومعارضتها على سواها من الروايات قبل قبولها .

بعد أن أكره ثمال بن صالح على التنازل عن الرحبة للبساسيري أكره مرة أخرى على التخلي عن مدينة الرقة لمانع بن شبيب بن وثاب أمير نمير ولقد أغضب هذا التنازل قبيلة كلاب وسبب بعض التصدع بين صفوفها تصدعا سيتطور الى انشقاق القبيلة وتصارعها مما سيؤدي الى إزالة الحكم المرداسي وقطعه مؤقتا من حلب.

بعد ما دخل طغرل بك بغداد القى القبض على الملك الرحيم آخر أمير للأمراء من الأسرة البويهية ، ونفاه الى حيث لقي حتفه ، وهكذا زالت الدولة البويهية من الوجود ، وقام مكانها السلطنة السلجوقية ، لكن أركان هذه السلطنة ماكانت لتثبت قبل القضاء على حركة البساسيري ، لهذا تقدم الخليفة في سلخ ربيع الأول ٤٤٨ هـ / ١٨ حزيران ١٠٥٦ م «الى السلطان بالمسير الى الشام ، ويبدأ بالرحبة ، ويأخذ البساسيري ، ويعبر الفرات ويقوم الدعوة على منابر الاسلام ، فأمر السلطان العساكر بأن يتجهزوا ويبيعثوا ليحضرُوا خركاواتهم وأولادهم وأهلهم يكونوا بالعراق ويتوجهوا معه الى الشام ، فقالوا: هذه بلاد خربة وليس بها اقوات ولا علوفات ، ولم يبق معنا نفقات ونحن عاجزون عن المقام على ظهور خيولنا ، فكيف إذا جاء أهلنا وخيولنا ودوابنا ، وقد طالت غيبتنا ولا بد من الامام بأهلنا ونحن نستأذن في العود اليهم ، ونعود حيث يرسم لنا ، فقبض السلطان على جماعة منهم وضربهم وقيدهم

أياماً ، ثم شفع فيهم فأطلقوا ، وضمن عليهم أنهم بعد المهرجان يسبغون إلى الشام». وفي هذا الخبر دليل على وضع بغداد وعلى أن سلطة طغر بك على عساكره لم تكن متمكنة أو فعالة ويعود سبب ذلك إلى أن هذه العساكر كانت عبارة عن أفراد العشائر البدوية الغزوية الذين لم يتعودوا - ولن يتعودوا - على النظام والأوامر التي ينبغي أن تنفذ دونما مراجعة ، «وقل العسكر ببغداد ومضى أكثرهم إلى خراسان... وكثرت الأراجيف بانضمام جماعة من العرب إلى البساسيري... وأنهم على عزم قصد بغداد». وزادت أحوال بغداد اضطراباً ونزل الكثير من جند طغر بك في بيوت أهالي المدينة وأغتصبوها مع أشياء أخرى ، وقد سبب هذا وقوع اضطرابات كثيرة بين الغز وأهالي بغداد مما جعل موقف طغر بك والخليفة في غاية التحرج لذلك «استدعى الخليفة رئيس الرؤساء وأظهر التذمر والامتناع مما عليه الرعية وقال: قد أنهى إلي ما سمعته أذني وشاهدته عيني ومن ارتفاع الدعاء ما أنا به مطالب ، هذا إلى ما أخافه من سريع المكافأة ، وأنا من ركن الدين بين قسمين: إما اعتماد الحق واستعمال العدل وانصاف الرعية واعفائهم من كل أذية واعادتهم إلى مساكنهم وصيانتهم في معاشهم وأمانتهم في نفوسهم وحراسة أموالهم ، أو المساعدة على مفارقتي لهذا البلد وبعدي عن هذه البدع ، ولا أقل من اعتزالي عنها والتبري عند الله منها» وأبلغ طغر بك بقول الخليفة وغضبه فقال: «إن هذا العسكر كثير لا قدرة لي على حفظه ، وربما بدت منهم أفعال لا أرضاها وسأتقدم فيما يبين أثره ويحسن موقعه».

في هذا الوقت الذي كانت فيه أحوال بغداد تزداد سوءاً ، وبذفس الوقت تصبح أكثر ملاءمة للبساسيري قام الأخير بالاصعاد نحو الموصل ربما كي يدخلها تحت نفوذه فيحتمي ظهره عندما أحس قريش بن بدران بدنو الخطر منه «بعث إلى بغداد... يطلب نجدة ومالا يفرقه في العشيرة» ، «وعزم السلطان على الخروج بنفسه إلى البساسيري فمنعه القانم وقال : أقم وابعث العساكر» ، «وجرد السلطان ابن عمه قتلمش والحاجب الكبير وغيرهما في ألفي فارس

من الأتراك والغز والتركمان ، وعشرة آلاف دينار ومائتي ثوب ليفرقها قريش في بني عقيل ، وخلعه جميلة لقريش وفرس بمركب ذهب ومنجوق ، ولمسلم بن قريش مثل ذلك « ، وسار قتلمش من بغداد بالغز فنهبوا بلاد العرب وسبوا نساءهم فمألوا إلى البساسيري ورأسل دبيس بني عقيل الذين مع قريش وبذل لهم العطاء ، وخوفهم ما يؤول إليه أمر العرب مع الغز « فاستجاب العقيليون لدبيس. وأخذوا بالتخلي عن قريش والانضواء إلى معسكر البساسيري أولاً وقليلاً حتى « بقي قريش في عدد يسير من أصحابه وحاشيته » . وعندما وصلت الحملة الغزية إلى سنجار اشتبكت بقوات البساسيري « فحمل البساسيري ودبيس ومن معهم عليهم حملة واحدة فهزموهم » بعدما « نهلت السيوف من دمائهم كما ينهل العطشان من الماء البشيم ، وقتل منهم الخلق الذي لا يحصى عدداً ، ولم يسلم إلا بقية يسيرة أصبحوا شعاعاً بدداً ، ولولا هجوم الليل لأحاط بصغيرهم وكبيرهم سراق الويل » ، وكان من جملة من « قتل الحاجب الكبير ، وهرب قتلمش ومن - بقي - معه وغنم البساسيري وأصحابه غنائم كثيرة . وهرب قريش بن بدران ونجا بنفسه نحو الموصل وبعد هذا سار « إلى دبيس ونزل عليه فتكفل بأمره وإزالة الوحشة بينه وبين أخيه البساسيري ، ولبس قريش خلعة آتية من مصر وأخذ مالا بعث به إليه » (٣١) .

وفي بغداد جاء الخبر إلى السلطان طغرل بك بهزيمة قتلمش ومقتل أكثر قواته و« بأن البساسيري دخل الموصل وخطب لصاحب مصر بها » وهنا قرر السلطان أن يقود قواته بنفسه نحو الموصل « ورأسل الخليفة في الخروج إلى الموصل فما أمكنه دفعه لأنه دفعه مرات فقال : « افعل ما تراه فنحن ما نؤثر بعدك عنا ، ثم بعث إليه رئيس الرؤساء وهو بالمخيم وقال : إن أمير المؤمنين ما يؤثر خروجك ، وإذا أقمست وبعثت العساكر كان أكثر للهيبة ، فقال : قد كان الصواب أن أخرج إلى هؤلاء وعسكري متوفر والهيبة قائمة فمنعت فاشير علي بإنفاز العساكر إليهم والمقام ، فجري ما جرى ، وقد قوا وكثروا ولا بد من سيرهم إليهم قبل أن يتفاقم الأمر » ، وتحرك طغرل بك على رأس

قواته نحو الموصل ، ولم يصلها قبل انقضاء سنة ٤٤٨ هـ. ودخول سنة ٤٤٩ هـ. / ١٠٥٤ م وقبل أن يصل الموصل انسحب منها البساسيري مع قواته وابتعد عنها مقدار عشرة فراسخ ، وعندما وصل طغربك الموصل هرب أكثر أهلها منها وعبر إليها « فنزل دار الامارة ، ونزل أصحابه دور الناس وكانت قد خلت منهم ، وكتب السلطان إلى الخليفة يخبره بنزوله الموصل » ثم غادرها « فطالبه العسكر بنهبها - فتمنع - ... فقالوا : إما أن تأن لنا في نهبه وإلا انصرفنا ، وسأله هزار سب - أحد شخصيات دولته - في حريم المسلمين وأموالهم ، فقال : قد دافعت عنهم وما أطق ولا بد لهم من اقامة أو عطاء وما معي مال فتمضي الليلة وتخرج من في البلدة إلى معسكر ليحرزوا نفوسهم ، فأرسل إلى أهل البلد وأخبرهم فارتاعوا وخرج من قدر منهم ، وأصبح العسكر فدخلوا البلد فمساء أمسى إلا وهو خراب دارس » .

وقربت قوات طغربك من عساكر البساسيري وعسكر الجيشان مقابل بعضهما ، وخشي كل من الفريقين الالتحام في القتال ، وقام الوزير الكندري وزير طغربك بمراسلة زعماء القبائل العربية في جيش البساسيري ومعسكره وأخذ « يدس إلى القوم دسائس المكر وينصب لهم شرك الغرور بما يؤدي إلى تفريق الشمل وتعكيس الأمر ، ويضمن لواحد منهم ولاية الموصل ، والآخر ولاية البصرة وواسط فأصاب سهم مكره المقتل ، وضرب سيفه منهم المفصل ، ولعب بعقول القوم فعصفت بها عاصفات التفريق والتمزيق » و « جاءت رسل قريش وديس إلى السلطان يسألان العفو والصفح ويدخلان في الطاعة » ، وأراد هؤلاء الرسل أن يساموا السلطان على البساسيري وعلى حياته فأجاب السلطان « أما البساسيري فبالعفو فيه راجع إلى أمير المؤمنين فإن عفا عفونا » ، وقد أزعجت هذه الاتصالات البساسيري وأخافته فرحل « إلى الرحبة ومعه الغلمان البغدادية ومن تبعه من بني شيبان والأكراد ومقلد وجماعة » .

وعندما أحس طغرل بك بزوال البساسيري خيل إليه أن قضيته باقت بحكم المنتهية ، لذلك قرر أن يهاجم أراضي الدولة المروانية ويخضعها لسلطانه ، لذلك اندساح الغز في أراضي نصر الدولة ، فما كان منه إلا أن راسل طغرل بك عارضا اعترافه بسلطانه واستعداده لدفع المبالغ التي تفرض عليه ، ووصل إلى طغرل بك في الموصل « ابراهيم ينال من همذان في عشرين ألف رجل ، فخرج الناس للقائه ولم يتخاف إلا السلطان ، ولما وقعت عينه على عميد الملك - الكندري وزير طغرل بك - قال له بالتركية : صالحت بين العرب والسلطان وجعلتهم أهلا لذلك ، وإنما يكون الصلح بين النظراء ، ومن هؤلاء الكلاب حتى لا يقلع أصلهم ؟ » بعد هذا رضي ابن مروان أن يدفع مبلغ ١٠٠ ألف دينار للسلطان ، لذا سار السلطان طغرل بك نحو سنجار في طريقه إلى بغداد « ففتحها عذوة وسبى نساءها وأطفالها ونهب أموالها وأحرق جامعها ، ونقضت أخشابها ودرست آثارها ، وقيل أن القتل أتى على أربعة آلاف نفس وأكثر وجاف المنزل فارتحل السلطان » نحو بغداد عائدا إليها وقبل عودته « سلم إلى ابراهيم ينال الموصل وأعمالها » .

وبعيد وصول طغرل بك إلى بغداد بقليل طلب أن يسمح له بمقابلة الخليفة ، وبعد فترة قبل الخليفة القائم بمقابلة عبده وسيده الجديد والتعرف إليه لأول مرة ، ويقدم لنا غرس النعمة محمد بن هلال الصابي الذي عاصر هذه الأحداث وعاش تفاصيلها وصفا حيا لهذه المقابلة يقول فيه : « وجلس » الخليفة جلوسا عاما مشهودا ، وجلس رئيس الرؤساء في صحن السلام واستدعى النقباء والقضاة والشهود والأعيان ... وعميد العراق وحواشي السلطان وبعث إلى السلطان ... واستدعاه إلى دار الخليفة ، فنزل في طيار - قارب - الخليفة وكان قد زين وأرسل إليه ، وانحدر خواصه في الزبازب ، وعلى الظهر فيلان يسيران بإزاء الطيار والعساكر والناس من جانبي بغداد ، ثم قدم له مركب من مراكب الخليفة ، فنفر من الفيلين ، فقدم له من خيله فرس أشهب فركبه وعليه قباء ديباج أسود ، وعمامة مثلثة مذهب ، ودخل الدار وبين

يديه أولاد الملوك... وقتلهمش ابن عمه وأشراف القواد والديلم ونحو من خمسمائة غلام من غلمان الترك والكل بغير سلاح ، فلما بلغ باب دهليز صحن السلام وقف طويلا على فرسه إلى أن فتح له الباب فنزل ودخل ماشيا وتلقاه رئيس الرؤساء ، وكان الخليفة في بيت في صدر البهو وعلى بابه ستور ديباج ، فرفعت وإذا بالخليفة جالس على سرير ارتفاعه من الأرض سبعة أذرع في دست ديباج منقوش وعليه العمامة والقميص المصمتان وعلى منكبه بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده القضيب ، فلما رآه السلطان قبل الأرض دفعت كثيرة ، ونصب له كرسي دون السرير لطيف ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : أصعد ركن الدين إليه ، وأصعد معه محمد بن منصور الكندري مفسرا له معبرا عنه ، فصعدا ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل لركن الدين أمير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفعلك ، زائد لشغفه بك وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد اليك مراعاة عبادته فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته في ذلك واجتهد في عمارة البلاد وصلاح العباد ويسر العدل وكف الظلم ، ثم أفيضت بعد هذا عليه الخلع وتوج وخوطب بملك المشرق والمغرب ومنح لقب سلطان فكان أول من منح هذا اللقب رسميا في تاريخ الاسلام ، وبعد أن قبل طغرل بك الأرض عدة مرات سمح له بتقبيل يد الخليفة والمغادرة ، ولكن قبل أن يغادر قيل له : « إن الله تعالى أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك من بعضها » وقصد من هذا أن تزداد أعطيات الخليفة ومخصصاته وصلاحياته ، لكن طغرل بك تجنب أن يعد بأي شيء جديد ملزم .

ولم تطل إقامة إبراهيم يnal في الموصل حيث تركها وقدم إلى بغداد في مطلع سنة ٤٥٠ هـ/ آذار ١٠٥٨ م وقد أغضب هذا السلطان وأزعجه فأراد القاء القبض عليه لولا توسط الخليفة وأصلاح الحال بينهما حيث عاد إبراهيم أدراجه الى الموصل ، وفي نفسه الحقد والاستعداد للثورة ضد طغرل بك .

ولقد عرف البساسيري مع المؤيد في الدين بوجود خلافات بين إبراهيم يnal وطغرل بك فعملا على استغلال هذه الخلافات

وتوسيعها ، وكان البساسيري قد استغل عودة طغرل بك الى بغداد ثم سافر ابراهيم ينال إليها فجمع قواته قبل سفر الأخير وتحرك من الرحبة شمالا نحو بالس (مسكنة الحالية) على الفرات وأعاد الاتصال بقريش بن بدران الذي كان قد فقد الموصل ، فانضم قريش مع قبيلة عقيل اليه ، وكان القصد من تحرك البساسيري نحو بالس الاستيلاء عليها وذلك ضمن خطة مرسومة لتصفية الدولة المرداسية وضم أملاكها إلى الأراضي التي كانت تحكم حكما مباشرا من قبل الفاطميين في القاهرة .

يروى المؤيد بأن القاهرة قد قامت آنذ بإرسال بعض المبالغ الجديدة الى حلب ، وأن ثمال بن صالح قد أعطى هذه المبالغ الى أخيه عطية بن صالح وطلب منه حملها الى الرحبة ، لكن عطية عوضا عن أن يوصل هذه المبالغ كما كلف قام باحتجازها لنفسه ، وقد كان لصنيعه هذا أثرا خطيرا على المؤيد في الدين والبساسيري واتباعه ، لهذا قرر المؤيد مغادرة الرحبة والتوجه الى حلب ، وفي طريقه الى حلب وقبل أن يصلها لقي عطية بن صالح فأصلح أموره معه - أو هكذا تظاهر - ووعده باستصلاح شأنه مع الخليفة الفاطمي ، ويقول المؤيد : « ولما كان ثاني يوم التقائي به صادفت أخاه ثمال بن صالح وقد حشد من حشود عشيرته الكلابية من كان استنهضهم الى حلة عطية ليحملها حملا ويلهب النار فيها فتكا وقتلا ، فتناولته بإسنان وعظ صادق موقعا من قلبه ومنطقه ، ونهيته عما هم به نهيا كثر من الصلاح موقعه ودفعت به عن حمى الفريقين دفعا احتمت به حلب وأعمالها من الهلكات وأمنت من بغتات الأذى بمشيئة الله » ، ويستطرد المؤيد في قصته فيقول : « ولحق أبو الحارث - البساسيري - على إثري فنزل ببالس ٠٠٠٠ ومعه قريش بن بدران ونخبة وجوه عقيل » ، ويعطي المؤيد سببا لتحرك البساسيري هذا بأنه قد سبق له - أي البساسيري - وطلب من نصر الدولة المرواني أن يمنحه ملجأ في مملكته ، وقبل أن يأتيه الجواب « قصر باع صبره » فتحرك شمالا ، وما كانت بالس إلا محطة في طريقه .

عندما يقوم المرء بفحص قصة المؤيد في الدين هذه فحسباً نقدياً يجد بأن المؤيد قد جافى فيها الصدق وقارب التزييف ، فلقد كان هدف البساسيري هو بغداد ، وكانت الرحبة أحسن قاعدة له للنجاح في مهمته ، ذلك أنها كانت غير بعيدة عن بغداد ، قريبة من الصحراء الشامية التي كان يمكن استخدامها ملاذاً ، وأهم من هذا كانت نبعاً لا ينضب من الرجال البداة المستعدين للقتال إذا ما حضر الذهب ، وكان الذهاب الى الدولة المروانية يعزى التخلي عن الثورة ، ولو أنه كان فعلاً قد قرر التخلي عن ثورته لما صحب معه جنده مع قريش بن بدران وقواته العقيلية ، لهذا يبدو أن تحرك البساسيري هذا كان تنفيذاً لخطة مرسومة .

يذكر غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء بأن بالاس قد كانت من أملاك عطية بن صالح ، أو بالحري كانت أقطاعاً له ، ويقدم هذا سبباً موضحاً لتحرك البساسيري ، وهو : لقد تحرك البساسيري وعساكره مع قريش بن بدران وشيوخ عشيرته وأتباعهم نحو بالاس للاستيلاء عليها ولانتزاعها من الرجل الذي استولى على الأموال التي أرسلت إليهم من القاهرة ، وهذا لا بد من التساؤل : لكن لماذا قابل المؤيد في الدين عطية وصالحه وطمانه ، ثم قابل ثمال ومنعه من القيام بأي عمل ضد أخيه؟ والجواب على هذا السؤال نجده في سياق الحوادث التي تمت بعد الاستيلاء على بالاس وادت الى فقدان ثمال لملكه في حلب

ويتحدث المقرئ عن خطة وضعها الوزير اليازوري لانتهاء حكم ثمال ويقول في ترجمته لثمال في كتابه المقفى التي استقى مادتها كما يبدو - رغم عدم تصريحه - من كتاب بغية الطلب لابن العديم مؤرخ حلب الكبير ذلك أن المقرئ كان أحد رواة هذا الكتاب وممن حاذوا نسخته الأصلية بخط المؤلف : « فلما ولي الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وزارة المستنصر لم يرض من معز الدولة بما رضى منه الوزراء قبله ، ورأى أن الحيلة والخديعة أبلغ فيما يريد ، فاستعمل السياسة وبعث خفايا التدبير ،

ونذب لذلك رجلاً من ثقافته ، فسار الى حلب وساس الأمر واحكم التدبير مع كاتب معز الدولة بكثرة ما وعدوه به ومناه الى نزل معز الدولة من القلعة وسلمها الى الأمير مكين الدولة أبي علي الحسن ابن علي بن ملهم بن دينار العقيلي نائب المستنصر» .

ولأريب في معرفة المؤيد بخطط اليازوري هذه ويبدو انه اراد حين قابل عطية ثم شمال واجتمع بهما ان يخفي ملامح هذه الخطة مع خبر تحرك البساسيري ذلك ان كشفها كان بدون شك سيزيل الشقاق بين الأخوين ويوحدهما ويوحد جهديهما وقواتهما ضد العدو المشترك ، وبعد ان قابل شمال المؤيد في الدين عاد ادراجه الى حلب دون ان يتصالح مع اخيه ، وعند عودته تفرقت قواته البدوية كما ان قوات عطية كانت قد تفرقت ايضاً ، ومما لأريب فيه ان هذا قد افسح الطريق امام البساسيري لتحركه شمالاً ومكنه من الاستيلاء على بالس دونما مقاومة ، ويروي المؤيد في الدين بانه عندما دخل الى حلب وجد الأمير شمال كان لا يزال غاضباً «لما اتفق عليه ما اتفق من خروج اخيه عليه وخيانتته له في المال الذي سلمه اليه ، وتقاعد عشيرته عنه لما ارادهم في ساعة العسرة ، وتبرمه بالعسكر العراقي الذين جاوروه لما لقيه منهم من سوء العشرة ، ودعته هذه الدواعي كلها الى ان يورث سلطانه خلد الله ملكه ارضه ودياره ، ويتفياً ارضه ويسكن جواره ، فكاتبه يستدعي شحنة يشحن بها قطر حلب، ويقضي بها من تسليمها وتسليم قلعتها كل ارب » .

غالباً ما تكون كثرة السذاجة وشدة البساطة في رواية اخبار الامور السياسية مدعاة للشك والريبة لأنه ليس في التاريخ من تنازل عن حكمه دونما إكراه فعلي وتحت ضغط ظروف ليس فيها أمل للمقاومة ، وهكذا ما اظن امر تنازل شمال عن ملكه تم بهذه البساطة التي رواها المؤيد في الدين الذي كان كبير المسؤولين عن العقيدة الفاطمية التي استخدمت التقية بكثرة وكان لديها لكل ظاهر باطن .

لقد كانت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م سيئة ، لهذا ارسل الخليفة

المستنصر الى الشام جيشا لجبا على راسه الحسن بن علي بن ملهم، ولقد اشتبك هذا الجيش في عدة مواقع مع القوات البيزنطية لانطاكية . وفي هذه الاثناء جهد ثمال بن صالح في اصلاح ما بين الخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية وايقاف القتال بينهما، فاحقق فعسكرت قوات ابن ملهم في افامية قرب الحدود البيزنطية وليس بعيدا عن حلب

لقد كان لثورة البساسيري وتحركات الغز اثر بالغ السوء على الوضع الاقتصادي في شمالي بلاد الشام ، يضاف الى هذا ان سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ - ١٠٥٨ م كانت سنة جفاف ذات مواسم ريئة ويعتبر الذهبي هذه الحالة السبب الرئيسي الذي اجبر ثمال بن صالح على التخلي عن امارته . ان القضية : جفاف ومواسم في غاية السوء مع تدمير للأرض ولما جاء من الحاصيل ، وتوقف للتجارة وحركة القوافل ، والبساسيري وقواته تضغط على حلب من المشرق وابن ملهم وجيشه من المغرب ، وقبيلة كلاب ممزقة منقسمة على نفسها ومتوزعة في البادية وسواها . هذه هي الظروف التي عاش تحت كابوسها ثمال بن صالح عام ٤٤٩ هـ ويمكن ان يضاف اليها سبب آخر هام وهو ان الامبراطورية البيزنطية كانت مشغولة في تلك الاوقات بمشاكلها الخاصة التي نجمت عن هجرة التركمان ، وتوغلهم في الاناضول .

عندما غدت الامور على هذه الصورة التي شرحتها ، سارع الوزير اليازوري لاقتناص فرصة ما اعد له من خطط وما ساعدته الاقدار على انجاحه فارسل ابن عقيل قاضي صبور الذي كان آنذاك من شخصيات الشام المرموقة وسبق له ان توسط بين ثمال بن صالح والخليفة المستنصر ، ارسله الى حلب للاجتماع بثمان لمحاولة اقتناعه بالتخلي عن حلب مقابل اقطاعه بيروت وعكا وجبيل ، ونجح ابن عقيل في اقناع ثمال ، وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني لعام ١٠٥٨ م ترك ثمال حلب متوجها نحو القاهرة وبغل ابن ملهم مع قواته الفاطمية الى المدينة ، وهكذا دخلت حلب مع شمالي بلاد

بلاد الشام تحت السلطان الفاطمي وحققت حركة البساسيري خطوة نجاح هامة نحو القضاء على الخلافة العباسية ومنع السلاجقة من اقامة امبراطوريتهم ومد السلطان الاسماعيلى على العالم الاسلامي.

ويبدو ان مجيء جيش ابن ملهم الى الشام قد خدم اكثر من غرض ، فبالاضافة لاشتباكات مع بيزنطة وأخذه لحلب ، لاشك ان وجود هذا الجيش في شمالي بلاد الشام كان يقدم حماية ومساندة لحركة البساسيري ، وكان بإمكانه تقديم النجدة والمساعدة حين الطلب وأثناء الحاجة ، هذا وكان في تحرك البساسيري شمالا فوائد كثيرة اضافة للقضاء على الدولة المرداسية اذ كان يجعله قريبا من ابراهيم ينال لاستعادة الموصل منه ، ولتوسيع الخلافات بينه وبين طغرل بك .

ويبدو مما رواه الخطيب البغدادي الذي عاش هذه الاحداث ان ابراهيم ينال عندما ترك بغداد راجعا نحو الموصل تبعه اخوه طغرل بك « وكان البساسيري راسل ابراهيم يشير عليه بالعصيان لأخيه ويطمعه في الملك للفرده به ، ويعهده بمعاضدته ومضافته عليه ، وارسل ابراهيم ينال...رسولا من الموصل الى...ابي الحارث البساسيري وقريش بن بدران...وهما يومئذ في...بالس بأن أسوق - انا المؤيد في الدين - اليه ما يلتمسه من الحضرة النبوية الفاطمية من الاموال الجزيلة والخلع والالقاب والاولوية حتى يبطلش بطغرل بك البطلش الشديد الذي يهد قوته ويطفي نائرتة ، فتصير جميع ممالكه في قبضته وحوزته ويكون هو ملكها ، وعلى أن تكون الخطبة لنا بالخلافة والامامة مقدمة على خطبته.

وأثناء سير السلطان خلف ينال نحو الموصل القي القبض على أحد الجواسيس الذي كان يحمل رسائل متبادلة بين ينال والبساسيري ، وعلم ينال الخبر فتحرك لفوره مع « قطعة عظيمة

من الجيش الى همذان ، ولم يشعر السلطان لانه كان بعيدا عنه ،
ولما علم سار فعدا خلفه خوفا أن يسبقه الى همذان وبها حلل
التركمان فيملكها ويأخذ من همذان ما بها من خزائن السلطان
وأمواله وسلاحه.



اما وقد خلت الجزيرة الآن من التركمان فقد تحرك على الفور قريش بن بدران يسانده البساسيري نحو الموصل فاستعادها، ولما تمهد امر قريش بالموصل رجع البساسيري الى مركزه بالرحبة ، وفي الرحبة «علم ان بغداد فريسة لمن طلب وقبضة لمن رغب فزحف اليها بالرايات المستنصرية ، وصادف منها ارضا تعج الى الله تعالى من ظلم التركمانية » ، ودخلت طلائع البساسيري بغداد يوم الجمعة السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ / ٢٥ كانون اول ١٠٥٨ م ، «ثم دخل البساسيري بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطئ دجلة ونزل هناك والعسكر معه ، واجمع اهل الكرخ (وكانوا شيعة) والعوام من اهل الجانب الغربي على مضافرة البساسيري، وكان قد جمع العيارين واهل الرساتيق وكافة الذعار واطمعههم في نهب دار الخلافة ، والناس اذ ذاك في ضر وجهد قد توالى عليهم سنون مجدبة والاسعار غالية والأقوات عزيزة » ، وحالما دخل البساسيري بغداد امن لنفسه السيادة على نصفها الغربي حيث كان اكثرية سكانه شيعة ، وحتى يكمل فتحه لبغداد والسيطرة عليها كان عليه ان يجتاز دجلة الى الجانب الشرقي حيث قامت دار الخلافة التي كانت عبارة عن شبه مدينة ، وقد قام الخليفة القائم بترميم أسوار هذه المدينة وبتحصينها ، وشحنها بالرجال والسلاح ، ولدة عشرين يوما حاول البساسيري العبور الى الجانب الشرقي ولكن دونما نجاح وكان « القتال في كل يوم يجري بين الفريقين في السفن بدجلة » ، وأخيرا ضعف أعوان الخليفة وتمكن البساسيري وأتباعه من العبور الى الجانب الشرقي « واحاطوا بدار الخلافة فنهب ما لا يقدر قدره » ، وأثناء سقوط دار الخلافة ونهبها أرسل الخليفة الى قريش بن بدران كيما يقوم بتسليم نفسه اليه ثم قرر ان يتوجه بذاته اليه ، فركب وعليه السواد وعلى كتفه البردة وبيده سيف مجرد ، وعلى رأسه اللواء والهاشميون حوله والجواري حاسرات ناشرات الشعور معهن المصاحف على رؤوس القصب وبين يديه الخدم بالسيوف المسلسلة » ، وعندما وصل الى

الساحة الكبرى لدان الخليفة وجد قريش بن بدران هناك ، فنادى
رئيس الرؤساء ابن المسلمة قريش وصاح : يا علم الدين امير
المؤمنين يستدنيك ، فدنا... فقال : قد آتاك الله رتبة لم ينلها امثالك
واحلك منزلة لم يحلها اشكالك ، فان امير المؤمنين يستدنيك منك على
نفسه واهله واصحابه بدمام الله تعالى ودمام رسوله صلى الله عليه
وسلم ودمام العرب ، فقال قريش قد اذم الله له ، قال : ولي لمن
معه ، قال : نعم وخلق قلنسوة من تحت عمامته واعطاها ذماما
للخليفة ، واعطى مخصرته لرئيس الرؤساء ذماما... ونزل الخليفة
ورئيس الرؤساء الى قريش وحصلا معه ، فقبل قريش الأرض
دفعات... وبلغ البساسيري ، فارسل اليه يقول : اتدع لهما وقد استقر
بيني وبينك ما استحلفتك عليه ، وكانا عند انحدارهما قد تحالفا ان
لا ينفرد احدهما عن الآخر بشيء ، ويكون العراق بينهما نصفين
فقال قريش : ما عدلت عما استقر بيننا ، عدوك ابن المسلمة ، يعني
رئيس الرؤساء ، فخذوه وانا اخذ الخليفة ، فرضي بذلك ، « وخرج
الخليفة معه - قريش - من الدار راكبا وبين يديه راية سوداء ،
وعلى الخليفة قباء اسود وسيف ومنطقة ، وعلى راسه عمامة تحتها
قلنسوة... وضرب قريش للخليفة خيمة... فدخلها... وماشي
البساسيري وزير الخليفة ابا القاسم بن المسلمة ويد البساسيري
قباضة على كم الوزير « وهو يقول له : « مرحبا بمدمر الدول : ومهلك
الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد » ، واعتذر ابن المسلمة للبساسيري
وسأله العفو والغفران لكن البساسيري رفض قبول معاذيره وقال
له : « قد قدرت فما عفوت وانت تاجر صاحب طيلسان ، ولم تبقي على
الحريم والأطفال والأموال ، فكيف أعفو عنك وانا صاحب سيف وقد
اخذت أموالا وعاقبت حرما ونفيتهم الى البلاد والقلاع واعتقلتهم
فيها وقتلت أصحابي ودرست دوري وسبيتني وابعدتني وفعلت تلك
الأفاعيل » وحاول الناس (العامة) تخطف ابن المسلمة ليقتلوه
فمنعهم البساسيري ونقله الى حيث سجنه.

اما الخليفة الذي أنزله قريش في خيمة بين أتباعه فقد لحقه « نرب
عظيم فامتنع من الطعام والشراب ، فسأله قريش وألح عليه حتى

اكل وشرب وفي يوم عرفة (٩ ذي الحجة سنة ٤٥٠ هـ) «أخرج الخليفة من الموضع الذي كان به ، وحمل الى الأنبار ومنها الى حديثة عانه على الفرات ، فحبس هناك وكان صاحب الحديثة والمتولي خدمة الخليفة بنفسه هناك مهارش البدوي «العقيلي الذي كان ابن عم لقريش بن بدران».

وعندما استقرت الأمور للبساسيري في بغداد قام بايقاف الخطبة للخليفة العباسي وأحل محلها الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي ، وضرب دنانير جديدة باسم المستنصر ، وبهذا كان البساسيري قد قام بالغاء الخلافة العباسية وازالها من الوجود ، وبذلك حققت الدعوة الفاطمية الاسماعيلية غاية امانيتها ووصلت رقعة دولتها الى اقصى حدودها ، ولقد كانت فرحة القاهرة بماتم لاتوصف ، وفي بغداد لم تتوقف احتفالات البساسيري ايضا وذلك في سبيل اظهار سطوة الحكم الجديد وقوته فبعد نفي الخليفة بايام جيء بابن المسلمة واخرج من تحت العذاب فوضع «على جمل وطيف به في محال الجانب الغربي - من بغداد ، ثم صلب حيا ... وجعل في فكاه كلوبان من الحديد وعلق على جذع فمات»

ولم يزل الخليفة في محبسه بحديثة عانه الى ان ظفر طغرل بك بأخيه ابراهيم ينال وقتله ، وقد تم هذا على النحو التالي: فعندما لاحق طغرل بك ابراهيم ينال وصل قبله الى همذان وكانت القوات التي معه قليلة لذلك عندما وصل ينال الى همذان اخذ بحصار هذه المدينة وطال الحصار وامتد ، وفي هذه الأثناء كانت زوجة طغرل بك قد تمكنت من جمع بعض القوات التركمانية وتوجهت بها نحو همذان لفك الحصار عن زوجها ، وفي الوقت نفسه استنجد طغرل بك بألب أرسلان ابن أخيه جغري بك ، فخف بما لديه من قوات نحو همذان ، والتقى ابراهيم ينال بهذه القوات واشتبك بقتال مرير معها نجم عنه هزيمة قواته ووقوعه بالأسر ، وجلب ينال بعد أسره الى طغرل بك فقام بخنقه بوتر قوسه ، وحالما حصل هذا قرر طغرل بك التوجه بقواته نحو بغداد لطرد البساسيري منها ولأحياء الخلافة

العباسية . وكاتب طغر لبك مهارش وطلب منه ان يجلب الخليفة اليه ووعدته وتوعده ، فقام مهارش بأخذ الخليفة معه وتوجه به نحو طغرل بك الزاحف بجيوشه نحو بغداد ، ويبدو ان البساسيري كان قد اراد أن يبعث بالخليفة الى مصر لكن سجان الخليفة العقيلي رفض تسليمه اياه لارساله الى مصر .

وعندما وصلت اخبار انتصار السلطان طغرل بك على أخيه ومن ثم زحفه نحو بغداد ، الى البساسيري، قام بترك بغداد والتحق بحلة دبيس بن مزيد أمير بني أسد وأخذ يحضر نفسه للعبور الى الرحبة ، لكن ما أن وصل السلطان طغرل بك بغداد حتى أرسل بعضاً من قواته لمطاردة البساسيري ومنعه بنفس الوقت من العبور الى الشام ، ونجحت قوات طغرل بك في مهمتها هذه حيث لحقت بالبساسيري فقتلته وعندما جرى بجثته الى السلطان وجد «في جيبه خمسة دنانير فدفعها السلطان الى من قور رأسه وأخرج مخه ، ...فترك على قناة وطيف به - في بغداد - وضربت بين يديه الدباب - والبوقات وعلق مدة ثم حمل الى خزانة الرؤوس .

لم تتجاوز الفترة التي سيطر بها البساسيري على بغداد أيام سنة هجرية واحدة ، وعاد الخليفة الى داره المشعثة وعاصمته المهتمة بعد سنة سجن (٣٢) ، وبالقضاء على حركة البساسيري تم لطغر لبك ارساء قواعد الامبراطورية السلجوقية ، ولقد نجم عن اخفاق ثورة البساسيري وقيام العهد الجديد نتائج على غاية من الخـطورة ، فـ..... طويت الآن صفحة من تاريخ العرب والاسلام وبدأت واحدة جديدة ، وهكذا يمكن اعتبار سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م سنة فاصلة في تاريخ الاسلام ، ويمكن أيضاً اعتبار مقتل البساسيري من الأحداث ذات الأثر الحاسم بالنسبة للدين الاسلامي وخاصة الجاذب الفكري والحضاري منه ، وليس من المغالاة أن يطلق المرء على الفترة التي سبقت مقتل البساسيري وقيام الامبراطورية السلجوقية بكل ما لها وما عليها اسم «فترة الحرية» والفترة التي تلتها اسم «فترة الحتمية» .

لقد كان السلاجقة سنة متعصبين لسننتهم وكان لهم طبرقهم الخاصة للدفاع عن السنة ولجلب الناس إلى حظيرتها ، وغالبا ما اعتمدت هذه الطرق على العنف والقمع والتهديد بالموت ، ونادرا ما اتخذت من الحجة والاقناع وسيلة ، وقبل الاستطراد بهذا مفيد أولا أن نذكر بأن القسم الأعظم من العالم الاسلامي كان حتى وفاة البساسيري يدين معظمه إما بإحدى عقائد الشيعة أو كان يخضع لحكم أو لنفوذ إحدى الدول الشيعية ، ولقد كانت الدولة الفاطمية هي أعظم القوى العقائدية والسياسية للشيعة وكان القضاء على ثورة البساسيري انحسارا للمد الشيعي وبداية حاسمة للعودة نحو السنة ، ولا تكمن القضية في أمر انتصار السنة على الشيعة وإنما في الطرائق التي استخدمت ومكنت من هذا الانتصار

وأمر الصراع بين الفكر السني والعقيدة السنية من جهة والحركات الشيعية من عقائد وأفكار من جهة أخرى هو ليس بالجديد في التاريخ الاسلامي ، وقيام الثورات الشيعية والقضاء عليها أمر عادي أيضا في تاريخ الاسلام ، إنما الجديد هو نوع الملاحقة المستمرة التي لقيتها الحركات الشيعية منذ الآن فحولتها من حركات ذات أهداف توسعية ، وبرامج ذات نظرة شاملة ، إلى طوائف همها المحافظة على مآلديها من مكاسب ، وغدت الأفكار والعقائد التي كانت جزءا من برامج للنشر على الناس قاطبة عبارة عن أشياء محاطة بأطواق من السرية المميتة ، ولعل ما أصاب العقيدة الاسماعيلية بعيد القضاء على ثورة البساسيري بفترة وجيزة كاف للتدليل على هذا، فلقد قامت حركة جديدة بين الاسماعيلية أسسها حسن الصباح الذي اتخذ من قلعة الموت مركزا له ، ولقد تبنت هذه الحركة - للانتصار والانتشار وللقضاء على أعدائها - عقيدة الاغتيال السياسي بواسطة المدية ، وعملية الاغتيال السياسي هي وسيلة دفاعية لا تلجأ إليها الحركات ذات الأهداف الثورية التوسعية ، وكل حركة ذات طابع دفاعي هي حركة منكشمة تزول بزوال خط الدفاع وبتحطمه .

ولقد أنتج الصراع بين السنة والشيعة في السابق نتاجا ثقافيا له

قيمة حضارية كبيرة ، ولكن السلاجقة الآن تخلوا عن قرع الحجة بالحجة واتخذوا السيف ، وبنفس الوقت أقاموا المدرسة النظامية في بغداد وكان لهذه المدرسة فروعاً في أغلب أصقاع وبلدان الامبراطورية السلجوقية ، ولقد ارتبطت المدرسة النظامية بالدولة ووجهت من قبلها ، وقامت بتخريج علماء بثوا افكارها ونشروها ، وطبيعي أن هذا شيناً خطيراً جديداً في تاريخ العقيدة الاسلامية ، فقد اعتادت هذه العقيدة منذ قيامها على إقامة الدول وتوجيهها ولم تحتج قط إلى مساندة حاكم أو صاحب نفوذ كي تنتشر ، أما الآن وقد أخضعت لتوجيهات الدولة (دولة أوتوقراطية عسكرية) بشكل منظم ومنهج ومدعم بقوة السلاح فهذا أمر خطير ، صحيح أنه يمكن من جعل معظم الشيعة سنة (وكان هذا سيتم حتماً إنما بوقت أطول) لكنه الآن وقد تم بهذه الوسيلة فإن ماجره على السنة كان فادح الثمن ، لقد تحولت السنة نفسها بعد حين إلى طائفة كبيرة أغلق فيها باب الاجتهاد ، فزال الابداع من بين صفوفها واختفى أعلام الفكر الكبار ، وكم كان الأمر خطيراً أن تفقد السنة حيويتها وإبداعها وتنقلب إلى محافظة وقياس بحث وتحول كتبها إلى شروح وحواشي ليس أكثر .

القضية بالغة الخطورة فما زال العالم الاسلامي يعيشها ، لذا يكفي هنا للبرهنة سوق المثاليين التاليين فقط : في سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، أي قبل أن يدخل طغرل بك بغداد ، « وقف طغرل بك السلجوقي على مقالات الأشعري ... فأمر بلعن الأشعري على المنابر » ، « فضج من ذلك أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وعمل رسالة سماها شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة ، وقال فيها : أيلعن إمام الدين ومحي السنة ، ؟ ! وحاول عدد آخر من علماء المسلمين إيقاف عملية اللعن هذه فآخفقوا (٣٢) .

عاش أبو العلاء المعري قبل وفاته سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م في معرة النعمان التي كانت من أملاك المرداسيين الذين اعترفوا

بالخليفة الفاطمي ، وبشر المعري في المعرة بفلسفته وأفكاره ، وكتب وقال ما أراد دون خشية أو خوف ، ولم يحاول واحد من معاصريه الضغط عليه أو تهديد حياته باستخدام العقوبة أو السيف ضده ، حتى المؤيد في الدين داعي الدعاة (أي السكرتير الأول للحزب الفاطمي) الفاطمي فإنه رغم معرفته بأن أفكار المعري تعارض آراء العقيدة الفاطمية لم يحاول أبدا استخدام العنف معه ، ولم يوح به ، رغم أنه كان يستطيع فعل ذلك ، والذي فعله المؤيد هو اتباع الوسيلة الجدلية وقرع الحجة بالحجة بالمناقشة ، ولقد وصلنا العديد من الرسائل التي تبادلها المعري والمؤيد بينهما ، وهذا وإن جميع الذين قالوا بتكفير المعري أو زندقته لم يكونوا من معاصريه بل كانوا جميعا ممن جاء بعده ، أي كانوا من نتاج عصر الحتمية عصر النصر السلجوقي والمدرسة النظامية (١٣٤) .

ويجدر بنا أن ننهي هذا الفصل بنهاية سلطنة طغرل بك فبعد أن عاد إلى بغداد وأعاد إحياء الخلافة العباسية ، شعر أنه لم يبق أمامه من القوى ما يخشى ، وأن ما بقي عليه هو التوجه إلى الشام لاختصاصه ومن ثم إلى مصر للقضاء على الخلافة الفاطمية ، لكنه قبل أن يقوم بهذا أراد أن يرفع من مكانة نفسه ، ويزيد من نفوذه وسيطرته ، فبعد أن قابل الخليفة العباسي طلب من الخليفة الزواج من ابنته ، والخليفة العباسي ذلك الإنسان المتحضر كان مهما علت نظرته إلى طغرل بك ومهما خافه وهابه ، كان يعتبر طغرل بك بدويا شبه متوحش وحديث عهد بالنعمة ، ولا يعدو عبدا من عبيد الخلافة العباسية وجندها ، وهو قبل كل شيء كان أعجميا لا يمت إلى العرب وقريش وبني هاشم بصلة ، لذا كان زواجه بابنة الخليفة أمر لا يكاد العقل يتصوره ، ورغم كل هذا فلقد استجاب الخليفة - بعد ضغوط شديدة ومعاتبات وتهديدات واسعة ووعود - مكرها لطلب طغرل بك الذي كان قد جاوز السبعين من عمره فوافق على زواجه من ابنته التي كانت لم تكن تتعدى بعد العشرين من عمرها ، وليت أن الأمور قد توقفت عند هذا الحد ، فالخليفة الذي وجد أن الزواج أمر لا بد منه أراد أن تتم مراسيم هذا الزواج حسب التقاليد الإسلامية العباسية

وفي مدينة بغداد ، لكن طغرل بك رفض ذلك وأصر على أن يتم الزواج في أصفهان وحسب الأعراف والتقاليد التركية ، ومرة أخرى رضخ الخليفة وأذن لرغبة سيده « وعبدته » طغرل بك فأرسل ابنته إلى أصفهان ، ولم ينجم عن هذا الزواج شيئا فقد كان طغرل بك بالاضافة إلى تقدمه بالسن عقيما ، كما أنه كان وقت الزواج عليلا لذا لم ينعم بابنة الخليفة طويلا ، فبعد ثلاثة أو أربعة أشهر توفي طغرل بك وكان ذلك سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، دون أن يترك وراءه ولدا يخلفه في السلطنة ، وبموت طغرل بك برزت مشكلة خلافته إلى الوجود ، غير أن هذه المشكلة حسمت بتولي الب أرسلان ابن أخيه جفري بك السلطنة ، ويعد الب أرسلان من أعظم الحكام وأشهرهم في التاريخ الاسلامي وهو مع ابنه ملك شاه كانا أعظم سلاطنة بني سلجوق على الإطلاق (٣٥) .



الفصل الثالث

الاجتياح السلجوقي للجزيرة والشام

ابن خان ، النواكبة ، حملة الب ارسلان على
الشام والجزيرة ، اقسز ، قتش بن الب
ارسلان ، مسلم بن قريش وسقوط الدولة
المرداسية ، حملة ملك شاه على الشام
والجزيرة

وكان من عجائب الزمان أن أنطاكية خربت زلزلة عظيمة قبل
فتحها (من قبل الفرنجة) بمدة أربع سنين ، وسقط من سورها عدة
أبرجة .

حكى القاضي حسن بن الموج الفوعي قال : كنت قد هربت من
المجن (بركات بن فارس الفوعي رئيس أحداث حلب في زمن رضوان
ابن قتش) ووصلت إلى أنطاكية وخدمت بها الأجل مسعود وزير
يغي سغان (أمير أنطاكية) فتركني على العمارة ، قال : فعندنا إلى
ما قد أخربته الزلزلة من السور فعمرناه ، فعاد أحد الأبرجة هبطا
وعاب ، فأشير علينا بذقنه ، وأن يقرر أساسه ، فهدمناه ، ونزلنا
على آخر دمس في أساسه ، فوجدنا جرننا قد انكسر عليه طابق عظيم
فكشفناه ، فوجدنا فيه سبعة أشخاص من نحاس على خيل من نحاس
على كل واحد ثوب من الزرد معتقلا ترسا ورمحا ، قال : فعرفت
الأجل مسعود بذلك ، فنفذ ثقته فأخرج الأشخاص وكشف ما تحت

الجرن فلم يجد شيئا سواها ، فحمل الأشخاص إلى الوزير ، فأخذها وأحضرها إلى مجلس الأمير يفي سفان ، فقال بعض الحاضرين : لو أحضر الأمير من مشايخ المدينة من يكشف له حقيقة هذا الأمر ، فتقدم بأحضر جماعة وأبرزت إليهم الأشخاص ، وقيل لهم : تعرفون ما هذه الأشخاص ؟ قالوا : ما نعرف بل إننا نحكي للأمير ما يقارب هذا الأمر ، لنا دير يعرف بدير الملك واسع الهواء غاب علينا في سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، فتكسر أكثر خشبه ، فنقضناه وتطلبنا له خشبا بمقداره فلم نجد بأنطاكية وبلدها شيئا ، فأشار علينا بعض الصناع بتقديم الحائط فحفرنا أساس الحائط الجديد ، فلما انتهينا إلى أسفله وجدنا أشخاص أتراك من نحاس في أوساطهم القسي والذشاب فلم نحفل بذلك ، وعمرنا الحائط ، فما مضى لنا غير مدة قصيرة حتى سرق المدينة سليمان بن قتلمش في أول شعبان سنة سبع وسبعين وأربعمائة في أربعمائة غلام أو بون ، وملكنا كما سمع الأمير ، وهذه الأشخاص ربما كانت من أمة هذه أشكالهم من العرب أو غيرهم من المسلمين ، ووروا عن خبر الفرنج وكان قد وصلهم عنهم أخبار شاذة وما يجسر أحد يفوه بها ، فشتهم يفي سفان أقبح شتم وقال : يا كفار في الأرض غير الأتراك وأمر بإخراجهم ، فما حال الحال حتى قيل الفرنج قد نزلوا القسطنطينية (١) .

عندما تعرضت الموصل لأول غارة غزية في تاريخها ، وصلت أصداء هذه الغارة إلى حلب التي كانت تحكم آنذاك من قبل ثمال ولقد سجلت هذه الأصداء في شعر ابن أبي حصينة شاعر ثمال بقوله
أموا وهموا بالورود فراعهم

من دونه هذا الهمام الأروع

من مبلغ الأتراك أن أمامهم

بحرا يفرق موجه من يشرع

وتيقنوا أن الشام وأهله

أحمى بلاد الخافقين وأمنع (٢)

كان الغزاة الجدد بالنسبة لأبن أبي حصينة أتراكا فكروا بغزو الشام ، لكنهم تراجعوا عن القيام بذلك بسبب قوة ثمال ومثانة حكمه وطبعا الشعراء كما هو معروف «يتبعهم الغاوون» ، فقد سقط ثمال وزال حكمه كما رأينا نتيجة لدخول الغز بغداد وتسلمهم زمام الأمور بها .

بعيد مقتل البساسيري قام عطية بن صالح بالاستيلاء على بلدة الرحبة وحاز على جميع ما تركه البساسيري فيها ، وتمكن في تلك الأثناء محمود بن نصر بن صالح من الاستيلاء على حلب

وطرد النائب الفاطمي منها ، ولما عجزت الدولة الفاطمية عن استعادة حلب طلب الخليفة المستنصر من ثمال بن صالح مغادرة القاهرة وعينه مرة جديدة أميرا على حلب ، وعينه مرة جديدة أميرا على حلب ، ولقد استطاع ثمال بعد عناء دخول حلب يوم الاثنين ٢٩ ربيع الأول عام ٤٥٣ هـ ٢٣ نيسان ١٠٦١ م ، فأستأنف أمارته فيها وجدد حكم الأسرة المرداسية في شمالي بلاد الشام . لكن حكمه هذه المرة كان قصيرا ، ففي ١٣ ذي القعدة من العام التالي ٤٥٤ هـ ١٨ تشرين ثاني ١٠٦٢ م توفي ثمال ، وخلفه - بناء عل وصيته - أخوه عطية بن صالح في إمارة حلب (٣) . لكن ذلك لم يرض محمود بن نصر فقام ينازع عمه على الإمارة .

تبعاً لابن العديم لم يدخل أحد من الغز بلاد الشام حتى بعد وفاة ثمال بن صالح ، وذلك أثناء الصراع الذي تبع وفاته من أجل حكم حلب بين أخيه عطية بن صالح وابن أخيه محمود بن نصر الذي ثار ضد عمه مدعياً بأنه أحق من عمه في حكم حلب ، وقام محمود بجمع قبيلة كلاب حوله وتوجه على رأسه نحو حلب ، وفي رجب سنة ٤٥٥ هـ / تموز ١٠٦٣ م حاصر محمود وقواته الكلابية مدينة حلب في محاولة لاستحواذها وأنهاء حكم عطية وإحلال نفسه محله .

ويبدو أن عطية بن صالح كان أقل مكانة من سواء من أخوانه في قبيلة كلاب ، لذلك أيد الكلابيون ابن أخيه ضده ، ولكن عندما حاصر الكلابيون حلبا هذه المرة ، كان الزمان الذي احتجرت فيه قبيلة كلاب القوة المؤثرة والكلمة الفصل في المنازعات من أجل سيادة شمال بلاد الشام قد ولى إلى غير عودة ، فقد كانت المنطقة وما جاورها تموج بقوى الغز الجديدة ، وستكون الكلمة الفصل منذ الآن لهذه القوى ، وكان الآن بإمكان عطية وسواه الاستغاثة بأحدى مجموعات الغز ودعوتها لمساندته ، وهذا ما حصل .

عند اشتداد الحصار على عطية وجه الدعوة الى أحد زعماء التركمان الذي عرف باسم ابن خان ودعاه للقدوم إلى حلب ، وكان ابن خان مقيما في الجزيرة ، وما أن وصلت دعوة عطية حتى تحرك مع أتباعه نحو حلب ، لكن ما أن وصلت أخبار تحركه هذه الى محمود بن نصر وأتباعه الكلابيين حتى سارع معهم للعمل على فك الحصار عن حلب ، وتحرك عطية بسرعة فطلب من ابن خان عدم متابعة سيره نحو حلب ، كما قام بصنع نوع من المصالحة مع ابن أخيه محمود بن نصر ، وهكذا لم يدخل أحد من التركمان حلب هذه السنة .

ولقد كانت هذه التسوية التي تمت بين عطية ومحمود تسوية مؤقتة تمت تحت ضغط ظروف استثنائية ، ففي الأسبوع الأول من شهر أيار للعام التالي (١٠٦٤ م) تحرك محمود من جديد ضد عمه واستولى على حماة ومعرة النعمان مع حصن كفر طاب ، ثم قاد قبيلة كلاب نحو حلب ، ولقد أخفق عطية في صد محمود وقواته ، ووقعت حلب تحت الحصار ، وكان الحصار حصارا قاسيا أجبر عطية على تجديد استغاثته بابن خان وأتباعه من الغز ، واستجاب ابن خان لطلب عطية وجاء نحو حلب ، ودخلها ، ولقد سبب قدومه ودخوله إلى حلب انسحاب محمود مع قواته الكلابية ، وهكذا تحرر حكم عطية من الخطر الكلابي ولكنه وقع في الوقت ذاته تحت خطر جديد أشد مما تقدمه سيكون حقيقه على يديه .

وما أن دخل ابن خان حلب حتى بدأ على الفور يباشـر سـلطانـه عليها وعلى جميع شؤـون الإمارة ، ولم يستـرح أهـالي حـلب للـسادة البـدأة الجـدد ، وكره أحداث حـلب الغـز الذين بدأوا يـنازعونهم سلطانهم التقليدي ويعملون لـإزالتهم من الوجود ، وعطية نفسه وجد أنه أخذ يفقد سلطته كأمير ، لذلك سارع لإقامة صلح جديد مع ابن أخيه محمود ، تقاسم على أساسه معه أراضي الإمارة ، وبدأ عطية بعد هذا يعمل للتخلص من ابن أخيه وأتباعه وتوجه نحو الأراضي البيزنطية فأعمل الغارة فيها ، ثم توجه عائدا نحو حلب ، وكان يخيل له بأن ابن خان لن يعود معه ، لكنه عاد ووجد عطية نفسه أمامه بلا حول ولا طول فقبله مرة أخرى في حلب .

وبدا عطية يفكر في طريقة جديدة مجددة للخلاص من ابن خان وأتباعه ، وفي إحدى ليالي كانون الثاني لعام ١٠٦٥ م وجد عطية الفرصة للخلاص من الغز ، فقد كان ابن خان آنذاك خارج حلب ، وهنا أمر عطية الأحداث أن يغيروا فجأة على محلات الغز ، ونفذ الأحداث الأوامر ، فنهبوا خـزكـاوات الغز وقتلوا عددا من رجالهم وأسروا بعضا من النساء ، واستولوا على خيول وأسلحة الغز ، وأجبروا من بقي حيا منهم على الفرار إلى خارج أسوار حلب ، وعندما سمع ابن خان بما حدث ورأى ما حل بأتباعه جمع فلولهم ، وأراد التوجه بهم شرقا نحو أعالي الجزيرة ، لكن القبائل البدوية التي كانت قاطنة حول حلب تخطفتهم وحالت بينهم وبين الوصول إلى غايتهم ، وهنا اتخذ ابن خان قرارا خطيرا بأن قام بالسفر إلى سـرمين حيث كان يـعسكر محمود بن نصر فالتجأ إليه ووضع نفسه ومن بقي معه من أصحابه تحت تصرفه .

ولقد شجع هذا محمود بن نصر كثيرا ، فقام بجمع قواته الكلابية وتوجه على رأسهم نحو حلب فحاصرها لمدة ثلاثة أشهر ، ولقد كان الحصار قاسيا ، وكان ابن خان والغز من أكثر الناس تأثيرا به ، ولما شعر عطية بأنه لن يستطيع متابعة المقاومة ، تنازل عن حلب وسلمها لابن أخيه الذي دخلها في التاسع من اب ١٠٦٥ م (٤) .

بعدما دخل محمود حلباً لم يدخل ابن خـان واتباعه إلى المدينة لأنهم كانوا يخشون الاصطدام بالأحداث ، ولقد سافر ابن خـان نحو الجزيرة والعراق وعاد إلى أمارة حلب في العام التالي ١٠٦٦ م ومعه فوجاً جديداً من الأتباع كان مؤلفاً من أصول مختلفة فيه بالإضافة إلى التركمان كرد وديلم وأوج (الأوج اسم أطلق على سكان الحدود الإسلامية البيزنطية) ، ولقد أقطع محمود ابن خـان بلدة معرة النعمان ، فدخلها مع أتباعه واستقر بها (٢) .

بعد هذا الحديث لابد للمرء أن يتساءل من هو ابن خـان هذا ؟ وسأحاول الإجابة على هذا السؤال ، ثم أتابع بعدها الحديث عن الأعمال التي قام بها هذا التركماني في بلاد الشام ، لكن قبل البدء في الإجابة ينبغي التنبيه إلى الأمر التالي وهو أنه عند قيام أي هجرة بدوية يكون في العادة من أصعب الأمور على الباحث التعرف بشكل يقيني على زعماء الهجرة فرداً فرداً وبالتالي تبين أعمال كل واحد منهم ، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول منذ البدء بأنه قد يكون قد وجد بين التركمان أكثر من ابن خـان أي أن ابن خـان الذي دعاه عطية أول مرة قد يكون غير ابن خـان الذي دخل حلب لأول مرة ، ثم إن الأعمال التي سندسبها إليه قد تكون صنعت من قبل غيره إن أوفى معلومات وصلتنا عن ابن خـان هي التي أوردها ابن العديم (هذا وإن لفظة ابن خـان توحى بمكانة صاحبها ، كما لو نقول ابن الأمير أو ابن الملك) ، ويروي ابن العديم بأن ابن خـان كان ابناً لملك الترك ، وأنه غاضب أباه وهجره نحو الأراضي المروانية في أعالي الجزيرة ، وفي الوقت الذي لا يبين فيه ابن العديم من كان ملك الترك هذا ، يبدو كأنه ينقل بلا شعور كلمة ابن خـان إلى العربية ، وعلى كل حال نحن نستخلص من ابن العديم بأن هارون كان هو الاسم الأول لابن خـان ، واتباعه كانوا عبارة عن ألف من الرماة من أصول مختلفة كان التركمان العنصر الغالب بينها .

لقد ذكرنا بأنه نتيجة لمؤامرة عطية اضطرب ابن خـان مع الناجين من أتباعه للالتحاق بمحمود ، ثم ذكرنا بعد ذلك توجه محمود نحو حلب وحصاره لها ، وأشرنا بأن الغز أتباع ابن خـان كانوا الأداة

الفعالة و المؤثرة التي أدت إلى سقوط حلب بيد محمود وبالتالي إلى إنهاء حكم عطية ، ومعلوم أن أعمال الحصار وفتح المدن كانت في العادة تحتاج إلى عدد كبير من الجند ، ولما كان أتباع ابن خان الذين نجوا من حلب كانوا لا يتجاوزون حفنة من الرجال فإن هنا غموضا يحتاج للجلاء .

يحدثنا كلا من العظيمي وابن القلانسي بأنه بعد أن التحق ابن خان بمحمود قام كلاهما بالسفر الى طرابلس ، وبعد أن مكثا هناك بعض الوقت عادا وتوجها مع قواتهما نحو حلب فحاصراها حصارا كان ابن خان وأتباعه من الغز السبب الكبير الذي أدى الى سقوط المدينة الى محمود بن نصر ، ان هذا الخبر يفيد بأن محمودا وابن خان ربما قاما - عندما كانا في طرابلس - بتجنيد جيش غزي ، وإذا صح هذا ففيه إشارة ودليل الى وجود تركمان آنذاك في منطقة طرابلس ، وهذا بدوره يعني أن بعض الغز كانوا قد دخلوا جنوب غربي بلاد الشام قبل دخولهم حلب .

تتحدث مصادرنا وعلى الاخص كتاب مرآة الزمان (القسم الذي يحوي تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ الذي عاصر الاحداث التي نحن بصددھا فسجلھا بشكل مفصل) عن مجموعات من التركمان اطلق عليها اسم الناوكية ، وتروي هذه المصادر بأن معظم الناوكية قد هاجر الى الاراضي البيزنطية ، وجنوب غربي بلاد الشام مع فلسطين ، ويبدو أن الناوكية كانت اول جماعات التركمان التي دخلت بلاد الشام ونشطت فيها ، وانھا جاءت الى الجنوب الغربي من بلاد الشام قبل سواھا من المناطق ، ويبدو انھا سلكت الطريق الساحلي عن طريق انطاكية .

لقد كان زعيم الناوكية سنة ١٠٧١ م في جنوبي غربي بلاد الشام يدعى قرلو ، ويتحدث ابن العديم عن قرلو هذا كابن أخ لابن خان ، ولقد هجر ابن خان حلب سنة ١٠٧٠ م ، وتوجه نحو صور حيث دخل في خدمة قاضيھا ابن عقيل الذي كان حاكمھا أيضا ، ولقد دبر ابن عقيل في السنة نفسها أمر اغتيال ابن خان بواسطة احد أتباعه

التركمان ، ويمكن الاستنتاج من كل هذا بأن ابن خان كان من جماعة الناووكية ، وربما كان زعيم جميع الناووكية الذين دخلوا بلاد الشام في أيامه .

ويبدو أن كلمة ناووكية لم تكن اسما لاحدى عشائر التركمان ، ولكنها كانت اسما اطلق على جماعات محددة من المرتزقة الذين لم يدينوا بالطاعة للسلطان السلجوقي ، ولقد كان التركمان يشكلون الاكثرية العددية في هذه الجماعات ، وحوت الاقلية عناصر مختلفة من السكان المحليين لخراسان والعراق والجزيرة ومن بقايا جند الدول التي زالت مع انتصار السلاجقة وقيام امبراطوريتهم ، هذا ولقد مر معنا كيف أن ابن خان ذهب بعد فتح محمود بن نصر لحلب . ذهب شرقا نحو الجزيرة والعراق ثم عاد بعد قرابة سنة ومعه ألف من الرماة من غز وكرد وديلم وأوج .

لم تقدم الناووكية الطاعة للسلطان السلجوقي ، فلقد هجر ابن خان مدينة حلب سنة ١٠٧٠ م عندما سمع بتوجه السلطان الب أرسلان نحوها للاستيلاء عليها ، ذلك أنه خاف على حياته لذلك هرب ناجيا بها نحو صور حيث لقي حتفه ، وعندما وصل السلطان الب أرسلان إلى حلب قام بحصارها لفترة من الزمن (هذه قضية سنتعرض لها بالدراسة بعد قليل) ثم تصالح مع محمود بعدما أخفق في الاستيلاء عليها ، ولقد اتهم الب أرسلان ابن خان بأنه كان السبب الذي جعل محمودا يقاتل ضد السلطان ويرفض الخضوع له .

هذا ويبدو أن الناووكية كانت لهم علاقة بالتركمان العراقية ، او هم أنفسهم بأسم جديد (١) هاجروا تحت ضغط السلاجقة وتركمانهم من العراق إلى بيزنطة والجزيرة ، وعندما تدفق هؤلاء على الأراضي البيزنطية توغل الناووكية أكثر فأكثر داخل بيزنطة وجاء بعضهم إلى بلاد الشام ، وظلوا في هذه البلاد حتى ذابوا في جسم التركمان أتباع السلاجقة الذين جاؤوا إلى الشام بعد عام ١٠٧٠ م كما سنرى ، ومع أننا سنتحدث عن أعمال الناووكية في جنوب

الشام وشماله بكثير من التفصيل إلا أنه من المفيد أن نذكر هنا بأنه على الرغم من أن الناوكية لم تخضع للسلطان السلجوقي إلا أن أعمالهم في بلاد الشام قد مهدت للاستيلاء السلجوقي وساعدت على انجازه (٧) .

ولقد كان ابن خان وأتباعه أداة فعالة في يدي محمود بن نصر ، فبوساطتهم نال مذهب الأماره ، وبقوتهم استطاع تدعيم نفسه في منصبه كما تمكن من إخضاع كافة القبائل البدوية التي كانت تسكن في إمارته ، وفي عمله هذا كان محمود - ربما بدون شعور - يمهّد السبيل لتبديل سياسي هائل في بلاد الشام ، ألا وهو إزالة القبائل العربية من على مسرح السياسة وإحلال التركمان محلها .

يروى ابن العديم أن محموداً تحرك في عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م جنوباً نحو مدينة حماة ، وكان على رأس قوة مؤلفة من بعض أتباعه من الكلابيين ومن ابن خان وأتباعه ، ولقد كان هدف محمود إخضاع جميع البدو القاطنين في منطقة حماة آنذاك ، حيث أن هؤلاء البدو حاولوا خلق فتنة بينه وبين عمه عطية بن صالح الذي كان موجوداً آنذاك في مدينة حمص (٨) .

لقد كان مركز عطية بعد تركه لحلب كما جرت عادته إما في الرقة أو في الرحبة (٩) . هذا ولا يوضح ابن العديم حين روى خبره هذا لماذا كان عطية سنة ١٠٦٧ م في مدينة حمص التي كانت آنذاك تحت الحكم الفاطمي !

ويقدم كلا من غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ وابن تغري بردي شرحاً للسبب الذي دعا عطية للوجود في حمص ، فقد روى بأن المستنصر الخليفة الفاطمي كتب سنة ١٠٦٧ م إلى محمود بن نصر طالباً منه : أن يرسل خراجاً سنوياً عن إمارة حلب إلى القاهرة ، وأن يقوم بغزو الأراضي البيزنطية ، وأن يقوم بطرد ابن خان وأتباعه من إمارته ويتوقف عن استخدامهم في أعماله ، ولقد رد محمود على المستنصر موضحاً له بأنه كان لا يستطيع تنفيذ واحد من مطالبه

الثلاثة هذه ، ذلك لأنه كان لا يملك أي فائض من المال حتى يرسله إلى القاهرة ، حيث أنه أنفق مبالغ كبيرة أثناء عمله لانتزاع حلب من عمه عطية ، وكان القسم الأكبر من هذه المبالغ قد استدين من بعض الناس ومن الأمبراطورية البيزنطية التي عقد بينه وبينها معاهدة صداقة وأودعها أحد أولاده رهينة من أجل الوفاء بالمعاهدة ومن أجل تسديد الديون ، لهذا كان من غير المعقول الأغارة على الأراضي البيزنطية ، ثم لم يكن هناك أسباب مسوغة للحرب ، وفيما يختص بابن خان وأتباعه قال محمود في جوابه للمستنصر : «أما ابن خان والغز الذين معه فيدهم فوق يدي ، وإنما استخدمتهم مصانعة لهم وكفا لفسادهم فإن رؤي صرفهم فينفذ إليهم من هو أقوى عليهم مني وأنا أساعده » ، ولما وصل جواب محمود إلى المستنصر كتب إلى بدر الجمالي واليه على دمشق : «إن ابن الزوقلية (أي محمود بن نصر) قد خلع الطاعة وإنه مال إلى الجهة العراقية ، فتسير وتقاتله » .

ولما كان بدر غير قادر على تشكيل أية حملة أو قيادة أية قوات ضد حلب فقد كتب « إلى عطية وهو بالرحبة أن يسير إلى حلب ووعده بالمساعدة » .

وعندما استلم عطية رسالة بدر ترك الرحبة وجاء إلى حمص حيث بدأ يجند جيشا من بين قبيلة بني كلاب وغيرها من القبائل ، وعندما وصلت أخبار تحركات عطية هذه وأعماله إلى محمود ترك مدينة حلب و«أتى حماة ووطى جميع العرب وأذلها » ومرة أخرى كاد محمود أن يصطدم بعطية لكن عطية لم يجروا على القتال « لمعرفته بغدر العرب به مرة بعد أخرى وأراد أن لا ينهدم مجد ال مرداس » ، ومع ذلك كان لا بد من إيجاد مخرج يعود على أساسه محمود إلى حلب ، ويتوقف به عطية عن أعماله ، وبالوقت نفسه ترضى به القاهرة ونائبها في دمشق ، وهنا تدخل ابن عمار قاضي طرابلس وحاكمها «بينهم وأصلح الحال ، واستحلف محمود وعطية لصاحب مصر ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه على أن الرحبة وبالس والرقه والبلاد الفراتية لعطية وحلب لمحمود ، وسار عطية إلى دمشق فأقام في خدمة صاحب مصر» (١٠).

ليس لدينا معلومات عن الأسباب التي جعلت قسما كبيرا من قبيلة كلاب مع غيرها من القبائل تتجهز في عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م في منطقة حماه ، ذلك أن أماكن تجهز كلاب كانت في العادة في أطراف حلب ومعرة النعمان أو في مناطق الرقة والرجبة ، وبرغم ندرة المعلومات فإنه من المتصور أن ما كانت تتعرض له الجزيرة مع شمالي بلاد الشام آنذاك من ضغط بسبب هجرة التركمان اليهما وتوغلهم فيهما جعل الكثير من القبائل تترك ديارها غربا وجنوبا ، ولقد كانت أعالي الجزيرة وخاصة منطقة الموصل في هذه الآونة معرضة للضغط المباشر الناجم عن الهجرة ، ولقد تأثرت قبيلة عقيل التي كانت تحكم الموصل تأثرا كبيرا بسبب تدفق التركمان ، وكان مسلم بن قريش هو أمير الموصل ، ولقد وجد مسلم مع قبيلته أنفسهم مكرهين على الانزياح تدريجيا عن ديارهم والتحرك غربا ، ولقد كان التركمان يشعرون أن الموصل والدولة العقيلية هما العقبة الرئيسية في طريقهم لد نفوذهم على الشام والجزيرة ، ولكن لما كانت هجرة التركمان عبارة عن تدفق بشري له هدف ، ولكن ليس له ناظم واحد ، فإن الكثير من التركمان توغلوا في الشام وغيره قبل الاستيلاء كليا على الموصل ، ومع ذلك ما كانت الشام والجزيرة لتصفو مشاربهما للغز قبل إنهاء قوة العقيليين وتحطيمها مع غيرها من قوى البدو العرب .

وأخذت عقيل تتحرك تدريجيا نحو الغرب ، ولقد كانت الدولة المرداسية هي العقبة الرئيسية التي اعترضت سبيل هذا التحرك ، لذا كان لا بد من احتلالها والقضاء عليها وهذا ما حصل ، والأمر الذي يعجب منه الباحث هو كيف سعت القبائل العربية في الجزيرة والشام إلى «حتفها بظلفها» حيث أنها ليس فقط لم تستطع إقامة تعاون ووحدة بين صفوفها ضد الغزاة التركمان بل صرفت معظم قواها وبددتها في نزاعاتها الداخلية فمكنت خصمها من رقابها وأعطته بحماقتها وجهلها ديارها وسيادتها .

لقد أوردنا أعلاه بأن عطية بعدما تصالح مع ابن أخيه محمود سار إلى دمشق ، وأثناء وجوده في دمشق قام مسلم بن قريش سنة

١٠٦٨ م بغزو بلدة الرحبة فاحتلها وضمها إلى أملاكه ، كما قام بعد هذا بعامين في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٧١ م بغزو بلدة الرقة فاحتلها أيضا وضمها إلى أملاكه .

الآن وقد خسر عطية جميع أملاكه طلب من الخلافة الفاطمية مساعدته من أجل استعادتها ، ولكن هذه الخلافة ما كان بإمكانها تجنب مشاكلها الداخلية فما بالك بمد يد المساعدة الخارجية ؟! لذا ترك عطية دمشق وهجر الشام إلى بيزنطة ، وقدمت بيزنطة ، بعض المساعدات له ، فقام في عام ١٠٧١ م بغزو أراضي حلب ، لكنه أخفق في تحقيق أي شيء لوجود التركمان ، ولما كانت بيزنطة آنذاك تعاني من التركمان فإنه لم يكن بإمكانها مساعدة عطية بقوات كبيرة ، فاضطر هو إلى السفر إلى القسطنطينية حيث توفي فيها في حزيران عام ١٠٧٣ م (١١) .

ويبدو أن بيزنطة كانت تستهدف حين قبلت عطية بن صالح في أراضيها واستخدمته ضد أراضي إمارة حلب أن تحد من نشاط تركمان محمود أو تطردهم من بلاد الشام وأن تحتل حلب ، ولقد كانت حلبا قبل عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م - وأيضا بعد ذلك - مركزا هاما بالنسبة للتركمان الذين كانوا يتوغلون داخل الأراضي البيزنطية في أسية الصغرى ، فبعض من التركمان استقر في حلب كما رأينا وبعضهم الآخر قد عد حلبا مركزا هاما من أجل بيع ما كانوا يحتاجونه من مؤن ومعدات ، ولقد كانت كميات المؤن التي حصل عليها التركمان من الأراضي البيزنطية هائلة ، ويكفي أن نسوق هنا مثلا ما ذكره ابن العديم في حوادث السنين : ٤٥٩ - ٤٦٠ هـ ١٠٦٦ - ١٠٦٧ م ، ففي هاتين السنتين : «طلعت طائفة كبيرة من الترك ، فنزل بعضها على دلك - من نواحي حلب - وتقدم منهم نحو ألف نهبوا بلد أنطاكية عن آخره ، وأخذوا نحو أربعين ألف جاموس ، وقيل أكثر ، حتى أن الجاموس كان يباع ببينار ، وأكثره ببينارين وثلاثة ، وأما البقر والغنم والمعز والحمير والجواري فلم يقع على ذلك احصاء من الكثرة ، وكانت

الجارية تباع بدينارين ، والصبي بتطبيقه نعال للخيل ، وخرب بلد الروم خراباً لم يسمع بمثله ، وبقيت الغلات في البيادر مالهاً من يرفعها منهم ، حتى كان الفلاحون وسائر العوام يمضي الواحد منهم ويأخذ ما يريد ، فلا يجد من يدافعه عن ذاك ، لأن الروم تحصنوا في الحصون والجبال والمغائر . وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئاً ، لأن الترك اتوهم على غفلة وكان مقدمهم أفشين بن بكجي قطع الفرات إلى بلاد الروم ، ثم خرج إلى أعمال حلب وباع الغنائم التي كانت معه ... وقيل أن أصحاب مؤونة السوق بحلب حصل في دفاترهم نحو سبعين ألف مملوك ومملوكة سوى ما بيع بغير مؤونة في بلد الروم وسائر البلدان . وأخذ من أصحاب أنطاكية مائة ألف دينار ومثلها من ثياب الديباج والآلة « (١٣) » .

وأمام أعمال التركمان هذه جهدت بيزنطة التي كان امبراطورها الآن رومانوس دايجينوس لايقاف التركمان ومنعهم من غزو أراضيها وأرادت اغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الاستراتيجية الحصينة داخل الأراضي الاسلامية ، ولما كان التركمان ينفذون الى داخل الأراضي البيزنطية ويخرجون منها من ثلاثة مناطق كانت هي : ثغور شمالي بلاد الشام وثغور أعالي الجزيرة وبلاد أرمينية ، فقد وضع رومانوس كما يبدو خطة تستهدف اغلاق هذه المنافذ على ثلاث مراحل ، وفي هذا السبيل قام بنفسه بقيادة ثلاث حملات ضد بلاد الشام وأعالي الجزيرة وحدود أرمينية وذلك في السنوات ٤٦١ - ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٧١ م ، ولقد وجهت الحملتان الاول ضد أراضي امارة حلب في الشام والجزيرة وكانت معركة مناز كرد الشهيرة نتيجة الحملة الثالثة وطبعاً كانت أهمها على الاطلاق لان نتائجها كانت حاسمة بالنسبة للعالمين الاسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، ولناخذ قبل دراسة معركة مناز كرد بدراسة حملتي الامبراطور رومانوس اللتين قادهما قبلها ضد امارة حلب .

لم يكن لهاتين الحملتين نتائج خطيرة وكل ما حصله رومانوس

منهما هو اعمال الغارة في اراضي حلب واحتلال مدينة منبج ، وليس من الواضح بشكل اكيد في المصادر العربية فيما اذا كان احتلال منبج قد تم اثناء الحملة الاولى أم اثناء الحملة الثانية ، هذا وان مخائيل بسللوس المؤرخ الفيلسوف البيزنطي ، الذي كان يعمل في القصر الامبراطوري في القسطنطينية والذي عاش هذه الاحداث وشارك فيها ، لايساعدنا كثيرا فيما كتبه على حل هذه المسالة وكان كل ما قاله حول الحملة الاولى هو : « ترك (رومانوس) مدينة (القسطنطينية) يصحبه جيشه كله ، وزحف ضد البرابرة ، دون ان يعرف الى اين سيمضي او ماذا سيعمل ، لقد جاب الفيا في خطط ليمضي في طريق لكنه كان يزحف على آخر ، توغل في اراضي سبورية والجزيرة ، والنجاح الذي حققه كان فقط قيادة جيشه داخل هذه الاراضي ، والقيام بمركزة بعضا من رجاله في اعالي بعض الهضاب ثم احذارهم وتقطيعهم في ممرات ضيقة ، ومن ثم معاناة فقدان عدد كبير من الجرحى خلال هذه التحركات ، ومهما يكن الحال فلقد عاد وعليه مظاهر النجاح مع انه لم يجلب لنا اية غنائم لامن اهل الجزيرة والشام ولا من الفرس ، وكان كل ما قام به هو انه زحف ضد العدو » ، وبسللوس متحامل في حديثه هذا على رومانوس ومع ذلك يستخلص من روايته هذه بان هدف رومانوس كان مطاردة التركمان وتعقبهم في اراضيه ولايمكن لاية عملية تعقب ان تخضع لنظام مناورة محدد تبعا لقواعد عسكرية ثابتة بل ذلك يسير في العادة حسب الوضع وما يحتاجه ساعة ساعة : وعلى كل حال يبدو ان احتلال منبج قد تم اثناء الحملة الثانية ، لان المؤرخين العرب يروون بان المدينة عندما سقطت سقط معها الكثير من اهلها في الاسر ، وهذا ما يؤيده بسللوس - الذي اشترك في هذه الحملة - بقوله : « وقد أخذ حفنة من رجال الأعداء أسرى » .

ويبدو من روايات المؤرخين العرب بأن رومانوس قد قام في الحملة الاولى بغزو امارة حلب من منطقة انطاكية ، فاستولى على بعض حصون الامارة وهزم محمودا وقواته العربية التركية ، لكنه اكره على الانسحاب بسبب وزود اخبار اليه بأن احد مقسدي

التركمان و اسمه افشين قد استولى على مدينة عمورية وانه على ذية متابعة توغله داخل الاراضي البيزنطية نحو القسطنطينية ، ويبدو ان رومانوس غزا اماره حلب في الحملة الثانية من اراضي الجزيرة فاستولى على بلدة منبج وهدمها وعمر فيها حصنها القديم حيث ترك فيه حامية ثم اخذ طريقه عائدا نحو القسطنطينية بسبب قلة المؤن في المنطقة (١٣) .

لم ينجم عن حملتي رومانوس مع هجرة التركمان حتى الآن اي خطر حقيقي على الدول التي كانت قائمة في الشام والجزيرة ، ولكن الخطر جاء مع الحملة الثالثة ، لكن ليس بسببها ولا من الاراضي البيزنطية ، انما من خراسان وبسبب ما كان يجري في مصر ، او بالحري في القاهرة انذاك ، فلقد كانت القاهرة تعيش في هذه الآونة فترة من المنازعات السياسية من اجل السلطة فيها وبغية التسلط على الخليفة المستنصر ، وكان ناصر الدولة الحمداني (احد احفاد ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل والاخ الاكبر لسيف الدولة مضوح المتنبى وامير حلب) ابرز اطراف النزاع في القاهرة وكان قد « قصد ابطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فندب الفقيه ابا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب ، وبعثه رسولا الى السلطان الب ارسلان ابي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان يساله ان يسير اليه عسكريا ليقوم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى ابو جعفر الى خراسان ، وبلغ السلطان الب ارسلان رسالة ناصر الدولة بن حمدان ، فتجهز من خراسان في عساكر عظيمة » . وتحرك الب ارسلان على رأس قواته غربا ، وكان تحركه بطيئا ، وعلى كل حال لم يكن بإمكان الب ارسلان بسبب طبيعة قواته وطبيعة الحواجز التي اصطدم بها الوصول الى مصر ، فلم يتجاوز أسوار حلب .

ولقد كانت الرها أولى العقبات التي اعترضت سبيل تقدم قوات هذا السلطان ، وكانت هذه المدينة انذاك تحت الحكم البيزنطي ، وقد وصلها الب ارسلان في خريف ١٠٧٠ م واخذ بحصارها وشدد

الهجوم عليها من جهة الشرق » وكان فيها يومئذ دوقس يسمى باسيل بن اسار بن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك ، وكان بالرها يومئذ ثمانية آلاف أرمني وعشرون ألف سرياني ، وستة آلاف رومي وألف أفرنجي » ، وأخذ السلاجقة بقطع أشجار الحدائق وبطمر الخنادق بجانب الأسوار الشرقية ، وأخذت مجانيقهم بقذف الأسوار مع من كان عليها ، وشرع النقبابون في فتح فجوات في السور والأبرجة ، ودام ذلك خمسين يوما (وفي روايات أخرى ثلاثين يوما) « وكان يقاتلهم بالافيلة وعليهم الرجال لابسين الحديد ، فإذا دنوا ليقربوا الحصن طرخوا عليهم الصخور العظيمة فيقتلوا منهم ... ثم انه زحف اليها بسبع دبابات عظيمة ، فعملوا عليها صواري عظيمة وشحم وزفت ونفط ، وطرخوا عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها ، وقتلوا كل من كان فيها .

ثم أمر الملك العادل بقطع الاشجار والاخشاب ورميها في الخندق الذي على الحصن حتى يمشي الخيل والرجال عليهم إلى الحصن ، فتوصلوا اليها من داخل المدينة من النقبوب واطلقوا فيها الذيران فتأججت النار حتى صار الخندق نيران تلتهب ، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافتراء والشتيمة ، فأنفذ اليهم رسولا يقول لهم : ما يحسن بي أن أرحل عنكم بعد قتالكم ، وقد اطاعتني جميع البلاد ، الا بعد ان يستقر لي عليكم مال يسير ، وأنا أرحل عنكم ، لنألا يصير علي فضيحة » ويبدو ان اتفاقا ما قد تم عقده بين أهالي الرها والسلطان الب أرسلان ، على اساسه اوقف القتال ضد المدينة وسحب قواته غربا نحو حلب ، وعند وصوله إلى الفرات قدم له جميع أمراء دويلات الجزيرة واصحاب السلطة فيها الولاء وفروض الطاعة ، وفي الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ التاسع عشر من كانون الثاني / ١٠٧١م عبر الب أرسلان وقواته الهائلة نهر الفرات ، وقبل عملية العبور هذه ارسل الب أرسلان وراء محمود بن نصر يدعو اليه كي يقدم اليه الطاعة ويفتح أبواب حلب لاستقباله ، ولقد رفض محمود - بتحريض من ابن خان - الاستجابة لطلب السلطان وأثر الاعتصام بحلب واتخاذ موقف

الدفاع ، وذلك بعدما شحن مدينة حلب بالرجال الذين هبوا للدفاع عنها من سائر أنحاء بلاد الشام . وزحف الب أرسلان بقواته نحو حلب ، وكان تحركه في غاية البطيء ، لذلك احتاج الى أكثر من مدة شهرين حتى وصلها ، وجدد الب أرسلان في هذه المدة مراسلاته مع محمود بن نصر ، وأرسل له أكثر من بعثة تدعوه لترك حلب والقدوم إلى معسكر السلطان «لخدمته ودوس بساطه» ، وكان كلما اقترب السلطان من حلب كلما ازداد إصرار محمود على المقاومة ، ولما كان الب أرسلان هو سلطان الاسلام ، وقد فوض الخليفة العباسي إليه امر اخضاع بلدان الاسلام وردها الى حظيرة السنة ، فقد قرر عندما وصل حلب ووجد الأمير محمود بن نصر مصرا على عدم الخضوع، قرر اخذ المدينة بقوة السلاح ، لذلك قامت قواته بمحاصرتها .

وكما حدث من قبل في الرها حاصرت قوات التركمان مدينة حلب لمدة تزيد على الشهر ، وبذلت كل جهد ممكن لاقتحام أسوار المدينة فأخفقت ، وتعود الأسباب الرئيسية لهذا الاخفاق إلى : المقاومة العنيدة والدفاع المستميت الذي بذله أهالي حلب ، والى متانة أسوار حلب وقوة أبراجها وحصانيتها ، ثم إلى الطبيعة البدوية للجيش السلجوقي وإلى نوعية تكوين أسلحته ، فقد كان التركمان معتادين على المعارك المكشوفة لمهارتهم الفائقة في استخدام القوس والذنب ولم يكونوا قد اتقنوا بعد استخدام أسلحة دك الأسوار أو تسلقها ، ثم إنه كان ضد مزاجهم النفسي البقاء في مكان واحد لفترة طويلة ، من أجل اخذ مدينة واحدة مهما ضخمت غنائمها فانها لن تعدل تكاليف الإقامة والبعد عن الأهل ، ثم لماذا تحاصر المدن وأراضي بيزنطة وريف الشام والجزيرة فيهما من الغنائم السهلة التناول الشيء الكثير ١٤ .

وبرغم كل هذا فقد شعر السلطان الب أرسلان أن اخفاقه في اخذ حلب بعد إخفاقه في الاستيلاء على الرها سيحط من سمعته ، وسيكون له نتائج غير محمودة ، على امبراطوريته الناشئة ، لذلك أصر على اقتحام المدينة مهما كلف الثمن ، وقامت - بناء على

هذا - قواته بعدة زحوف على المدينة ولكنها كاذت كل مرة تصد خائبة مع خسائر كبيرة ، ولقد كاذت معنويات المدافعين عالية جدا ، وكانوا واثقين من موقفهم وقوة دفاعهم ، ولقد عبر اهالي حلب عن ذلك بأسلحتهم وبطرائق خاصة أخرى فيها نوع من الغرابة إن لم نقل الشذوذ .

لقد كان أقوى أبراج اسوار المدينة برج يدعى برج الغنم وقد ركزت القوات السلجوقية معظم جهودها على هذا البرج وعملت من أجل أخذه أو خرقه ، وكانت مجانيق السلاجقة تقذف هذا البرج بلا انقطاع ، ولقد استطاع الحلبيون رد جميع الهجمات التي وجهت ضد هذا البرج ، ثم قاموا في أحد الأيام فعصبوا هذا البرج « بشقة أطلس وكان السلطان نازلا بميدان باب قدسرين ، فسأل عن ذلك فقيل : هؤلاء الحلبيون يقولون على سبيل المزاح ، قد صدع البرج رأسه من حجارة المنجنيق فقد عصبوه ، فغضب ، وفرق في تلك الليلة ثمانين ألف فردة نشاب غير ما رماه بقية العسكر ، وأصبح وأمر بالزحف ، فجد الناس في قتال البلد ، وحمل السلطان بنفسه في ذلك اليوم ، فوقعت يد فرسه في خسف كان هناك ، وأصاب في الحال فرسه حجر المنجنيق فركب غيره ، وعاد وصرف الناس عن الحرب وكان عسكره دائرا بالبلد من جميع وجوهه » ، وعندما أدرك السلطان صعوبة أخذه لحلب بالقوة « راسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرية فوصلوا إليه ، وعول على تقليد بعضهم وتركه في مقابلة محمود » .

عندما وصلت أخبار هذا العمل إلى محمود بن نصر الذي كان يعرف جيدا أخلاق افراد قبيلته ، لاحظ مدى الخطر الذي هو فيه ، لذلك بادر من طرفه بالتحرك بسرعة ، وسعى للتوصل إلى مصالحة مع السلطان يصون بها ملكه في حلب مع كرامة السلطان وسمعته ، لذلك كتب إلى إيتكين السليماني الذي كان من حاشية السلطان والذي كان قد جاء إلى حلب رسولا أكثر من مرة ، فأخبره بأنه على استعداد للخروج من حلب «لدوس بساط السلطان وخدمته» ، وأشعر

محمود بالايجاب وشجع ، وعلى هذا الأساس خرج سرا من حلب في ليلة الأول من شعبان ٤٦٣ هـ / ٤ أيار ١٠٧١ م ، مرتديا زيا تركمانيا ومعه امه التي كانت تعرف باسم السيدة ، وتوجه وهي معه الى معسكر السلطان فقبلاه وتم بينهم الاتفاق على : بقاء محمود في إمارته ، وعلى أن يخرج في اليوم التالي علنا فيقدم فروض الطاعة للسلطان الذي بدوره يعلن رضاه وموافقته على بقاءه اميرا لحلب ، وفعلا تم اعداد الترتيبات لذلك « فخرج - محمود - إلى السلطان بنفسه ، ومعه والدته علوية ، المعروفة بالسيدة وأخذ مفاتيح البلد معه ، فدخلوا والعسكر سباطان بين يديه فخدماه ، وسلموا عليه ، فأكرمهما وأحسن إليهما وأطلق له البلد ، وشرفه ، وخلع عليه ، وكتب له توقيعا بحلب ، وتردد خروج محمود إلى خدمته مرة بعد أخرى و قرر معه السلطان أن يخرج بعسكره ، ويضيق إليه السليمانى وأن يتوجها إلى بلاد دمشق والأعمال المصرية لفتحها ، ففعل ما أمر به ، وعاد السلطان إلى بلاده . »

ولكي يعلل السلطان إخفاقه في احتلال حلب بالقوة ، ولكي يسوغ انسحابه صرح قائلا : « أخشى أن أفتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم » وطبعا إن هذا تسويغ تافه ومرفوض فبيزنطة كانت تعرف حلبا وتعرف مدى قوتها وكان في الغالب من سياستها إبقاء هذه المدينة مستقلة ، وفي الحقيقة نحن لسنا متأكدين فيما إذا كان السلطان الب أرسلان قد قال هذا حقا ، أو أنه كان نوعا من الدعاية الرسمية ، أم أن القضية كلها كانت اختراعا من قبل أحد المؤرخين ، وليس لدينا أيضا ما يقص تفاصيل اتفاقية محمود مع السلطان ، وكل ما نعرفه أن السلطان لم يدخل حلب كما لم يدخل أحد من جنده إليها ، وأنه بعد اتصاله مع محمود قرر العودة إلى خراسان وعدم متابعة سيره إلى مصر .

وعندما عبر الب أرسلان الفرات مرة ثانية وصلته (كما هو مرجح) الأخبار بتحرك جيش بيزنطي هائل نحو بلاد الاسلام بقيادة الامبراطور رومانوس دايجينوس، لهذا غير الب أرسلان وجهته

وانحرف شمالا لمواجهة هذا الجيش الزاحف ، ولقد تصدى الب أرسلان لقوات بيزنطة واشتبك معها في أرمينية عند موقع اسمه منازكرد (قرب بحيرة وان في تركيا الآن) فهزمها ، ولولا هذا النصر الخطير والبعيد التأثير لكانت حملة الب أرسلان كلها بلا ثمرات . ونظرا للأهمية القصوى لهذه المعركة ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى ، ولأنها تعدل - إن لم تفق - معركة اليرموك بالنسبة للعلاقات الإسلامية البيزنطية فلا بأس أن نوليها الاهتمام ، ثم نعود بعد ذلك لمتابعة دراسة التركمان وأعمالهم في بلاد الشام والجزيرة .

لقد مثل بيزنطة في هذه المعركة الأمبراطور رومانوس دايجينوس الذي تحدثنا عن حملتيه على بلاد الشام ، ويعود رومانوس في أصله إلى عائلة أرستقراطية عريقة أصلها من أسر أسية الصغرى ، ولقد وجد دايجينوس نفسه منذ أصبح أمبراطورا في سنة ١٠٦٨ م يواجه عدة مشاكل داخلية وخارجية ، فأولى معظم وقته وطاقت أمبراطوريته للمشاكل الخارجية حيث أنها كانت أكثر إلحاحا ، ولقد تمثلت المشاكل الخارجية في الخطر الذي أبرزه التركمان في هجرتهم وفي أعمال اجتياحهم للأراضي البيزنطية ، ومن أجل إيقاف التركمان ووضع حد لتغلغلهم وتخريبهم للأناضول قاد رومانوس الحملتين المتتاليتين اللتين تحدثنا عنهما ، ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لحملة كبيرة جدا أراد أن يجتث بها التركمان من بلاده ويكتسب بعض المواقع داخل الأراضي الإسلامية ليشحنها بالجند حتى يقفوا للتركمان بالمرصاد ، ولقد قاد رومانوس قواته التي أعدها تجاه أرمينية في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، ويبدو أنه أراد أن يستغل فرصة غياب السلطان الب أرسلان في بلاد الشام .

وبلغ الب أرسلان خبر تحرك القوات البيزنطية بعد فراغه من امر حلب وأثناء عودته - أو أعداده العدة للعودة - شرقا ، هذا ويروي غرس النعمة بأن السلطان استقبل قبيل مغادرته منطقة حلب بعثة

بيزنطية أرسلها الامبراطور رومانوس ، وأن هذه البعثة عادت إلى الامبراطور أثناء تحرك السلطان شرقا بعد ما سايرت جيوشه مسافة كبيرة .

ولا يخبرنا غرس النعمة بالتفصيل عن مهمة هذه البعثة البيزنطية التي جاءت من أجلها ولا عن نوع المباحثات التي أجرتها مع السلطان الب أرسلان ، إنما يذكر فقط بأنها حملت عرضا « برد منبج وأرجيش ومنازكرد إليه وبحمل الهدية » (١٤) لكن مقابل ماذا ذلك مالا يوضحه .

ويذكر المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسللوس ما يفيد بأن الامبراطور بعد أن تحرك من القسطنطينية تابع سيره حتى وصل إلى قيسارية وهناك توقف عن التحرك وبدأ يفكر بالتراجع إلى القسطنطينية ، لكنه حاول - قبل تراجعه - أن يتوصل إلى اتفاقية مع عدوه ربما بهدف وضع حد لغارات التركمان على بلاده ، هذا ولا يوضح بسللوس الوسيلة التي اتبعها الامبراطور البيزنطي من أجل هذه الغاية ، إنما يبدو مما رواه غرس النعمة أن الامبراطور أرسل بعثة إلى السلطان وصلته وهو في منطقة حلب وعرضت عليه عرضه الذي ذكرناه قبل قليل ، ولئن لم يقدم لنا كلا من غرس النعمة وبسللوس - وهما ممن عاصر هذه المعركة - تلميحا أو تفصيلا لشروط الامبراطور فإننا نجد عند ابن العبري الذي ذكر - خلافا لما رواه غرس النعمة - بأن الامبراطور عندما راسل السلطان اقترح عليه أن يتنازل له عن ملكية مناكرد وأرجيش مقابل تخلي الامبراطور عن منبج ودفعه جزية سنوية اذا ما اوقف السلطان غارات التركمان ضد الأراضي البيزنطية ، ولقد ذكر ابن العبري بأن السلطان قد قبل بمقترحات الامبراطور وتنازل له - تنفيذا للاتفاق - عن جميع الأراضي حتى بلدة أخلاط .

لم يتابع تنفيذ هذا الاتفاق (هذا ان كان قد نفذ في الواقع منه اي شيء) إذ انه من المتصور ان يكون السلطان الب أرسلان قد قبل

بمقترحات الامبراطور ووعده بالتنازل له عن الأراضي حتى اخلاط، ولكن هل كان لديه القدرة على إيقاف التركمان ومنعهم من الاغارة على الأراضي البيزنطية ؟ هذا امر مشكوك به ! على كل حال ان تسارع الأحداث لم ييسر الفرصة لتنفيذ شروط الاتفاق، واصطدمت قوات الب ارسلان بقوات رومانوس .

وقبل الحديث عن اسباب عدم تنفيذ الاتفاق ثم عن الحرب التي وقعت لابد من الإشارة الى ان السلطان الب ارسلان قد قبل بمقترحات الامبراطور البيزنطي لاختشية من الاصطدام معه، ولاتقديرا بان قواته لن تستطيع منازلة القوات البيزنطية ، ولكن كان هدف هذا السلطان وهمه انذاك مد نفوذه وسيطرته على بلدان العالم الاسلامي ، ولم تكن لديه مطامح بالتوسع داخل بيزنطة او سواها من البلدان غير المسلمة ، ويبرهن على هذا انه بعد نصره الساحق في منازكره لم يحاول استغلال هذا النصر ، وانما جهد في التعجيل لايجاد تسوية عاجلة مع رومانوس ، ثم عاد الى بلدان العالم الاسلامي وتابع جهده في مد سيطرته عليها حتى لقي حتفه .

اما اسباب عدم الأخذ بالاتفاق فان بسللوس الذي عاصر الأحداث وشارك في المعركة فيقول : « عوضا - عن تنفيذ الاتفاق - واما في ياس اوبسبب انه (اي الامبراطور) كان واثقا بنفسه اكثر مما ينبغي ، زحف الى القتال » . ان في كلام بسللوس هذا بعض الغموض وهو لايفي بالغرض ، لكن على الرغم من هذا فان الامبراطور عندما استأنف زحفه ، كان - كما يبدو - قد صنع ذلك ليس وهو يائس إنما وهو موقن بان النصر سيكون حليفه ، وربما فعل ذلك بناء على المعلومات التي نقلتها اليه بعثته التي عادت من عند السلطان ، فوصفت له رحيل السلطان وحالة الفوضى التي حلت في جيشه اثناء الرحيل ، ويقول غرس النعمة : «وضجر السلطان من المقام بحلب ، فكر راجعا ، فقطع الفرات ، وهلك اكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شبه الهارب ولم يلتفت الى ما ذهب من الارواح والدواب ، وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه،

فقوى ذلك عزم الروم على اتباعه وحربه .

لقد كان تراجع الب ارسلان هذا «شبه الهارب» قد تم تبعا للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغريب به ، فالتركمان كببدو كانت لديهم خططهم الخاصة في الزحف كما كان لهم مواريتهم المتميزة ، في فن السوقية العسكرية ، وتنطلق هذه المبادئ من الاعتماد على طبيعة البدو وخفتهم ومرونتهم في الحركة ، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة ، فيها يعطي القائد امرا عاما يحدد فيه لقواته البدوية نقطة لقاء وليلة لهذا اللقاء ، ويندفع البداية زمرا وافرادا في اتجاهات مختلفة ، وهنا يظن العدو بانهم تفرقوا الى غير عودة ، لكنه لا يدري ان تفرقهم يفيد قائدهم بتحريره من قضايا التموين ، ثم يدمر اراضي العدو ويضلل قيادته ويجبرها في كثير من الاحيان على توزيع قواتها ، ثم عندما تصطدم اولى طلائع قوات البدو بجيوش عدوها يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خطته لسحق بضعة الاف من البدو ، ولكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل الى اضعاف مضاعفة ، لذا تنهار معنويات قواته ، ويتم عامل المفاجأة وهكذا يحقق النصر .

هذا ما طبقه الب ارسلان الذي عندما التقت قواته لأول مرة بقوات رومانوس كان عددها اقل بكثير من القوات البيزنطية ولكن بعد مضي ليلتين تضاعفت هذه القوات ذلك ان الب ارسلان وصل الى قبالة الامبراطور رومانوس في يوم اربعاء واشتبك معه ظهر الجمعة . وقبل الاشتباك ارسل بعثة لمقابلة الامبراطور والتفاوض معه وذلك من حيث الظاهر ، لكن لاستكشاف احوال الجيش البيزنطي وللاتصال بالعناصر الغزية غير المسلمة فيه من حيث الباطن ، ولقد اعد العديد من الكمائن وهياها لساعات الحاجة وللمفاجأة .

ونظرا لأن قوات الب ارسلان كانت من الفرسان الرماة ، وقوات بيزنطة كانت من الفرسان الثقيل مع المشاة ، فقد قامت خطة السلاجة على مبدأ فصل المشاة عن الفرسان (يمكن تشبيهة

الفرسان الثقيل بدبابات العصر الحالي التي تفقد الكثير من قيمتها بدون حراسة من المشاة ، وايضا لاقية كبيرة للمشاة بدون دبابات) وقتل خيول الفرسان ثم القضاء على المجموعتين كل على انفراد، ولقد حصل هذا في معركة منازكرد كما حصل في سواها من المعارك .

لقد بالغت المصادر العربية في تقدير عدد الجيش البيزنطي فجعلته يفوق المليون مقاتل ، ثم ان هذه المصادر لم تقدر عدد قوات الب أرسلان بأكثر من ١٥ الف مقاتل ، ولهذا كان النصر الذي تم بالنسبة لها قد تم بفضل مساعدة السماء أي أنه كان عبارة عن معجزة وكرامة «للسلطان العادل» واستجاب له دعاء المسلمين يوم الجمعة ساعة المعركة .

لم تكن الصورة هكذا أبدا ، ولم يكن هناك اية معجزة كل ما في الأمر أن قوة بيزنطة التي كانت ربما في حدود الخمسين الفا قد لاقت قوة تركمانية مساوية لها بالعدد نفسه ، انما بميزات قد تم شرحها، يضاف الى هذا ان قسما كبيرا من قوات بيزنطة كان مؤلفا من مرتزقة من عناصر غزية غير مسلمة وكان عدد من ضباط الجيش متآمرين ضد رومانوس يعدون انقلابا للاطاحة به وتنصيب امبراطور جديد مكانه ، لذا عندما اصطدمت جيوش رومانوس بقوات الب أرسلان دارت معركة قصيرة - انما حاسمة - تخلص فيها الغز عن البيزنطيين وانضموا الى بني جلدتهم ، وهرب المتآمرون مع عدد كبير من الجند نحو القسطنطينية ، وترك رومانوس في لجة الفوضى والدمار فسقط أسيرا في يد التركمان ، فكان اول امبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم .

لقد حطمت هذه المعركة قوى بيزنطة العسكرية وكانت البداية الفعلية لتحول بيزنطة الى تركية ، ثم ان الغنائم التي حازها التركمان كانت أكثر من ان تحصى ، ولم يحاول الب أرسلان استغلال نصره المؤزر هذا بمطاردة فلول البيزنطيين والزحف على القسطنطينية نفسها ، بل اكتفى بأن احضر رومانوس الى حضرته

« وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : ألم أرسل إليك رسل الخليفة أطلال الله بقاءه في امضاء الهدنة فابيت ؟ ألم أرسل إليك بالأمس أسألك الرجوع فقلت : قد انفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت الى هاهنا وظفرت بما طلبت ، فكيف ارجع إلا أن افعل ببلاذ المسلمين مثل ما فعلوا ببلاذي ؟ ولقد رأيت أثر البغي ! وكان قد جعل في رجله قيدين وفي عنقه غلا ، فقال ايها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الأجناس وانفقت الأموال لأخذ بلادك ، ولم يكن النصر الا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا ، فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما تريد . فقال له السلطان : فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي فقال : القبيح ، فقال : أه والله صدق ، ولو قال غير هذا لكذب ! هذا رجل عاقل جلد ولا يجوز ان يقتل ، ثم قال له : ما تظن الآن ان افعل بك ؟ قال : أحد ثلاثة أقسام : أما الأولى فقتلي والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، وأما الثالث فلا فائدة في ذكره فانك لا تفعله ، قال : وما هو قال : العفو عني وقبول الأموال والهدية واصطناعي وردي إلى ملكي مملوكا لك وبعض أسفهلاريتك ونائبك في الروم ، فان قتلك لي لا يفيدك ، هم يقيمون غيري

فقال السلطان : ما نويت الا العفو عنك فاشتتر نفسك ، فقال يقول السلطان ما يشاء ، فقال : عشرة الاف الف دينار فقال : والله انك تستحق ملك الروم اذ وهبت لي نفسي ، ولكن قد انفقت أموال الروم واستهلكتها مذوليت عليهم في تجريد العساكر والحروب وافقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد الى ان استقر الأمر على الف الف وخمسمائة الف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة الف دينار وستين الف دينار في كل سنة ، وان ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة اليه ، وذكر أشياء فقال : اذا مننت علي عجل سراحي قبل ان تنصب الروم ملكا غيري فيفوت المقصود ولا قدر على الوصول اليهم ، فلا يحصل شي مما شرطته علي ، فقال السلطان : أريد ان تعيد انطاكية والرها ومنبج

ومنازكرد فانها اخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن اسارى المسلمين ، فقال : اما البلاد فان وصلت سالما الى بلادي انفذت اليهم بالعساكر وحاصرتهم واخذتها منهم وسلمتها اليك ، ... واما اسارى المسلمين فالسمع والطاعة اذا وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فامر السلطان بفك قيوده وغله ، ثم قال : اعطوه قدحا ليسقينيه ، فظنه له فاراد ان يشربه ، فمنع ، وامر بان يخدم السلطان ويناولوه القدح ، فساوموا الى تقبيل الأرض ، وناول السلطان القدح فشربه ، وجز شعره ، وجعل وجهه على الأرض ... فلما كان من الغد احضره السلطان وقد نصب له سريره ودسته الذي اخذ منه ، فاجدسه عليه وخلع عليه قباءه وقلنسوة والبسه إياهما بيده ، وقال له : قد اصطنعتك وقنعت بامانتك وانا اسيرك الى بلادك وارذك الى ملكك ، فقبل الأرض ... وعقد له السلطان راية فيها مكتوب « لا إله الا الله محمد رسول الله » ، وانفذ معه حاجبين ومائة غلام ... وركب معه وشيعة قدر فرسخ ، فاراد ان يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه اليه وتعانقا وعاد السلطان عنه .

ولقد اخفق رومانوس في دخول القسطنطينية ، وجهد بعد ذلك من اجل الوفاء بما التزم به للسلطان ومن اجل استعادة عرشه فاخفق وفقد حياته (١٥) وبعد ايام من مغادرة الب ارسلان لمنطقة حلب قاد محمود بن نصر وايتكين السلیماني قواتهما وتوجها جنوبا لغزو دمشق ، وفي الطريق توقفا عند بعلبك ، وهناك وصلت الى محمود اخبار فيها ان عمه عطية تعاونه قوات البيزنطية من انطاكية اخذ يعمل الغارة في اراضي حلب ، لذا ترك محمود السلیماني وكر راجعا نحو حلب ، ولقد اشتبك محمود مع القوات البيزنطية في أكثر من معركة فانتهصروا عليه وهزم .

وعندما وجد محمود نفسه غير قادر على دفع البيزنطيين عن بلاده استغاث بزعماء النواكية الذين كانوا مع اتباعهم في جنوب بلاد الشام يعملون للاستيلاء على فلسطين ، ولقد لبى هؤلاء دعوة

محمود وجاؤوا اليه ، ولقد تمكن محمود بفضل مسانعتهم ليس فقط من صد البيزنطيين وايقاف اعمالهم ضد اراضي امارته ، بل استطاع ايضا ان يرد الرحبة الى املاكه مستخلصا اياها من مسلم ابن قريش العقيلي ، ويبدو ان هؤلاء الناوكية قد مكثوا لدى محمود فترة طويلة من الزمن لأن استرداد الرحبة قد تم سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م ، وبعد هذا الصنيع سرح محمود التركمان فتركوه الى فلسطين بعد ان اخذوا منه مبلغا من المال وعددا من الخيول وذلك كأجر لهم ، ويبدو انهم تركوا قسما صغيرا منهم في خدمته ذلك ان القوات البيزنطية لآنطساكية اغارت في سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م على اراضي حلب فاستطاع محمود صدها كما تمكن من الاستيلاء على قلعة السن البيزنطية وضمها الى املاكه .

وفي جمادي الاولى من السنة التالية ٤٦٧ هـ / كانون ثاني ١٠٧٥ م توفي محمود بن نصر وقبل وفاته بعامين تقريبا كان السلطان الب ارسلان قد توفي (٤٦٥ هـ / ١٠٧٤ م) . وبوفاتهما انتهت مرحلة من مراحل التاريخ السلجوقي العام مع هجرة التركمان الى بلاد الشام والجزيرة ، وبدأت مرحلة جديدة وحاسمة هي مرحلة تصفية الناوكية وسقوط الدولة المرداسية ومن ثم اخضاع الشام والجزيرة نهائيا للحكم السلجوقي المباشر (١٦) .

لقد اوردنا بان جماعة الناوكية كانت اول جماعة تركمانية تدخل بلاد الشام كما بينا طبيعة تكوينها البشري ، وكيف انها ناصبت السلطان السلجوقي العداء ، لذلك عندما دخلت الشام انضوت تحت لواء الدول التي كانت قائمة فيه ودخلت في خدمة حكام هذه الدول كما انها عملت في سبيل مصالحها الذاتية ، ومع اننا استنتجنا وجود الناوكية في جنوب بلاد الشام وفي مناطق الساحل في طرابلس وصور وسواهما فان المصادر التي وصلت اليها لاتسعفنا بأي شي عن اعمالهم ونشاطاتهم في هذه المناطق قبل حملة السلطان الب ارسلان على حلب ، وكل ما جاء في مصادرنا المتوفرة يشير إلى ان الناوكية تركت شمال الشام الى جنوبه والى سواحلها تحت ضغط

زحف السلطان الب أرسلان مع قواته الهائلة ، لذلك نجد انفسنا مضطرين للحديث عن الفترة ما بعد ١٠٧٠ م .

عندما غادر ابن خان مدينة حلب ذهب « الى ابن ابي عقيل الى صور واقام عنده ، فاحسن اليه ووصله واعطى اصحابه ، وجاء بدر الجمالي فحاصر صور ، فوافق ابن خان وخرج الى بدر فعبس عنده فدرس ابن ابي عقيل الى غلمان ابن خان وقال لهم : قد عرفتم ما فعلت مع صاحبكم من الجميل ، وما انفقتم عليه من الأموال ، وما صلح لي ولاجازاني على احساني اليه ، ولكم علي ان قتلتموه كذا وكذا من المال ، فوثب عليه اثنان فقتلاه وحملوا راسه الى ابن ابي عقيل فطيف به في صور ، وكان عند ابن ابي عقيل جماعة من الغز ففارقوه الى بدر فقوي بهم (١٧) . ولقد كان حصار بدر هذا لصور سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وشدد بدر الحصار على صور ، فأرسل ابن ابي عقيل « الى الأمير قزلو مقدم الأتراك المقيمين بالشام يستنجده ، فسار اليه في اثني عشر الف فارس فحضر مدينة صيدا وهي لأمير الجيوش بدر فرحل حينئذ بدر فعاد الأتراك » ويصف المؤرخ المصري ابن ميسر قزلو بأنه كان « مقدم الأتراك القادمين من العراق » (١٨) . ولقد استطاع بدر الجمالي في سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م استمالة معظم النواكية الى صفه فأدخلهم في خدمته واستخدمهم ضد القبائل العربية لفلسطين فقاموا « وطردوا العرب الذين كانوا قد استولوا على بدر ، ونهبوا الشام ، وطلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكا ، فقال: ما عندي مال ، وما سلطتكم على العرب الا لأنكم تفتنعوا بنهبهم وما أقطعكم من الشام فقالوا: نحن أخذنا البلاد بسيوفنا .

ثم جاءوا فنزلوا طبرية واقتسموا البلاد واخذوا غلالها وراسل بدر العرب بالرجوع الى الشام وانه معهم بنفسه وماله فاجتمع من العرب خلق عظيم وقربوا من طبرية ، وعرف النواكية كثرتهم ، فكرهوا لقاءهم ، فأسروا اليهم وكبسوهم فأسروا وقتلوا ما شأوا ، وعادوا الى طبرية ونزلوا من بعد طرابلس » .

وكانت حلب في هذا الوقت تتعرض لغارات بيزنطية ، كما سبق وذكرنا وعندما اخفق محمود في صد البيزنطيين استنجد بالناوكية فهبوا لنجدة ، وكان اكبر مقدميهم هو قرلو ولقد استطاع الناووكية مساعدة محمود وعندما انتهت مهمتهم تركوه وعادوا الى اماكن نشاطهم في الجنوب لكنهم تركوا عند محمود قوة مؤلفة من الف فارس ولعل قائد هذه القوة هو احمد شاه الذي سنتعرض لأعماله في حلب في الصفحات التالية .

وعندما عاد الناووكية الى مناطق نشاطهم السالفة في جنوبي بلاد الشام استأنفوا اعمالهم « فنزلوا على حصن عمان بالبلقاء وفيه ذخائر العرب واموالهم وهو معقلهم ولم يكن عليه لأحد طاعة وهو عز العرب فاحتالوا عليه وملكوه وملك التركمان الشام بأسره وجأؤوا الى الرملة وهي خراب ليس بها أحد ولاالسوقها أبواب فجلبوا اليها الفلاحين وعمروها وضمنوا جزء السلطان عن الزيتون الموجود بثلاثين الف دينار وقرروا قسمة البلاد على النصف ، فقبل انهم باعوا من الزيتون في هذه الدفعة بثلاثمائة الف دينار واعطوا التركمان منها ثلاثين الف دينار واخذوا الباقي.

اراد الناووكية الآن احتلال دمشق ثم احتلال عكا وطرده بدر الجمالي منها لذلك ذهبوا من الرملة الى دمشق وحاصروها واخربوا الضياع ولقد تمكن والي دمشق الفاطمي من ارضائهم بمبلغ خمسين الف دينار ، فتركوا دمشق ورحلوا الى عكا وبها بدر الجمالي فحاصروه وكان متقدمهم يقال له قرلو ، فسكن اليه جماعة من بني كلب وامرائهم من بني القرمطي . وخالطوه وقاربوه واتفق ان قرلو مات على حصار عكا ، فنهب التركمان من قرب من العرب ... وكان بدر الجمالي تاتيه الميرة في المراكب في البحر ، فما كان يبالي في الحصار ، فلما ينسوا منه ساروا الى مصر ووصلوا بلبيس وشنوا الغارات على اعمال مصر ، فلم يجدوا ماياكلون ولاما تأكل خيلهم وقيل إن جماعة منهم وصلوا الى وادي القرى وتيماء ووصل منهم سبعة عشر غلاما الى المدينة وزاروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم (١٩) .

وتعرضت النواكية بعد سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م بعدما توفي قرلو الذي خلف كما يبدو - ابن خان في زعامتها ، الى مشاكل وانقسامات داخلية حيث ظهرت بين صفوفها زعامات جديدة متنازعة ويظهر ، أيضا أنها تعرضت لضغط جاء من قبل التركمان الذين جلبتهم حملة ألـب أرسلان أو خلفتهم وراءها ، فلقد كانت حملة ألـب أرسلان في الواقع أكثر من حملة عسكرية بحتة ، لقد كانت أول موجة تركمانية تأتي الشام والجزيرة بقيادة السلاجقة وتحت زعامتهم ، هذا ولقد ترافق ظهور التركمان الجدد في جنوب الشام مع اختفاء بدر الجمالي الذي ارتبط اسمه بنشاط النواكية ، حيث أن بدر سيذهب الى القاهرة ليستولي على مقاليد الأمور بها وليتحكم (٢٠) بالخلافة الفاطمية وبذلك يكون أول طاغية عسكرية في تاريخ هذه الخلافة التي ستدخل الآن مرحلة النهاية مرحلة تحكم العسكريين بمقاليد الأمور بها كما كان قد حدث للخلافة العباسية في بغداد قبل ذلك بقرون.

تتحدث مصادرنا عن أن أـتـسـز بن أوق الخوارزمي كان أبرز زعماء التركمان الذين خلفوا في الشام بعد حملة ألـب أرسلان وقد سار ومعه أخوته جاولي ، والمأمون ، وقرلو ، وشكلي الى أعمال دمشق وكان هذا عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ولقد ضايق دمشق بقصد تملكها وواصل الغارات عليها وعلى أعمالها وقطع الميرة عنها ورعى زرعها ثم جمع الأتراك في جنوب بلاد الشام وتزعم عليهم « وسار الى فلسطين جنوب بلاد الشام وتزعم عليهم » وسار الى فلسطين ففتح مدينة الرملة وسار منها الى البيت المقدس وحصره وفيه عساكر المصريين ففتحه ، وملك مايجاورهما من البلاد ما عدا عسقلان». كما استولى على طبرية وحين استولى أـتـسـز على مدينة القدس جعل منها مركزا له وقام بإلغاء الدعوة الفاطمية وأحل محلها الدعوة للخليفة العباسي مع السلطان السلجوقي ولقد بعث الى بغداد يخبر بما حققه في الشام. ومن- 149 - أخذ أـتـسـز يغير كل سنة على دمشق فيحاصرها ويرعى زرعها وهكذا ندرت المؤن في دمشق واضطربت فيها الأحوال وأخذ الكثير من أهلها يهجرونها ، ومع ذلك

فقد صمدت وتماسكت ولم تمكنه من رقبته الى أن نشب خلاف بين
اهل المدينة وحاكمها الفاطمي مع قرواته ، وعندما استحكم هذا
الخلاف بات أمر سقوط دمشق مسألة وقت لا أكثر (٢١)

لقد غدا الان ألسن «متقدما على جميع الترك والناوكية بالشام
ولقد حرص على الإبقاء» على زعامته هذه مهما ارتفع الثمن ففي
سنة ٤٦٧ هـ / ١٧٠٤ - ١٠٧٥ م تمكن شكلي بن أوق من
انتزاع مدينة عكا بعد حصار طويل وكان بدر الجمالي قد غادر هذه
المدينة الى مصر وخلف فيها أهله وأكثر أمواله ونخائره فاستولى
شكلي على جميع ما تركه بدر وأسر زوجة بدر مع ابن له وابنة فتزوج
من الابنة وخصن أسوار عكا وقواها وراسل حيدرة بن المعلى بن
منزوال حاكم الفاطمي لدمشق وصاهره على أخته ، (أي أخت ابن
منزو) ، كما اتصل ببعض زعماء قبيلة كلب فتعاهد معهم « وتقوى
بهم واستحلفهم وأخذ رهائنهم وأعطاهم رهائنه » ولقد أزعج كل
هذا ألسن وأغضبه فأرسل اليه « ابعت لي زوجة بدر وابنه ونصف
ما أخذت من المال فامتنع عليه وخاطبه بما لم يكن خاطبه به من قبل»

وقرر ألسن التحرك ضد شكلي ، وفي رمضان من السنة نفسها
(نيسان - ايار ١٠٧٥ م) اشتبك معه «في الساحل فهزمه ، فجاء
شكلي منهزما الى رفنيه» التي كانت « بلدة عند طرابلس » ولم
يطارده ألسن بل توجه الى دمشق ليحاصرها حسب عادته ومن ثم
عاد الى القدس .

ومن رفنيه - كما يبدو - كتب شكلي «الى ابن لقتلمش التركي
وكان في اطراف الروم يحثه على قصد الشام لينضاف اليه ، وابن
قتلمش هذا كان ابن عم السلطان الب أرسلان، وكان في كتاب شكلي
اليه : انت من السلجوقية وبيت الملك واذا أطعناك وكنا في خدمتك
تشرفنا بك وافتخرنا ، وألسن ليس من بيت الملك ولا نرضى بإتباعه
وطاعته ، وهون عليه امر ألسن والشام ، وقال : وقد جاءتنا من
مصر وعود بالأموال اذا كسرناه وابعدناه عن الشام .

فجاءه ابن قتلмыш فاجتمعا وسارا الى طبرية واطهرا طاعة صاحب مصر فسار اليهم اتسز من القدس ، وخرجوا اليه وساعدتهم اهلها واقتتلوا فهزمهم اتسز وقتل شكلي وولده صبرا بين يديه ، واسر ابن قتلмыш واخاله صغيرا وابن عمه .

ووصل الى اتسز بعد نصره هذا ثلاثة الاف من قوات السلطان ملك شاه الذي خلف ابيه الب ارسلان بعد مقتله ، فتقوى بهم وبدأ يعد العدة لاحتلال دمشق حيث انه غدا الآن سيد جنوبي بلاد الشام بلا منازع ، وقبل ان يتحرك نحو دمشق ورد الى الشام اخ لابن قتلмыш «ونزل بأرض سلمية وراسل اتسز في معنى اخيه فقال اتسز: قد راسلت السلطان بسببه ، وانا متوقع الجواب ، فان رسم انفذته اليه ، وان رسم شيئا آخر كان » . ولم يستطع ابن قتلмыш هذا ان يصنع شيئا فقصده منطقة انطاكية عاندا الى الاراضي البيزنطية (٢٢) .

وجاء الآن دور دمشق وكانت احوالها قد بلغت حدا لا مثيل له من السوء والاضطراب والفقر وندرة المؤن ، وكان اميرها الفاطمي قد «اساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم فكثر الدعاء عليه وثار به العسكر ، واعانتهم العامة فهرب منها الى بانياس ثم منها الى صور ، ثم اخذ الى مصر فحبس بها فمات» . وعقب فرار معلى قامت فئة المصامدة (نسبة الى مصمودة إحدى قبائل البربر التي اعتمد عليها الفاطميون في جيوشهم) من الجند فعيّنت مقدمها انتصار بن يحيى المصمودي المعروف برزين الدولة مكان معلى ، ولم يرض هذا اهل دمشق وبعض فئات الجند الفاطمي الأخرى ، وقامت الفتن من جديد واشتدت في دمشق ، ولم يكن اتسز ينتظر احوالا افضل من هذه « وكان متوقعا لمثل ذلك ، فنزل عليها في المضايقة لها الى ان اقتضت الصورة ، وقادت الضرورة الى تسليمها اليه بالامان ، وتوثق منه بوكيد الأيمان ، فلما دخلها في ذي القعدة سنة ثمان وستين واربعمائة هـ / حزيران ١٠٧٦ م وحصل بها نزل بأهلها

منه قوارع البلاء بعدما عانوه من ابن منزول عنه لله ، واشتداد من انزال الجند دورهم واخراجهم منها ، واغتصاب املاكهم والقبض لها ، واستعمال سوء السيرة وخبث الذية والسريرة ، وتواصلت الدعوات عليه من سائر الناس وعلى اصحابه واتباعه في جميع الاوقات واعقاب الصلوات والرغبة الى الله تعالى ذكره باهلاكه وتعفية آثاره».

لقد عانت دمشق اثناء حصار اتسز وزمن حكمه محنا لم تر ما يماثلها منذ الفتح الاسلامي ، ومرت بفترة من احلك فترات حياتها واصعبها^١ ، ويكفيها هنا ان نسوق ما اورده غرس النعمة محمد بن هلال الصابي في وصف احوالها ، وهو وصف ربما اعتمد به على تقارير شهود عيان ارسلت اليه الى بغداد ، يقول غرس النعمة: «ولم يبق بها - دمشق - من اهلها سوى ثلاثة الاف انسان بعد خمسمائة الف افناهم الفقر والغلاء والجلأ ، وكان بها مائتان واربعون خبازا فصار بها خبازان ، والأسواق خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة الاف دينار ينادى عليها عشرة دناير فلا يشتريها احد ، والدكان الذي كان يساوي الف دينار ما يشتري بدينار ، وكان الضعفاء يأتون الى الدار الجلية ذات الاثمان الثقيلة فيضربون فيها النار فتحترق ويجعلون اخشابها فحما يصطلون به ، واكلت الكلاب والسنانير ، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم».

وكان لامرأة داران قد اعطيت قديما في كل دار ثلاثمائة دينار او اربعمائة ، ولما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفار ، فاحتاجت الى سنور ، فباعته إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطا ، واشترت بها سنورا^٢ (٢٣) .

هذه صورة محزنة وقاتمة لدمشق ، وهي بالوقت نفسه معبرة ومفسرة ، إنها تفسر الموقف السلبي الذي أبدته هذه المدينة عند

مجيء الغزاة الصليبيين الى الشام وبعد احتلالهم لبعض اجزائه بفترة طويلة.

لقب اتسز نفسه بالملك المعظم ، واوقف في دمشق الدعوة للفاطميين «وازال الأذان منها يحيى على خير العمل ، بعد ان كان يؤذن به على منابر دمشق وسائر الشام مائة وست وستين ، وكان على أبواب الجوامع والمساجد مكتوب لعنة الصحابة رضي الله عنهم فأمر... المؤذنين والخطباء أن يترضوا عن الصحابة أجمعين».

اما وقد أصبح اتسز سيد جميع جنوبي بلاد الشام تقريبا فقد اخذ يتطلع ببصره نحو الشمال ، ويقول ابن العديم: «ووصل في سنة ثمان وستين وأربعمائة اتسز بن أوق التركي الى اعمال حلب القبلية... وجفل اهل الشام بين يديه ، وكان قد سمى نفسه الملك المعظم ، فذهب كل ما قدر عليه وملك رفنية ، وسلمها الى اخيه جاولي ، وترددت سراياه في جميع الشام وتمادى فسادة » ، وراسل أمير حلب اتسز وحاول ارضاءه ببعض المال ، لكنه لم يصل معه الى أي اتفاق ، ورجع اتسز الى دمشق وترك جاولي وراءه في رفنية ، واعتمد جاولي مدة مقامه برفنية اساءة المجاورة وشن الغارات والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب » ، وكان ما يزال في حلب قوة من الناوكية بقيادة رجل اسمه أحمد شاه ، ولقد أرسل أحمد شاه ضد جاولي ، واستطاع أحمد شاه مع ناوكيته بعد جهد إيقاع الهزيمة بجاولي وقواته ، فهرب جاولي أولا « الى رفنية ، وسار بعد ذلك الى أخيه بدمشق ».

واقطع الآن اتسز عن تطلعاته نحو شمالي بلاد الشام ، لوجود الناوكية هناك ، ثم لما سمعه عن عزم السلطان ملك شاه على إقطاع شمالي بلاد الشام لأخيه توتش ، واخذ اتسز يتطلع نحو ملك جديد ، ولم يكن ذلك أقل من مصر كلها (٢٤) .

كان سيد مصر الفعلي في هذه الأونة بدر الجمالي ، وكان بدر يعمل على تقوية حكمه وتوطيد مركزه ، وقد سبب هذا لبعض رجالات السلطة الذين كانوا في الحكم في مصر قبل استلام بدر مع عدد من الجند العمل على الهرب من مصر والالتجاء الى الشام الى اتسز ، ويقول المقريري عن هذا الأمر: « وكثر عسكره - اي اتسز - بمن فر اليه من مصر خوفا من امير الجيوش بدر الجمالي ، وحدتته نفسه بأخذ مصر » وكان من جملة من فر اليه ابن يلدكوز كبير قادة الجيش الفاطمي في القاهرة قبل بدر الجمالي . فأغراه بأخذ مصر ، وأطمعه في أهلها ، فحشد ، وهم على حين غفلة » ، « وبرز من دمشق ونهض في جمع عظيم الى ناحية الساحل ، ثم منها الى ناحية مصر ، طامعا في ملكتها ، ومجتهدا في الاستيلاء عليها ، والدعاء عليه من اهل دمشق متواصل واللعن له متتابع متصل » .

وبلغ اتسز أطراف مصر في أوائل ربيع الأول لسنة ٤٦٩ هـ / تشرين أول سنة ١٠٧٦ م ، وكان معه حسب رواية غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء عشرين ألفا « من التركمان والأكراد والعرب » ، ووصل الى ريف مصر ، وكان بدر الجمالي وقتئذ غائبا عن القاهرة مشغولا باخضاع القبائل العربية في الصعيد ، ولم يتوجه اتسز الى القاهرة لأخذها بل « أقام - في الريف - نيفا وخمسين يوما يجمع الأموال ويسبي الحريم ويذبح الأطفال ، وهو يرأسل بدر الجمالي ، ويطلب المال... فضمن له بدر مائة وخمسين ألف دينار ، وأستدعى من كان بالصعيد من العساکر والسودان ، وكان مع اتسز بدر بن حازم الكلبي في الفسي فارس ، فاستماله بدر ، فانتقل الى القاهرة ثلاثة الاف رجل في المراكب لنية الحج ، فقال لهم بدر: دفع هذا العدو افضل من الحج واعطاهم المال والسلاح » .

وعندما توجه اتسز نحو القاهرة لأخذها ، كانت هذه المدينة قد

امتلات بالمقاتلة من جند الخلافة وممن جلا اليها من الريف وجاءها من المتطوعة ، «وخرج - بدر - من القاهرة في ثلاثين ألف مابين فارس وراجل في يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من رجب (١٥ شباط ١٠٧٧ م) وسير المراكب بالميزة » ، «فخافه اتسز وعزم على العود عن مصر الى الشام ، فلم يوافق أصحابه على ذلك ، وقالوا له: قد وطلت ديارهم وتعود بغير فائدة ، فلم يلتفت الى قولهم ، فقال له اخوه المأمون وابن يلدكوز: لا تغرنك كثرتهم ، فانما هم سوقه وصيحة واحدة تهزمهم ، فلا ترجع عن هذا الملك الذي اشرفت على اخذه » ، ووافق اتسز مكرها ، واشتبك بقوات بدر ، ودارت معركة حلت فيها الهزيمة به وبقواته ، ذلك ان قوات بدر الجمالي هاجمته من امامه واغارت قوات بدر بن حازم الكلبيية من ورائه ، على معسكره وضربت « النار في الخيم والخركاوات فانهم اتسز وقتل من كان حوله ، وانهزم التركمان ، وتبعهم السودان والعرب اسرا وقتلا الى الرملة ، وغنموا منهم غنائم لم يغنمها احد قبل ذلك ، وكان فيما اخذ ثلاثة الاف حصان ، وعشرة الاف صبي وجارية ، واما من الاموال والثياب فما لا يحصى ».

ومضى اتسز مهزوما في نفر يسير ، فلما وصل غزة ثار اهلها به فقتلوا جماعة ممن كان معه ، فهرب الى الرملة ، فخرج اليه اهلها فقاتلوه وقتلوا بعض من كان معه ، فهرب الى دمشق في بضع عشرة نفسا ، فخرج اليه ولده ومسمار احد امراء الكلبيين ، وكان قد استخلفهما بدمشق في مائتي فارس من العرب... وخرج اليه اهل البلد فخدموه وهنوه بالسلامة ».

وحدثه اهل دمشق وشكوا اليه اوضاع بلدهم وقال له احدهم: « قد عرفت انه لم يبق في هذا البلد عشر العشر من الجوع والفاقة والفقر والضعف ولم يبق لنا قوة » ، فوعد اهالي البلد خيرا « ثم اقام بدمشق وجاء التركمان من الروم ولم يستخدم غيرهم ، وعصى عليه الشام ، واعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام ، وقام بذلك المصامدة

والسودان ، وكان اتسز واصحابه قد تركوا اموالهم واولادهم
بالقدس ، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على اموالهم
ونسائهم فنهبوها ، وقسموا التركيات بينهم ، واستعبدوا
الاحرار من الاولاد واسترقوهم ، فخرج من دمشق فيمن ضوى اليه
من التركمان ووصل الى قريب القدس ، وراسلهم وبذل لهم الامان
فاجابوه بالقبيح وتوعده بالقتال فجاء بنفسه الى تحت الاسور
وخاطبهم فسيبوه ، فقاتلهم يوما وليلة وكان ماله وحرمة في برج
داود ، ورام السودان والمصامدة الوصول اليهم فلم يقدرُوا وكان في
البرج رتق الى ظاهر البلد فخرج اهله منه اليه ودلوه عليه ، فدخل
منه ومعه جماعة من العساكر وخرجوا من المحراب ، وفتحوا الباب
ودخل العسكر فقتلوا ثلاثة الاف انسان ، واحتفى قوم بالصخرة
والجامع ، فقرر عليهم الاموال حيث لم يقتلهم لأجل المكان واخذ
من الاموال شيئا لا يبلغه الحصر بحيث بيعت الفضة بدمشق كل
خمسين درهما بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهما بدينار
وقتل القاضي والشهود صبرا بين يديه وقرر امور البلد وسمار الى
الرملة فلم ير فيها احدا ، فجاء الى غزة فقتل كل من فيها فلم يدع
بها عيناً تطرف ، وجاء الى يافا فحصرها ثم دخلها وهدم اسوارها
ثم اخذ عائدا الى دمشق ، وكتب الى بغداد «بانه على نية العود الى
مصر وانه يجمع العساكر » .

ولم يهمله بدر الجمالي هذه المرة حتى يعد العدة لحملة جديدة ضد
القاهرة بل اخذ بزمام المبادرة فأعد جيشا سيره في سنة ٤٧١ هـ
١٠٧٨ م نحو الشام بقيادة نضر الدولة (يرد اسمه احيانا ناصر
الدولة وحيانا نصير الدولة) الجيوشي ووصلت القوات الفاطمية
دمشق فاخذت بحصارها ومضايقتها واستولى الجيش الفاطمي على
اعمال دمشق واعمال فلسطين واقام على دمشق «مدة مضايقا لها
وطامعا في تملكها ، واضر على منازلها اضرارا اضطر اتسز
صاحبها الى مراسلة تاج الدولة) تقيش بن الب ارسلان وكان منازل
لحلب يجهد لاخذها (يستنجد ويستصرخ به ، ويعدده بتسليم دمشق

اليه ويكون في الخدمة بين يديه ، فتوجه نحوه في عسكره ، فلما عرف نصر الدولة الخبر وصح عنده قرية منه رحل عنها مجفلا وقصد ناحية الساحل وكان ثغرا صور وطرابلس في ايدي قضائهما قد تغلبا عليهما ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش (بدر الجمالي) بل يصانعا الأتراك بالهدايا والملاطفات ووصل السلطان تاج الدولة الى عذراء في عسكره لانجاد دمشق ، فدخلها واقام بها مديدة «وقرر تدش ان يتخلص من أتسز وينفرد بحكم دمشق «فقبض عليه في شهر ربيع الأول منها (ايلول – تشرين اول ١٠٧٨) وقتل اخاه أولا ، ثم امر بخنقه فخنق بوتر في المكان المعتقل فيه ، وملك تاج الدولة دمشق واستقام له الأمر فيها .



عندما قام تدمش بهذا طوى صدفة حالكة من تاريخ دمشق وجذب بلاد الشام وذلك بقتله لآتسز مع أخيه وكان آتسز وثلاثة من إخوانه الأربعة قد قتلوا ، فهو - أي آتسز - قتل شكلي ، وفي حملته على مصر فقد واحدا من إخوانه ، وجاء تدمش الآن فأجهز على الثالث . لقد كره أهل دمشق آتسز هذا كثيرا ولعنوه في كتاباتهم ، وسموه إقسييس ومع ذلك فإن ابن كثير وهو من متأخري مؤرخي دمشق فقد اعتبره بأنه « كان من خيار الملوك واجودهم سيرة وأصدقهم سريرة . أزال الرفض عن أهل الشام ، وأبطل الأذان بحي على خير العمل وأمر بالتراضي عن الصحابة أجمعين ، وعمر بدمشق القلعة التي هي معقل الاسلام بالشام المحروس فرحمه الله ، وبلى بالرحمة ثراه ، وجعل جنة الفردوس مأواه » . ما أظن أن الله تعالى سيستجيب لدعاء ابن كثير هذا الذي سر لتغيير جملة في صيغة الأذان ، ولم يتأثر أو يتألم لآلاف الأرواح التي أهدرت ، ثم للتهديم الذي أصاب الناس والأرض ، ولا لأجيال من الآلام والخزي تحت الحكم الصليبي ، وهو ابن كثير نفسه حين تحدث بشكل مفصل عن بناء قلعة دمشق قال ناقضا ما ذكره من قبل بأن آتسز : « شرع في بناء هذا الحصن المنيع » ، ثم بين بأن مكان القلعة كان أحد أبواب دمشق وكان يعرف بباب الحديد ، ومعروف أن البوابات كانت عادة عبارة عن أبراج تتفاوت في القوة والحجم ، ويبدو أن كل ما فعله آتسز أنه رم سور دمشق للدفاع عن نفسه وامتد برج بوابة باب الحديد أكثر من سواه ، وبقي الحال هكذا حتى ملك تدمش دمشق فأكمل بناء القلعة « وأحسن عمارتها » كما قال ابن كثير نفسه (٢٥) .

أما وقد رأينا ما حل بدمشق وجنوبي بلاد الشام ، فلنعد نحو الشمال حتى نشهد بقية المأساة ونستوفي القصة ، ونسدل الستار على الشام كبداية فيه للبدو العرب دور سياسي مؤثر .

قبل أن يتوفى محمود بن نصر أمير حلب ، أوصى بالامارة من بعده لولده الأصغر شبيب ، ولكن بعد وفاته لم تراخ وصيته هذه ، وعين رجال الدولة مع عساكرها ابنه الكبير نصر (٢٦) وكانت غالبية هذه العساكر مؤلفة من التركمان الذين كانوا يعيشون في حلب ، ولقد

كان مقدم هؤلاء التركمان يعرف باسم أحمد شاه ، هذا ويروي ابن العديم ما يفيد بأن أحمد شاه كان مخلصا في خدمته لنصر بن محمود (٢٧) ففي سنة ١٠٧٥ م أرسل نصر بن محمود أحمد شاه مع تركمانه لاسترداد بلدة منبج من البيزنطيين الذين كانوا قد احتلوها منذ أيام الامبراطور رومانوس دايجينوس كما سبق ومر معنا من قبل .

وفي الحادي والعشرين (أو ٢٤) من ايلول سنة ١٠٧٥ م سلمت الحامية البيزنطية في منبج حصن البلدة للجيش الحلبي وذلك بعد حصار دام فترة طويلة من الزمن ، وبعد هذا بفترة وجيزة تعرضت الأجزاء الجنوبية من إمارة حلب - كما سبق وذكرنا - لغارات قام بها اتسز مع اخيه جاولي ، ولقد بينا كيف أن نصر بن محمود لما أخفق في كف عادية اتسز وجاولي بالمال والهدايا أرسل أحمد شاه مع تركمانه فتصدوا لاتسز وجاولي واشتبكوا معهما في أكثر من معركة ، ولقد هزم أحمد شاه في الأول ، وعول أتباعه على العودة إلى حلب لكنه أبى إلا أن يعاود القتال وقال لأتباعه : « ما بقي لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة ، فإن راجعتم الحرب وأظفرنا الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظفر ، وإن أبيتم ذلك فأنا أسير إلى الفرات ، واستدعي أهلي - حتى أقاتل بهم - فما لي وجه القى به نصر بن محمود ، وإنما أعطى ومنح وأكرم لمثل هذا الموقف .

فاجمعوا أمرهم على معاودة الحرب فأسرى من موضعه إلى عسكر جاولي ، وكبسه ، فاستنار منهم ، ونهب عسكره ، وأسر منهم مايزيد على ثلاثمائة نفس ، وسيرهم في الوثاق إلى حلب مشاة ، وهرب جاولي» (٢٩) .

ولأسباب غير معروفة قبض نصر بن محمود « على أحمد شاه واعتقله بقلعة حلب في عيد الفطر من سنة ثمان وستين وأربعمائة » (٩ أيار ١٠٧٦ م) ، ويبدو أن أحمد شاه جاء ثاني يوم العيد لتهنئة نصر ، وصعد إلى القلعة لوحده ، فانتهز نصر الفرصة فألقى القبض عليه ، وبعد أن فعل ذلك « جلس فشرب إلى العصر ، وحمله الاسكر على الخروج إلى الأتراك ، وسكناهم في

الحاضر ، وأراد أن ينهبهم ، وحمل عليهم ، فرماه تركي بسهم في حلقه فقتله . لقد كان الحاضر يقع خارج أسوار حلب ، وكان نصر أهوجا ، وعندما زحف على الحاضر كان لوحده وقد سمع وهو يصرخ « نريد الوجوه الملاح » ، ويبدو أن التركمان كانوا مستنفرين ومتوقعين الشر بعد أن سمعوا بإلقاء القبض على مقدمهم ، وزحف التركمان بعد مقتل نصر « إلى البلد يطلبون أحمد شاه » ولقد أزعج خبر مقتل نصر أهالي حلب الذين كانوا يحتفلون بعيدهم وكانوا قد تجملوا بأفخر ملابسهم « وكان الزمان ربيعاً والأرض نضرة » ، فتدفق الناس نحو حلب وتدفق من كان داخل المدينة إلى بيوتهم ، وما إن سمع من كان في المدينة من رجال الإمارة بمقتل نصر حتى أسرعوا فأغلقوا أبواب حلب وعملوا على تدارك الأمور (٣٠) .

كان نصر بعدما أصبح أميراً على حلب قد أوكل معظم شؤون دولته إلى عمه في الرضاة علي بن المقلد بن منقذ الذي كان يعرف باسم سديد الملك وإلى وزيره أبي نصر محمد بن الحسن التميمي المعروف بابن النحاس الحلبي ، وكانت العلاقة بين ابن النحاس وسديد الملك علاقة جيدة ، قد متنها حبهما للأدب ، وما أن علم ابن النحاس وسديد الملك بمقتل نصر حتى تصرفا بسرعة « فاستدعوا أخاه سابق بن محمود » وكان سابق ساكناً في المدينة وكان أيضاً قد أمضى نهاره يحتسي الخمرة لذلك عندما جلب ليتسلم منصبه الجديد في القلعة لم يدخلوه من بابها بل « رفع إلى القلعة بحبل من الأسور وهو سكران ونادوا بشعاره وأطاعته الأجناد ، وأشاروا عليه بإطلاق أحمد شاه فأطلقه في الحال ، وخلع عليه »

ونزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر ، فسكن الثائرة ، وأحمد الفتنة ، فكان سابق بن محمود بعد ذلك يعين الأتراك ويقربهم ، ويحسن إليهم ، ويقدمهم على أهله بني كلاب ، وينصرهم عليهم (٣١) ولقد أصبح أحمد شاه الآن سيد إمارة حلب الفعلي وأخذ يمارس سلطانه « وفي كفالته سابق بن محمود بن نصر » وكان سابق من متخلفي بني مرداس ، ولما « عرف بنو كلاب تخلفه ، اجتمعوا إلى

أخيه وثاب وحسنوا إليه أخذ حلب ، وانضاف إليه أخوه شبيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما « ، وعندما رأى علي بن مقلد ابن منقذ تدهور الأوضاع في مدينة حلب بتحكم أحمد شاه بسابق ، وبقرار قبيلة كلاب مهاجمة حلب لخلع سابق ، عندما رأى كل هذا هجر حلب إلى بلدة كفر طاب حيث أخذ يخطط للاستيلاء على شيزر ومن ثم إقامة حكم الأسرة المنقذية في هذه القلعة .

وجمعت قبيلة كلاب كل رجالها ، فاجتمعوا « في جمع عظيم ما اجتمعوا قط في مثله ، يقال إنهم كانوا يقاربون سبعين ألف فارس وراجل « .

وعسكرت هذه الجموع في منطقة قدسرين تعد أنفسيها للزخف على حلب ، وفي داخل حلب « لما تحقق سابق ذلك استدعى أحمد شاه أمير الأتراك ، وكانوا ألف فارس وشاوره « . وأخذ أحمد شاه يعمل لصيد قبيلة كلاب وتفريق جموعها .

ويستنتج من قصيدة القاسم ابن حيوس أثناء هذه المحنة أن الناس كانوا يخشون عواقب تحرك قبيلة كلاب ، وأنه قد وجد ضغط على سابق كي يحاول تجنب الاصطدام مع آل لان في ذلك تهديم لقوة العرب ومجد آل مرداس ، ويقول ابن حيوس :

بني عامر لاتمتطوا البغي ضله
فلم يعله المغرور إلا ليسفلا
ولاتتبعوا الأهواء فهي مضلة
وإن سوف الشيطان فيها وسولا
ولاتتفتوا من جار عن منهج الهدى
فأدمى يدا من حقها أن تقبلا
وكونوا كاشياخ لكم غالها الردى
ترى الموت من نقض المواثيق أسهلا
ففي آل ذبيان وأبناء وائل
مواظ لاتخفى على من تأملا

اعلوا صحيح الراي واتبعوا الهوى
فأيتهم منهم كيف شاء وأرملا
وقد حدثت في الأرض والأمر واضح
نواب تنهاكم عن الهجر والقتلا

☆☆☆

فلا ترض يا عز الملوك بذلهم
وان يردوا من غير بحرك منها
وصنواك لا تعص ابن عمك منهما
وكن غير مأمور إلى السلم اميلا
فما رضيا بالبعد عنك زهادة
ولا ابتغيا ما عز إلا تذلا
وهل طلبا الانصاف من غير أهله
وهل أوعرا في السوم إلا ليسهلا

لم يكن سابق الذي كان بلا حول ولا طول ليقدر على المبادرة
للعمل على إحلال السلم مع قومه ، لقد كان أحمد شاه هو الذي
يستطيع إنهاء المشكلة ، وهكذا عمل حيث أُنْفِذَ « إلى رجل من
الأتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في
خمسمائة فارس ، وضمن له مالا كثيرا ، فوصله محمد بن دملاج في
يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان وستين (٧ حزيران
١٠٧٦ م) » ، وتحالفوا ، وخرجوا إلى بني كلاب المجتمعين مع
وثاب في غداة يوم الخميس مستهل ذي الحجة من سنة ثمان وستين
وأربعمائة (٧ تموز ١٠٧٦ م) .

وكان بنو كلاب غارين واثقين بعهدهم لذلك أخـذوا
بالفاجأة « فعند معاينتهم الأتراك انهزموا من غير قتال وخلفوا
حلهم وكل ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم ، فغزم أحمد شاه
وأصحابه ومحمد بن دملاج وأصحابه كلما كان لبني كلاب ، فيقال

أنهم أخذوا لهم مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة ، ومن إمائهم أكثر ، وكلما كان في بيوتهم ، وعفوا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون على عشرة آلاف عبد مقاتل ، وام يقتلوا أحدا منهم ، وكان الذي غنمه الغز من العرب في ذلك اليوم مالا يحصى كثرة « (٣٢) .

بعد ثلاثة عشر يوما من هذا النصر المؤزر قامت فرصة جديدة أمام سابق لتدارك بعض ما حدث وللتخلص من التركمان « فبعد انهزام العرب بثلاثة عشر يوما دعا محمد بن دملاج التركي أحمد شاه ، فخرج إليه ، وكان نازلا شمالي حلب ، فلما أكلوا وشربوا قبض محمد بن دملاج على أحمد شاه وأسرته ، وكان في نفر قليل ، فأقام في أسره تسعة أيام « ، وعوضا عن أن ينتهز سابق فرصته هذه فيثير اتباع أحمد شاه ويحثهم على تخليص سيدهم ، وهكذا يوقع الحرب بين فئتي التركمان فتضعفا فيمكن الخلاص منهما بسهولة ، عوضا عن القيام بمثل هذا ، أثر سابق أن يبقى محكوما من قبل أحمد شاه ، لذلك سعى لتحرير سيده وفك أسره ، « فاشترى أحمد شاه من محمد بن دملاج بعشرة آلاف دينار وعشرين فرسا « (٣٣) .

وترك وثاب بن محمود مع بقية المهزومين من أمراء بني كلاب منطقة حلب ، وتوجهوا شرقا إلى خراسان « إلى السلطان ملك شاه ابن الب أرسلان وشكوا حالهم ، وسألوا منه أن يعينهم على سابق ، فوعدهم وأقطعهم في الشام ، وأقطع الشام أخاه تتش ، فساروا معه جموع الترك ووثاب ومبارك بن شبل « ، وكان تحرك تتش غربا « إلى الشام في أوائل سنة سبعين وأربعمائة (١٠٧٧ م) ، وتقدم السلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجي ، وصندوق التركي ، ومحمد بن دملاج ، وابن طوطو ، وابن بريق ، وغيرهم من أمراء الترك بالكون مع تاج الدولة - تتش - والمسير في خدمته « ، وعندما وصل تتش إلى ديار بكر التقت به قبيلة كلاب فالتحقت به وسلمته قيادها ليسير بها إلى قتال حلب لاسقاط الدولة المرداسية الكلابية وإحلال حكمه التركماني محلها ! والأحمق دائما يفعل كل

منكر ويسعى إلى حتفه بظلفه ويجني ثمرات حمقه ، ويقتل لصالح
عدوه وفائدته ، وليس أبلغ من أن نسوق هنا كتعليق قوله تعالى:
« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة
الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (الكهف
١٨ / ١٠٣ - ١٠٤) .

وعندما وصل تتش إلى حلب وصل إليه والتحق به « شرف الدولة
أبو المكارم مسلم بن قريش في عسكر كثير بأمر ملك شاه ونزل معه
على حلب معينا له (٣٤) وقبل أن تصل هذه القوات كلها إلى حلب كان
سابق قد أخذ احتياطاته ، فقد كان أحمد شاه خارج حلب يحاصر
أنطاكية ، فاستدعاه وطلب منه ترك أنطاكية التي تعاني من شدة
تضييقه الحصار عليها ، ومن الطريف ذكره أن أحمد شاه لم يترك
حصار أنطاكية إلا بعد أن قبض من أهلها مبلغ ٥٠٠٠ دينار .
(٣٥) .

وما أن وصل تتش مع قواته أسوار حلب حتى بدأ يحاصرها ،
وبعد بدء الحصار بأيام قام تتش برفعه وانسحب مسافة عدة أميال
عن أسوار المدينة ، ومن المحتمل أن هذا الانسحاب قد تم لغاية
عسكرية هدفت إما إلى استدراج المدافعين للخروج من المدينة
للايقاع بهم ، أو أن تتش هدف إلى إعادة تنظيم قواته لتقوم بحصار
حلب لفترة طويلة حتى تسقط ، المهم أن تتش عاد إلى أسوار حلب
وعاود حصار المدينة ، ولقد استمر محاصرا إياها مدة ثلاثة أشهر ،
وعلى كل حال لم يكن هذا الحصار قاسيا ، فقد « كان هوى شرف
الدولة أبي المكارم مع سابق ، وكان يسير إليه في الباطن بما يقوي
نفسه ، وكان ينكر على بني كلاب خلطتهم بعسكر الترك » ، وعمل
مسلم على أن تتخلى قبيلة كلاب عن تتش فترحل نحو البادية أو
يدخل رجالها مدينة حلب للمساعدة في الدفاع عنها ، ولقد سهل مهمته
هذه أحمد شاه حيث أصيب بضربة أثناء الحصار أودت بحياته ،
وراسل سابق بني كلاب « فتألفهم ، وقال لهم : اني انما اذنب
واحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد إلى تتش لزال ملك
العرب ونلوا » .

واثمرت جهود مسلم بن قريش فتخلت قبيلة كلاب عن تتش بن رجل القسم الأكبر منها نحو البادية ، وبخل قسم منها مدينة حلب ، وهذا اخبر مسلم تتش بانه سيرحل هو ايضا عائدا نحو الموصل ، ورجل وجعل عبور عسكره على باب حلب (ربما باب العراق) وباع اصحابه اسل حلب كل ماكان في العسكر عصبية وتقوية لهم ، وقوى نفوسهم ودفس سابق ، وسار بعد ان قوي اهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضعف الشديد الى بلاده (٣٦) .

وتابع تتش بعد اذسحاب قبيلة كلاب ومسلم بن قريش وتخليهم عنه . حصاره لمدينة حلب ، ويبدو انه كان متوقعا لمثل هذا الانسحاب ، لذلك حاول مسبقا تفادي مخاطره فراسل اخاه ملك شاه وطلب منه المساعدة بالعساكر وبشكل خاص طالب بامداده بالأت للحصار وبك الأسوار : ولقد التقى مسلم بن قريش ، وهو في طريقه الى الموصل ، عند سنجار بقوة غزية مؤلفة من الف من الجند يقودها رجل اسمه تركمان ، وكانت وجهة هذه القوة مدينة حلب ، وكانت تحمل معها أدوات الحصار التي طلبها تتش من أخيه ملك شاه ، وحاول مسلم ان يقنع تركمان بعدم متابعة سيره الى حلب لكنه اخفق ، وعندها انذر سابق وساعده على تشكيل قوة عربية بدوية من مختلف القبائل فيها حوالي الف فارس وخمسمائة راجل ، وكمنت هذه القوة العربية للعساكر الغز فهزمتهم وقتلت أكثرهم . ولقد كان الشاعر ابن حيوس يعيش هذه الأحداث ويتفاعل بصنق معها ومما قاله حول هذه الحادثة :

وكانت الترك بالأعراب جاهلة
حتى أتحت لها أن تعرف العربا
ولم يفت منهم الا اغيلمة
نجت بهم مقربات تحمل الأربا
لولا كلاب لما جاشت جيوشهم
هذي البلاد ولا مدوا بها طنبا

راموا المودات من أعدى عداتهم وذاك رأي الى غير الصواب صبا

وعندما وصلت أخبار ما حل بالغز الى تتش ترك أسوار حلب وقاد معظم ما كان لديه من قوات ضد البدو العرب الذين كانوا في ريف حلب ، وما أن بعد عن حلب حتى خرجت القوات التي كانت موجودة داخل المدينة فهاجمت معسكراته فقتلت حرسها واغتذمت ما كان فيها ، ويبدو أن تتش لم يحقق أي نجاح في مطاردته للبدو العرب وعندما سمع بنهب معسكره قرر عبور الفرات ليغير على ديار مسلم بن قريش وينتقم منه ، لكنه بعدما عبر الفرات علم بأن مسلم يتوقعه وهو متأهب للقاءه والتصدي له ، لذا اضطر مكرها للتخلي عن خطته ، وذهب الى ديار بكر حيث أمضى الشتاء » (٣٧) .

ومع رحيل الشتاء واقبال الربيع رحل تتش من ديار بكر مع قوات جديدة من التركمان كان قد جندها ، واقبل على رأس هذه القوات نحو حلب يريد أخذها وقد خطط لذلك خطة جديدة ، فلقد هدف الى تجريد حلب من جميع المواقع الحصينة التي كانت تابعة لها ، ومن ثم ينقض على حلب نفسها فيأخذها ، وفي هذا السبيل احتل منبج وحصن الفايا ، وفتح حصن بزاعا « بالسيف وقتل كافة من كان فيه ونهبه ، وشحنه بالرجال ، ورحل الى عزان وقد انضوى الى قلعته خلق عظيم ، ومنعهم الرالي بها من الصعود اليها ، فالتجنوا الى سند القلعة بأقمشتهم والناس عليها... فزحف العسكر الى القلعة ، وقاتلها ، وضربها بالنار ، فاحتزقت أقمشة الناس وغلاتهم وحرّمهم وأولادهم » ، ورحل تتش بعد هذا نحو حلب فوصلت قواته صباحا ، وقبل أن تستعد هذه القوات وتنظم صفوفها لمهاجمة المدينة انقضت عليها عساكر حلب ففاجأتها « وهزم الله عسكر تتش ... ولو عاد عسكر حلب في إثرهم ما كان أفلت منهم إلا من سبق به فرسه » .

ولم يحاول تتش — على الأقل لبعض من الوقت — أن يهاجم مدينة حلب بل توجه جنوبا الى دمشق — كما سلف الحديث — فتسلمها وأسس لنفسه حكما فيها (٣٨)

الآن وقد مر بنا عدة مشاهد من فصول الصراع من أجل السيادة على بلاد الشام والجزيرة لابد للمرء من أن يتساءل عن طبيعة هذا الصراع وبواعثه ومحركاته؟.

انه لمن الواضح مما جاء في روايات المؤرخين الذين كتبوا حول هذا الصراع ودونوا أحداثه، ومما جاء في شعر الشعراء العرب المعاصرين للأحداث بأن المحرك الذي كان وراء مسلم في هواء مع المرداسين وفي أعماله لمساعدتهم ضد السلاجقة والتركمان ، هو رابطة العصبية القبلية، ولقد واجهنا في روايات المؤرخين وشعر الشعراء مجموعتين من الناس تتصارعان من أجل السيطرة والسيادة ، ولقد مر معنا بأن « ملك العرب » كان يحتاج أن يحمى ويصان قبل أن يزال من قبل التركمان الأجانب .

وروى ابن العديم بأنه عندما كان تتش يحاصر مدينة حلب كتب سابق بن محمود - كما مر معنا - الى أخويه شبيب ووثاب وبقية امراء ومقدمي قبيلة كلاب قائلا : « إني انما اذنب واحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا »، ولقد تردبت نغمة هذه الرسالة في شعر ابن حيوس وفي رسالة نظمها أبو نصر بن النحاس على لسان سابق وتم ارسالها الى محمد بن زائدة الذي كان أحد البارزين بين امراء قبيلة كلاب ، ومما جاء في هذه الرسالة :

وقل لكلاب بدد الله شملكم
أو يحكم ما تتقون المعاييا
اتستبدلون الذل بالعز ملبسا
وتمسون اذنابا وكنتم ذوائبا
وها انا لائنك ابنل في حمى
حماكم مجدا مهجتي والרגائب

ويروي سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان بأن سابق بن محمود قد كتب في سنة ١٠٧٩ م الى مسلم بن قريش يستغيث به ضد تتش

الذي بعد أن استقامت أمور دمشق له « حشد لي قصد حلب » ، ومما جاء في رسالة سابق قوله : « أنت أولى بي من الغير والعربية تجمعنا فإن كنت مأكولا فكن أنت أكلتي » ، وسبط ابن الجوزي نفسه ينقل في كتابه مرآة الزمان عن غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ بأن مسلم بن قريش جاء إلى حلب في سنة ١٠٨٠ م وحاول احتلالها (كما مر معنا) ولقد تمكن من أخذ المدينة وحاصر سابق بن محمود وأخوانه في القلعة ، وطال أمر القلعة وكان في صحبة مسلم مقدمي قبيلة كلاب ، لذلك لما امتد أمر حصار القلعة جمعهم مسلم إليه وخاطبهم : « قد علمتم أنني أنفقت أموالي وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم وأموالكم ، وكف عافية الغز عنكم ، وهذه مقابلة ما أعرفها فإن كنتم رجعتم فها أنا راجع إلى بلادي ومتبرئ منكم ، فأذكروا ما جرى وشرطوا السعي فيه وإزالة ما تجدد منه » .

إن كلمة « عرب » التي ورد ذكرها في المصادر كانت تشير فقط إلى القبائل البدوية العربية لبلاد الشام والجزيرة وليس إلى جميع سكان هذين البلدين ، وبذفس الوقت أشارت كلمة « ترك » واستخدمت للتدليل على التركمان اللذين رافقوا الفتح السلجوقي لبلدان العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر . م ولقد مر معنا بأن بلاد الشام والجزيرة كانت تحكم قبل مجيء التركمان من قبل أسر بدوية عربية من عقيل ونمير وقشير وكلاب مع وجود طيء وكلب وسواهما في جنوبي بلاد الشام ، وبعد سنين من الصراع سنجد التركمان يتمكنون أخيرا من تجريد هذه الأسر من سلطانها وقبائل هذه الأسر من أراضيها وممتلكاتها .

واعتمادا على هذا يمكننا القول بأن الصراع كان صراعا من أجل السلطة والسيطرة بين قوتين بدويتين مسلمتين واحدة عربية تدعى بالمشيخ وأخرى تدعى بالسنة وهي وافدة تريد أن تحل نفسها محل الأولى .

لقد كان البدو يمثلون قسما صغيرا من سكان بلاد الشام والجزيرة وكانت الغالبية تقطن في المدن والأرياف ، ولا بد للباحث الحديث أن يتساءل عن موقف هذه الغالبية من الصراع ومن

المؤسف أن المؤرخ العربي لم يول هذه الغالبية اهتمامه ولم يعرّها انتباهه ، وهو حين تحدث عن البدو العرب تحدث عنهم كأصحاب سلطة ، وبنفس الوقت حين تحدث عن التركمان تحدث عنهم كجماعة كانوا يستولون على السلطة وكانوا يقيمون لأنفسهم دولا جديدة ، ولقد تعود الإنسان العادي أن يحكم وأن يعاني دون أن يشارك في مصيره ، ومع ذلك يمكن القول بأن غالبية سكان الشام والجزيرة قد وقفت ضد التركمان وكرهتهم لأسباب دينية ، ولما الحقوه بها من المصائب والويلات.

ولا بد لنا من أن نذكر هنا بأنه قد ورد في مصادرنا بعض ما يشرح موقف تنظيمات الأحداث ، وخاصة في حلب ، من الصراع بين البدو العرب والبدو التركمان ، ولقد كان الأحداث دائما ضد التركمان ، لكن ينبغي أن نعرف بأن الأحداث لم يكونوا يمثلون جميع سكان المدن والأرياف في الشام وإنما بعضا منهم ، وأنهم وقفوا ضد التركمان لا للدفاع عن الناس العاديين وإنما على الأغلب للدفاع عن مصالحهم ومكانتهم وسلطاتهم التي هددها مجيء التركمان بالزوال (٣٩) .

إذا كان الخطر الذي واجهته القبائل العربية جعلها أحيانا تقف ضد التركمان كي تحافظ على ملكها وأملاكها ، لكن لماذا قاتل ابن خان التركماني وأتباعه ثم أحمد شاه وأتباعه ضد بني جنسهم ولماذا ساندوا الدولة المرداسية وسواها ضد الخطر الغزي والغزو السلجوقي ؟ يكمن الجواب على هذا في طبيعة الجماعة التي انتسب إليها ابن خان وأحمد شاه ، وهي جماعة النواكية التي قلنا عنها بأنها لم تكن للأسطان السلجوقي بالطاعة ، لذلك خدمت في ظل النول التي كانت موجودة في الشام والجزيرة .

وعلى الرغم من النواكية قد ناصبوا السلاجقة العداء فلم يعترفوا بسلطانهم ، إنهم قد خدموا قضية السلاجقة ومهدوا السبيل نحو استيلائهم على بلاد الشام . ومنذ مجيء السلطان الب أرسلان إلى بلاد الشام وخوضه معركة منازكر ، دخل الشام والجزيرة

جماعات جديدة من التركمان دانت له ولخلفائه بالطاعة ، لذا فإنها اختلفت عن الناوكية اختلافا جوهريا فهي طالما كانت تدين بالطاعة للسلطان فإنها لم تكن بحاجة للانضواء تحت لواء أية حكومة من حكومات الشام والجزيرة أو للعمل كمرتزقة لديها ، لقد دخلت هذه الجماعات الشام دخول الغزاة وتصرفت تصرف الفاتحين ، وقالت بأنها كانت مرسلة من قبل السلطان ومفوضه من قبله ومنفذه لأوامره ، ولقد كانت طرائق هذه الجماعات في الفتح تعتمد على التخريب والتهديم والتحريق والقتل وتبغى السلب والنهب دونما تأثر بالآلام التي تلحق بالناس ، لأنها كانت بلا ضوابط وبلا اعتبارات انسانية أو خلقية ، وذلك بسبب طبيعتها البدوية وبسبب المرحلة الحضارية ودرجة الثقافة التي كانت فيها ، وينبغي أن يضاف الى هذا كله أن هؤلاء التركمان كانوا ، بسبب تعصبهم الشديد للسنة ، يعبرون أنفسهم مجاهدين في سبيل الله يقاتلون ضد كفار مرتدين ليس لهم إلا السيف والنار .

من أشهر أسماء زعماء جماعات التركمان التي وصلتنا أسمين هما صندوق وأفشين ، ولقد دخل صندوق الشام في سنة ١٠٧٠ م من الأراضي البيزنطية ، فشعث المناطق ما بين حمص ومعرّة النعمان ، ولقد كان أفشين قبل هذا الوقت يعمل داخل الأراضي البيزنطية ، وقد التحق كل من أفشين وصندوق بتتاش عندما دخل بلاد الشام وحاول فتح حلب ، (٤١) . وبقى أفشين في خدمة تتاش ورافقه حينما توجه الى دمشق لاغاثة أوتسز (٤٢) ، لكنه هجره بعدما فذك بأوتسز وتملك دمشق وأنفرد بحكمها ، ربما خشية أن ينال نفس المصير ، وعندما تخلى عن تتاش وهجره أخذ معه الجزء الأكبر من التركمان الذين رافقوا تتاش الى دمشق ، هذا ويمكن القول بلا تردد بأن أفشين كان أكثر مقدمي التركمان الذين دخلوا بلاد الشام تهديما وأكثرهم قسوة واشدهم وطنا وفضاظة على الناس والبلاد . ويروي كل من غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ وابن العديم تفاصيل ما قام به أفشين بعدما ترك تتاش وتوجه شمالا يريد الأراضي البيزنطية ، ويقول ابن العديم : « ثم فسح من عسكره - أي تتاش - أفشين

التركي ، ومعه أكثر العسكر وعاد شمالا ونهب عسكره ضياعا في أعمال بعلبك .

ووصل رفنيه في اليوم العاشر من جمادى الأولى (٤٧٢ هـ / ٨ تشرين ثاني ١٠٧٩ م) وفيها جماعة كثيرة من التجار والقوافل متوجهين الى طرابلس فهاجمها بغتة ، وقتل ممن كان بها جماعة ، واستباح أموالهم وحريمهم ، وأقام بها عشرة أيام ، ثم سار فنزل حصن الجسر - قرب شيزر - فأكرمه أبو الحسن بن منذر ، فأعلمه بما عول عليه من نهب الشام ، فسأله في بلدة كفرطاب الا يعترضها فأجابته .

وسار فنزل قسطون - من قرى جسر الشغور - فجرى أمرها في النهب والعقوبة مجرى رفنيه ، وأقام بها نيفا وعشرون يوما ، ثم تنقل وعسكره بالمنجنيقات على أبراج جبل السماق وغيرها ، حتى لم يبق بها موضع ولا برج الا افتتحه وأهلكه ، واستباح حريمهم وأولادهم ، واستغرق أحوال أهل سمرين والمعرة بالقطائع ، وطلع الى جبل بني عليم (جبل الزاوية الآن) فلم يتم له بها شيء .

وسار فنزل ضياع معرة النعمان الشرقية بالمنجنيقات ، ففتح أبراجها وحصونها بالسيوف ، وأخذ ما لا يمكن إحصاؤه ، وغلب أهلها فهلك منهم خلق ، ونزل تل مذس - قرب المعرة - وقطع عليها خمسة آلاف دينار ، ولم يتمكن من أخذها .

وانتقل إلى عمل معرة النعمان ففعل مثل ذلك . وسار إلى معرتاح - من عمل كفرطاب - فتحصن أهلها في أبراجها ، وتعذرت عليه فأحرقها ، وهلك جميع من كان فيها ...

وحين رجع أفشين من الشام ولم يبق في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب ، توجه إلى بلد إنطاكية فخرّب ما قدر عليه ، ونهب وسبى ما وجد ، وحمل إليه من إنطاكية مال ، وتوجه إلى الشرق بعد إمتلاء صدره وصدر عساكره من النهب » .

ويتابع ابن العديم ، الذي شهد الغزو المغولي ورأى بأمر عينه ما فعله التتر في بلاد الشام ، حديثه فيقول : « وجرى من هذا

الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله ، وتلف أهله بعد ذلك بالجوع ،
ووجد قوم قد قتلوا قوما وأكلوا لحومهم ، وبيعت الحنطة ستة أرطال
بدينار وما سوى ذلك بالنسبة .

وجلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مسلم
ابن قريش ، فأحسن إليهم وتصدق عليهم ، وكان ذلك الاحسان منه
أكبر الأسباب في مملكته حلب» (٤٢) .

بعد قرابة عشرين سنة من هذه الأعمال استولى الصليبيون على
انطاكية ، ثم مروا في هذه المنطقة الجبلية الصعبة - في طريقهم إلى
القدس - دون أن يلقوا أية مقاومة تذكر ، ويشير هذا إلى حقيقة
مؤلمة هي أنه حتى بعد عشرين عاما لم تستطع هذه المنطقة أن ترمم
بعض ما لحقها من تشيعث وتهديم ، ولكن بعد بضع سنوات من
استيلاء الصليبيين عليها لقد كان من أصعب الأمور على نور الدين
محمود بن زنكي ومن جاء بعده من أمراء المسلمين استخلاص هذه
المنطقة من الصليبيين

لقد اقتنع كل إنسان في شمال بلاد الشام - وحتى في
الجنوب - بأن سابق بن محمود ليس لديه من الطاقة والعزيمة ما
يمكنه من صنع أي شيء يحسن به الوضع ويواسي به الناس ويخفف
من آلام المصائب التي حلت بهم ، لهذا أخذ الناس - ومن جملتهم
قبيلة كلاب - ينظرون حولهم علهم يجدون قائدا قويا وعادلا ، لقد
كان أمامهم : السلطان ملك شاه ، وتتش بن الب أرسلان ، ومسلم
ابن قريش العقيلي أمير الموصل .

لم يكن السلطان ملك شاه ليفي بالغرض ويلبي الرغبات ، فهو قد
كان بعيدا عن مسرح الأحداث مشغولا بسوى الشام والجزيرة من
القضايا ، يضاف إلى هذا أن التخريب قد تم باسمه وربما كان هو
راض عما حدث لأن ذلك كان سيمكنه من أخذ الشام وضمه مع
الجزيرة إلى أملاكه .

أما تتش فقطعا لم يكن بالشخص الذي رجا الناس على يديه
العدل والرحمة ، فهو لم يكن أحسن بكثير من أفشين .

ولقد بدا لكل الناس بأن مسلم بن قريش العقيلي هو الرجل الذي يمكنه أن يشغل الدور الذي رجوه منه ويؤديه بإخلاص أحسن أداء ، وعلى هذا الأساس توجهت نحو الموصل عدة وفود وجماعات تمثل مختلف طبقات الناس من أهالي الشام مع أعداد هائلة من اللاجئين ، ولقد استغاث هؤلاء بمسلم بن قريش وطلبوا منه التحرك نحو الشام لتخليصه .

عندما نستعرض ديوان ابن حيوس الذي أمضى قرابة الستين سنة من عمره يمدح بها حكام دمشق الفاطميين ثم الأمراء المرداسيين في حلب مع عدد من الوزراء والقادة الفاطميين ، عندما نستعرض هذا الديوان يسترعي نظرنا قصيدة متميزة بصندوق عاطفتها وشدة تعبير أحاسيس قائلها ، وقد نظم ابن حيوس هذه القصيدة في أخريات أيام حياته ، ومدح بها مسلم بن قريش عندما فتح مدينة حلب وأسقط الدولة المرداسية ، وفيها يقول :

يا رحمة بعثت فأحيت أمة
قد طالما منيت بمن لم يرحم
جليت ظلم النانبات كما جلا
ضوء الغزالة جنح ليل مظلم
واطرت طير الخوف حتى ماله
بالشام منذ طرقت من مجثم
إن الرعايا في جنابك أمنت
كيد الغشوم وفتكه المتغشم
لا الظبية الغيداء تخشى القصور الضـ
اري ولا الذمي حيف المسلم
فخصصت بالاذلال كل مقلدس
وعممت بالاعزاز كل معمم
وغدا يستخلي الشام منهم مثلما
أخلت خزاعة مكة من جرهم

ولم يتحقق حلم ابن حيوس في إخلاء الشام من التركمان ، وسنرى بالتفصيل كيف أخفق مسلم في تحقيق ما صبا إليه ، وكيف هزمه التركمان وقتلوه وهو يجاهد في سبيل إقامة دولة عربية تشمل الشام والجزيرة مع أجزاء واسعة من العراق (٤٣) .

بعدما سمع تتش بالأعمال التي جناها افشين ترك دمشق وتوجه شمالا بحجة أنه يريد مطاردة افشين ليوقفه عن متابعة أعماله التدميرية ، لقد كان هذا ما تظاهر به تتش ، ويبدو أن قصده الحقيقي كان الاستفادة من الفرصة التي أوجدتها أعمال افشين لكي يهاجم حلب ويحتلها ، وفعلًا وصل تتش إلى حلب وحاصرها أياما لكنه عندما أدرك عدم استطاعته أخذ المدينة بقوة السلاح رفع الحصار وانسحب متوجها شمالا حيث نهب القرى المحيطة بالمدينة ممن كان له حظ النجاة من افشين ، ثم عاد بعدها مع غنائمه إلى دمشق (٤٤) .

وفي مدينة الموصل استقبل مسلم بن قريش وفدا حلبيا مع رسالة من أحداث حلب فيها تجديد للاستغاثة والدعوة للقدوم إلى حلب لانقاذها ، كما استقبل أيضا وفدا من أمراء قبيلة كلاب عملوا له نفس المطالب ، ووعده بالمساعدة والسير في ركابه ، وتبعًا لما رواه عدد من المؤرخين العرب كتب سابق بن محمود إلى مسلم بن قريش لا ليطلب منه المساعدة فقط وإنما ليعرض عليه التنازل له عن الامارة .

وهنا قرر مسلم بعد تسلمه لكل هذه الطلبات لا العمل للاستيلاء على شمالي بلاد الشام فقط وإنما على جميع مناطق الشام ومدنه ، ولقد كانت إحدى زوجات مسلم أختا للسلطان الب أرسلان أي عمّة للسلطان ملك شاه ، وخشية أن يقوم السلطان ملك شاه أو أحد قادته بمهاجمة الموصل بعدما يتركها مسلم حينما يتوجه إلى الشام ، قام مسلم بإجراء احتياطي ، « فأنفذ ولده من خاتون عمّة السلطان ملك شاه إليه ، وشرط على نفسه في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ، فأجابته وأمره بقصدها - أي حلب - فسمار إلى قلعة جعبر فحصرها ، وكان بها جعبر وأصحابه يقطعون الطرق ،

فصالحوه على أنهم لا يعودون إلى شيء من ذلك ، وسار إلى حلب فوصلها ثاني عشر ذي الحجة (٥ حزيران ١٠٨٠ م) ومعه بنو كلاب وكنب ونمير وجميع القبائل ، وقد أطاعوه خوفاً من الغز ، وأنفق عليهم الأموال ، فكسر الأحداث الأبواب يوم الجمعة لعشر بقين من ذي الحجة ، ودخل أصحابه إليها ولم يتأذ أحد من أهلها ولا أغلق فيها دكان .

وراسل سابق بن محمود وهو في القلعة مراسلة انتهت إلى أن يزوجه سابق بأخته ويعوضه مالا على أن يسلم القلعة ، فرضي وحط سابق رحله وماله إلى البلد ، ولم يبق إلا أن ينزل ، فوثب عليه أخواه تنقيب ووثاب فقبضا عليه وأستوليا على القلعة » .

وهنا أخذ مسلم بحصار القلعة وطال الحصار ودام أكثر من أربعة أشهر ، وضاق مسلم ذرعاً وتبرم من ذلك ونوى التخلي عن حلب والعودة إلى الموصل ، لكن التشجيع الذي لقيه من أهالي حلب ، ثم الوعود التي لقيها من مقدمي قبيلة كلاب ، مع ما كان يقوم به شخصيات الإمارة بالتوسط بينه وبين الأمراء المرداسيين في القلعة أقنعه بالبقاء في حلب ومتابعة حصار القلعة

ووقعت بعض الخلافات بين الأمراء المرداسيين ، وكان ذلك فرصة اقتنصها علي بن المقلد بن منقذ فتوسط بينهم وبين مسلم بن قريش ، وقد استطاع أن يقنعهم بالتخلي عن القلعة وتسليمها إلى مسلم مقابل تعويضات مالية مع اقطاعات لكل واحد منهم ، وهكذا نزل الأمراء المرداسيون من القلعة وتسلمها مسلم يوم الأحد العاشر من ربيع الآخر سنة ٤٧٣ هـ (أو يوم الثلاثاء الخامس منه) ٢٧ أيلول ١٠٨٠ م ، فزال بذلك دولة بني مرداس (٥) ، وأصبح الآن مسلم بن قريش سيداً على شمالي بلاد الشام مع الجزيرة وأجزاء من العراق ، وكان لهذا فوائده ولكنه حوى مخاطره أيضاً ، فالدولة الجديدة قد تعلق استمرار وجودها باستمرار مسلم بن قريش وبقائه حياً ، وكانت أية ضربة تزيل مسلم من الحياة تزيل في نفس الوقت الدولة التي أقامها وتجعل أراضيها لقمة سائغة للتركماني . وهذا ما حصل .

قبل أن تسقط الدولة المرداسية ، واثناء حكم سابق بن محمود ذكرنا بأن علي بن مقلد الأمير المنقذي صاحب كفر طاب كان قد هجر مدينة حلب وذهب إلى كفر طاب فأخذ يخطط لاحتلال قلعة شيزر المنيعة . وكانت هذه القلعة تحكم أنفذ من قبل أسقف البشارة الذي كان يدين بالطاعة للامبراطور البيزنطي ، ولما كانت شيزر من أمنع المواقع في بلاد الشام ، فقد كان من المحال أخذها بالقوة ، لذلك وضع علي خطة هدفت إلى حصار شيزر حتى تسقط من قبل نفسها بعد أن ينفذ ما فيها من مؤن ونخائر ، وفي سبيل هذه الغاية بنى علي قلعة على العاصي قريبا من شيزر أصبحت تعرف باسم قلعة الجسر ، وبعد ما سقطت الدولة المرداسية عاد علي إلى قلعة الجسر وصرف جهودها كلها في سبيل فتح قلعة شيزر ، وأخيرا وبعد أن ضاق الحال بالمدافعين عن شيزر واشتد بهم الأمر استطاع علي أن يقنع أسقف البشارة بالتنازل له عن شيزر مقابل مبلغ من المال ، وفي يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٤٧٤ هـ / ١٩ كانون أول ١٠٨١ م ، تسلم علي بن مقلد قلعة شيزر ، وغدا سيدها فأسس بذلك حكم الأسرة المنقذية في شيزر ، هذه الأسرة التي كانت من أبرز الأسر العربية زمن الحروب الصليبية (٤٦) .

وفي حلب عندما سمع مسلم بن قريش بخبر سقوط شيزر لعلي بن مقلد ، تحرك بسرعة وعمل من أجل انتزاعها منه ، وكان أول ما عمله هو أن جهز جيشا أرسله ضد شيزر بقيادة أخيه علي بن قريش ، وعندما وصل علي بن قريش مع جيشه إلى شيزر بدأ يحاصرها ولكن دونما جدوى فقد كان أميرها المنقذي قد شحنها بكل ما كانت تحتاج إليه من سلاح ومؤن وعتاد كي تقف وتقاوم لفترة مديدة . ولما لم تسقط شيزر لعلي بن قريش تحرك مسلم نفسه مع قوات جديدة نحوها ، وأخذ يحاصرها ، ومرة أخرى لما وجد مسلم بأن الأمر سيطول ترك منطقة شيزر حتى تسقط ، وفي حمص استقبل مسلم بن قريش وفدا منقزيا عرض عليه مبلغ ١٠٠٠ ر ١٠ دينار مقابل رفع الحصار عن شيزر ، وقبل مسلم بالعرض فاستلم المبلغ وأصدر أوامره إلى أخيه برفع الحصار والانسحاب .

ويذكر ابن العديم أن الذي دفع مسلم بن قريش على حصار شيزر هو حسده لابن منقذ (٤٧) . وهذا في الحقيقة وهم ومبالغة ، ذلك أن الحوادث التي وقعت كلها تبرهن على أن دوافع مسلم كانت أبعد من الحسد ، لقد كان مسلم يكمل ما بدأ به في حلب ، لقد كان يعمل على جعل الشام كله قطعه من دولته ، وفي هذا السبيل كان عليه أن يجعل جميع القوى تتحد راغبة أو راهبة تحت رايته ، فبعد أن استولى مسلم على حلب التفت نحو الامارة النعميرية في حران فاتى عليها وضمها إلى املاكه (٤٨) وقام بعد هذا بتجريد جميع أمراء الأسرة المرداسية من املاكهم ، كما استولى على جميع القرى والأراضي الحلبية التي كانت في ايدي التركمان ، ونظف شمالي الشام حتى مدينة حماه من التركمان وحال دونهم ودون الدخول الى أراضيهم حتى وبومروا ، واتوج أعماله هذه بأن مد نفوذه على مدينتي الرها في المشرق وانطاكية في الغرب وكانت من أملاك الامبراطورية البيزنطية (٤٩) .

وبعدما ترك مسلم شيزر وتوجه نحو حمص كان يريد الاستيلاء على هذه المدينة من خلف بن ملاعب الذي كان قد امتلكها وكان قصده من أخذ حمص أن يجعل ذلك خطوة أولى ممهدة للاستيلاء على بقية الشام وخاصة دمشق وطرد تتش منها ، ولقد استطاع مسلم احتلال مدينة حمص وبدأ في حصار قلعتها ، واثناء الحصار علم بأن تتش يعد عدته للتحرك ضده من دمشق . ولما لم يكن مسلم قد أعد أموره للاصطدام مع اخي السلطان في هذه المرحلة فقد أثر عدم متابعة حصاره لقلعة حمص ، لذا تصالح مع خلف بن ملاعب وتركه وترك حمص له ، وقبل ذلك كان قد استقبل وفد شيزر وتصالح معه ، ثم سحب نفسه شمالا إلى حلب ، ثم شرقا إلى الموصل ليجهز قواته لمرحلة دمشق ، والقتال ضد تتش .

لقد كان مسلم بن قريش يدين بالتشيع على مذهب الامامية الاثني عشرية ، وكانت الخلافة الفاطمية هي الدولة الشيعية الوحيدة في منطقة - ما يسمى الآن بالشرق الأوسط - وكانت هذه الدولة قد تضررت كثيرا من التركمان ، لهذا كان من الطبيعي أن تتلاقى

مصالح هذه الخلافة مع مصالح مسلم بن قريش ، وأن توفق بينهما المبادئ العامة للتشجيع ، لذلك عندما كان مسلم يعد عدته للحملة على دمشق قامت اتصالات بينه وبين بدر الجمالي في القاهرة وتم الاتفاق بينهما على أن ترسل القاهرة جيشاً فاطمياً يساعد مسلم بن قريش في الاطباق على دمشق عندما يصلها مسلم ويأخذ في حصارها .

ولم يكن مسلم انذ هو الذي يتحرك فقط ، فقد استلم هذا الوقت تدش رسائل من أمراء الأسرة المرداسية ، ومن خلف بن ملاعب صاحب حمص ، ومن الأمير المنقذي لشيزر ، فيها الشكاية ضد مسلم بن قريش وفيها عروض للتعاون معا ضده لطرده من بلاد الشام ، ولتسليم املاكه لتدش . ولقد تجاوب تدش مع العروض التي بذلها هؤلاء الامراء له فجمع قواته وقادها شمالا نحو انطاكية ، وذلك في الوقت الذي كانت قد تجمعت فيه قوات الامراء العرب وتحركت شمالا تريد حلب ، ولقد احتلت هذه القوات حماه ثم اخذت معرة النعمان وارادت ان تتابع سيرها نحو حلب ، هذا وان تحرك تدش نحو انطاكية مع المنحى الذي تحركت عليه القوات العربية يوحي بوجود خطة مرسومة للاستيلاء على حلب ، وربما بنيت هذه الخطة على ان يستولي تدش على المناطق الشمالية الغربية لامارة حلب في حين تستولي القوات العربية على المناطق الجنوبية ، وعند الفراغ من ذلك تلتقي القوتين عند حلب فتطبق عليهما وتنتزعها ، وبذلك يطرد مسلم من الشام .

ولم ينفذ الا جزء من هذه الخطة المفترضة ، فقد سمع مسلم بن قريش بنبأ تحرك تدش وحلفائه العرب ، لذلك سارع بعبور الفرات على رأس قوات كبيرة وقصد اولا مدينة حلب ومنها كان يريد دمشق ، ولقد اجبر تحرك مسلم السريع تدش وحلفائه على الاقلاع عن متابعة اعمالهم والتراجع كل الى بلده وموقعه الحصين للدفاع عنه ضد مسلم بن قريش .

وفي حزيران سنة ١٠٨٣م القى مسلم بن قريش الحصار على مدينة

دمشق ، وبهذا كان ينفذ اهم اعماله كلها ، ويقوم بالخطوة الاخيرة والمهمة نحو تأسيس دولة عربية تضم الشام والجزيرة مع اجزاء من العراق ؛ ولقد اخفق مسلم في اخذ دمشق وذلك بعد ان حاصرها قرابة شهر ، كما انه اجبر على الانسحاب ، وان الاسباب الرئيسية التي كمنت وراء اخفاقه هي :

١ - التركيب القبلي لقواته ، ذلك ان هذه القوات قد ضمت عناصر من معظم قبائل الشام ، فقد كان فيها بالاضافة الى عقيل عددا لاباس به من كلاب ونمير ، كما انها ضمت اعدادا من اكراد الجزيرة ، ثم انضاف اليها عندما وصلت دمشق اعداد من طيء ، وعليم ، وكلب ، ولقد كان العقيليون هم - ربما - الجزء الوحيد في قواته الذي اخلص له ، اما باقي اجزاء هذه القوات فقد دخلت في خدمة مسلم اما عن رغبة او عن رهبة ، رهبة منه وخوفا من بطشه ، ورغبة في نيل بعض الغنائم عندما تسقط دمشق ، وكان هذا حال عليم ، وكلب ، وطيء .

ومفيد ان نذبه هنا الى انه حتى وقت حادثنا هذا لا يمكن تقدير التركمان الذين استقروا في الشام باكثر من ١٥٠٠ ر ١٥ ، لقد كان هناك عدد صغير من المقدمين ، وكل مقدم كان اتباعه اما ٥٠٠ رجل او ١٠٠٠ مقاتل ، وهكذا كان عدد التركمان مجتمعين اقل بكثير من عدد اي قبيلة عربية من قبائل الشام والجزيرة ، ولكن بينما فاق العرب التركمان بالكمية والعدد ، لقد فاق التركمان العرب بالكيفية والقدرة القتالية، لقد احسن التركمان فنونا من القتال واجادوا استخدام اسلحة لم يبارهم العرب ولا سواهم بها ، وخاصة استخدام الاقواس ، فقد كان التركماني فارسا يرمي وهو على ظهر فرسه في مختلف الاوضاع الى الامام والخلف والجوانب ، واهم من كل هذا لقد كان التركمان بدوا بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، كانت لديهم روح البداوة العذيفة ، وكان لديهم اقدام البدو وقسوتهم ، وكان التركماني يعتمد على نفسه في المعركة ولم يكن لديه اتبع او خدم يصاحبه في المعركة ، وكان البدو العرب لا يشبهون التركمان في اي

شيء تقريبا ، لقد كانوا بعيدي العهد بالبدواة الحقة ، كانت روح القتال لديهم قد خبت جذوتها ، فاستخدموا العبيد المقاتلة . كانت الدنيا ومتاعها شاغلهم وكان تعلقهم بالحياة ومتعها قد جعلهم يذسبون كيف يخططون او يفكرون بعقل ، ولقد مر بنا العديد من الامثلة وراينا كيف ان ٥٠٠ ر ١ تركماني هزموا ٠٠٠ ر ٧٠ كلابي وسيمر بنا امثلة اخرى اضافية تزيد في البرهان .

ب - مقاومة تتش الفعالة ، وهجوماته المفاجئة التي كان ينقض بها على بعض اجنحة عسكر مسلم فيحطمها ثم يعود الى داخل دمشق ، ويقول ابن الاثير : « وفي بعض الايام خرج اليه - اي الى مسلم - عسكر دمشق وقاتلوه وحملوا على عسكره حملة صادقة ، فانكشفوا وتضعضعوا ، وانهزمت العرب ، وثبت شرف الدولة - مسلم بن قريش - واشرف على الاسر » .

ت - عدم وفاء الخلافة الفاطمية بوعودها ، « وكان شرف الدولة قد اعتمد على معونة عسكر المصريين على دمشق ، ومعاضدته بالعسكر المصري على اخذها ، فوقع التقاتل عليه بالانجاد والتقاعد عنه بالاسعاد اشفافا من ميل الناس اليه ، وعظم شأنه بتواصلهم ووفودهم عليه .

فلما وقع يأسه مما امله ورجاه وخاف ما تمناه وورد عليه من اعماله ما شغل خاطره في تدبيره واعماله ، وتواترت الاخبار بما ازعجه واقلقه ، رأى ان رحيله عن دمشق الى بلاده وعودته الى ولايته لتسديد احوالها واصلاح اختلالها اصوب من مقامه على دمشق ووافق من شأنه » .

ج - لقد كان الذي ازعج مسلم واقلقه وجعله يقلع عن متابعة حصار دمشق هو خبر قيام ثورة في حران ضده ، ويقول الذهبي : « عصا اهل حران على شرف الدولة مسلم بن قريش ، واطاعوا قاضيهم ابن جبلة الحنبلي ، وعزموا على تسليم حران الى جبى امير التركمان لكونه سنيا ولكون مسلم رافضيا » ، وعندما « وصل الخبر الى مسلم بان اهل حران عصوا عليه ... رجع كارا الى حمص وصالح في

طريقه ابن ملاعب وجالغه واعطاه مضافا الى حمص ريفية وسلمية ،
واقطع شبيب بن محمود بن الزوقلية حماه ، واستخلفه في تلك
الاعمال .

وعاجل حران فوصلها يوم الجمعة ثامن ربيع الاول فوجد
قاضيها ابن جلبة الحنبلي قد استغل اهلها وادخل اليها جماعة من
بني نمير ... واذنذ ... الى جببق امير التركمان ، وكان قريبا
فاستدناهم اليه ليسلم اليهم البلد ...

وشرع القاضي يعلم مسلما ويمنيه خديعة منه ليصل التركمان ،
وعلم مسلم فحاربهم ورمى قطعة من السور ، وبينما هو كذلك وصل
التركمان ، فترك اقواما يقاتلون البلد ، وركب هو بمن معه ، فأشرف
على التركمان ، واتصل الطراد ، وقال للعرب ، املكوا عليهم النهر
المعروف بالجلاب واجعلوه وراءكم ، وحولوا بين التركمان وبينه ،
ففعلوا ، وعطشوا وخيلهم ، وهجرت الشمس عليهم ، فمالوا بجمعهم
طالبين رأس الماء على ان يشربوا ويسقوا خيولهم ويعودوا على
العرب ، فلما عطفوا خيولهم لم يشك العرب انها هزيمة ، فآلقوا
نفوسهم عليهم ، فانهزموا ، فتبعوهم وغنموهم وقتلوا واسروا .
واقام مسلم على حصار حران ، وكان كلما رمى قطعة من السور
نصب ابن جبلة يازاء القلعة مجانيق وعرادات منعت من يروم القرب
منها .

وطال حصار حران وتمكن مسلم اخيرا من اختراق الاسوار
ودخل حران « فقتل خلقا كثيرا من اهل البلد ... ثم طلب القاضي
فوجد في كندوج)فيه قطن فأخذ وولديه ، وقبض على اعيان اهل حران
ونهب البلد الى اخر النهار ، ثم رفع وصلب القاضي وولديه واعيان
الحرانيين على السور ، وقتل خلقا من العوام ، وعاد الى منزله
بأرض الموصل » (٥٠) .

وصل في هذه الآونة الى الشام والجزيرة موجة من المهاجرين
التركمان ، وكان ابرز مقدمي هذه الموجة أرئق وجببق ، وفي الواقع
كان ارتق هو الاهم بين مقدمي هذه الموجة والاكثر شهرة ، ذلك انه

شغل دوراً مؤثراً في انزال ضربة قاصمة بالقوة البدوية العربية في الجزيرة ، كما شارك في الصراع بين التركمان من أجل السيادة على بلاد الشام ، يضاف الى هذا كله انه كان جد الاسرة الارتقية التي حكم افراد منها في حلب والجزيرة وكانوا من اهم قادة المسلمين ايام الحملة الصليبية الاولى ثم اثناء الفترات التالية .

وعندما كان التركمان يؤسسون امبراطوريتهم ويعملون من أجل مد سيطرتها على دول العالم الاسلامي للقرن الحادي عشر م ، لم يكن مقدمي جماعات التركمان هم وحدهم الذين بذلوا غاية جهودهم من أجل اقامة دويلات لانفسهم ، بل صنع عدد من رجال الادارة الاسلامية المحترفين الشيء نفسه ، ولقد كانت اسرة آل جهير بين هؤلاء ، وكان محمد بن احمد بن جهير هو رب هذه الاسرة ، وقد بدأ حياته الادارية في مدينة الموصل حيث شغل منصب الوزير فيها ، ثم ترك الموصل فذهب الى حلب حيث عمل بنجاح فائق وزيراً لثمال بن صالح ، وبعد ان خدم ثمال فترة طويلة من الزمن ترك مدينة حلب مخافة ان يوقع حساده بينه وبين سيده ، وتوجه الى ميافارقين فعمل وزيراً فيها ، ومن ميافارقين طارت شهرة ابن جهير فطلبه الخليفة القائم واستدعاه الى بغداد ليكون وزيراً له ، وذهب ابن جهير الى بغداد فعمل في خدمة القائم ثم في خدمة خليفته المقتدي .

وكان محمد بن احمد بن جهير هذا يعرف بلقب فخر الدولة ، ولقد تمكن خلال عمله في بغداد من إقامة علاقات ود متينة مع نظام الملك وزير السلطان الب ارسلان ومن بعده ابنه ملك شاه ، وأشهر وزراء الدولة السلجوقية ، وبدون شك أعظم رجال الادارة والتشريع في تاريخ الاسلام ، فهو مؤسس المدرسة النظامية ، ومطور نظام الاقطاع العسكري ، واليه ينسب كتاب سياسة نامه الشهير .

وكان من ثمرات العلاقات بين فخر الدولة ونظام الملك زواج ابنه محمد — اي ابن فخر الدولة — الذي كان يعرف بلقب عميد الدولة بابنتين من بنات نظام الملك واحدة بعد أخرى .

وعندما صرف فخر الدولة عن وزارة المقتدي خلفه ولده عميد

الدولة وذلك بفضل جهود نظام الملك وبسبب ما بذله من ضغوط على دار الخلافة ، ولقد بقي عميد الدولة وزيراً حتى عزل يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ٤٧٦ هـ / ١٤ تموز سنة ١٠٨٣ م ، وهنا غادرت اسرة آل جهير مع اسبابها ومن تعلق بها مدينة بغداد وأخذت طريقها الى أصفهان حيث استقبلت بحفاوة ، ورحب بها من قبل السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك .

وفي تشرين الاول من نفس السنة (١٠٨٣ م) فوض السلطان ملك شاه الى فخر الدولة الامر في ان يقود جيشاً سلجوقياً من جيوش السلطان يذهب على رأسه الى الجزيرة لفتح ديار بكر ومن ثم القضاء على الدولة المروانية . ولقد عين السلطان ملك شاه اق سنقر قسيم الدولة الذي سيكون اول حاكم سلجوقي لحلب - كما سنرى في اول الفصل التالي - عينه كمسؤول عسكري عن شؤون الحملة

وعندما وصلت انباء هذه الحملة الى الجزيرة سببت قيام تحالف بين قوتي الجزيرة المتخاصمتين ، اي بين الدولة المروانية وبين مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب ، ولقد دفعت الدولة المروانية لمسلم بن قريش مدينة آمد وذلك في سبيل تحالفه معها ووقوفه الى جانبها عوضاً عن الوقوف ضدها ، وتجمعت قوات مسلم بن قريش مع القوات المروانية قرب آمد للتصدي لابن جهير ، وعندما وصلت اخبار التحالف المرواني العقيلي الى ابن جهير اخبر به السلطان ملك شاه واستمده « فأردفه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير ارتق بن اكسب ابو الملوك الأرتقية » ، وجاءت القوات التركمانية الى قرب آمد وعسكرت امام القوات العقيلية المروانية ، وحاول ابن جهير ان يقنع مسلم بالتخلي عن القتال والانسحاب وقال : « لاوثر ان يحل بالعرب بلاء على يدي » ، « ووقعت المراسلة - بينه وبين مسلم - وكل أشار على مسلم بالرجوع الى اعماله ، فقال : ترجعون مرحلة الى ورائكم وأرجع أنا لنلا يقال انني عدت منهزماً ، فامتنع ارتق بك وقال : انا لا ارد رايات السلطان على عقبها ، وعرف التركمان ما يجري فقالوا : نحن جننا من البلاد البعيدة لطلب

النهب ، وهؤلاء يسارعون في الصلح ، وركبوا نصف الليل من غير
اعلام ارتق ، وأشرفوا ... على العرب وكانوا أضعاف الغز ،
فأخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب ، واحتاطوا بهم ، ولم يكن
لمسلم سبيل الى الهرب ، فطلب صوب آمد ، وتبعه ابن مروان
وجماعة من أصحابهما ، فدخلوا آمد.

وأشرف ابن جهير وارتق بك على القوم ضاحي النهار ، وقد
استولى التركمان على الحلال والأموال والمواشي ، وكان مما لا يحسد
ولا يحصر ، وأخذوا النساء وفضدوهن ، وربطوا أمراء بني عقيل
بالحبال ، وباعوهم بالقراريط ، وأشعل التركمان عشرة آلاف رمح
تحت القدور ، وجرى على العرب ما لم يجر عليهم قبله مثله ، وسبوا
نساءهم ، وبلغ الفرس الجيد ديناراً ، وكذا الجمل والفرس ،
والرأس الغنم نصف قيراط ، والعبيد والاماء من دينار الى دينارين
وما سوى ذلك فما اشترى ولا بيع .

وتحرك ابن جهير الآن بسرعة ، وارادا استغلال ما حدث لصالحه
وصالح السلطان فبعث « الى ارتق بك يقول : قد حصلت بنو عقيل في
أيدي التركمان ، ويجب أن تجمعهم وتنفذهم الى السلطان ، وتقيم
على هذا الانسان ، يعني مسلم بن قريش ، وتستنزله ، وقد ملكت
الأرض الى مصر . » ولقد كان هذا ما تخيله ابن جهير وتمناه لكن
الأقدار وارتق بك أرادا شيئاً آخر . وفي أصفهان عندما سمع السلطان
ملك شاه أخبار ما تم عند آمد خيل اليه هو الآخر بأن الجزيرة
والشام غدتا من أملاكه ، لهذا سارع الى استغلال هزيمة مسلم
وتمتين نصر التركمان فقاد قواته وتوجه نحو الجزيرة ، وعندما
وصلها دخل مدينة الموصل وأخذ يعد نفسه لاكمال زحفه على الشام ،
ومرة أخرى لقد أراد ملك شاه شيئاً وأرادت الأقدار وارتق شسينا
آخر . فبعدها دخل مسلم مدينة آمد محتمياً بأسوارها كتب الى «
ارتق بك وقال : لمثل هذا اليوم خبأتك ، ولمثله تستحب الصنيعة ،
وأريد أن تمن علي بنفسي ، وبذل له مالا أرغبه فيه ، » ورضي ارتق
بعرض مسلم ووافق على أن يفسح له سبيل النجاة ، لذلك عندما طلب
ابن جهير منه التشدد في حراسة أسوار آمد وأخذ الحيلة لمنع مسلم

من النجاة أجابه « هذا أمر ما اليك منه قليل ولا كثير ، وأنا صاحب الحرب ، وليس من عادتنا مع من نأسره أن نحبس بل نبيعه ونطلقه وكانت نية ارتق بك مع السلطان غير مستقيمة » . وقبل أن يدخل السلطان مدينة الموصل بلغه أن مسلما قد نجا من أمد يوم الأحد ٢٧ تموز ١٠٨٤ م ، وبعدما دخل الى الموصل جاءت الانباء من خراسان بأن أخاه تكش بن الب أرسلان قد استغل ابتعاده عن هذه البلاد فأعلن الثورة وأخذ يعمل للاستيلاء على مدن خراسان بغية اعلان نفسه سلطانا مكان ملك شاه ، ولقد أجبرت هاتان الحادثتان ، خاصة الثانية منهما ، ملك شاه على أن لا يتابع زحفه على الشام ، بل الى صنع تسوية مع مسلم بن قريش كي يعود الى خراسان فيتدارك أوضاعها ، ويقول غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء : « وجاء للسلطان من ناحية أخيه تكش ، فرأى إعادة مسلم الى بلاده ، فأرسل اليه أبا بكر بن نظام الملك وكان نازلا بمقابل الرحبة ، فتوثق منه ، وعاد به الى السلطان ، فخلع عليه وأعادته الى أعماله ، ورجع الى أصفهان » .

وعندما التقى مسلم بن قريش بالسلطان ملك شاه قدم اليه مبلغا كبيرا من المال مع كمية من الهدايا الثمينة والخيول من جملتها فرسه الخاص ، وهكذا عادت الى مسلم أملاكه رغم الضربة القاصمة التي نزلت به ، ونجت مع نجاة مسلم الدولة المزوانية من السقوط ، ولم تحقق حملة ابن جهير ما تمناه فخر الدولة وابتغاه (٥١) .

وعلى الرغم من التسوية التي صنعها مسلم بن قريش مع السلطان ملك شاه ورغم أنه لم يفقد شيئا من أراضيه ، لقد كان مسلم غير قادر بسهولة على استرداد قوته والتعافي مما نزل به ، وهنا مرة أخرى توجه مسلم ببصره نحو القاهرة حيث الخلافة الفاطمية وسيدھا وصاحب الأمر فيها بدر الجمالي ، فقام بإرسال عمه مقبل ابن بدران الى مصر كرسول له كي يقابل بدر الجمالي ويحاول تجديد الألف معه ، ويروي سبط ابن الجوزي بأن مقبل بن بدران أخبر بدر الجمالي بأنه اذا ما استلم بعض المساعذات المالية ، واذا ما أرسل جيش فاطمي الى الشام فسيعبر مسلم الفرات ويساعد

الجيش الفاطمي ليس فقط على أخذ الشام بل حتى على أخذ العراق والجزيرة أيضا ، ويروي سبط ابن الجوزي أيضا ما يفيد بأن ارتق الذي كان يخشى أن يعاقبه السلطان ملك شاه بسبب ما قام به في أمد كان متورطا منذ البداية في خطط مسلم هذه ، ولقد أمل كلاهما في توريط تتش وإخاله في مخططاتهما ، ومفيد أن نذكر هنا بأنه قبل قيام هذه الاتصالات مع القاهرة كان هناك بعض الاتصالات بين القاهرة وتتش وأن تتش كان سيتزوج ابنة بدر الجمالي في سنة ١٠٨٣ م (٥٢) .

لقد جاءت تحركات مسلم هذه جد متأخرة ، وما كان بإمكان القاهرة أن تنقذه مما ألم به ، فعندما عاد مقبل بن بدران من مصر إلى الشام يرافقه وفد فاطمي مؤلف من الوزير ابن المغربي وأحد أولاد بدر الجمالي وجماعة من أعيان الدولة الفاطمية ، وجدوا شرف الدولة مسلم بن قريش قد قتل ، وكانت قصة مقتله كالتالي :

بعد أيام من نجاة مسلم بن قريش من أمد ، تمكن سليمان بن قطلмыш وهو أحد أفراد الأسرة السلجوقية الذين كانوا يعملون داخل الأراضي البيزنطية من احتلال « نيقية » وهي بلد بالساحل تضاهي أنطاكية ، واستولى أيضا على - جميع ما يليها من طرسوس وأذنة ومصيصة وعين زربة - أي مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية التي كانت بيزنطة قد انتزعتها في منتصف القرن العاشر من سيف الدولة الحمداني بفضل جهود نفقور فوكاس ، وحين صنع سليمان هذا كان قد أسس دولة سلاجقة الروم الشهيرة التي ورثتها الدولة العثمانية بعد عدة قرون ، وبعد احتلال سليمان لنيقية وماجاورها توجه بانظاره نحو مدينة أنطاكية التي كانت أيضا قد احتلها البيزنطيون في منتصف القرن العشر .

ويقدم لنا ابن العديم رواية مفصلة حول احتلال سليمان لأنطاكية جاء فيها : « وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة (١٠٨٤) شرع سليمان بن قطلмыш في العمل على أنطاكية والاجتهاد إلى أن تم له ما أراد ، فأسرى من نيقية في عسكره وعبر الدروب وأوهم أن

الفلاريوس (الحاكم البيزنطي لانتاكية) استدعاه ، وأسرع السير الى أن وصل انتاكية ليلا ، فقتل أهل ضيعة تعرف بالعمرانية جميعهم لنلا يندروا به ، وعلقوا حبالا في شرفات الاسور بالرماح ، وطلعوا مما يلي باب فارس ، وحين صار منهم على الاسور جماعة نزلوا الى باب فارس وفتحوه ، ودخل هو وعسكره من الباب وأغلقوه ، وكانوا مائتين وثمانين رجلا ... ولم يشعر بهم أهل البلد إلى الصباح ، وصاح الأتراك صيحة واحدة فتوهم أهل انتاكية أن عسكر الفلاريوس قد قاتلوهم فانهزموا ، وعلموا أن البلد قد هجم فبعضهم هرب إلى القلعة ، وبعضهم رمى بنفسه من الاسور فنجأ . وبعد أن أصبح سليمان سيد مدينة انتاكية توارد إليه التركمان فحاصر قلعة انتاكية قرابة شهر ففتحها ، واتخذ سليمان انتاكية مقرا له « وفتح الحصون المجاورة لها بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج » ، ثم أخذ يتطلع نحو مدينة حلب للاستيلاء عليها وضمها إلى مملكته الجديدة الناشئة^(٥٣).

ولقد جلب استيلاء سليمان بن قتلمش على انتاكية معه تهديدا جديدا وهائلا لوضع مسلم بن قريش وحكمه في حلب ، فقد أخذ سليمان بعد توطيد نفسه في انتاكية يعمل على احتلال أراضي حلب ، كمقدمة لأخذ حلب نفسها ، ولقد انضم إليه في انتاكية عدد من الأمراء المرداسيين مع اتباعهم ، كما جاء إليه عدد لا بأس به من عساكر مسلم ، لأن مسلما كان قد انقص أعطيائهم بعد هزيمته في آمد .

وعندما سمع مسلم بأخبار هذه المحنة الجديدة جمع بعض القوات البدوية العربية وجاء إلى حلب ، وأخذ يعد العدة للاصطدام بسليمان ابن قتلمش ، فاستدعى إليه المقدم التركماني جببق واستأجره مع اتباعه ، وأخذ مسلم يغير على أراضي انتاكية ، وما كان من سليمان إلا أن رد على غاراته بفارات انتقامية مماثلة على أراضي حلب ، ولقد تضرر أهالي قرى حلب وفلاحوها كثيرا من هذه الفارات ، واحتجوا إلى سليمان على أعماله ضدهم ، فأجابهم بأنه ليس من حقه نهب المسلمين ولكن مسلم بن قريش أغرهم على ذلك .

وعلى الطرف الآخر علال مسلم بن قريش غاراته على انطاكية ، فجعل اسبابها عدم تلبية سليمان بن قتلمش لمطالبه ، فقد كان مسلم يتقاضى من البيزنطيين أصحاب انطاكية مبلغا من المال كجزية سنوية . وقطع فتح سليمان لانطاكية هذا المال عنه ، وطالب مسلم الآن سليمان بدفع ما كان البيزنطيون يدفعون ، فلم يجبه الى ذلك وقال : تلك جزية كانت على الروم لتمسك عن جهادهم ، وقد قمت أنا بفريضة الجهاد ، وصارت انطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها اليك جزية ؟»

ونصح مسلم أن يتجنب الحرب مع سليمان الذي لم يكن له علاقات طيبة مع السلطان ملك شاه ، وقيل له بأن من الأفضل التصالح معه والتحالف ، لكن مسلم ركب رأسه فرفض ما أسدي اليه من نصائح وقرر أن يهاجم انطاكية في سبيل انتزاعها من سليمان ، لذا قاد جيشه الذي شكله ، وكان فيه قرابة ٦,٠٠٠ مقاتل ، قاده نحو انطاكية ، وعلى الطريق اعترضه سليمان بن قتلمش قرب عفرين ، وفي ظهيرة يوم السبت ٢٤ صفر ٤٧٨ هـ / ٢١ حزيران ١٠٨٥ م اشتبكت قوات سليمان بقوات مسلم فانتصرت عليها ، لأن الشمس كانت في وجوه أصحاب مسلم ، ولأن قوات جبجق الفزية تخلت في بدء المعركة عن مسلم وانضمت الى جيش سليمان ، ولأن أصحاب مسلم واتباعه من عقيل وغيرها من القبائل هربوا من ساح المعركة وتركوا مسلم يعاني مصيره ، ولم يصمد مع مسلم سوى أحداث حلب وكانوا ستمائة ، وحاول مسلم الانسحاب الى حلب ، وجهد الأحداث في تغطية انسحابه فسقط منهم اربعمائة ، واخفق مسلم بن قريش في تأمين النجاة لنفسه وتلقى ضربة أفقدته حياته (٥٤).

ولقد أنهى مقتل مسلم بن قريش جميع المشاريع التي خطط لها ، كما أنهى الفترة التي كان المتصارعون فيها للسيادة على الشام هم البدو العرب من جهة والبدو التركمان من الجهة الثانية ، ولقد أصبح من الآن فصاعدا الصراع من أجل السيادة على الشام بين التركمان أنفسهم حيث أن القبائل العربية قد أزيحت عن مسرح الأحداث

المؤثرة ، ولم يعد لها شأن ينكر في أحداث التغييرات السياسية في الشام.



كان مسلم بن قريش قد جاء لأخذ حلب - كما مر معنا - بعد أن استدعاه أحداث المدينة وقد تمكن من أخذها بعد أن فتحوا له بواباتها عندما وجبل إليها ، ولقد كان مقدم أحداث حلب خلال هذه الحقبة هو الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي ، ولقد غدا الحتيتي زمن مسلم الحاكم الفعلي لمدينة حلب ، ولقد تضاعفت قوة أحداث حلب خلال هذه الفترة ، ويكفي برهان على مدى ضخامة الأحداث وقوتهم أن ٦٠٠ منهم كانوا في جيش مسلم بن قريش أثناء قتاله ضد سليمان بن قتلمش ، ولقد شارك الحتيتي في إدارة حلب سالم بن مالك ابن عم مسلم ، وكان قد عينه حاكما لقلعة حلب ، ولكن مهما يكن الحال لقد أصبح مصير حلب بعد مقتل مسلم بين يدي الحتيتي وأحداثه.

وحمل سليمان بن قتلمش جثة مسلم بن قريش وأتى بها فطرحها أمام سور حلب ، وكان يأمل بأن تسلم المدينة له ، لكن الحتيتي رفض التسليم وأصر على المقاومة ، وهنا بدأ سليمان بحصار مدينة حلب ، وقام الحتيتي أثناء الحصار بمراسلة السلطان ملك شاه فأعلمه بمصرع ابن قريش ، ودعاه للقدوم الى حلب ليتسلمها .

ولما لم يكن للحتيتي سيطرة على قلعة حلب وكان بحاجة الى موقع حصين يتخذ مركزا له فقد قام ببناء قلعة لنفسه وأحداثه داخل المدينة ، ولا يزال موقع هذه القلعة معروفا ، فأحد أحياء حلب الواقعة الى جنوبي القلعة الكبيرة يعرف الآن باسم « قلعة الشريف » واتخذ الحتيتي من قلعته الجديدة مقرا لحكومته وثكنة لأحداثه ، وهكذا أديرت حلب إدارة شبه شعبية ووجد فيها نوع من انواع الجمهوريات.

ولم يركز سليمان كل جهوده على حصار حلب، لأنه أدرك أن الأمر سيطول، لذلك قام بترميم، أو بالحري بإعادة بناء، قطعة من مدينة قنسرين المجاورة لحلب، وجعل مقر قيادة قواته فيها، وأخذ يعمل على احتلال أراضي وبلدان إمارة حلب الجنوبية، فاستولى على معرة النعمان وكفر طناب، ولطمين، واستمر في نفس الوقت في محاصرته لحلب، وإن كان بشكل جزئي.

وفي خراسان استجاب السلطان ملك شاه لدعوة الشريف الحتيتي وتحرك على رأس قوات كبيرة غرباً نحو حلب، لكن تحركه كان بطيئاً، مما أعطى الفرصة لسليمان بن قنلمش للتضييق أكثر على حلب، وهنا وجد الحتيتي نفسه مكرهاً على التوجه بنظره نحو دمشق حيث كان تتش، فاستدعاه ليسلمه مدينة حلب.

ولم يكن تتش ينتظر أكثر من مثل هذه الدعوة، وكان عنده حين وصول هذه الدعوة إليه ارتق مع أتباعه، لهذا تحرك تتش وارتق وأتباعهما من التركمان شمالاً يريدون مدينة حلب، وكان ذلك في محرم سنة ٤٧٩ هـ / نيسان ١٠٨٥ م وقبل أن يصل تتش وقواته إلى حلب اعترضه سليمان بن قنلمش مع قواته، والتحم الجيوش السلجوقيان في معركة تمخضت عن نصر تتش ومقتل سليمان بن قنلمش وهزيمة قواته، ولقد كانت هذه المعركة التي وقعت بعد قرابة سنة من مقتل مسلم بن قريش (٥٥) أول معركة اقتتل فيها جيوش سلجوقيان من أجل السيادة على إحدى مناطق الشام، ومن هنا تأتي أهميتها ذلك أنها افتتحت فترة جديدة في تاريخ الشام والتاريخ السلجوقي، وسببت وضع حلب لأول مرة في تاريخها تحت حكم السلاجقة المباشر، وبذلك خلص معظم الشام للسلاجقة، وبات بإمكانهم تطويق الجزيرة والأجهاز على ما بقي فيها من قوة.

إن سقوط الشام ووقوعه تحت الحكم السلجوقي المباشر حدث في غاية الخطورة وذلك لما جلبه معه من تغيرات هائلة في ميادين الحياة السياسية والدينية والاجتماعية، وحتى العرقية، تغيرات تأثر بها

جميع سكان بلاد الشام على مختلف طبقاتهم واختلاف انماطهم في الحياة وتعدد عقائدهم .

وبعد أن انتصر تتش على سليمان بن قتلمش تحرك نحو حلب آملاً بأن يجد بواباتها مفتوحة والناس قد خرجوا من المدينة لاستقباله والترحيب به ، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل ، فعندما وصل تتش حلب وجد الأبواب مغلقة والأسوار محروسة من قبل الحتيتي واحداً ، وعندما استوضح تتش أسباب هذه المعاملة جاءه الجواب بأن ركب السلطان قريب الدنو من حلب ، وأنه بعث يحظر تسليماً لاي إنسان سواه ، ولم يقنع تتش بهذا الجواب ، لذلك أمر قواته بأن تحاصر المدينة حتى تسقط ، وفي ٢٦ ربيع الأول ٤٧٩ هـ / ١١ تموز ١٠٨٦ قام جماعة من تجار حلب وأتباعهم ممن كانوا يكرهون الحتيتي ويناصبونه العداء لما سببه من ضرر لمصالحهم ، قام هؤلاء بفتح إحدى بوابات حلب ، فمكنوا تتش وجيشه من دخولها والاستيلاء عليها .

لقد كان حصار تتش لحلب هذه المرة أقصر حصار حاصرها به ، لكن دخوله إلى المدينة لم يعن أبداً أنه أصبح سيدها فقد كانت هناك قلعة الشريف حيث تمركز الحتيتي والأحداث وذلك بالإضافة إلى القلعة الكبيرة حيث أعلن سالم بن مالك بأنه لن يسلمها إلا للسلطان نفسه ، لأن مسلم بن قريش كان قد أوصاه بذلك ، واستطاع تتش بعد أيام من دخوله حلب تسلم قلعة الشريف ، والقى القبض على الحتيتي ونفاه إلى القدس حيث لم يسمح له بمغادرتها والعودة إلى حلب ، وبعد استسلام قلعة الشريف صرف تتش جهوده كلها لحصار القلعة الكبيرة ودام هذا الحصار قرابة الشهر ، وأثناء ذلك وصلت إلى أطراف حلب طلائع قوات ملك شاه ، لهذا أثر تتش أن لا يصطدم مع أخيه وأن لا يلتقي به بأي حال من الأحوال ، لذلك جمع قواته وانسحب على رأسها عائداً إلى دمشق (٥٦) .

ووصلت إلى حلب فرقة كبيرة من قوات ملك شاه قبل أن يصل السلطان نفسه ، وكان على رأس هذه الفرقة عدد من المتقدمين منهم

برسق ، وإياز ، وبوزان ، وفي يوم الثالث من كانون الأول لسنة ١٠٨٦ م وصل ملك شاه الى مدينة حلب فتسلمها ، وتسلم قلعتها الكبيرة من سالم بن مالك ، ولقد عوضه عنها قلعة جعبر حيث اعطاه اياها كاقطاع ، وبذفس الوقت منح ابن عمته محمد بن مسلم بن قريش الرحبة ، والرقعة ، وحران ، وسروج ، والخابور كاقطاع ايضا وحين صنع السلطان ملك شاه هذا احيا - ولو جزئيا - مملكة مسلم بن قريش (٥٧).

ولقد أمضى السلطان ملك شاه عدة أيام في حلب ، ثم ذهب الى انطاكية فتسلمها ، وبقي فيها بضعة أيام ، وقبل عودته الى حلب عين أجد ضباطه واسمه يغني سيان حاكما على انطاكية ، وفي حلب عيد ملك شاه عيد الفطر لسنة ٤٧٩ هـ (كانون ثاني ١٠٨٧) ثم غادرها متوجها شرقا نحو خراسان . وقبل أن يغادر ملك شاه مدينة حلب جاءته رسالة من نصر بن علي أمير شيزر يعترف فيها بالطاعة للسلطان ويتنازل له عن اللانقية وأفامية وكفر طاب . وخلف ملك شاه وراءه أق سنقر قسيم الدولة واليا على حلب يساعده تركي اسمه نوح في ولاية القلعة ، وترك عند قسيم الدولة حامية مؤلفة من ٥٠٠ رء فارس ، وفي طريقه الى خراسان عين ملك شاه بوزان على مدينة الرها (٥٨) .

لقد كانت حملة ملك شاه هذه ثاني حملة كبيرة يقودها أحد سلاطنة السلاجقة حتى حلب ، ولقد سارت هذه الحملة على نفس الطريق الذي سلكته حملة الب ارسلان من قبل ، انما حققت ما لم تحققة تلك الحملة ، فقد أوصلت الامبراطورية السلجوقية الى ذروتها في الاتساع ، فقد استطاع ملك شاه أخذ الرها وحلب وانطاكية الأمر الذي أخفق أبوه في تحقيقه.

في الحقيقة لقد كانت حملات الب ارسلان ثم حملة ابن جهير وحملة ملك شاه هذه أكثر من حملات عسكرية ، لقد كانت حلقات من حلقات تدفق التركمان على بلاد الشام والجزيرة ، فحملة الب

ارسلان جلبت الى الشام أئسز وتتش وأفشين مع أتباعهم ، وتركت حملة ابن جهير وراءها ارتق وجبق وفتحت الطريق أمامهما وأمام أتباعهما للدخول الى الشام ، ومع حملة ملك شاه الأخيرة أصبحت الشام والى حد ما الجزيرة أجزاء من الامبراطورية السلجوقية الواسعة ، وقد افتتحت هذه الحملة عهدا جديدا في تاريخ الشام والجزيرة هو عهد الحكم السلجوقي المباشر ، وسيكون هذا العهد موضوع فصلنا المقبل.



الفصل الرابع

بلاد الشام والجزيرة تحت الحكم السلجوقي المباشر

حكم آق سنقر في حلب * تتش ومحاولاته لنيل
السلطنة * حكم رضوان بن تتش في حلب، حكم
دقاق بن تتش في دمشق * نهاية حكم أسرة
تتش في الشام *

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله
بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (الرعد ١٣ / ١) *
سنة تسعين وأربعمائة :

في مستهل شهر ربيع الأول منها اجتمع ستة كواكب في برج
الدوت وهي: الشمس والقمر والمشتري، والزهرة والمريخ،
وعطارد، وذكر أهل صناعة النجوم أنهم لم يعرفوا اجتماع هذه
الكواكب في برج في قديم الزمان وحديثه ولا سمعوا ذاك... وفي السنة
كان مبدأ تواصل الأخبار بوصول عساكر الفرنج من بحر
القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة... وفي شعبان ظهر الكوكب
نوالذوابة من الغرب، وأقام طلوعه تقدير عشرين يوماً ثم
غاب (١)

إن ما نملكه من معلومات عن حكم تتش في دمشق قليل ولا يفي

بالغرض، ذلك أن ماجاء من معلومات في مصادرنا المعروفة، وخاصة تاريخ دمشق لابن القلانسي، تتناول العلاقات الخارجية لتتشمع أعماله التوسعية، ولا تتحدث عن طبيعة حكمه في دمشق، ولا عن علاقاته بالدمشقيين ثم هي لا تبين كيف صارت أحوال هذه المدينة في زمنه بعدما حل بها ما حل على يد اتسمز *

هذا ولم تصلنا ترجمة مطولة لتتشمع * فترجمته عند ابن عساكر قصيرة وغير كافية، ثم إن المجلد الذي يحوي حرف التاء من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم يعد في حكم المفقود، يضاف الى هذا أن ما من أحد من المؤرخين - في حدود معرفتي - قام بوقف مؤلف خاص حول حكم تتشمع وأسرته في بلاد الشام *

إن أهم ما في حكم تتشمع هو علاقته بأق سنقر قسيم الدولة الذي خلفه السلطان ملك شاه وراءه واليا على حلب، وفي إطار هذه العلاقة تدخل أعمال تتشمع التوسعية ثم مساعيه لنيل السلطنة * ومن حسن الحظ أن ما وصلنا من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب يحوي ترجمة جيدة لأق سنقر، ومن هذه الترجمة التي نشرت مع ملاحق هذه الدراسة، التي تنشر لأول مرة، ثم مما جاء في مصادرنا من معلومات - وهي كمية لا بأس بها، لأن أق سنقر كان أبا لزنكي مؤسس الدولة الأتابكية وجدا لنور الدين الشهيد بطل الحروب الصليبية الحقيقي - يمكننا أن نكون صورة مفيدة وشبه واقعية عن حكم أق سنقر في حلب وبالتالي عن علاقته بتتشمع *

لقد دام حكم أق سنقر في حلب ما يقارب السبع سنوات ، وكانت فترة الحكم هذه فترة هامة في تاريخ حلب وشمال بلاد الشام لأنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة، ونحن نجد أق سنقر في روايات المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه الفترة واضح الشخصية، بارزا وراء كل حدث، ممدوحا بشكل كبير لا لأنه كان والد زنكي وجد نور الدين محمود بل لأنه «أحسن فيها حلب - السياسة والسير، وأقام الهيبة، وجمع الذعار ، وأفنى قطاع الطرق ومخيفي السبل ، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع،

فاستأصل شأفتهم، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله لتأمين الطرق، وتسلك السبل، فشكر بذلك الفعل وأمنت الطرق والمسالك، وسار الناس في كل وجه بعد امتناعهم لخوفهم من القطار والأشرار وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك، بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم* ورخصت الأسعار في أيامه الرخص الزائد عن الحد، وقرب الحلبيين وأحبهم الحب المفرط، وأحبوه أضعاف ذلك وأقسام الحدود، وأحيا أحكام الإسلام وعمر الأطراف، وأمن السبل، وقتل قطاع الطرق، وطلبهم في كل فج، وشنق منهم خلقا، وكان كلما سمع بقطاع طريق في موضع قصده، وأخذه، وصلبه على أبواب المدينة، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار، وعامل أهل حلب من الجميل بما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر*.

« وفي أيامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين (١٠٨٩ م) واسمه منقوش عليها إلى اليوم، وهو الذي أمر ببناء مشهد قرنبيا، ووقف عليه الوقف، وأمر بتجديد مشهد الدكة » (٢) .

لقد كان آق سنقر أول حاكم سلجوقي لحلب أخذ فعليا مكان أميرها العربي، وفي حين أننا نجد أن نفوذ آق سنقر وسيطرته ينفذان عميقا في كل جانب من جوانب الحياة في شمال بلاد الشام، نجد أن سلفه الأمير العربي كان يعيش في قلعة حلب شبه منعزل عن مباشرة الحكم بنفسه، ولم يكن ليهتم إلا بسلامة حكمه وجمع الضرائب ولذة عيشه، لهذا أثر الأمراء البدو قليلا في الحلبيين، وفي الواقع كانت حلب تدار من قبل رجالات المدينة، فالأمير البدوي يهتم عادة بحماية قبيلته من الخطر الخارجي وليس من شأنه التدخل في الشؤون الفردية والخاصة بأفراد القبيلة، وعلى عكس هذا تماما كان آق سنقر الذي فرض نفسه على كل أمر وتدخل في كل قضية، وصرف اهتمامه إلى شؤون الإمارة من صغيرة وكبيرة، وأشرف بذاته على تنفيذ كل أمر، ولم يتساهل حتى مع الحيوانات في مخالفة

أوامره ، وأخذ بفكرة المسؤولية العامة، كما طبق مبدأ العقوبة الجماعية •

يروى ابن العديم بأن آق سنقر: « كان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل، أو أحد من الناس، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده القوا رحالهم وناموا، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا، فأمّنت الطرق، وتحدث الركبان بحسن سيرته »، ونادى آق سنقر ، في بلد حلب لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده، فخرج يوماً يتصيد فمر على قرية من قرى حلب، فوجد بعض الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر الذير ورفع على دابة ليحمله إلى القرية، فقال له: ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعاً ولا شيئاً من موضعه ؟ فقال له: حفظ الله قسيم الدولة قد أماناً في أيامه، وما نرفع هذه الآلة خوفاً عليها أن تسرق، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي إلى النير فتأكل الجلد الذي عليه، فنحن نحفظه منها ، ونرفعه لذلك •

فعاد قسيم الدولة من الصيد، وأمر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في بلد حلب، فصادوها حتى أفنوها من بلد حلب •

قلت (أي ابن العديم) وهي إلى الآن (القرن السابع هـ / الثاني عشر م) لا يوجد في بلد حلب منها شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد » (٣) •

لقد كان آق سنقر يتصرف في حكمه تصرف حاكم مطلق له مبادئه الخاصة ومفاهيمه الذاتية، ولاغربة في هذا، فهو قد نشأ وتدرّب في البلاط السلجوقي في إيران، وفي هذا البلاط تكونت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة، ولقد كانت تقاليد هذا البلاط « أوتوقراطية » قد نبعت من أصول تركية تأثرت تأثراً شديداً بتقاليد إيران المسلمة، ولقد جاء تطبيق هذه المبادئ في شمالي بلاد الشام لأول مرة، بتجربة جديدة جد خطيرة على أناس اعتادوا منذ قرون عديدة على طرائق البدو العرب في الحكم وعلى مبادئهم في السياسة والإدارة •

ففي اثناء فترات الحكم العربي التي سبقت هذه التجربة الجديدة اعتمد الامير البدوي على رجال عشيرته بشكل رئيسي وتأثر بهم، لذلك كانت دولته دولة بدوية، ولقد بقيت هكذا دونما تغيير لأن فترة الحكم المرداسي مثلها مثل الفترة الحمدانية التي سبقتها كانت متقطعة لم يتح فيها السبيل ، ولم تقم بها الفرصة ، لاحدا ثاي تغيير مؤثر ولقد كان شيوخ العشيرة في الفترة البدوية العربية المرداسية هم الشخصيات البارزة في الدولة، وشغلت هذه الشخصيات ادوارا سياسية هامة في حياة الامارة وطبعوها بطابعهم وعاداتهم ، ولقد فضل شيوخ القبائل مع اتباعهم عدم النظام، وآثروا الفوضى ، وكان لهم اعتباراتهم ومقاييسهم الخاصة فيما يختص بمسألة الاخلاص السياسي، وذلك بأن تأرجحوا بين الفئات المتصارعة، وأحبوا الفتنة وكرهوا الأمن والمركزية والاستقرار والديمومة، ولقد مكن هذا الوضع فئات كثيرة داخلية وخارجية من التجمع وانشاء المنظمات، ثم ممارسة النفوذ والمشاركة في تقرير الأمور ، كما ان هذا قد ترك الباب دائما مفتوحا على مصراعيه أمام أي جماعة أجنبية لها بعض القوة والتنظيم حتى تتغلغل ثم تستلب بعد ذلك الحكم والسيادة لنفسها، كما فعل التركمان ، ولقد مر بنا خبر هذا كله .

رغم ماتميزت به فترة الحكم العربي من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي لقد كانت هذه الفترة خصبة من الناحية الفكرية والحضارية، ففيها عاش المعري ونظم شعره وبشر بفلسفته ومبادئه الخاصة، وفيها وجد ابن سنان الخفاجي وابن أبي حصينة وابن حيوس وغيرهم من الشعراء العظام، ومع الحرية السياسية والفكرية وجدت أيضا الحرية الدينية حيث مارس الناس معتقداتهم دونما ملاحقة أو تنكيل .

ويعتمد كل حكم « أوتوقراطي » على قوات محترفة « أو شبه محترفة »، وهكذا لقد كان حكم آق سنقر وحكم غيره من التركمان في الشام حكما عسكريا ، فأق سنقر كان أحد ضباط جيش السلطان

ملك شاه، ومثله كان يغني سغان صاحب انطاكية وبوزان صاحب الرها، فبعد ما عين السلطان ملك شاه آق سنقر حاكما على حلب ترك عنده قوة عسكرية مؤلفة من ٤٠٠٠ فارس، ثم لما كان حكم آق سنقر قد خلف الحكم البدوي العربي فان الفراغ الذي تركه شيوخ القبيلة قد ملأه ضباط الحامية العسكرية، وهكذا أصبح الضباط الشخصيات المرموقة في البلاد، وبذلك نشأت طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الضباط، ولقد نمت هذه الطبقة، واضطرت قوتها وتطورت بسرعة مذهلة، حتى غدا الضباط رجال الجماعة الذين يملكون القدرة على إحداث التغيير السياسي وحتى غير السياسي ومع ظهور كل ضباط طموح، ظهر شيء جديد، لم يكن في الغالب أقل من أسرة حاكمة جديدة، ويكفي دليلا على هذا ان نتذكر ان زكي مؤسس الدولة الاتابكية ثم صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية كانا ضباطا.

ومن طبائع الحكم « الأوتوقراطي » الاستبداد المقرون بالأنهية والعظمة، وعلى هذا الاساس نجد ان جماعة الأحداث في حلب اخذوا يفقدون قوتهم وسيطرتهم التقليدية مع قيام التوسع السلجوقي وتوطد حكم آق سنقر في شمال بلاد الشام.

ولقد جاء عن المؤرخ الحلبي أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي في حوادث سنة ثمانين وأربع مائة هـ (١٠٨٧ م) قوله: « فيها استقرت الرتبة بحلب للامير قسيم الدولة اق سنقر من قبل السلطان العادل أبي الفتح، وتوطدت له الأمور بها، وأقام الهيبة العظيمة التي لا يقدر عليها احد من السلاطين، وأظهر فيها من العدل والانصاف مع تلك الهيبة ما يطول شرحه وإقامة » الهيبة العظيمة لا يتم بدون قوات مسلحة، والاحتفاظ بالعساكر يكلف الكثير من الأموال، والأموال في العادة تأتي من جيوب المحكومين، وهذا بالتالي يعني ان الحكم السلجوقي الجديد قد جلب معه الى الشام زيادة في الأعباء المالية، وليتصور المرء حالة بلد عانى من التهديم والسلب والنهب سنين طويلة، ثم عندما استقرت فيه الأمور ابتلي

يحكم « أوتوقراطي » عسكري مبتز، وبعد هذا كان عليه والحالة هذه أن يتصدى لغزو خارجي جديد !

جاء عن محمد بن عبد الملك الهمذاني، مؤرخ القرن الثاني عشر ميلادي، في كتابه «عنوان السير في محاسن أهل البدو والحضر» في ثنايا حديثه عن حكم آق سنقر قسيم الدولة في حلب قوله: « واستغلها - يعني مدينة حلب فقط - في كل يوم ألف وخمسمائة دينار » . وفي سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وصل السلطان ملك شاه الى بغداد ، ووصل اليه أخوه تتش وقسيم الدولة آق سنقر وغيرهما من حكام الامبراطورية، وفي بغداد تم اجراء بعض الاحتفالات الكبيرة التي تخللها عرض للعساكر والمواكب، ولقد كان موكب آق سنقر قسيم الدولة من العظمة بمكان بحيث « لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه » (٤) .

من العادة ان يتصنع الحاكم « الاتوقراطي » التقوى ، ويتظاهر بالاهتمام بمصالح « رعيته » ومنافعهم ، ويحرص على ان يبدو مهتما بالأمن ، كارها للظلم ، وان كل حركة من حركاته وسكناته فيها عدل وتقوى وصلاح ونزاهة نابعة من القلب ولها الكثير من الصفات القدسية الربانية، وعلى هذا يبدو كل حاكم « أوتوقراطي » وعليه مظاهر التعقل والاعتدال، ولهذا يحارب كل تطرف، ويقف في وجه كل « النزعات والبدع الجديدة » مهما كان نوعها وهدفها، فالبدعة هرطقة وعليه ان يحارب كل هرطقة، ولقد مر معنا بأن آق سنقر « جدد في أيامه عمارة منارة حلب بالجامع » كما أمر ببناء عدد من المشاهد الجديدة مع ترميم بعض المشاهد القديمة رغم ان هذه القديمة كانت مشاهد شيعية وكان هو سنيا من أهدافه « إقامة الحدود الشرعية » وإعادة حكم السنة، ولكن لما كان غالبية أهل حلب شيعية أثنا عشرية فقد تقرب إليهم بترميم بعض أماكنهم المقدسة ذلك ان مقتضيات السياسة هي فوق كل اعتبار .

وعندما يظهر الحاكم « الاتوقراطي » التدين، فان ذلك يستلزمه تقريب المتدينين منه والاعتماد عليهم، ولقد كان الأمير البدوي

العربي يقرب الناس إليه لابتداعهم ولتفوقهم في فن من الفنون، لا لتقواهم وتدينهم، لذلك كانت حاشية الأمير المرداسي ومن قبله حاشية الأمير الحمداني فيها من الناس كل نموذج مما اعطاها صفة الحياة المتدفقة والشمول والحضارة المبدعة، لكن عندما أخذ الحاكم المطلق يقرب المتدينين إليه اضطر الى إضفاء صفة محددة على الدولة، وهذه الصفة غالباً لم تتعد القزمت والجمود، ثم إن في عملية تقريب فئة في العادة فيه إضرار بالفئات الأخرى، ولقد كان لذلك نتائج غير المحمودة على الحضارة، ثم لم يكن لذلك نتائج حميدة حتى على الدين نفسه لأن العملية تمت حسب أهواء ومقتضيات السياسة، ومهما يكن الحال إن تقريب رجال الدين من الحاكم قد خلق تدريجياً طبقة جديدة في المجتمع، وفي الإسلام، ألا وهي طبقة « الكهنوت » وهذا أمر جديد وخطير في تاريخ الإسلام، لطلما حرص هذا الدين منذ بدايته على تجنّبه، ولكن الذي حدث أن طبقة من رجال الدين المحترفين قد وجدت وتطورت، وأصبح لها مكانتها ونفوذها وسياستها ومصالحها الخاصة، حتى أتى وقت أصبحت هذه الطبقة تضم فيه عدداً من الأسر يرث فيها الولد وظيفة أبيه ومنصبه، مثلما كان الإقطاعي وسلاسل الأسر النبيلة يرث ويورث، وفي غالب الأحيان قامت هذه الطبقة بساخطاء تفسيرات للدين تتماشى ومصالحها ومنافعها، ولقد جمّد هذا الدين، وخلق فراغاً غالباً ما استغل من قبل أصحاب الأهواء، ونادراً من قبل ثوار حقيقيين أرادوا أن يرجعوا للإسلام روحه وحيويته وأهدافه الحقة .



في تاريخ بلاد الشام كان هناك دائماً تنافس، أو بالحري صراع من أجل السيادة بين الشمال والجنوب، ولقد مثلت دمشق - منذ القرن السابع م - الجنوب كما مثلت حلب الشمال في هذا الصراع، ولقد كانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية لكن غالباً ما كانت سياسية حيث حاول حكام دمشق من طرفهم وحكام حلب من الطرف الآخر مد سيطرتهم كلياً

على الشام ،ومما يدهش أن الشام نادرا ما عرف الوحدة السياسية لفترة طويلة ، بل تعود على التمزق والدويلات ، وتبعا لهذه القاعدة « المؤسفة » حدث صراع بين تتش وآق سنقر ، وسنجد تتش ينتصر على آق سنقر ويقتله ، ومن ثم يوحد شمال الشام مع جنوبه ، لكن تتش لن يلبث طويلا حتى يقتل فيرثه في حلب ابنه الأكبر رضوان وفي دمشق ولده الآخر دقاق ، ومن جديد يبدأ الصراع بين دمشق وحلب ، وفي غمرة الصراع هذا تصل الحملة الصليبية الأولى الى الشام .

لقد جهد تتش منذ أن أصبح حاكم دمشق في العمل على مد سلطانه على بلدان الشام ومدينه خاصة الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للخلافة الفاطمية أو تحكم من قبلها مباشرة ، ويروي سبط ابن الجوزي بأن تتش طلب في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من أخيه السلطان ملك شاه أن يمدّه بما يمكنه من طرد الفاطميين من الشام واحتلال بلدان الساحل الشامي واخضاعها للحكم السلجوقي وبأن السلطان استجاب لنداء تتش هذا فأوعز الى قسيم الدولة آق سنقر والي حلب ، والي بوزان صاحب الرها بأن يقدموا الى تتش كل ما كان يحتاجه من مساعدات (٥) .

ويبدو أنه لم تنفذ أوامر السلطان هذه ، فلم يذهب بوزان ولا آق سنقر الى مساعدة تتش ، كما أن تتش لم يقيم بأي عمل عسكري ملحوظ ضد بلدان الساحل ، لكن جيشا فاطميا وصل في سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م الى الساحل الشامي وتمكن من أخذ صيدا وصور وجبيل وعكا ، ثم قام بحصار بعلبك ، وأثناء الحصار هذا وصل الى المعسكر الفاطمي خلف بن ملاعب صاحب حمص وأفامية حيث قابل قائد القوات الفاطمية واعترف له رسميا بسلطان الخليفة الفاطمي وسيادته عليه ، ولقد استولت الحملة الفاطمية أثناء وجودها في الشام على بعض أراضي تتش (٦) ونتيجة لهذا كرر تتش ندائه لطلب المساعدة ، وهنا أمر السلطان ولاته في الشام بالتحرك لمساعدة تتش ، وأن يتحدثوا معه للقيام بعمل تاديبى ضد خلف بن ملاعب

صاحب حمص، ولكي يقوموا بمحاولة للاستيلاء على جميع املاك الفاطميين في الشام *

ويبدو ان السلطان ملك شاه قد عهد الى تتش بقيادة القوات المتجمعة، كما يبدو ان آق سنقر وبوران قد قبلا بذلك مكرهين، فهما لم يرغبتا بقيادة تتش لأسباب شخصية، ذلك ان كل ماكان سيربح كان سيكون مثله الى تتش، وعدم رغبتهما هذه سببت نجاحا جزئيا لخطط تتش، ولقد كانت اسباب القيام بالعمل التاديبي ضد خلف بن ملاعب ليس فقط لاعترافه بالخليفة الفاطمي كسيد له وإنما بسبب سلوكه العام والشكاوى التي رفعها اهل الشام الى السلطان ضده، ذلك انه كان " جبارا ظالما، يقطع الطريق، ويخيف السبيل " *

في سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م اجتمعت قوات بوزان، وآق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وتتش على حمص، وسبقهم بوزان، فلم يمكن خلف بن ملاعب من الخروج من حمص. فاقترحوا حمص وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد الى السلطان ملك شاه ولقد طلب كل واحد من الامراء حمص لنفسه. فكتبوا جميعا الى السلطان ، فانعم بها على اخيه تاج الدولة *

ليس من الواضح مما جاء في روايات المؤرخين ما هي كانت الخطوة الثانية التي قام بها تتش وبقية الحكام، فلقد جاء في هذه الروايات بان مدينة طرابلس قد حوصرت من قبل الامراء الاربعة في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، وان افامية قد تم الاستيلاء عليها في العام نفسه من قبل آق سنقر قسيم الدولة ، ونحن لانعرف فيما اذا كانت القوات السلجوقية قد تابعت سيرها نحو طرابلس بعد ان استولت على حمص ام ان كل قائد من القادة الاربعة عاد الى ولايته ثم اتحد في العام التالي مع الباقيين للزحف ضد طرابلس ومهما كان الحال فانه من المرجح انهم زحفوا على طرابلس مباشرة بعد الاستيلاء على حمص.

يبدو ان منح حمص لتتش قد اغضب آق سنقر، لذلك عندما ذهب

مع تتش للاستيلاء على طرابلس كان في قرارة نفسه يعمل للابقاء على طرابلس مستقلة ولنع تتش من الاستيلاء عليها ومن ثم ضمها الى املاكه، وفي طرابلس لقد كان ابن عمار قاضي المدينة وحاكمها قد اعد عدته للدفاع عن طرابلس، وأول ما قام به هو أنه اختج ضد الحصار وأبرز وثائق موقعة من قبل السلطان ملك شاه فيها يعترف له بسلطانه على طرابلس، ويبدو أنه كان على بيذة بما كان بين تتش واق سنقر من التحاسد والتباغض، لذلك اتصل سرا بأق سنقر قسيم الدولة وعرض عليه مبلغ ٣٠٠٠٠ دينار إن هو ساعده في وقف حصار طرابلس، وهذا أخبر آق سنقر تتش بأن الوثائق التي أبرزها ابن عمار هي صحيحة وأنهم على هذا بحصارهم لطرابلس يخالفون أوامر السلطان ملك شاه.

ووقع جدال بين تتش وآق سنقر قسيم الدولة تطور الى خصام، قام على إثره آق سنقر بسحب قواته والتوجه بها نحو حلب، وتخلي بوران أيضا عن تتش وانسحب مع قواته، وهنا وجد تتش نفسه لا يملك القدرة على متابعة حصاره لطرابلس لذلك جمع هو أيضا قواته وعاد خائبا الى دمشق (٧).

وعلى طريقه الى حلب، قام آق سنقر قسيم الدولة - كما يبدو - بالاستيلاء على أفامية التي كانت جزءا من املاك خلف بن ملاعب، وبعد أن استولى عليها لم يحتفظ بها لنفسه بل سلمها الى نصر بن علي الأمير المنقذي لشيرز، وهذا يوحي بأن العلاقات بين آق سنقر قسيم الدولة واسرة آل منقذ كانت طيبة، وفي الواقع لم تكن العلاقات دائما طيبة بينهما ففي سنة ١٠٨٨ م سبق لآق سنقر أن قام بحملة ضد شيرز وحاصرها محاولا الاستيلاء عليها (٨)، وعلى كل حال يبدو أن منح آق سنقر قسيم الدولة أفامية للحاكم المنقذي لم يكن بدافع حب وطيب علاقات معه بل بسبب سوء علاقاته مع تتش، ففي استيلائه على أفامية كان يحرم تتش من أخذها وهكذا يبعده عن حدود حلب، ولكن لما كان يقدر أنه لن يستطيع الاحتفاظ بها، لذلك منحها للحاكم المنقذي، وبذلك أبقى تتش محروما منها وبالوقت نفسه زاد في قوة الامارة المنقذية التي وقعت بين أراضي تتش

وأراضي حلب وكانت بإمكانها أن تقوم بدور حاجز بين شمالي بلاد الشام وبين جنوبه ذلك إن لم يقف حكامها إلى جانب آق سنقر في الصراع الذي لابد أنه واقع بينه وبين تتش.

في هذه الأثناء قام السلطان ملك شاه باستدعاء جميع ولاته في بلاد الشام والجزيرة إليه، ففي ٢٨ رمضان ٤٨٤ هـ / ١٣ تشرين ثاني ١٠٩١ م كان ملك شاه قد وصل إلى بغداد حيث بقي فيها عدة أشهر يحتفل ويستعرض قواته ويستقبل ولاته ويبحث معهم مشاكل مناطقهم وقضاياها، وفي بلاط ملك شاه تلاقى تتش مع قسيم الدولة في حضرة السلطان، وقام تتش برفع شكواه ضد آق سنقر وقال: « كان من الأمر كذا وكذا، فقال له قسيم الدولة: تكذب، فقال السلطان: تقول لأخي كذا! قال: نعم، يطلع الله في غيبه ما يريد لك، ويطلع في عيني ما يريد لك »، وقنع السلطان بحجج آق سنقر وحكم له على أخيه تتش.

لقد روى هذا كل من المؤرخين علي بن مرشد بن منقذ، وابن الأثير، وسبط ابن الجوزي، لكن سبط ابن الجوزي قام بعد أن روى هذا الخبر بالتعليق عليه بقوله: « وهذا بعيد، فإن السلطان وصل حلب ولم يلتقيه تتش لأنه كان مستوحشا منه »، ولقد روى كل من العماد الأصفهاني وابن أصل الحموي خبر وصول السلطان ملك شاه إلى بغداد مع احتفالاته ومجيء آق سنقر وبوزان إليه لكن لم يذكر اسم تتش بين من جاء إلى بغداد، ولم يتعرض العماد لمسألة الخلاف بين تتش وآق سنقر، لكنه وابن أصل مثلهما مثل بقية المؤرخين ذكرا بأن السلطان ملك شاه قد عهد إلى أخيه تتش بالعمل على الاستيلاء على أملاك الخلافة الفاطمية في الشام. ومن أجل هذا « أمر مملوكيه بزان صاحب الرها وآق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض ويساعدها على أداء هذا المفترض »، ولقد مر معنا خبر احتلال حمص وكيف أن السلطان ملك شاه قد « أنعم بها على أخيه تاج الدولة ».

إن في تعيين تتش قائدا للقوات السلجوقية المهاجمة لحمص

ومنحه بعد هذا حكم هذه المدينة إشارة توحى بأن تتشركان قد توصل ، بعد تركه لحلب وتجنبه الالتقاء بأخيه، إلى التصالح مع السلطان ملك شاه، وإذا كان هذا قد وقع فعلا وتم حدوثه فليس هناك سبب يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن تتش قد سافر فعلا إلى بغداد، وعرض قضية خلافه مع آق سنقر على أخيه السلطان، وخسر هذه القضية نتيجة لاتهام آق سنقر له بالكذب، ثم لفضحه نواياه السيئة وخططه تجاه السلطان.

وعندما أراد تتش العودة إلى دمشق أجبر على ترك أحد أولاده رهينة عند السلطان، ولقد ملأ هذا قلب تتش حقدًا على آق سنقر، لذلك سجنه في سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م يقوم بقتل آق سنقر بيديه صبرا، وسنأتي على بحث هذا بالتفصيل، والمهم أن نذكر هنا أن آق سنقر قد ترك بغداد أيضا وعاد إلى حلب لكن بمكانة أعلى ومركز أقوى وأثبت (٩).

لم تكن قضية الصراع بين تتش وآق سنقر هي القضية الوحيدة التي عاشها البلاط السلجوقي للسلطان ملك شاه أثناء وجوده في بغداد ثم بعد تحركه منها، لقد كان سيد الامبراطورية السلجوقية الفعلي زمن ملك شاه وزيره نظام الملك، وكان ملك شاه يريد الخلاص من نظام الملك للانفراد بالسلطة لوحده ، كما أراد ملك شاه في ذات الوقت إخراج الخليفة العباسي من بغداد إلى مكة أو المدينة ، وتآمرت أطراف التنازع هذه ضد بعضها بعضا، وسقط الوزير نظام الملك أولا ، ثم لحقه بعد فترة وجيزة مسموما السلطان ملك شاه في ٦ شوال ٤٨٥ هـ / ٢٩ تشرين الثاني ١٠٩٢ م، وأخيرا لم تطل أيام الخليفة المقتدي بعد ملك شاه حيث توفي هو الآخر في سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ « فجأة وعمره ثمان وثلاثون سنة وتسعة أشهر ».

عندما مات ملك شاه كان عمره « ثمان وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرون يوما » وقد خلف عددا من الأولاد ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه اعتلاء عرش السلطنة الشاغر، وقام صراع

بين السلاجقة من أجل خلافة ملك شاه واحتضنت كل فئة وحزب أحد الصبية وجهدت - باسمه - من أجل السيطرة على الامبراطورية (١٠) .

ولقد اتخذ آق سنقر قسيم الدولة وبوزان صاحب الرها وحران لنفسيهما موقفا موحدا ، وتارجحا بين الفئات السلجوقية المتصارعة حتى واجها الموت نتيجة لحادث واحد، ويروي ابن العديم أن آق سنقر - وطبعا معه بوزان - قد اعترف أولا بسلطنة محمود الابن الأصغر لملك شاه (١١) لكنه لم يلبث أن بدل اعترافه وتحول بولائه .

عندما أخبر تتش بوفاة أخيه السلطان ملك شاه أعلن نفسه خليفة له وسلطانا للامبراطورية السلجوقية ، وحتى ينال السلطنة فعلا ويعترف به الجميع ، ولكي يمتن مركزه قام تتش بتجنيد جيش كبير.

وفي حلب لاحظ آق سنقر قسيم الدولة مدى خطورة تحركات تتش هذه، وفي الوقت نفسه علم بأن أولاد ملك شاه يحاربون بعضهم بعضا من أجل خلافة أبيهم وليس هناك مايشير بشكل قاطع الى رجحان كفة فئة على أخرى، وفي هذه الظروف ومن زاوية ادراكه انه لايملك القوة الكافية لمقاومة تتش او التصدي له قام آق سنقر مكرها بالاعتراف بتتش وأعلن عن استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه، وفي سنة ١٠٩٣ م - ربما في شباط - مر تتش بأراضي حلب متوجها شرقا يريد خراسان، وفي الطريق التحق به آق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وبوزان ، وأثناء تحركهم هذا استولوا على الرحية ونصيبين وأكثر مناطق الجزيرة، وقرب الموصل خاضوا معركة كبرى اتوا بها نهائيا على قوة عقيل ثم على الدولة المروانية .

عقب وفاة مسلم بن قريش العقيلي « استولى على الموصل ابراهيم بن قريش أخو مسلم » ، وفي سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م استدعى السلطان ملك شاه ابراهيم إليه « ليحاسبه، فلما حضر عنده اعتقله، وأنفذ فخر الدولة ابن جهير الى البلاد فملك الموصل وغيرها » . وبقي ابراهيم مع السلطان ملك شاه ، وسار معه الى

سمرقند، وعاد الى بغداد، فلما مات ملك شاه اطلقتته تركان خاتون
إحدى أرامل ملك شاه من الاعتقال ، ففسار الى الموصل *

وأثناء حياته كان ملك شاه قد أقطع عمته صفية مدينة بلد، وكانت
صفية هذه زوجة شرف الدولة مسلم بن قريش ولها منه ابنه علي،
وكانت قد تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه ابراهيم ، فلما مات ملك
شاه قصدت الموصل ومعها ابنها علي واستطاعت أخذ الموصل، وهنا
وصل إليها زوجها ابراهيم « فسلمت البلد إليه فأقام به فلما ملك
تتش نصيبين أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة، فامتنع
ابراهيم من ذلك ، ففسار تش إلى « ، فلما عرف ابراهيم « خبره
جمع وحشد واستصرخ واستنجد « ثم تقدم نحو تش « في ثلاثين
ألفاً، وكان تش في عشرة آلاف ، وكان أق سنقر على ميمنته وبوزان
على ميسرته « ، والتقى الجيشان في مكان يعرف بالمضيع على نهر
الهرماس نهر مدينة نصيبين « واختلط الفريقان واشتد القتال ،
وانكشفت المعركة عن قتل جماعة من الأتراك والعرب، وعاد كل فريق
منهما الى مكانه ، فلما استقر بالعرب المنزل، عاد عسكر تاج الدولة
إليهم وهم غارون، وحمل عليهم وهم غافلون، فانهزمت العرب
وأخذهم السيف، فقتل منهم العدد الكثير، والأكثر من الرجالة
المقيمين في المخيم، وقتل الأمير ابراهيم بن قريش وجماعة من
الأمراء والمقدمين من بني عقيل وغيرهم، وقيل أن تقدير القتلى من
الفريقين عشرة آلاف رجل، واستولى النهب والسلب والسبي على
من وجد في المخيم ، وامتألت الأيدي من الغنائم، والسواد والمواشي
والكراع بحيث بيع الجمل بدينار واحد، والمائة شاة بدينار واحد *

ولم يشاهد أبشع من هذه الواقعة ، ولا أشنع منها في هذا
الزمان ، وقتل بعض نسوان العرب أنفسهن أشفاقاً من الهزيمة
والسبي ، ولما عادوا بالأسرى والسبي وحصلوا بشماطىء الفرات
لقى جماعة من الأسرى أنفسهم في الفرات فهلكوا « *

لقد حدثت هذه المعركة سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، وكان ضمن
قوات ابراهيم بن قريش بعض القوات الكردية ، فلقد قتل مع

ابراهيم حسين بن نصر الدولة بن مروان ، لذلك ارتأى تتش أن يتابع احتلال جميع مناطق الجزيرة وأن يقوم بتصفية الدولة المروانية قبل أن ينحدر شرقا ، وعلى هذا تحرك نحو « أمد وملكها ، وأقام أياما قلائل ، وسار إلى أن وصل إلى ميفارقين » فتسلمها هي الأخرى بالأمان وبذلك أتى على الدولة المروانية وانهاها من الوجود .

إن الانتصارات التي حققها تتش قد حسنت من وضعه وقوت مركزه ، لذلك كتب إلى الخليفة في بغداد يطلب منه أن يأمر بأن يخطب له بالسلطنة على مناه . بغداد وبلدان الخلافة العباسية ، ويتوعد إن لم يستجب لطلبه ، فلم يعبأ الخليفة بتهديداته ولم يعر طلبه اهتماما كبيرا بل كتب إليه « إنما تصلح للخطبة إذا حصلت الدنيا بحكمك والخزائن التي بأصبعها ، وتكون صاحب المشرق وخراسان ، ولم يبق من أولاد أخيك من يخالفك ، أما في هذه الحال فلا سبيل إلى ما التمسته ، فلا تعد حد العبيد ، وليكن خطابك ضراعة لا تحكما ، وسؤالا لا تجبرا ، وإن أبيت قاتلناك ودينناك ، وأتاك من الله ما لا قبل لك فيه » .

وامام هذا الموقف قرر تتش التوجه مباشرة إلى خراسان وعدم الذهاب إلى بغداد ، وفي خراسان كانت ملامح الصراع بين أبناء ملك شاه قد توضحت بأن رجحت الكفة لصالح بركياروق الابن الكبير ، وعندما وصل تتش إلى مدينة تبريز فصل عنه قسيم الدولة صاحب حلب ، وعماد الدولة بوزان صاحب الرها مغاضبين ، وقصدا ناحية السلطان بركياروق بن ملك شاه ، مخالفين له ، وعاصيين عليه ، والتحقا ببركياروق عند مدينة الري - قرب مدينة طهران الحالية - وقدا له المساعدات ، فقوي مركزه بهما ، وكانت فلول قبيلة عقيل قد التحقت أيضا بمعسكر بركيا روق .

وضعت بهذا صفوف تتش واضطر أمام الحال الجديد أن لا يتابع سيره نحو الري للقتال ضد بركياروق بل عاد ادراجه نحو ديار بكر ، وحرص أن سنقر قسيم الدولة وبوزان بركياروق ضد تتش وحذراه

من أن يهمل أمره ، وطلبا منه أن يعاجله» قبل إعضال خطبه وتمكنه من الغلبة على السلطنة ، والاستيلاء على أعمال المملكة، وأشارا عليه بالسير في هذا الوقت «وطلبا منه أن يسير معهما، وفعلا صحبهما الى مدينة الرحبة ، ويبدو أن تتش قد كان في الرحبة عندما توجهوا نحوها، لكنه عندما علم بزحفهم إليها تركها وتوجه صاعدا على طرف الفرات قاصدا بلد انطاكية، وتوقف بركياروق في الرحبة، وفيها قام بعقد تحالف بين آق سنقر قسيم الدولة وبوزان من جهة وبين علي بن مسلم بن قريش العقيلي من جهة أخرى، وكان علي هذا قد خلف عمه ابراهيم بن قريش في زعامة قبيلة - أو بالحري ما بقي من قبيلة - عقيل * وتوجه بوزان الى الرها ، وسار قسيم الدولة الى حلب وبرفقته بعضا من عساكر بركياروق ومن افراد قبيلة عقيل وغيرها من القبائل، ولقد وصل آق سنقر الى حلب في تشرين الثاني من العام نفسه - ١٠٩٣ م - (١٢) .

وانتهى خبر وصول آق سنقر الى حلب الى تتش، وورد عليه نبا « بانكفاء السلطان - بركياروق - من الرحبة الى بغداد، وأن عزمه أن يشتو بها، وأقام تاج الدولة بانطاكية مدة، فقلت الاقوات وارتفعت الأسعار وخطب في العودة الى الشام فلم يفعل، وعاد الى دمشق آخر ذي الحجة من السنة (٤٨٦ هـ / أو آخر كانون ثاني ١٠٩٤ م) وفي جملة الأمير وثاب بن محمود بن صالح، وبنو كامل، وجماعة من العرب لم يجسروا على الإقامة بالشام خوفا من قسيم الدولة » ، وفي دمشق أخذ تتش يعمل من جديد على تقوية جيشه بتجنيد قوات جديدة، وعلى إعداد مايلزم من العدة كي ينال السلطنة، وفي حلب قام آق سنقر بدوره بالاعداد للتصدي لتتش ومنعه من مغادرة بلاد الشام إن لم يكن لانتزاع دمشق منه، وكاتب آق سنقر السلطان بركياروق وطلب منه المساعدة، كما استنجد بمن جاوره من حكام السلاجقة في مدن الجزيرة « فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل، وبزان صاحب الرها، ويوسف بن أبوق صاحب الرحبة في الفي فارس وخمسائة فارس» *

وقام آق سنقر أيضا بتجنيد قوات اضافية من قبيلة كلاب، وجدير بالملاحظة أن معظم قوات تُدش التي جندها هو أيضا في جيشه كانت من بين القبائل البدوية العربية ومن جملة ذلك قبيلة كلاب التي يبدو أن أفراد الأسرة المرداسية كانوا قد فقدوا قسما كبيرا من سلطانهم عليها بعد سقوط أسرته في حلب ، ففي أيام آق سنقر التي نحن بصدد الحديث عنها كان أبرز أمراء قبيلة كلاب هو شبل بن جامع وكانت له السيادة على الجزء الأكبر من القبيلة ولقد قطن هذا الجزء في المنطقة الجنوبية الغربية لحلب، أما ما تبقى من القبيلة فقد كان تحت إمرة الأمير المرداسي وثاب بن محمود الذي كان على علاقات طيبة مع تدش، لذا انخرط وأتباعه تحت لوائه .

ولم تكن العلاقات بشكل عام جيدة بين آق سنقر وقبيلة كلاب، لكنه -أي آق سنقر- كان مجبرا على تجنيد الكلابيين في جيشه، لأن ما كان لديه من القوات التركية، لم يكن كافيا، ثم إن مساجاه من مساعدات، ونجدات، كان دون الحاجة، ويبدو أن قبيلة كلاب كانت المصدر الأفضل، إن لم يكن الفريد، في شمالي بلاد الشام للتجنيد، ولقد كان آق سنقر على بينة ومعرفة تامة بميول الكلابيين ومشاعرهم غير الودية تجاهه وكان لهذا دائما يشك بهم، ويرتاب بتصرفاتهم، وإخلاصهم له .

« وفي شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وأربعمائة (آذار - نيسان ١٠٩٤ م) خرج تاج الدولة تدش من دمشق ومعه خلق عظيم من العرب، ولقي يغي سخان بعسكر انطاكية بالقرب من حماه، وأقاموا هناك أياما، وزوج ولده رضوان من ابنة يغي سخان وسيره عائدا الى دمشق، وسار تاج الدولة بعساكره «، فتهيا آق سنقر للقائه، والخروج إليه، واستدعى منجما ليأخذ له الطالع ، فحضر عنده واختار له وقتا، وقال: تخرج الساعة، فركب ومعه النجدة التي وصلته، وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل، وكان اطلقهما من الاعتقال، ومحمد بن زائدة، وجماعة من أحداث حلب، والديلم والخراسانية، في أحسن زلي،

واكمل عدة، وقيل إنه قدر عسكره بعشرين ألف فارس، وقيل كان يزيد عن ستة الاف ، وقصد تاج الدولة يوم السبت التاسع من جمادى الأولى من السنة (٤٧٨ هـ / ٢٦ مايس ١٠٩٤ م) *

وقطع آق سنقر سواقي نهر سبعين (على بعد ستة فراسخ من حلب) قاصدا عسكر تتش (وكانت عساكر كربوقا وبوزان لم تتمكن من قطع بعض السواقي) فاقاموا على حالهم، وكان أول من برز للحرب آق سنقر، فالتقى الفريقان *

ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من البداية العرب، فنقلهم من الميمنة الى اليسرة في وقت المصاف، ثم نقلهم الى القلب، فلم يغنوا شيئا، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت، وانهزمت البداية العرب وعسكر كربوقا وبوزان، وكربوقا وبوزان معهم الى حلب، ووقع فيهم القتل ، وثبت قسيم الدولة ، فأسر واكثر أصحابه *

وحمل الى تاج الدولة تتش فلما مثل بين يديه قال له: « لو ظفرت بي ما كنت صانعا في ؟ قال : اقتلك، قال : فاني احكم عليك بحكمك في »، وقام تاج الدولة إليه « فضرب رقبتيه بيده، وقطع راسه »، وأصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه رأس الأمير قسيم الدولة «، وكان كربوقا وبوزان قد عولا على الاعتصام بحلب وانتظار وصول نجدة من السلطان بركياروق » لأن كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل، وقررا مع الاحداث ذلك «، ووصل تتش الى حلب والأمور لم تقرر بعد بشكل نهائي، وسببت سرعة وصول تتش الى اسوار حلب ارتباكاً بين صفوف اهاليها واحداثها وتركمانها، وفي ساعة الحيرة هذه وثب قوم من الأحداث ممن لا يعرف ولا يذكر ففتحوا باب أنطاكية ونادوا بشعار تاج الدولة، فدخل وثاب بن محمود بن صالح « في مقدمة اصحاب تاج الدولة الى حلب، وسكن البلد، فنزل الوالي بقلعة الشريف وسلمها الى تاج الدولة، فدخلها وبات فيها، فراسله نوح والي القلعة الكبيرة وسلمها إليه بعد أن توثق منه، وطلع تاج الدولة إليها في الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة *

وقبض تاج الدولة على بوزان فضرب رقبتة صبرا، وأخذ كربوقا وأعدقله بدمض، وأقطع الشام لعسكره، وأقطع معرة النعمان واللاذقية ليغي سغان * »

« ورحل السلطان تاج الدولة عن حلب في العسكر الى ناحية الفرات، وقطعه وقصد حران فاستعادها، وكذلك سروج والرها، وقصد ديار بكر، وعدل عن طريق السلطان بركياروق لأنه كان نازلا بأرض الموصل طالبا لخاتون زوج السلطان ملك شاه والد أخيه محمود، وكانت مستولية على أصفهان وجميع الأموال، لمكاتبات ومراسلات ترددت بينهما في معنى الوصلة بينها وبينه - أي تتش - واستقر الملك له ولها، وكانت قد منعت السلطان بركياروق التصرف في تلك الأعمال والتقود فيها * »

وفي هذا الوقت حدثت زلازل في يوم وليلة دفعات لم يسمع بمثلها في كل زلزلة منها تقيم وتطول بخلاف ماجرت بمثله العادة * ورحل تاج الدولة عقيب ذلك، ولم يتمكن من الالتزام على سمته، وعرفت خاتون الخبر فخرجت من أصفهان في عساكرها للقاء تاج الدولة، فعرض لها في طريقها مرض حاد، فتوفيت، وتفرق عساكرها الى جهة السلطان بركياروق والى غيره * »

وحين عرف بركياروق ذاك سار في الحال الى أصفهان فدخلها وملكها، ووصل من عسكر خاتون الى تاج الدولة خلق كثير، وكذلك من عسكر بركياروق، فتضاعفت عدته، وقويت شوكته، ودعي له على منابر بغداد، ووصل الى همدان، وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه فيمن بقي من الأجناد في الشام، فسار الى حلب، ومن حلب الى العراق، ومعه الأمير نجم الدين أيل غازي بن ارتق، والأمير وثاب بن محمود بن صالح وجماعة من أمراء العرب، وأتراك حلب القسيمية (نسبة الى قسيم الدولة آق سنقر)، وتوجه صوب بغداد على الرحبة * »

وبعث تتش يوسف بن أبق على رأس قوة نحو مدينة بغداد للاستيلاء عليها، أما هو فتوجه نحو أصفهان، وفي أصفهان كان

السلطان بركياروق مريضاً بعد إصابته بالجذري، لذلك سار تتش نحو الري، وراسل أمراء التركمان الذين كانوا في أصبهان يدعوهـم إلى طاعته ويبدل لهم البذول الكثيرة» فأجابوه يعدونه بالانحياز إليه وهم ينتظرون ما يكون من بركياروق، فلما عوفي أرسلوا إلى تتش ليس بيننا غير السيف، وساروا مع بركياروق من أصبهان « نحو الري، وقبل أن يصلوها» أقبلت إليهم العساكر من كل مكان حتى صاروا في ثلاثين ألفاً، فالتقوا مع جيش تتش - بموضع قريب من الري، فانهزم عسكر تتش، وثبت هو فقتل، قتله - غيلة - بعض أصحاب آق سنقر صاحب حلب - أو بوزان صاحب الرها - أخذاً بثأر صاحبه (١٣) .

وكان هذا في شهر صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (شباط ١٠٩٥ م) .

إن مقتل كل من آق سنقر قسيم الدولة، وبوزان، ثم تتش قد ختم مرحلة من مراحل تاريخ بلاد الشام والجزيرة تحت الحكم السلجوقي، وفي الواقع إنه قد ختم حقبة متميزة من تاريخ الشام والجزيرة وأبتدأ حقبة متميزة جديدة هي حقبة بداية الحروب الصليبية ونشاط الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي أسسها حسن الصباح (١٤) ولقد كان تتش وبوزان وآق سنقر ورجال طبقتهم تركماناً قاموا بالحقاق بلاد الشام والجزيرة بالامبراطورية السلجوقية ولقد كانت مواطن ولادتهم خارج الشام والجزيرة وجاءوا هم غزاة إلى الشام والجزيرة مواكبين للهجرة التركمانية الكبرى .

وبموتهم انتهت طبقتهم ومعها ختمت المرحلة التي عاشوها ، وبدأت بعدها مرحلة جديدة،حكام الشام والجزيرة فيها من السلاجقة ، لكن كلهم ولد في إحدى مدن أو بلدان الشام والجزيرة وفيها نشأ ، وفي الوقت الذي تبدأ به مرحلة الحكام السلاجقة « الشاميين والجزريين » هذه تعرضت الشام لهجرة بشرية وغزو جديدين ، المهاجرون الغزاة الجدد كانوا مثلهم مثل التركمان من أصول غير شرعية عربية ،إنما وإن اختلفوا عن التركمان في المعتقد والوطن

الأم فقد وجدت أوجه تشابه كثيرة تجمعهم بالتركمان ، يقول المؤلف المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى وكتب عنها: « لقد كان حقا ما قيل من أنه لايجوز لأحد ما أن يسمى بالفارس إن كان من غير الفرنجة أو الترك (١٥) .

ولن يتمكن - كما سنرى - السلاجقة « الشاميين الجزريين » من صد الصليبيين ، وسيمر وقت تزول به « بالموت » طبقة الحكام السلاجقة هذه ويخلق جيل جديد من الحكام السلاجقة والناس فيه حقنت روح جديدة، وبذفس الوقت تزول أيضا طبقة قادة الحملة الصليبية الأولى ويجيء إلى الوجود جيل من الصليبيين « الشاميين الجزريين » له صفات وملامح فيها الكثير من الجدة ، وهنا يتمكن الجيل المسلم الجديد البدء بكسب الجولة ، وتأخذ حركة التحرير والاسترداد الإسلامية صفة الفعالية والتأثير .

ستكون هذه المراحل مما سيدرس في مجلد يلي هذا ، وسأكتفي هنا بدراسة فترة حكم كل من رضوان بن تتش وأخيه دقاق في الشام ، لأن حكمهما يشكل جسرا بين فترة ما قبل الحروب الصليبية والمراحل الأولى لهذه الحروب !

بعد أن استولى تتش على مدينة حلب عقب قتله لأق سنقر قسيم الدولة ، وقبل أن يغادر هذه المدينة متوجها شرقا حيث لقي حتفه ، قام باسناد أمور السلطة في حلب إلى أبي القاسم بن بديع وكان من أهالي مدينة حلب ، وقد أسند تتش إليه منصب وزارة حلب ، وكان حكم مدينة حلب بنفسها بيد رئيسها بركات بن فارس الذي عرف باسم المجن الفرعي ، وكان المجن الفوعي هذا هو مقدم أحداث حلب وصاحب الكلمة الأولى فيهم .

وكان تتش قبل أن يصل إلى حلب ويفتحها قد أعاد ولده الأكبر رضوان إلى دمشق ، وإلى رضوان أوصى بالأمور من بعده إن أصابه مكروه ، وكان رضوان آنذا صبيا في الثالثة عشر من عمره ، ذلك أنه ولد في دمشق سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، وفيها نشأ في حجر أبيه ، وكان أبوه قد زوج أمه إلى إحدى شخصيات تركمانه الكبار ،

وكان اسم هذه الشخصية حسين وعرف عادة باسم جناح الدولة ،
وأحيانا باسم باقي الدولة •

كان جناح الدولة أتابكا لرضوان بن تتش ، وكلمة أتابك تعني في الأصل الأمير الأب ، فهي كلمة مركبة من « اتا » ومعناها أب أو عم ، و« بك » وتعادل أمير أو مقدم أو سوى ذلك ممن الفاظ الزعامة ، فلقد كان من عادة السلاجقة كتركمان أن يطلقوا بعض زوجاتهم عقب انجاب أحدهن لغلالم ، وكانوا ينعمون بالمطلقة « كزوجة » على إحدى شخصيات دولتهم من التركمان ، والطلاق كان يحصل لأسباب دينية وسياسية ، دينية عدم سماح الشرع بالجمع بين أكثر من أربع زوجات حرائر ، وسياسية حيث كان الحاكم السلجوقي يجد نفسه راغبا أو مرغما على الزواج بأكثر من أربع فتيات إما للشهوة أو للمكانة السياسية والاجتماعية للفتاة أو للامرين معا ، وحين كان يتم تطليق إحدى الزوجات ومن ثم تزويجها كان الأمير السلجوقي يحقق بعض الغايات السياسية أيضا فهو يربط المنعم عليه « بالمطلقة » بالأسرة الحاكمة ثم هو يؤمن بنفس الوقت مربيا جيدا لولده مع حزب وقوة تحميه ، ومع مرور الأيام ، وتقلب الدول ، تطور منصب « أتابك » وتمتع بصصفات ومزايا أخرى غير التي ذكرت كما أدخل عليه الكثير من المزايا الجديدة ، ليس هنا المجال للحديث عنها بشكل مفصل .

لقد كانت مدينة حمص هي أقطاع جناح الدولة حسين ، ويبدو أن تتش كان قد أسند إليه أمور الاشراف على أعمال حلب ، وليس من المؤكد فيما اذا كان جناح الدولة قد كان برفقة تتش في خراسان عند مقتله أم أنه كان في مدينة حلب ، ومن الأرجح أنه كان في مدينة حلب ولم يكن برفقة تتش.

وعندما كان تتش في خراسان متوجها لحرب ابن أخيه بركياروق ، أرسل عند وصوله الى همذان كتابا الى ابنه رضوان « يستدعيه اليه من دمشق وأمره أن يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتثل أمر أبيه وخرج من دمشق بالعسكر متوجها الى

أبيه، ووصل الى عانة ،وقيل الى الأنبار، فبلغه قتل ابيه تتش ،
فحط خيمه وسار مجدا عائدا، فوصل الى حلب وتسلمها من وزير
أبيه ابي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة
(١٠٩٥ م) وتولى حسين زوج أمه تدبير ملكه » .

وأخذت فلول قوات وعساكر تتش ومؤيديه تتوارد الى حلب ،
وهنا أراد كل واحد من رجالات دولة تتش وحلفائه - وخاصة يغبي
سغان صاحب أنطاكية ويوسف بن أبق وبعض أولاد ارتق - أن
يتفرد بالتحكم برضوان وبالتالي السيطرة على ميراث تتش في الشام
والجزيرة ، ولقد ابتغوا جميعا إعادة بلدان الجزيرة مع دمشق الى
الحظيرة .

ولقد كان من بين فلول جيش تتش التي فاءت الى حلب دقاق
الابن الثاني لتتش ، وخاف دقاق على نفسه من أخيه رضوان ،
وكان نائب القلعة في دمشق يدعى مساوتكين ، وأراد مساوتكين أن
يحتفظ بسلطانه واستقلاله في دمشق ، لكنه كان يحتاج الى أصدقاء
نوع من أنواع الشرعية على حكمه ، لهذا راسل دقاق بن تتش ،
فهرب المذكور سرا من حلب الى دمشق ، حيث دخلها ، وأصبح
حاكمها الشرعي ، وهكذا عاد التمزق السياسي مرة ثانية الى
الشام ، وأصبح الآن إعادة السيطرة على دمشق الشغل الشاغل
لرضوان ، وله صرف الكثير من جهده ووقته وطاقات دولته .
وكان لتتش ولدين آخرين ، وخشية أن يفعلوا فعلا يشابه ما صنعه
أخوهما دقاق قام رضوان باعدامهما .

وقامت مفاوضات بين رضوان بن تتش والسلطان بركياروق
أدت الى أن أطلق رضوان الأسرى الذين كان والده قد أخذهم في
حربه مع أق سنقر ، وبالمقابل أطلق السلطان بركياروق سراح
الأسرى الذين أخذهم في حربه مع تتش ، وكان من بين الذين كسبوا
حريتهم طغتكين ، وطغتكين هذا الذي عرف باسم أتابك ظهير الدين
كان من المع ضباط تتش ، وقد حظي عنده بمكانة عالية نظرا لطاقاته
ونشاطه ونبوغه» وسلم إليه ولده الملك شمس الملوك دقاق، واعتمد

عليه في تربيته وكفالاته « ، وتزوج طفثكين خاتون صفوة الملك أم دقاق، وهكذا أصبح أتابكا حسب ما جرت عليه العادة .

وعقب خلاصه من الأسر توجه عائدا الى دمشق فوصلها « في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م فتلقاء الملك شمس الدولة دقاق، وعسكره، وأرباب دولته، وبولغ في اكرامه واحترامه، ورد إليه النظر في الاسفهلارية، واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسة البيضة، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك وأمراء الدولة العمل على ساوتكين والايقاع به، وتمم عليه الأمر ، وقتل « .

ولما كان رضوان بن تقش « مانلا الى دمشق ، ومحبا لها، ومؤثرا للعودة اليها، ولايختار عليها سواها لمعرفته بمحاسنها، وترعرعه فيها، فجمع وحشد، واستنجد بالأمير سكمان بن أرتق « ، وكان اقطاع سكمان سروج في الجزيرة، فسار سكمان نحو حلب وقطع الفرات، وفي طريقه لقيه يوسف بن أبى ففرض نفسه عليه، لكن عندما وصل حلب استطاع بمساعدة جناح الدولة حسين الخلاص من يوسف حيث ذهب إلى أنطاكية الى يغى سغان صاحبها .

واقطع رضوان سكمان بلدة معرة النعمان وأعمالها، ثم سار معه نحو دمشق، وكانت سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م قد دخلت ، وحاصر رضوان دمشق لكنه أخفق في أخذها نظرا لتدابير الدفاع الجيدة عنها، ولما وجد رضوان أنه لاجدوى في حصاره لها، توجه جنوبا فنهب أعمال حوران ، وهنا تركه سكمان حيث ذهب الى مدينة القدس وكانت اقطاعا لآخيه ايل غازي فتسلمها، وعاد رضوان الى حلب كي يجدد الاستعداد لحملة ثانية على دمشق (١٦) .

وعقب عودة رضوان الى حلب راسله يوسف بن أبى ، واستأذنه في المجيء الى حلب للدخول في خدمته فأذن له، ووصل يوسف الى حلب وسكنها، « ثم خاف رضوان وحسين منه، فتقدما الى بركات ابن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن الفوعى بقتله، فهجم عليه وأصحابه فقتلوه، ونهبوا داره، وأخذوا رأسه وسيروه الى بسزاعا . ومنبج فتسلموها من أصحابه « . وبعد هذا خرج جناح الدولة حسين

ورضوان فأغاروا على بعض أعمال أنطاكية التابعة ليغى سغان، واحتلوا تل باشر وشيخ الدير، ولقد أغضب هذا - مع مقتل يوسف ابن أبى - يغى سغان الذي أخذ يعد العدة للثأر.

ومرة ثانية توجه رضوان مع حسين وبصحبتهما عساكر حلب نحو دمشق، وهنا تحرك يغى سغان بسرعة نحو دمشق منجدا لدقاق « فضعت نفس رضوان عن دمشق، فسار إلى البيت المقدس، فتبعه دقاق وطفنكين ويغى سغان - وأقاموا متحاربين مدة - وأشرف عسكر رضوان على التل، فهرب حسين على البرية واتبعه رضوان، ثم وصل سكرمان أيضا على البرية إلى حلب، ووصل دقاق وطفنكين إلى ناحية حلب واستنجد رضوان بسليمان بن ايلغازي صاحب سميساط، فوصل إلى حلب بعسكر كبير، واجتمع العسكران بقنسرين على نهر قويق، وتحاربا فهرب دقاق وطفنكين إلى دمشق، ويغى سغان إلى أنطاكية ».

ولقد استغلت الخلافة الفاطمية في القاهرة أمور واحداث النزاع هذه فأرسل أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي حملة عسكرية استطاعت بعد جهد انتزاع القدس من الأسيرة الأرتقية، ثم أكدت النفوذ الفاطمي على مناطق الساحل الشامي، مثل مدينة صور، ووطدته، وكان هذا سنة الحملة الثانية على دمشق ٤٨٩ - ٤٩٠ هـ / ١٠٩٥ - ١٠٩٦ م، ومن قبل في سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م بعيد وفاة السلطان ملك شاه، وأثناء انشغال تتش واق سنقر في الصراع من أجل السلطنة، استغل بدر الجمالي والد الأفضل تلك الحالة فأرسل حملة عسكرية إلى الساحل، واستطاعت تلك الحملة احتلال مدينة صور، وأعادتها إلى حظيرة الخلافة الفاطمية.

واستغل أهالي افامية أيضا الصراع بين ولدي تتش، فثاروا بحاكمهم التركي الذي كان تتش قد خلفه فيها بعد انتزاعه لها من الأسرة المنقذية أثناء سعيه للسلطنة، واستطاع الفاميون الذين كان غالبيتهم اسماعيلية مستعالية من اتباع القاهرة طرد حاكمهم التركي

في سنة ٤٨٨ هـ ، وذهب وفد منهم الى القاهرة، فرجعوا بخلف بن ملاعب، الذي كان قد نجا من سجنه في خراسان، رجعوا به واليا عليهم*.

وإثناء فترة الصراع هذه استطاع كربوقا بعدما أطلق رضوان سراحه من السجن الذي كان تتش قد أودعه به عقب انتصاره على أق سنقر، استطاع كربوقا تجنيد جيش من التركمان في الجزيرة، وبوساطة هذا الجيش احتل حران، ثم أخذ نصيبين من محمد بن مسلم بن قريش العقيلي، ثم احتل مدينة بلد وغرق محمد بن مسلم، وسار الى مدينة الموصل، وكانت في حوزة علي بن مسلم بن قريش العقيلي، فحاصرها حتى « عدمت الأقوات بها، وكل شيء حتى ما يوقدونه » فلما ضاق بصاحبها علي الأمر فارقها، وسار الى الأمير صدقة بن مزيد - أمير بني أسد - بالحلة، وتسلم كربوقا البلد بعد أن حصره تسعة أشهر « وبعد هذا، وبعد أن وطد نفسه في الموصل أراد اتمام مد نفوذه على الجزيرة، وكان حاكم جزيرة ابن عمر قد اعترف بسلطانه، فسار الى بلدة الرحبة على الفرات فاحتلها وضمها الى مملكته الجديدة(١٧) .

إن اخفاق رضوان في أخذ دمشق للمرة الثانية لم يمه مطامعه في هذه المدينة، كما لم يوقفها» تواصل الأخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة «* ولقد قلق الناس في بلاد الشام وسواها لسماع هذه الأخبار وانزعجوا لاشتعارها، لكن رضوان كان ما يزعجه، هو أن يبقى محروما من دمشق، وكان أمر المحافظة على حكمه في حلب هو الذي يشغل باله ويقلقه* ويبدو أنه أراد أن يتخلص من جناح الدولة حسين وينفرد بحكم حلب» واستشعر حسين من رضوان، وأحس بتغير نيته تجاهه، فاضطر الى الهرب من حلب ليلا الى حمص ومعه زوجته أم رضوان، وهنا عول على قصد مدينة حمص لانتزاعها من جناح الدولة حسين «، ثم قصد مدينة دمشق لانتزاعها من أخيه نفاق، وراح رضوان يفتش عن حلفاء، فكان أن التفت الى يغني سغان صاحب انطاكية فتصالح معه وتحالف، ثم توجه بأنظاره نحو القاهرة،

ووصلت إليه بعثة فاطمية أرسلها الأفضل أمير الجيوش ووزير مصر وصاحب الكلمة فيها، وكان مع البعثة بالاضافة الى الهدايا الكثيرة رسالة من الخليفة الفاطمي المستعلي وأخرى من الأفضل . وتم الاتفاق بين رضوان والبعثة الفاطمية على ان يقيم رضوان الدعوة في بلاده للخليفة المستعلي والأفضل بن بدر الجمالي . وان تقوم القاهرة بإرسال جيش يساعده لاسترداد حمص واحتلال دمشق .
وفعلا أمر رضوان باعلان الدعوة للفاطميين وتوجه جنوبا، وعند شيزر حدثت خلافات بين أمراء جيشه ، فلم يتابع سيره جنوبا بل عاد الى حلب، وبنفس الوقت ضغط عليه من قبل أمراء التركمان للاقلاع عن الدعوة للفاطميين والعودة للطاعة العباسية ففعل، ولم تستمر الدعوة للفاطميين سوى أربع جمع ومن ثم قطعت ولم تعد ابدا بعد هذا (١٨) .

ووصلت جموع الفرنجة الى انطاكية واخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، أخفق خلالها حكام الشام والجزيرة في توحيد جهودهم، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة، وأخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة أحد كبار العساكر، عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه، وعندما دخل الصليبيون انطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م نهبوا كل من وجدوه فيها من المسلمين، وفر يغي سغان، وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به، ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين، وأخيرا تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة ووصلت الى انطاكية، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار، وكان من الممكن ايقاع البلاء بالصليبيين لوقعهم بين نارين ، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الأسوار، لكن أنانية قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الفشل والهزيمة .

ويصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان، الحالة اثناء

الحصار بقوله: «أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز، ولا يشرب الماء لمن معه الماء، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمانينتنا، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ٠٠٠٠ أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا، تاركة أيهم ما بين جريح وقتيل بسهامها، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها إلا ليلا أو خفءا، وبذلك كنا نعاني الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف ».

وفي ذروة المحنة هذه ادعى أحد الفرنجة واسمه بطرس أن القديس أندراوس قد تراءى له، وقال له : « إنني الحواري أندراوس، اسمع يا بني: عرج على كنيسة القديس بطرس - القسسيان - وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح الذي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب »، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة وأتباعهم، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير « داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسسيان الذي بسانطاكية ، وهو بناء عظيم ، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه، وعفا أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: ابشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى

يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكن من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما، فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم، وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم *.

إن في رواية ابن الأثير من أن الهزيمة قد تمت على المسلمين» ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم «مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك أن صاحب أعمال الفرنجة، وهو شاهد عيان، يذكر خلاف ذلك، فهو يقول:» بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في شتى الكنائس، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه، ثم وزعوا الصدقات، وأقاموا القداسات *.

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هييج العظيم وبصحبه الفرنسيون وكونت فلاندر وفي الثانية نوق جودفري ورجاله، وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة اسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص، وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه، ومنعاهم من النزول الى المدينة، وكان في الفريق الخامس تذكريد - ابن المركيز - بصحبة رجاله، وفي الكتيبة السادسة بوهيمند الفطن مع فرسانه *.

ولما تدثر أساقفنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحلهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصليبان، ممجدين السيد ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر، بينما اعتلى اخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسوموا علينا علامة الصليب وباركونا، ولما

تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة.

ولما رأى كربو قاما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة في اثر الأخرى قال : « دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا » ، الا أنه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللحية تغادر الأبواب تحتى استبد به الذعر ، وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة أن يعلن الارتداد اذ شاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، اذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في اثره بنفس الخطى ، ثم اندشطر الترك شطرين : اتجه احدهما ناحية البحر ، بينما أقام رجال الفريق الآخر في مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بما يبديته العدو لهم ففعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفري وكونت نرمندي ، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين وأحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر أن لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم ويلوذوا بالفرار . فلما تبين هؤلاء الإشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم ، وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق جودفري وهيج العظيم وكونت فلاندر الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فدرعوا بعلامه الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الاله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا واياهم في القتال ، وتغلبننا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين، ومضى رجالنا في
أثارهم حتى خيامهم وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم، وراوا أن
قصهم إياهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمه. وظلوا في أعقابهم
حتى جسر العاصي.... فخلى العدو وراءه خيمه وذهبه وفضته
وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير
والحنطة والنبذ والطحين، وكثيرا غير ذلك مما كان يلزمنا »

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة أنطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م،
وأخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوبا، وكان قبل أن
تسقط أنطاكية ، وحتى قبل أن يصل الصليبيون إليها أن انفصلت
منهم فئة بقيادة بلدوين أخو جودفري - الذي سيكون أول ملك لمملكة
القدس اللاتينية - وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من
الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية، وأخيرا
وصلت الى الرها فاحتلها، واتخذت منها قاعدة لاجدى إمارات
الصليبيين في المشرق، وكان من اسباب نجاح هذه الفئة ومن اسباب
النجاح عند أنطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا
يدينون بالمسيحية وكانوا إما سريانا أو من أصل أرمني (١٩) يضاف
الى هذا أن سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية،
مكروهة وليس لها قواعد متينة ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد
الفرنجة كان على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر، ثم إن الأرض لم
تكن « بعد » أرضا تركمانية، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع
الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم، وربما وجد شيء يسير من
الشعور الديني، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان .

زحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، وذلك بعد ان جعلوا انطاكية
مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا اثناء زحفهم هذا
ان ينتزعوا من دولة حلب الكثير من اراضيها وقراها وبلدانها
خاصة في المنطقة الغربية فلقد استولوا على البارة ، واتوا على معرة
النعمان وعلى معظم من كان فيها من سكان ، واخذوا يجردون حلب
من اراضيها واملاكها حتى وصلوا الى اسوار المدينة ، ولقد ضعف

امر رضوان في حلب كثيرا ، فأخذ يفتش عن مخرج يحتفظ به بحكمه في حلب ، وبات يبحث عن حلفاء يساعده في الابقاء على حكمه ، وإذا أمكن في الاستيلاء على بعض الاراضي التي كانت في ايدي بعض الحكام المسلمين مثل افامية وحمص ودمشق ، ولقد وجد في اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسن الصباح الحليف . ومنح رضوان اتباع هذه الدعوة ودعاتها حرية العمل والتصرف بحلب ، ولقد اغضب هذا كله اهالي حلب ، ودفعهم للعمل للتخلص من رضوان ، ولقد قاد المجن الفوعي بركات بن فارس ، رئيس حلب ومقدم احداثها الحركة ضد رضوان ، « وكان هذا المجن اولاً من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطرق الذعار ، فاستتابه قسيم اق سنقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الاخرة بالفوعة (٢٠) . ويسري الى حلب ويسرق منها شيئا ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة فإذا اتهم بالسرقة اخضر من يشهد له انه صلى العشاء بالفوعة والصبح ، فيبرئونه .

واستمر على رئاسة حلب في ايام قسيم الدولة ، وَايام تاج الدولة ، وبعده في ايام رضوان ، وامتدت يده ، وحكم على القضاة ومن دونهم ... وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء ، واخذ الاموال وارتكاب الظلم .»

واعلن المجن الثورة على رضوان ، وتعصب معه الحلبيون وساعده فسيطر على مدينة حلب ، وحصر رضوان في القلعة ، وهنا « امر رضوان مناديا نادى بالقلعة بأن الملك قد ولي رئاسة حلب صاعد بن بديع ، فانقلب الاحداث عنه » وخذله الحلبيون وتخاضلوا عنه ، وايد الاحداث الرئيس الجديد واعطوه ولاءهم ، وقد اضعف هذا موقف المجن فاضطر الى الاختفاء وبعد فترة القى رضوان القبض عليه وعلى اولاده وذويه ، واودع رضوان المجن السجن ، وهناك « عذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، واراد بذلك ان يستصفي ماله ، فمما عذبه به انه احمى الطشت حتى صار كالنار ، ووضع على راسه

ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ، وضرب فيها الرزز والحلق.

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال: ويالك لاتعرف ، احضر خشبة وضعها على الكعب فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب.

فلما فرغ قيل له: كيف تجد طعم الحديد ؟ فقال: قولوا للحديد: كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلا ما أقربه غلام أو جارية، وذلك شيء يسير، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله.

ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله، فأخرج الى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشهاب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم.

ثم قتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين (١٠٩٨ م) وسلمت رئاسة حلب الى صاعد بن بديع ، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عال: يامعشر أهل حلب من كان لي عنده مال، فهو في حل منه « (٢١) » .

وزدادت مع الأيام قوة الصليبيين في الشام، فتمكنوا من احتلال مدينة القدس، حيث اقتربوا مذبحه شنيعة مروعة ذهب ضحيتها سكان المدينة، ولقد ترك لنا صاحب أعمال الفرنجة وصفا لسقوط القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ م، فقال: « تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة، وماكاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحه هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى... ولما ولج حجاجنا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله حتى لقد قاض المعبد كله بدمائهم... وانطلق الصليبيون في جميع انحاء

المدينة يستولون على الذهب والفضة والحياد والبغال، كما اخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات *

اشتد الاسرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم * ثم سجدوا امام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل ومجموا على الشرقيين رجالا ونساء، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل * * * * * وصدر الأمر * * * * * بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم، ولأن المدينة كادت ان تكون باجمعها مملوءة بجثثهم، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم امام الابواب، وتعالى اكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا وما تاتى لاحد قط ان سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي المت بالشعب «المسلم» *

ومع ازدياد قوة الصليبيين تقلصت قوة حكام الشام من التركمان ونقصت مساحة اراضي دولهم، كما ازدادت خلافاتهم وتواصلت فرقتهم، ففي شعبان ٤٩٣ هـ / حزيران ١١٠٠ م حقق الصليبيون انتصارا كبيرا على رضوان بن تتش وعسكر حلب * فقتلوا خلقا من الناس واسروا خلقا * * * وفي هذا الوقت كان دقاق بن تتش وعساكره يحاربون في الجزيرة وطبعا ليس ضد الفرنجة، إنما ضد التركمان حكام الرحبة وديار بكر وميافارقين، واحتل دقاق ميافارقين ثم رتب فيها من ينوب عنه وعاد الى دمشق *

ولم ينس رضوان ما حل به حمص، ولم تمت مطامعه فيها، فدبر مع مقدم الاسماعيلية اتباع الدعوة الجديدة (أو الحشيشية كما دعاهم اهل الشام) في حلب، أمر اغتيال جناح الدولة حسيين، وفي رجب سنة ٤٩٦ هـ / مايس سنة ١١٠٣ م وثب قوم من الباطنية كانوا في زي الصوفية عليه فارذوه قتيلا في جامع حمص عندما وقف ليؤدي صلاة الجمعة، ولم يحصل رضوان من هذا الاغتيال على حمص، فقد راسل الذين تسلموا زمام الأمور بها بعد الاغتيال دقاق صاحب دمشق فأسرع بالمجيء إليها * وتسلمها، وأحسن الى اولاد

جناح الدولة، وسار بهم الى دمشق، فأقر عليهم اقطاع ابيهم » .

ويبدو ان عملية اغتيال جناح الدولة شجعت طغتكين اتاك دمشق للتخلص من دقاق، ولقد تولت أم دقاق - زوج طغتكين - مهمة التخلص من أبنها، فزينت « له جارية، فسمنته في عنقود عنب معلق في شجرته ثقبته بآبرة فيها خيط مسموم »، وكان هذا في العام الذي تلا عام اغتيال جناح الدولة (٢٢) .

وفي العام الذي تلا وفاة دقاق - أي ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٥ م أوقع الصليبيون برضوان بن تنش وأهالي حلب هزيمة كبيرة جديدة قرب أرتاح - وهو حصن كان يقع قرب حلب - ، ولقد قتل من المسلمين في هذه المعركة « مقدار ثلاثة الاف ما بين فارس وراجل، وهرب من أرتاح من المسلمين، وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله، ونهب من نهب، وسبي من سبي، واضطربت أحوال حلب ... وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون » وجرّد الفرنجة حلب من معظم أملاكها الى درجة أنه « لم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية وهي غير آمنة » .

وضاق الأمر بأهل حلب، فمضى بعضهم (في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م) الى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج، وكسروا بعض المنابر فجهز السلطان محمد بن ملك شاه (الذي خلف بركياروق) مودود صاحب الموصل، وأحمدل الكردي، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة، ومات سكمان قبل وصوله الى حلب، ووصلت العساكر الى حلب، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجوهم، وأخذ الى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور، ومنع الحلبيين من الصعود إليه، . . . وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة، وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه، وكثرت اللصوص

وخاف الأعيان على أنفسهم، وساء تدبير الملك رضوان، فأطلق العوام السدنتهم بسببه وتعيبه، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد، وترك الركوب بينهم، وبسبب الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر - أي عساكر مودود وأصحابه - فيأخذونه « ٠ »

واضطرب مودود وأصحابه إلى الرحيل جنوباً، وقرب شيزر انتصروا على فئة من الصليبيين، وقام تحالف بين مودود وطلغتكين اتابك دمشق لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ / ١٥ تشرين الأول ١١١٣ م، وكان مفتتاله من الحشيشية، ولاندرى مدى حصة رضوان في الاعداد لهذا الاغتيال، ومهما يكن الحال فإن رضوانا لم ينعم بالحياة طويلاً بعده حيث توفي هو الآخر في كانون الأول من السنة نفسها - ١١١٣ م ٠

ولقد « كان الملك رضوان بخيلاً شحيحاً يحب المال، ولا تسمح نفسه باخراجه، حتى أن أمراءه وكتابه كانوا يذبونه بأبي حبه، وذلك هو الذي أضعف أمره وأفسد حاله مع الفرنج والباطنية، وجدد في حلب مكوساً وضرائب لم تكن « ٠ » وعندما توفي رضوان ترك شمالي بلاد الشام في حالة لا تحسد عليها، ولقد خلفه في حكم حلب ابنه ألب أرسلان، وكان ألب أرسلان هذا صبياً في التاسعة عشر من عمره « الثغلا لا يحسن الكلام، فدعي بالأخرس لذلك، وكان مهوراً قليل العقل سفاكاً للدم منهمكاً في المعاصي « .

ولقد افتتح حكمه بقتل اثنين من أولاد أبيه، وتدهورت أحوال حلب في زمنه كثيراً، ولقد سبب حمقه انفضاض من بقي من الناس من حوله ، وفي زيادة الدمار في شمالي الشام، وخاف رجال الحكم في حلب على أنفسهم منه، فدبروا اغتياله، وكان ذلك بعد سنة من وفاة والده رضوان (٢٣) وبمقتله طويت آخر صفحات حكم أسرة تتش في الشام، ولقد كانت صفحات قائمة ليس فيها إلا الدمار والقتل ٠

وفي ساعات الظلام الدامس هذه التي كانت مخيمة على الشام،

كانت هناك تباشير للنور أخذت تلوح مشرقة من المشرق حيث
الموصل، ومن الموصل أخذ النور يزداد حتى عم الشام كله ثم انتقل
الى مصر • إن هذا سيكون موضوع مجلدات قادمة تلي هذا المجلد
إن شاء الله •

ملاحق الكتاب

أبو محمود القائد الكتامي

(من المقفى للمقرئزي - مجلة برتو باشا)

ابراهيم بن جعفر بن فلاح بن مروان ، أبو محمود القائد الكتامي ، قدم الى القاهرة مع أبيه جعفر بن فلاح ، وما زال بها الى ان قتل أبوه بدمشق في سنة ستين وثلاثمائة عند محاربة القرامطة ، وقدم القرامطة بعد قتله الى القاهرة وأخرج اليهم المعز ابنه عبد الله فقاتلهم وانهزموا ، فأحب المعز أن يبعث في أثارهم من يأخذهم فوقع اختياره على أبي محمود ابن فلاح ، فجهزه .

وسار لخمس بقين من شعبان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من القاهرة على عسكر بلغت عدتهم عشرين الفا . فسار الى الشام وظفر في طريقه بجماعة من أصحاب القرامطة ببعثهم الى القاهرة .

ودخل الرملة فاستأمن اليه جماعة من عسكر القرامطة وملكها بغير قتال وسار يريد دمشق وقد سار عنها الحسن بن أحمد القرمطي واستخلف عليها أبا المنجى في طائفة من الجند . فنزل أبو محمود أذرعاً . وسار ظالم بن مرهوب من بعلبك بمكاتبة المعز له الى دمشق . فلما نزل عقبة دمر خرج أبو المنجى الى الميدان ليقاتله ، وهو في الفي رجل . فبعث اليه ظالم يخادعه ويقول : « إنما جئت مستأمناً اليكم » . فسار عدة من جند أبي المنجى الى ظالم فقوي بهم وأقبل الى أبي المنجى وأحاط به فلم يمكنه الهرب . فأخذه وابنه ، وصار عسكره كله مع ظالم ، فملك دمشق يوم السبت لعشر خلون من شهر رمضان ، وقبض على جماعة من أصحاب أبي المنجى وأخذ أموالهم ، وطلب أبا بكر محمد بن أحمد بن سهل النابلسي حتى ظفر به .

ونزل أبو محمود على دمشق يوم الثلاثاء لثمان بقين منه فأنس به ظالم وأكرمه وخرج اليه وأسلمه أبا المنجى وابنه وابن النابلسي ،

فعملهم أبو محمود في أقفاص من خشب وجهزهم الى القاهرة.
وامتدت أيدي أصحاب أبي محمود يأخذون من يلقونه في الطرق
وينهبون القرى ويأخذون القوافل ، ولا يقدر أبو محمود على ردهم.
وصار ظالم في المدينة يأخذ أموال السلطان ولا يدفع لأبي محمود
شيئاً ويرى أنه صاحب البلد ، هذا وقد كثّر في البلد حمال السلاح من
الغوغاء ، وقتلوا أصحاب المشايخ ، فامتنع الناس من الذهاب
والمجيء ، وفر أهل القرى الى المدينة وخلت ظواهر دمشق.
فلما كان يوم الخميس النصف من شوال نزل أصحاب أبي محمود
لنهب القصارين عند الميدان ، فوقع الصارخ في المدينة وخرج الناس
بالسلاح ، وفيهم أصحاب ظالم فاقتتلوا ثم افترقوا ، وكثر بعد ذلك
حمال السلاح في البلد.

وقدمت قافلة من حوران على طريق الدرجلة فأخذها أصحاب
أبي محمود وقتلوا ثلاثة ممن كان فيها ، فحملهم أصحابهم
وطردوهم بالجامع داخل المدينة ، فاجتمع عليهم الناس وغلقت
الدوانيت وخلت الأسواق ، واجتمع العالم وضرب أصحاب أبي
محمود قرية حجيرا (١) فدخل أهلها الجامع وهم يصيرون ،
واستمر الخوف الى يوم الاثنين سابع عشر ذي القعدة فوقع الصوت
في البلد: النفير ! فلبس الناس السلاح وخرج أصحاب ظالم معهم ،
فقاتلوا أصحاب أبي محمود يومهم الى الليل ، ثم أصبحوا يوم
الثلاثاء فاقتتلوا الى الليل ، وأصبحوا يوم الأربعاء فاقتتلوا الى
العصر ، ووقع الحريق فانهزم أهل البلد وقتل منهم كثير . فخرج
ظالم من دار الامارة ، ولم يكن خرج في هذه الحروب ، وإنما يبعث
أصحابه ويظهر أنه إنما يريد الدفع عن البلد ولا يحب القتال ولا
الخلافة ، وهو مداهن في ذلك . فلما رأى أهل دمشق منهزمين
والمغاربة خلفهم ، وقد ازدحم أصحابه في الجسر حمل ، ومعه طائفة ،
على أوائل المغاربة حتى ردعهم عن الرعية . ثم تكاثرت المغاربة عليه
فعبّر الجسر ، وأخذ المنهزمون نحو البيوت فأدركهم المغاربة وقتلوا
منهم كثيرا . فضج الناس بالنفير من المأذن والاسطحة ، وكثر الرمي

بالذشاب من الأسطحة ، فأحرق المغاربة الفراديس ، وكان بناء حسنا فشعت النار وأتلفت شيئا كثيرا ، وانهزم ظالم وسار الى بعلبك . وجن الليل ، وبات الناس خامدين فزعين لما يأتهم من الغد ، وتمكنت النار تلك الليلة وأحرقت ما شاء الله ، وتصاعد لها السنة وشرار عظيم وصارت كأنها فرس يجري .

وأصبح الصبح وقد احترق قصر عاتكة وقصر حجاج وما هنالك فلم يبق له أثر . هذا والناس طول ليلهم يعارضون الخشب في الأسواق ويضيقون الدروب ويحفرون الخنادق في الطرق خوفا من دخول الخيل والرجالة الى المدينة ، وعملوا على أنهم يقاتلون على أبواب البلد وبات المغاربة فرحين بأخذ البلد .

فلما أصبحوا أقبلوا الى المدينة فخارت قوى كثير من الناس لما داخلهم من الفزع ، وتحيروا . فعندما أقبل المغاربة وقع النداء بالنفير ، وخرج أهل دمشق فاقتتل الفريقان مليا .

ثم أن مشايخ البلد ساروا الى أبي محمود وهو نازل بالميدان يسألونه الرفق ، وقد تبعهم خلق كثير . فلما دخلوا عليه لطفوا به وداروه وضرعوا اليه ، فقال : ما نزلت لقتالكم ، وإنما نزلت لأرد هؤلاء الكلاب عنكم - يعني أصحابه - وما أنا ممن يقاتل رعية .

فاستبشر الناس واختلطوا بأصحابه وانتشر قوله في البلد فزال الخوف ، وبخل المغاربة الى المدينة في ما يحتاجون اليه . وولى أبو محمود الشرطة لرجل يقال له حمزة من المغاربة ولابن كشمرد من الاخشيديّة فدخلا البلد في جمع عظيم وطافا بالمزاهر والزمر وجلسنا في الشرطة ، وصارت رجالهم تطوف المدينة في الليل في عدة وافرة .

هذا وحمال السلاح ممن يطلب الفتنة لم يكفوا فكان الطوف يجد دروبا قد ضيقت لايمكنه أن يدخل فيها . فشكا صاحب الشرطة ذلك الى أبي محمود وقال : إن القوم على ماكانوا عليه من العصيان ، واشدهم قوم في باب الصغير .

فقال بعض من حضر عند أبي محمود من أهل دمشق : إنما كان الأمر والنهي للرعية - وأهل هذا البلد قد غلبوا عليه .

وكثر الكلام في هذا فعظم ذلك على أبي محمود واضطرب . فلما حضر مشايخ البلد اشتد عليهم وهددهم وقال : « أنتم مقيمون على العصيان » ، فاعتذروا بأن سد باب الصغير وغيره إنما كان خشية من أن يدخل منه من لا يعلم به القائد من أصحابه ممن يطلب الفتنة فتثور جهال الناس ، فأقسم أبو محمود لأن لم يفتح هذا الباب ليركبن إليه وليحرقنه وليقتلن من فيه . فقال الشيوخ : نعم ، نفعل مايقول القائد .

وأجلهم ثلاثا فخرجوا من عنده حائرين لايدرون كيف يسوسون جهال الناس ، ولما يعملون في أمر السلطان . واتوا الى باب الصغير وقد اجتمع أهل الشر فيهم ابن الماورد ، رأس الشطار ، فبلغهم الشيوخ ما قال أبو محمود فكثر اختلافهم . ثم إنهم فتحوا الباب من وقتهم .

واتفق أن بعض المغاربة في هذا اليوم جرى بينه وبين بعض أهل الشر من الدمشقيين نزاع في صبي أراد المغربي أن يغلب عليه ، فرفع الدمشقي السيف وقتل المغربي في السوق . فاضطرب البلد وغلقت الأسواق وثار العسكر ، فسد أهل البلد باب الصغير ، واشتد حنق أبي محمود ، وفرق السلاح على أصحابه في الليل ، وأصبح العسكر يريد باب الصغير ، فصاح النفير في البلد وكبر الناس على الأسطحة فطرح العسكر النار في الدور التي خارج المدينة . وخرج ابن الماورد في جماعته ومعه سوقة ونظارة أكثرهم بمقاليع ، ودار المستنفرون في أزقة المدينة ينفرون الناس للقتال ، فأقبلوا أفواجا الى باب الصغير والقتال قد حمي بين الفريقين .

ونزل أبو محمود في محراب المصلى واضطجع لوجع كان به في باطنه وهو يتأوه ، فكانت في هذا اليوم عدة وقائع آلت الى انهزام أهل البلد ، وطمع المغاربة في أخذها ، فضج الناس بالذفير من الأسطحة والمآذن ، وعلا صياح الرجال والذساء والصبيان ، وكثر الحريق ، واشتد الرمي على المغاربة من فوق الدروب بالذشاب والحجارة . فردوا عن دخول البلد . وخرج مشايخ البلد من باب

الجايبة وفيهم ابن أبي هشام وأبو القاسم أحمد بن الحسين العقيقي العلوي - وكان أبو محمود يجله ويعظمه - فتوجهوا إلى أبي محمود وقالوا له : « الله ! الله ، أيها القائد في الحرم والأطفال ومازالوا به حتى رد العسكر عن المدينة بعدما أشرقوا على أخذها » وصرف العقيقي من كان من الرعية يريد أن يقاتل ، وسار أبو محمود بعسكره إلى حيث كان ينزل ، وذلك في آخر ذي الحجة (٣٦٣ هـ) فصلح الأمر وسكن الشر .

وخرج الناس إلى أبي محمود ودخل أصحاب الشرط المدينة ، إلا أنه كان قد فر من الغوطة خالق كثير إلى المدينة ، وفيهم طائفة زعار وطمايع صاروا مع أهل الشر من أهل المدينة ، وفيهم طائفة يقال لها الهياجنة (٢) . من قرى المرج ، لا يعرفون سوى الفساد ، فصار هؤلاء يأكلون أهل السلامة والمستضعفين والذمة ، ويجبون مستغلات الأسواق ويكبسون المواضع فينهبون ما فيها . فأكلوا بذلك ولبسوا وحسنت أحوالهم ، وصاروا يكرهون أن يتمكن السلطان لنلا يزول ما هم فيه ، فهلك كثير من الناس بين العسكر وبين أهل الشر .

فلما كان في بعض الليالي مر صاحب الشرطة على عادته فاذا بصبي صباغ معه سيف فأخذه وقتله ، فخشى أهل الشر أن تمتد يد السلطان فيهم فيذفيهم ، فثاروا عند الصباح بصاحب الشرطة ، ففر بمن معه إلى أبي محمود وأقبلت الهياجنة إلى الخضراء (٣) . وجمعوا البواري والقصب وقالوا : « هذه البواري والقصب أراد المغاربة أن يجعلوها في بطائن الجامع ليحرقوه » . وقال أهل الشر لجهال العامة : « اصعدوا المآذن ونادوا النفير إلى الجامع ! » . ففعلوا ذلك وثار الناس بالسلاح إلى الجامع ، فلم يروا غير بواري وقصب مطروحة في الخضراء ، وركب العسكر وطرحوا النار في كل موضع بقي فيه عمارة واقتتلوا على الأبواب ، فكان يوما عظيما شره من شدة القتال وقوة الحريق . فاشتد الخوف على البلد ، وعلا الضجيج إلى أن أظلم الليل ، وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة .

وأصبحوا على ذلك . فظهر في أهل الشر غلام يقال له « ابن شرارة »
قد ترأس وصار له قدمة في الشنيرة (٤) والقتال فأخذ جهة من البلد
يقاتل عليها ووقف على باب الجابية عبيد الحوراني في جماعة ،
وعلى باب الفراديس ابن بزيقات وابن المغنية وقسام ، وكل جر من
هؤلاء بأعلام وأبواق . فاستمر القتال في أكثر المحرم وفني فيه
خلائق الى أن خرج المشايخ الى أبي محمود وشكوا اليه ما الناس
فيه ، وأنه لم يهلك الا أهل الستر والمستضعفون . وكان قد علم ذلك
وأن الفساد انما هو من أهل الشر فقط ، فأجابهم ووقع الصلح ،
وصرف حمزة المغربي وابن كشمرد الاخشيدي عن الشرطة ، وولى
رجلا من بانياس كان أميرا على التركمان يقال له « أبو الثريا » على
الشرطة وذلك لأول من صفر فعبر من باب الصغير ، ومعه رجاله من
الأكراد ، وقد كمن له ابن الماورد أحد الشطار فثار به وخرج عليه
فقتل من أصحاب أبي الثريا عدة ، وانهزم فيمن بقي معه الى أبي
محمود ، وقد انتشر الناس حول البلد بمعايشهم وضروراتهم .

فركب العسكر وأخذوا الطرق واتوا على كثير ممن ظفروا به
ليقتلوههم ووقع النفير في البلد ، فخرج الناس واشتد القتال مدة صفر
وشهر ربيع الأول الى أن بقي من شهر ربيع الآخر ليال فوقع الصلح
وولى أبو محمود ابن أخيه جيش بن الصمصامة البلاد ، ونزل في
قصر الثقيين وانصلح الحال أياما الى أن عبر بعض المغاربة من
الفراديس فعاثوا هناك فثار الناس بهم وقتلوا من لحقوا منهم
وعادوا الى قصر الثقيين ففر جيش بمن معه فنهبوا ما كان معهم ،
وصار جيش الى أبي محمود ، وأركب معه العسكر وزحف على
المدينة بالنفأطين فأحرق مواضع حتى لم يبق لها أثر ، وقصد أهل
الشر ، وكانوا في موضع بالمدينة يعرف بسقيفة جناح بالقرب من باب
كيسان . فقاتل هناك الى باب شرقي قتالا شديدا من أول جمادى
الأولى في كل يوم من بكرة النهار الى آخره ويبيت العسكر حول
المدينة يطلبون الغفلة فيقع النفير من البلد الى تلك الجهة حتى تحمى
فاذا أصبحوا عاودوا القتال .

فتعب أهل المدينة بحصار العسكر من باب الى باب ، والقصد انما هو باب كيسان ، فتارة يكون للعسكر وتارة يكون لأهل البلد ، ولايكل أحد من الفريقين ، وقتل خلق كثير ومات في البلد من دواب أهل الغوطة التي دخلوا بها سشيء كثير ، وصار العسكر يتخطف من يظفر به من أهل الغوطة ويقتلونه فخربت الغوطة .

ودخلت القرى حتى إن العسكر كان يجول بها فلا يجد أحدا . فصاروا يحرقون الأبواب ويأخذون المسامير والحصر ، ولايقعون على أحد الا قطعوا رأسه . ومنع الواصل الى المدينة فغلت بها الأسعار ، وبطل البيع والشراء ، وانقطع الماء عن البلد فعدمت القنى والحمامات ، وصار الانسان اذا مر بمدينة دمشق لايجد غير أسواق مغلقة ونساء جلوس على الطرقات وقوم يصيحون : النفير !.

فانتهك في هذه الفتنة أكثر الناس وساءت أحوالهم وماتوا على الطرق من الضر والبرد ، والقتال لايزداد الا شدة طول الليل والنهار الى أن أجهد الناس البلاء وقوي على أهل البلد أشرارهم وأكلوا أموال أهل السلامة . فقالوا : نخرج الى هذا السلطان وندخله الى المدينة يفعل فيها ما يشاء ونستريح مما نحن فيه!.

ففتح أهل التوراة توراتهم وأهل الانجيل انجيلهم وصاروا الى المسلمين ففتحوا القرآن ، واجتمع الكل في الجامع وضجوا بالدعاء واستغاثوا الى الله يطلبون الفرج ، وداروا المدينة وهي مذشورة على رؤوسهم . فتجمع الشيوخ والأشراف وراسلوا أبا محمود في الصلح وخرج اليه خلق كثير من الرعية وداروا حول فرسه وقالوا له : ادخل أيها القائد ، ونحن بين يديك ، والبلد لك ، افعل فيه ما اخترت!.

فأحسن في القول وجامل في الرد . فاستبشر الناس واجتمعوا في الجامع ، وأحضروا ابن الماورد وابن شرارة وأكابر أهل الشر والزموهم بالكف عن معارضة السلطان في البلد ، وأنهم يلزمون بيوتهم . فأنزعوا لذلك وانصرفوا ، الا رجل من أهل الشر فإنه شمع وطلب الفتنة فأخذ أهل البلد وقتلوه فانكف أهل الشر .

وكانت الاخبار ترد على المعز بما يجري على اهل دمشق من خراب البلاد وكثرة القتل وطول الحصار ، وان العسكر لا ينضبط لأبى محمود . فكتب الى ظالم وهو ببعلبك يستجيد رايه ويوبخ ابا محمود وكتب الى ريان الخادم والي طرابلس في النصف من شعبان سنة اربع وستين وثلاثمائة ان يسير الى دمشق وينظر في امر الرعية ويصرف ابا محمود عن دمشق.

فسار ريان من طرابلس الى دمشق ، وامر ابا محمود ان يرحل الى الرملة ، فسار عنها في عدد قليل وبقي العسكر مع ريان . فنزل ابو محمود طبرية .

فلما قدم هفتكين الشرابي من بغداد الى دمشق وملكها من ريان ونزل عليه متمك الروم خرج اليه . وبلغ ذلك ابا محمود فجهز جيش ابن الصمصامة من طبرية في ألفي رجل الى دمشق . فلما وصل البثنية وجد شبل بن معروف العقيلي نازلا عليها في عربه ، فاقتتلا ساعة وكانت الكرة فيها على جيش فأخذ أسيرا وقتل أصحابه ، وبعث شبل بجيش الى هفتكين فسلمه الى متمك الروم وهو مقيم على عين الجر ينتظر المال الذي طلبه من اهل دمشق ، فلما اخذ المال ورحل من دمشق الى بيروت بعث هفتكين شبل بن معروف الى طبرية ، ففر ابو محمود الى الرملة بمن معه من المغاربة فقصدتهم العرب وواقعوهم نحو بيت المقدس ، فكانت العرب على المغاربة وقتلوا منهم كثيرا وأسرُوا جماعة وبعثوهم الى دمشق ، فطوفوهم على الجمال وضربوا أعناقهم.

واقام ابو محمود بالرملة الى أن قدم القرامطة الى دمشق ، ثم ساروا منها الى الرملة ، ففر ابو محمود الى يافا وتحصن بها فنازله القرامطة وقاتلوه حتى كل الفريقان من القتال وصار يحدث بعضهم بعضا.

ومات المعز وهم على ذلك ، وقام من بعده ابنه العزيز بالله نزار في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة ، فبعث جوهرا القائد الى الشام فانهزم القرامطة من طريقه وساروا الى الاحساء.

ونزل جوهر على دمشق في ذي القعدة ومعه أبو محمود وقاتل هفتكين الى أن رحل عنها بغير طائل في جمادى الأولى سنة ست وستين . فأدركه القرامطة وهفتكين فقاتلوه بالرملة حتى التجأ الى عسقلان . وخرج العزيز من القاهرة ونزل الرملة وأخذ هفتكين وولى دمشق حميدان بن حواس العقيلي ، وكان قد غلب عليها قسام فصار حميدان من تحت يد قسام ثم طرده وأخرجه من البلد ، فدولى أبو محمود بعد حميدان وصار اليها في نفر يسير ، وبقي تحت قسام من غير أن يكون له أمر ونهي .

فقدم أبو تغلب ع. الله بن حمدان الى دمشق فمنعه قسام منها وأقام على المزة شهورا ، وقد ثقل على قسام مقامه فقاتله وأخذ عدة من أصحابه ، وكتب الى العزيز بذلك ، فأخرج الفضل بن صالح الى الشام وقاتل أبا تغلب حتى قتل في صفر سنة تسع وستين .

ثم أنفذ العزيز الى دمشق سليمان بن جعفر بن فلاح فمنعه قسام وكتب الى العزيز يسأله في دمشق فكتب الى سليمان بن فلاح أن يرحل عن دمشق ، فرحل . ورجع أبو محمود الى دمشق بعد مسير أخيه سليمان في رسم وال من طبرية ومعه نفر يسير فأقام تحت مذلة قسام ، وقد طمع العرب في عمل دمشق حتى كانت مواشيهم تسدخل الغوطة .

ومات أبو محمود على ذلك بدمشق في صفر سنة سبعين وثلاثمائة ولم يكن فيه تدبير ولا عنده ثبات ، بل كان عديم السياسة قليل العقل.

أبو نصر التستري

(من المقفى للمقريزي - مجلدة برتو باشا)

ولي ابراهيم بن الفضل بن سهل التستري اليهودي: خزانة
الخاص بعد أخيه أبي سعد سهل التستري في جمادى الأولى سنة
تسع وثلاثين وأربعمائة

وأرادته أم المستنصر أن يتولى نظر ديوانها مكان أخيه فامتنع
من ذلك خوفا من الوزير ومن الأتراك ، وهي تريد منه ذلك مدة ثلاثة
أشهر ، ولا يوافقها ، حتى ضجرت منه وأقامت اليازوري بواسطة
الاستاذ عدة الدولة رفق.

فلما كانت سنة أربعين وأربعمائة سهل شجاع الدولة جعفر بن
كليد وغيره على الوزير أبي البركات الحسين بن محمد الجرجرائي
أمر حلب وأنه إذا سير عسكريا من مصر أخذت. فكتب إلى ناصر
الدولة الحسن بن حمدان متولي دمشق ، وإلى الكلابيين وغيرهم ،
وإلى جعفر بن كليد بالسير ، فساروا إلى المعرة ، وتسلمها جعفر ،
ومضى ابن حمدان إلى حلب فقاتلوه وانهزم إلى دمشق.

فبعث ثمال بن صالح بن مرداس يطلب من الخليفة المستنصر
العفو ، وأنه يقوم بما عليه من الحمل . فتوسط أمره أبو نصر هذا ،
إلى أن أجيب بالصفح والرضى عنه . وخرج رسوله بذلك من القاهرة
فورد الخبر بأن ثمال بن صالح بعث مقلد بن كامل بن مرداس فواقع
بجعفر بن كليد وقتله في يوم الأربعاء لست بقين من شهر رمضان ،
وحمل رأسه إلى حلب وشهرها ، وأسر عدة من عسكريه . فاعيد
رسول ثمال وأخذت منه الكتب . وأغرى الوزير أبو البركات الخليفة
بأبي نصر وأنه يسعى فيما يضر الدولة ويعود عليها بالوضيعة من
توسطه في أمر ثمال لما في نفسه من الحقد لقتل أخيه أبي سعد .
وما زال بالخليفة حتى قبض على أبي نصر وسجنه وأخذ سائر

امواله وعاقبه حتى هلك تحت العقوبة في اخر سنة اربعين واربعمئة

أحمد شاه

(من بغية الطالب لابن العديم)

أحمد شاه التركي مقدم الأتراك بحلب ، وقيل أنه شيباني ، كان يسكن مع الأتراك بالحاضر السلیماني ، وكان مطاعا مذكور شجاعا له مواقف حسنة مع الفرنج (هـ) ، وهو الذي استعاد منبج من أيدي الروم سنة ثمان وستين ، وبعد أن كان ميخائيل بن اخت أرمانيوس الرومي استولى عليها في ثامن محرم سنة ستين وأربعمائة ، ففتحها أحمد شاه ، وصاحب حلب إذ ذاك نصر بن محمود في يوم الأحد لخمس خلون من صفر سنة ثمان وستين وأربعمائة .

ولما أفضى الأمر بحلب إلى نصر بن محمود بن نصر بن صالح قبض على أحمد شاه واعتقله بقلعة حلب في عيد الفطر من سنة ثمان وستين وأربعمائة وشرب نصر إلى العصر ، وحمله السكر على الخروج إلى الأتراك إلى الحاضر بظاهر حلب ، فحمل عليهم ، فرماه تركي بسهم فقتله ، وزحف الأتراك إلى البلد يطلبون أحمد شاه وكان والي القلعة (١٦٥ - ظ) ورد وعنده الأمير أبو الحسن بن منقذ وجماعة من الخواص ، فلما أحسوا بذلك استدعوا بسابق بن محمود من البلد إلى القلعة ونادوا بشعاره وأشاروا عليه بإطلاق أحمد شاه فأطلقه في الحال وخلع عليه .

ونزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر فسكن النائرة وأحمد الفتنة ، فكان سابق بن محمود بعد ذلك يعين الأتراك ويقربهم ويحسن إليهم ويقدمهم على أهله بني كلاب وينصرهم عليهم .
قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين :
استولى على البلد - يعني حلب - أحمد شاه التركي وفي كفالته سابق بن محمود بن نصر .

وقرأت بخط منصور بن تميم بن الزنكل السرميني : أنه لما ملك

سابق اجتمعت بنو كلاب الى اخيه وثاب وعولوا على معونته عليه واخذ حلب له من اخيه سابق ، فلما تحقق سابق ذلك استدعى احمد شاه امير الاتراك - وكانوا الف فارس - وشاوروه ، فأنفذ احمد شاه الى رجل من الاتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، وضمن له مالا كثيرا ، فوصله محمد بن دملاج في يوم الاربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان وستين وتحالفوا ، وخرجوا الى بني كلاب المجتمعين مع وثاب في غداة يوم الخميس مستهل ذي الحجة من سنة ثمان وستين واربعمائة ، وكان بنو كلاب في جمع عظيم مااجتمعوا قط في مثله ، يقال انهم كانوا يقاربون سبعين الف فارس (١٦٦ - و) وراجل فعند معاينتهم الاتراك انهزموا من غير قتال ، وخلفوا حللهم وكل ماكانوا يملكونه واهاليهم واولادهم ، فغزم احمد شاه واصحابه ومحمد بن دملاج واصحابه كل ماكان لبني كلاب ، فيقال انهم اخذوا لهم مائة الف جمل واربعمائة الف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة ومن إمائهم أكثر ، وكل ماكان في بيوتهم ، وعفوا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون على عشرة الاف عبد مقاتل ، ولم يقتلوا احدا منهم ، وكان الذي غنمه الغز من العرب في ذلك اليوم مالا يحصى كثرة .

وبعد انهزام العرب بثلاثة عشر يوما دعا محمد بن دملاج التركي احمد شاه فخرج اليه ، وكان نازلا شمالي حلب ، فلما اكلوا وشربوا قبض محمد بن دملاج على احمد شاه واسره ، وكان في نفر قليل ، فاقام في اسره تسعة ايام ، ثم ان سابق بن محمود اشترى احمد شاه من محمد بن دملاج بعشرة الاف دينار وعشرين فرسا يوم السبت .

ووجدت بعض التواريخ يقول جامعة فيه : سنة سبعين واربعمائة : فيها حصر تاج الدولة تدش حلب ورحل عنها وعاد اليها ، وخرج منها احمد شاه وكبس العسكر وعاد .
ثم قال : سنة احدى وسبعين واربعمائة : قتل احمد شاه .

وذكر ابو يعلي حمزة بن اسد بن القلانسي قال في حوادث سنة إحدى
وسبعين وأربعمائة : وفي هذه السنة قتل أحمد شاه مقدم الأتراك في
الشام (٦) (١٦٦ - ظ) .

المستعلي الفاطمي

(من المقفى للمقرئزي - مجلدة برتو يا شتا)

احمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله ، الامام المستعلي بالله ، امير المؤمنين ، ابو القاسم ، ابن الامام امير المؤمنين المستنصر بالله ابني تميم ، ابن الامام امير المؤمنين الحاكم بامر الله ابني علي ، ابن الامام امير المؤمنين ابني منصور العزيز بالله نزار ، ابن الامام امير المؤمنين المعز لدين الله ابني تميم ، ابن الامام امير المؤمنين ابني الطاهر المنصور بنصر الله اسماعيل ، ابن الامام امير المؤمنين القائم بامر الله ابني القاسم محمد ، ابن الامام امير المؤمنين المهدي ابني محمد .

ولد في ثامن محرم - وقيل : في عشرين محرم - سنة ثمان وستين واربعمائة ، وبويع بالخلافة بعد موت ابيه في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين واربعمائة .

ونلك ان الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش بدر الجمالي ، سلطان مصر ، لما بلغه موت المستنصر ، بدر الى القصر واجلسه ولقبه بالمستعلي بالله ، واستدعي اخوته ، الامير نزار ، واسماعيل ، وعبد الله ، ليبياعوه ، فانفوا من ذلك لصغر سنه ، فقال لهم الافضل : قبلوا الارض لله تعالى ولولانا الامام المستعلي بالله وبايعوه ، فهو الذي نص عليه مولانا الامام المستنصر قبل وفاته ، بالخلافة من بعده

فامتنعوا وادعى كل منهم ان اباه وعده بالخلافة . وقال نزار : لو قطعت ما بايعت من هو اصغر سنا مني ، وخط والدي عندي باني ولي عهده ، وانا احضره .

وخرج مسرعا ليأتي بالخط ، فمضى من حيث لم يشعر به احد الى الاسكندرية ، كما هو مذكور في ترجمته .

ويقال ان الافضل قرر مع اخت المستنصر ان تقول بان المستنصر نص في مرضه على خلافة ابنه ابي القاسم . ووعدهما بانها تكفله ويكون الامر لها في الباطن ، وللأفضل في الظاهر ، فاجابت الى ذلك ، وشهد عليها اربعة من الاستاذين المحنكين عند قاضي القضاة وداعي الدعاة .

واجلسه على سرير الخلافة واخذ البيعة له على مقدمي الدولة ورؤسائها واعيانها . ثم مضى الطلب الى اسماعيل وعبد الله ، وهما في المسجد قد وكل بهما ، فقال لهما : ان البيعة تمت لمولانا المستعلي بالله ، وهو يقرنكما السلام ويقول لكما : تبايعاني ام لا ؟ فقالا : السمع والطاعة ! ان الله اختاره علينا .

وقاما وبايعاه : وكتب بذلك سجلا ، قراه على رؤوس الاشهاد من الامراء وغيرهم الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الانشاء .

وقال الاديب حظي الدولة ابو المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي في ذلك :

ان كان قد اودى معد فانظروا
المستعلي العالي ابنه وتبصروا

تجدوا الامام ابا تميم نيرا
ما غاب حتى لاح منه نير

وكذا الامامة كالحديقة لم يزل
غصن بها ينوي وغصن يثمر

واقام المستعلي في الخلافة، ليس له مع الافضل امر ولانهي ، انما يخطب له على المنابر وينقش اسمه على السكة ، ويسائر الامور مرجعها الى الافضل .

وفي خلافته خرج الفرنج من القسطنطينية ، وملكوا كثيرا من بلاد الساحل ، واستولوا على القدس في ثاني عشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين واربعمائة ، وملكوا الرملة ، وحصروا عسقلان ، ثم ملكوا حيفا وارسوف وقيسارية ويافا في سنة اربع وتسعين ، مع ما بأيديهم من اعمال الاردن وفلسطين .

وتوفي ليلة الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين واربعمائة ، فكانت مدة خلافته سبع سنين وشهرين إلا يومين . ولم تكن له سيرة تذكر لاستيلاء الافضل على الامر .

وترك ثلاثة اولاد ، هم : الامير جعفر ، والامير عبد الصمد ، وابو علي المنصور .

وقضاياه : المؤيد بنصر الامام ابو الحسن علي بن يوسف بن نافع بن الكحال . ثم اعيد فخر الاحكام ابو الفضل محمد بن عبد الحاكم بن وهيب المليجي ، ثم بعده ابو الطاهر محمد بن رجاء . فلما مات في سنة ثلاث وتسعين ، ولي ابو الفرج محمد بن جوهر بن زكا النابلسي ومات المستعلي وهو قاض .

وكان المستعلي قد تزوج بابنة أمير الجيوش بدر ، التي يقال لها « ست الملك » . واعتنى ابوها بجهازها وأكثر من تعبئة الجواهر لها . فلما مات تناهب اخوتها ذلك الجواهر .

ويقال انه مات مسموما . وقيل : قتل سرا ، واتهم الافضل بذلك . واقيم بعده في الخلافة ابنه ابو علي المنصور ، وعمره خمس سنين .

أحمد ديل الكردي

(من بغية الصلاب لابن العديم)

أحمد ديل بن إبراهيم ، صاحب مراغة (٧) . قيل كان أقطاعه في كل سنة أربع مائة ألف دينار ، وجنده خمسة آلاف فارس .

سيره السلطان محمد بن ملكشاه إلى الشام مع سكمان القطبي ، ومودود بن التورتكين صاحب الموصل ، ومودود مقدم العساكر ، في سنة خمس وخمسمائة ، في عسكر عظيم لقتال الفرنج ، واجتسأروا على بالاس ، ومضوا بالعساكر ، وافتتحوا حصوننا ، وقصدوا حلب ، فغلقت أبواب المدينة في وجوههم .

ومرض سكمان بن التورتكين ، وعاد فمات ببالس ، ثم تفرقوا بعد ذلك ، وعاد أحمد ديل إلى بغداد .

وفي المحرم من سنة عشر وخمسمائة كان أحمد ديل في مجلس السلطان محمد ، فجاءه رجل معه قصة يشكو فيها الظلم وهو ينتحب ، ويسأله أن يوصل قصته إلى السلطان ، فتناولها منه فضربه بسكين كانت معدة ، فوثب عليه الأمير مودود فتركه تحته ، فجاء آخر فضرب مودودا ، وجاء ثالث فتممه .

وهذا ممدود (٨) ليس بابن التورتكين ، لأن ذلك قتل بدمشق في سنة ست وخمسمائة على ما ذكره في ترجمته أن شاء الله تعالى ... (١٦٨ - و) .

البساسيري

(من بغية الطلب لابن العديم)

ارسلان التركي ابو الحارث ، وقيل ابو منصور البساسيري
مذسوب الى بسا بلدة بفارس والعرب تسميها فسا ، وينسبون اليها
فسوي ، واهل فارس يقولون بسا بين الباء والفاء ، وينسبون اليها
البساسيري . وكان مولاه رجل من اهل بسا ، فنسب الغلام اليه ،
واشتهر بهذه النسبة ، وكان احد الامراء الاصفهسلارية فعظم شأنه
واستفحل امره ، وقويت هيئته ، وانتشر ذكره ، ومكنه القانم من
البلاد ، وكثر منه العيث والفساد ، وال امره الى العصيان على
القائم ، ونهب بغداد وكان رأس الاتراك بها ، فخرج عليه ، وهون
امره بكل ماوصلت قدرته اليه ، حتى كان يأخذ الجاني من حرم
الخليفة ، ولايلحقه في سوء فعله نظر في عاقبة ولاخيفة .

وقرات في تاريخ ابي غالب همام بن جعفر بن المذهب المعري (٩)
انه كان اذا وصلت هدية من خراسان وغيرها من البلاد اعتقلها
شهرًا قبل ان يطلقها له بسؤال ، واشياء كثيرة تجري هذا المجري في
حق الخليفة فعلها ، فلما زاد الامر على الخليفة بعث الى طغرلبيك ملك
الترکمان والغز ، ابوطالب محمد بن ميكال ، (١٩٦ - ظ) وكان
مقيما بالري وقد ملك من جيحون الى بغداد ، واذل الملوك من اولاد
محمود والترك وغيرهم ، فوصله الرسول من الخليفة يأمره بأن يصل
الى بغداد ليستنجد به على البساسيري ابي منصور ، فاقبل اليه
طغرلبيك في مائة الف وعشرين الف من الترك والغز ، والاعاجم ،
والکرد ، والديلم ، وغيرهم من الاجناس ، فوصل بغداد وهجمها ،
وقتل منها خلقا عظيما ، ونهبها ، وذلك انهم قاتلوه ، وانهم
البساسيري منه فحصل في ارض الرحبة ، ولقيه معز الدولة -
يعني ثمال بن صالح - واكرمه ، وحمل اليه مالا عظيما ، وكان قد

وصل في قلة ، فحدث من شاهده من بني كلاب انه لم ير مثله في
الشمجاعة والمكر والحيلة ، وكان اذا ركب معز الدولة قفز اليه ليمسك
له الركاب ويصلح ثيابه في السرج ، وهمت بنو كلاب بأخذه فمنعها
معز الدولة ، وندم بعد ذلك عليه ، ثم انه تقدم الى ان حصل على
الفرات ، وفزع منه معز الدولة وكثر عسكره ، فسلم اليه الرحبة لما
طلبها من معز الدولة ، ليجعل فيها ماله واهله .

قلت : وكان حصوله على الفرات بأرض بالاس فأنني قرأت في
بعض تعاليق الشاميين في التاريخ ماصورته : ظهور البساسيري الى
الشام ، ونزوله أرض بالاس مدة سنة وشهرين ، سنة تسع وأربعين
وأربعمائة .

وقرأت في تاريخ همام بن المهذب في حوادث (١٩٧ - و) سنة
خمسین وأربعمائة فيها : اضطرب الامر في خراسان على طغرل بك ،
فسار لاصلاحه ، فجمع البساسيري من قدر عليه من الكرد والديلم ،
 واجتمعت اليه بنو عقيل ، وكان علم الدين قريش بن بدران زعيمها ،
 وبنو اسد زعيمها نور الدين دبيس بن مزيد ، وقصد بغداد ، وزحف
معه اهل الجانب الغربي من بغداد الى دار الخليفة القائم بأمر الله
امير المؤمنين ابي جعفر بن القادر ، فنهبوا جميع ما فيها ، واستدعى
الخليفة من فوق القصر علم الدين قريش بن بدران ، فجاءه فخرج
اليه الخليفة وهو مبرقع ، وعليه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ،
وفي يده قضيبه ، فأجاره ولم يمكن منه أحد ، ومنعه من
البساسيري ، وسيره الى حصن عانة ، وقيل الحديثة ، وهو حصن
منيح في وسط الفرات ، وصاحبه رجل يعرف بمهارش ، أحد أمراء
بني عقيل ، فأكرمه اكراما عظيما ، وخدمه خدمة مرضية ، فبقي فيه
عند مهارش شهورا .

قال ابن المهذب : - يعني سنة احدى وخمسين - دعا
البساسيري للمستنصر صاحب مصر في جامع المنصور ببغداد ،
وبقيت الدعوة شهورا .

وفيها : عاد طغرل بك ملك التركمان ابو طالب محمد بن ميكال الى بغداد فانحاز البساسيري وجماعته العرب ، وخرج معهم من التجار ببغداد وغير هم خلق عظيم لا تحصى اموالهم ، وذكر انهم كانوا زهاء عن (١٩٧ - ظ) مائة الف وعشرين الفا ، وتبعهم من اصحاب طغرل بك زهاء عن عشرين الفا ، فقتل البساسيري وخلق كثيرا لا يحصى عدده ، ونهبت تلك الأموال وكان الذين تبعهم ولقيهم من عسكر طغرل بك نحو عشرين الفا .

وسار مهارش العقيلي الى بغداد في محمل ، فأعطاه من الأموال والاقطاع شيئا عظيما ، حتى انه صار مهارش ايسر بني عقيل . وسار الأمير ابو ذؤابة عطية بن اسد الدولة صالح بن مرداس الى الرحبة ، فأخذ جميع ما تركه البساسيري بها من السلاح الذي لم ير مثله كثرة وجودة واموالا جزيلة كانت للبساسيري ، ثم ولى فيها بعض اصحابه .

أخبرنا ابو اليمن زيد بن الحسن الكندي أننا قال : أخبرنا ابو منصور عبد الرحمن القزاز قال : أخبرنا ابو بكر احمد بن علي بن ثابت الخطيب قال : ولم يزل امر القائم بأمر الله مستقيما الى ان قبض عليه في سنة خمسين وأربعمائة ، وكان السبب في ذلك ان ارسلان التركي المعروف بالبساسيري ، كان قد عظم امره واستفحل شأنه لعدم نظرائه من مقدمي الأتراك المسمين الأصفهسلارية ، واستولى على البلاد ، وانتشر ذكره ، وطار اسمه وتهيبته امراء العرب والعجم ، ودعي له على كثير من المناجر العراقية ، وبالأهواز ونواحيها وجبى الأموال ، وخرّب الضياع ، ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع (١٩٨ - و) أمراً بونه ، ولا يحل ويعقد الا عن رايه

ثم صبح عند الخليفة سوء عقيدته ، وشهد عنده جماعة من الأتراك ان البساسيري عرفهم - وهو اذ ذاك بواسط - عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة ابا طالب محمد بن ميكال المعروف بطغرل بك أمير الغز ، وهو بنوحي الري يستنهضه على المسير الى العراق وانفض أكثر من كان مع البساسيري ،

وعادوا الى بغداد ، ثم اجمع رأيهم على أن قصدوا دار البساسيري وهي بالجانب الغربي في الموضع المعروف بسدرب صالحي ، بقرب الحريم الطاهري ، فأحرقوها وهدموا ابنيتهما ، ووصل طغرلبيك الى بغداد في شهر رمضان من سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ومضى البساسيري على الفرات الى الرحبة ، وتلاحق به خلق كثير من الأتراك البغداديين ، وكاتب صاحب مصر يذكر له كونه في طاعته ، وأنه على إقامة الدعوة له بالعراق ، فأمدّه بالأموال وولاه الرحبة .

واقام طغرلبيك ببغداد سنة الى أن خرج منها الى الموصل ، وأوقع بأهل سنجار وعاد الى بغداد ، فأقام بها مدة ، ثم رجع الى الموصل ، وخرج منها متوجها الى نصيبين ومعه أخوه ابراهيم ، وانصرف بجيش عظيم معه بقصد الري ، وكان البساسيري راسل ابراهيم يشير عليه بالعصيان لأخيه ويطمعه في (١٩٨ - ظ) الملك والتفرد به ، ويعدّه بمعاضدته ومضافرته عليه ، فسار طغرلبيك في أثر أخيه ابراهيم ، وترك عساكره ، فتفرقت ، غير أن وزيره المعروف بالكندري وربيبه أنوشروان وزوجته خاتون وردوا ببغداد بمن بقي معهم من العسكر في شوال من سنة خمسين وأربعمائة ، واستفاض الخبر باجتماع طغرلبيك ، وحصره في مدينة همذان ، فعزمت خاتون وابنها أنوشروان والكندري على المسير الى همذان لانجاء طغرلبيك ، واضطرب أمر بغداد اضطرابا شديدا ، وأرجف المرجفون باقتراب البساسيري ، فبطل عزم الكندري على المسير فهتت خاتون بالقبض عليه وعلى ابنها لتركهما مساعدتها على انجاء زوجها ، ففرا الى الجانب الغربي من بغداد ، وقطعا الجسر وراءهما ، وانتهبت دارهما واستولى من كان مع خاتون من الغز على ما تضمنتا من العين والثياب والأسلح وغير ذلك من صنوف الأموال ، ونفذت خاتون بمن ضوى اليها ، وهم جمهور العسكر ، متوجهة نحو همذان وخرج الكندري وأنوشروان يؤمان طريق الأهواز ، فلما كان يوم الجمعة السادس من ذي القعدة تحقق الناس كون البساسيري بالأنبار ، ونهضنا الى صلاة الجمعة بجامع المنصور فلم يحضر الامام وأن المؤذنون بالظهر ونزلوا من (١٩٩ - و) المئذنة ، فأخبروا أنهم رأوا

عسكرا للبساسيري حذاء شارع دار الرقيق ، فبادرت الى ابواب الجامع فرايت الأتراك البغداديين أصحاب البساسيري نفرا يسيرا يسكنون الناس ، ونفذوا الى الكرخ ، فصلى الناس في هذا اليوم بجامع المنصور ظهرا اربعا من غير خطبة ، ثم ورد من الغد ، وهو يوم السبت ، نحو مائتي فارس من عسكر البساسيري .

ثم دخل البساسيري بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة ، ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطئ دجلة ، ونزل هناك والعسكر معه ، واجمع أهل الكرخ والعوام من أهل الجانب الغربي على مضافرة البساسيري ، وكان قد جمع العيارين وأهل الرساتيق وكافة الذعار وأطمعهم في نهب دار الخلافة ، والناس اذ ذاك في ضر وجهد قد توالى عليهم سنون مجدبة ، والأسعار غالية والأقوات عزيزة ، واقام البساسيري بموضعه والقتال في كل يوم يجري بين الفريقين في السفن بدجلة .

فلما كان يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة دعي لصاحب مصر في الخطبة بجامع المنصور ، وزيد في الأذان "حي على خير العمل" وشرع البساسيري في اصلاح الجسر فعقده بباب الطاق وعبر عسكره عليه وانزله بالزاهر ، وكف الناس عن المحاربة اياما ، وحضرت الجمعة يوم العشرين من ذي القعدة فدعي لصاحب (١٩٩ - ظ) مصر في جامع الرصافة كما دعي له في جامع المنصور وخندق الخليفة حول داره ، ونهر المعلى خنادق واصلاح ما استرم من سور الدار ، فلما كان يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذي القعدة حشر البساسيري أهل الجانب الغربي عموما ، وأهل الكرخ خصوصا ونهض بهم الى حرب الخليفة ، فتحاربوا يومين ، قتل بينهما قتلى كثيرة .

واستهل هلال ذي الحجة ، فدلف البساسيري في يوم الثلاثاء ومن معه دار الخلافة ، وأضرمت النار في الأسواق بنهر معلى وما يليه ، ولم يكن بقي في الجانب الغربي الا نفر نو عدد ، وعبر الخلق للانتهاج ، واحاطوا بدار الخلافة ، فنهب ما لا يقدر قدره ، ووجه الخليفة الى

قريش بن بدران البدوي العقيلي ، وكان ضافر البساسيري ، واقبل معه ، فاذم قريش للخليفة في نفسه ، ولقيه قريش فقبل الأرض بين يديه دفعات ، وخرج الخليفة معه من الدار راكباً ، وبين يديه راية سوداء ، وعلى الخليفة قباء أسود وسيف ومنطقة ، وعلى راسه عمامة تحتها قلنسوة ، والأترار في اعراضه وبين يديه ، وضرب قريش للخليفة خيمة ازاء بيته بالجانب الشرقي ، فدخلها الخليفة ، وأحدق بها خدمه .

وماشى البساسيري وزير الخليفة ابا القاسم بن المسلمة ويد البساسيري قابضة على كم الوزير ، وقبض على قاضي القضاة ابي عبد الله الدامغاني وجماعة معه (٢٠٠ - و) وحملوا الى الحريم الطاهري ، وقيد الوزير وقاضي القضاة .

فلما كان يوم الجمعة الرابع من ذي الحجة لم يخطب بجامع الخليفة ، وخطب في سائر الجوامع لصاحب مصر ، وفي هذا اليوم انقطعت دعوة الخليفة من بغداد ، ولما كان يوم الأربعاء تاسع ذي الحجة ، وهو يوم عرفة ، أخرج الخليفة من الموضع الذي كان به ، وحمل إلى الأنبار ومنها إلى حديثة عانة على الفرات ، فحبس هناك وكان صاحب الحديثة والمتولي خدمة الخليفة بنفسه هناك مهارش البدوي ، وحكي عنه حسن الطريقة وجميل المعتقد .

فلما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ذي الحجة شهر الوزير على جمل وطيف به في محال الجانب الغربي ، ثم صلب حيا بباب خراسان ازاء الترب ، وجعل في فكيه كلوبان من الحديد وعلق على جذع ، فمات بعد صلاة العصر من هذا اليوم ، وأطلق قاضي القضاة ابو عبد الله الدامغاني بمال قرر عليه ، وخرجت من بغداد يوم النصف من صفر سنة احدى وخمسين .

فلم يزل الخليفة في محبسه بحديثه عانة الى أن ظفر طغرل بك بأخيه ابراهيم وقتله ، ثم كاتب قريشا في اطلاق الخليفة واعادته الى داره ، وذكر لنا ان البساسيري عزم على ذلك لما بلغه ان طغرل بك

متوجه الى العراق ، واطلع البساسيري أبا منصور عبد الملك بن محمد بن يوسف على ذلك ، وجعله (٢٠٠ - ظ) السفير بينه وبين الخليفة فيه ، وشرط أن يضمن الخليفة للبساسيري صرف طغرل بك عن وجهه .

واحسب أن طغرل بك كاتب مهارشا في أمر الخليفة ، فأخرجه من محبسه وعبر به الفرات ، وسار به في البرية قصد تكريت في نفر من بني عمه ، واغذ السير حتى وصل به الى دجلة ، ثم عبر به وسار في صحبته قصد الجبل ، وقد بلغه أن طغرل بك بشهروز فلما قطع أكثر الطريق عرف أن طغرل بك قد حصل ببغداد ، فعاد سائرا حتى وصل الى النهروان ، فاقام بالخليفة هناك ، ووجه اليه طغرل بك مضارب ورحلا وأثاثا ، ثم خرج لتلقيه فانتهى إلينا ونحن بدمشق في يوم عيد الأضحى من سنة احدى وخمسين وأربعمائة أن الخليفة تخلص من محبسه ، وانتهى إلينا لسبع بقين من ذي الحجة خبر حصوله ببغداد في داره .

وكتب إلي من بغداد من ذكر أن الخليفة حصل في داره في يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة ، وأسرى طغرل بك إلى البساسيري عسكريا من الغز ، وهو في بلد ابن مزيد بسقي الفرات ، فحاربوه الى أن ظفر به ، وقتل وحمل رأسه الى بغداد ، فطيف به وعلق إزاء دار الخلافة في اليوم الخامس عشر من ذي الحجة سنة احدى وخمسين (٢٠١ - و) .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي
ذكر ابو الوفاء الأخشيكثي في تاريخه ، وحكاياه عن الأديب أبي العباس أحمد بن علي ابن بابويه القاسمي في ذكر أبي الحارث أرسلان التركي البساسيري قال : هو منسوب إلى بسا مدينة بفارس ، والعرب تقول فسا ، وينسبون إليها فسوي ، وأهل فارس ينسبون إليها البساسيري ، وكان مولاه رجلا من أهل بسا ، فنسب الغلام اليه واشتهر بهذه النسبة (١٠)

قرأت بخط العماد الكاتب أبي حامد محمد بن محمد الأصمبهماني

في سنة إحدى وخمسين وأربع مائة : وقتل في هذه السنة البساسيري
فإن السلطان سير أنو شروان ، وأزنم ، وساو تكين الخادم ،
وانضاف اليهم سرايا بن مزيغ الخفاجي ، فقصدوا نور الدين دببسا
والبساسيري عنده ، فمضى نور الدين ووقف البساسيري في جماعة
ووقعت في فرس البساسيري نشابة فاجتهد في قطع تجفافها ،
ورمته فرسه ، ووقع في وجهه ضربة ، وأسره كمشتكين دواتي عميد
الملك ، وحز رأسه ، وحمله إلى السلطان .

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال أخبرنا
أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني قال : دفع إلي
أبو الحسن (٢٠٢ - ظ) علي بن أحمد بن الحسين اليزدي الفقيه
جزء في آخره بخط محمود بن الفضل بن أبي نصر الأصبهاني دعاء
الامام القاسم بأمر الله أمير المؤمنين رضي الله عنه لما أخذ
البساسيري وحمله إلى الحديثة ، وهو في السجن ، فعمل هذا الدعاء
وسلمه إلى بدوي وأمره أن يعلقه على الكعبة :

الى الله العظيم ، من عبدك المسكين ، اللهم انك العالم بالسرائر
والمحيط بمكنونات الضمائر ، اللهم انك غني بعلمك واطلاعتك على
امور خلقك عن إعلامي بما أنا فيه ، عبد من عبيدك قد كفر بنعمتك
وما شكرها ، والقى العواقب وما ذكرها ، أطغاه حلمك ، وتجبر
بأناتك ، حتى تعدى علينا بغيا ، وأساء إلينا عتوا وعدوانا .

اللهم قل الناصرون لنا ، واعتز الظالم ، وأنت المطلع العالم ،
والمنصف الحاكم ، بك نعتز عليه ، واليك نهرب بين يديه ، فقد تعزز
علينا بالخالوقين ونحن نعتز بك يا رب العالمين .

اللهم إنا حاكمناه إليك ، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ، وقد
رفعت ظلامتي إلى حرمك ووثقت في كشفها بكرمك ، فاحكم بيني
وبينه ، وأنت خير الحاكمين ، وأرنا منه ما نرتجيه ، فقد أخذته العزة
بالأثم .

اللهم فأسلبه عره ومكنا بقدرتك من ناصيته يا أرحم الراحمين .
فحملها البدوي وعلقت (٢٠٣ - و) على الكعبة فحسب ذلك اليوم ،

فوجد أن البساسيري قتل وجيء برأسه بعد سبعة أيام من التاريخ
نقلت من كتاب الربيع تأليف غرس النعمة محمد بن هلال
الصابي ، وأنبأنا به عبد اللطيف بن يوسف عن أبي الفتح بن البطي
قال أنبأنا أبو عبد الله الحميدي عنه قال : حدثني المسعود بن أبي
المعالي الفضل ، وكان أحد حجاب البساسيري ، في المحرم من سنة
اثنتين وخمسين وأربعمائة بالرحبة ، وقد خرجت إليها خوفا من
جريرة فعل البساسيري بالقائم بأمر الله ، قال : رأيت في منامي في
ذي الحجة كأن البساسيري جالسا في داره وأنا قائم على رأسه إذ
دخل عليه غلامان بثياب حسان ، فنهض إليهما وخدمهما وقبل
أيديهما وأرجلهما ، وجلس بين أيديهما ، فقالا له : يا هذا قصدت
البصرة فعضدناك ، والأنبار فاعنناك ، وسنجار فساعدناك ، والموصل
فقويناك ، وبغداد فنصرناك ، ومالا بأيديهما يضمنانها ويبسطانها ما
معناه ، فما آخرناك وإلى متى ؟ يكررانه دفعات ، فاستطرف ذاك ،
وجاء خبره بعد أيام إلى الرحبة بقتله وزوال أمره .

قرأت بخط أبي منصور أسبهدوست بن محمد أسفار الديلمي في
ديوان شعره يرثي أبا الحارث البساسيري .

أقسمت بعدك لا أقول مديحا
حتى أصافح في التراب صفيحا

كلا ولا صاحبت غيرك صاحبا
الا الأسى والحزن والتبريحا

الصبر يحسن عند كل مصيبة
واراه بعدك يا أجل قبيحا

لهفي على دمك العزيز وقد غدا
فوق التراب مضيعا مسفوحا

ان كنت لم تسكن ضريحا
فالحشامني لذكراك لا يزال ضريحا

ولقد علمنا اذ طرحت على الثرى
ان الندى امسى هناك طريحا

أطسز بن أوق

(من المقفى للمقرئزي - مجلدة برتو باشا)

أطسز بن أوق الخوارزمي التركي ، مقدم الأتراك ، ومعنى أطسز ليس معه فرس ، وهي كلمة تركية ، وبعضهم يقول أوسز بالتاء عوضا عن الطاء ، وأصله كما قلت لك أولا .

كان أمير دمشق ، لقب نفسه بالملك المعظم ، وهو أول من ملك دمشق من الأتراك وقطع منها دعوة الخلفاء الفاطميين ، وأعاد دعوة خلفاء بني العباس .

وكان سبب قدوم الأتراك إلى الشام أنه لما تغلب ناصر الدولة بن حمدان في سنة إثننتين وستين وأربعمائة على مصر ، قصد إبطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فذهب الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن البخاري ، قاضي حلب ، وبعثه إلى السلطان ألب أرسلان أبي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان ، يسأله أن يسير إليه عسكريا ليقوم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى أبو جعفر إلى خراسان ، وبلغ السلطان ألب أرسلان رسالة ناصر الدولة بن حمدان ، فتجهز من خراسان ، في عساكر عظيمة ، ونزل الرها في أول سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، وبعث إلى محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس صاحب حلب يستدعيه ، فخاف منه ولم يتجاسر عليه ، فقطع السلطان الفرات فقال له الفقيه أبو جعفر : يا مولانا أحمد الله تعالى على ما أنعم به عليك ، فإنه لم يقطع هذا النهر تركي إلا مملوك وأنتم اليوم قد قطعتموه ملوكا ، فأحضر الأمراء والمماليك وأمره فأعاد الحديث ، فحمد السلطان الله على ذلك

ثم خرج إليه محمود بن نصر فأكرمه ورده إلى حلب بعدما نزل السلطان عن حلب وحاصرها شهر في جمادى الآخرة ، فقطع محمود

خطبة المستنصر من حلب وأقام الدعوة العباسية ، وعزم السلطان على المسير الى مصر فاتته الأخبار بأن ملك الروم قطع بلاد أرمينية يرزيد خراسان . فعاد من حلب إلى بلاده .

وخلف طائفة من الترك ببلاد الشام فيهم أطسز ، فسار ومعه أخوته جاولي والمأمون وقرلو وشكلي إلى أعمال دمشق ونزل عليها وحاصرها في يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة تسع (١١) وستين وأربعمائة ، ثم انصرف عنها يوم الثلاثاء النصف من شوال ومعه أخوته ففتحوا أعمال فلسطين .

ثم اختلف الأتراك فصار بعضهم مع أمير الجيوش بدر الجمالي بعكا وبلاد الساحل التي في يده ، وبعضهم مع القاضي عين الدولة ذي الرئاستين أبي الحسن محمد بن القاضي أبي محمد عبد الله بن القاضي أبي الحسن علي بن عياض بن أحمد بن أبي عقيل صاحب صور .

وبقي أطسز وأخوته بفلسطين ، وفتح الرملة وطبرية وبيت المقدس (٢٠٧ - و) وصار يحاصر في كل سنة دمشق ويرعى زرعها ومنع الزراعة حتى صارت الغرارة القمح تباع بعشرين دينار . فلما كانت سنة سبع وستين حاصر شكلي بن أوق ثغر عكا واخذه بالسيف وقتل الوالي ، فسارت إليه عساكر دمشق وحاربوه على طبرية .

وفي سنة ثمان وستين حاصر أطسز بن أوق دمشق في يوم السبت سلخ ذي الحجة عقيب هروب معلى بن حيدرة ، ورحل عنها يوم الجمعة لأربع خلون من صفر سنة ثمان وستين ، وذلك أن معلى بن حيدرة بن منزو لما أساء السيرة بدمشق وثار الناس عليه فر منها إلى بانياس ، فأقاموا عليهم الأمير رزين الدولة إنتصار بن يحيى المصمودي إمام عسكر معلى بن حيدرة في يوم الأحد مستهل المحرم منها .

واشتد الغلاء ، وقدم أطسز إلى دمشق في شعبان ، ولم يزل محاصرا لها حتى غلت الأسعار ، ولم يقدر على شيء من الأقوات ،

وبلغت غرارة الحنطة نيفا وعشرين دينارا ، ثم إنه فتح البلد صلحا ، ودخلها هو وعسكره يوم الاثنين من ذي القعدة منها ، وقطع خطبة المستنصر منها ، وأبطل الأذان بحي على خير العمل ، وأقام الخطبة للأمير المقتدي بأمر الله أبي القاسم بن الذخيرة بن القائم بأمر الله العباسي في يوم الجمعة خامس عشر من ذي القعدة ونظر في أمور دمشق وأحوالها .

وكثر عسكره ، بمن (١٢) فر إليه من مصر خوفا من أمير الجيوش بدر الجمالي ، وحدثته نفسه بأخذ مصر فصار إليها في سنة تسع وستين وأربعمائة وقد صار إليه ناصر الجيوش أبو الملوك تركان شاه بن سلطان الجيوش ولد كوز ، وأهدى إليه ستين حبة لؤلؤة تزيد زنة الحبة منها على مثقال ، وحجر من ياقوت زنته سبعة عشر مثقالا في تحف كثيرة مما كان قد أخذه أبوه من خزائن القصر ، وأغراه بأخذ مصر ، وأطمعه في أهلها ، فحشد ، وهم على حين غفلة ، وكان أمير الجيوش قد خرج لقتال العرب بالصعيد ، فنزل أطمس في أرياف مصر ، وأقام بها شهر جمادى وبعض شهر رجب ، ومعه نحو الخمسة آلاف ، فلما بلغ ذلك أمير الجيوش قدم إلى القاهرة واستعد للقاءه ، وخرج في يوم الخميس سابع عشر رجب وسير المراكب في النيل بالعلوفات والميرة ، وسار في نحو الثلاثين ألفا ما بين فارس وراجل ، فخافه أطمس وعزم على العودة عن مصر إلى الشام ، فلم يوافق أصحابه على ذلك ، وقالوا له : قد وطئت ديارهم وتعود بغير فائدة ، فلم يلتفت إلى قولهم ، فقال له أخوه المأمون وابن يلدكوز : لا يغرنك كثرتهم فإنما هم سوقة ، وصيحة واحدة تهزمهم ، فلا ترجع عن هذا الملك الذي أشرفت على أخذه ، وما زال به أخوه حتى تقدم للاقتال في يوم الثلاثاء ثلثي عشر منه ، وقبض الجيوش ، فتراخى أطمس عن الحرب إلى الليل بعدما استظهرت ميمنته ، فاحاطت العرب به من ورائه ونهبوا سواده ، فانهزم وقتل أخوه المأمون ، ولحق أطمس نفر ، وأقام بالرملة حتى وصل إليه من بقي من عسكره ، ودخل دمشق يوم السبت العشرين من شعبان .

وعاد أمير الجيوش مظفرا ، فندب بالعساكر مع ناصر الدولة

الجيوشي ، وبعثه إلى دمشق فحاصرها أياما ، وعاد في سنة سبعين ، فلما خاف اطمسز من ظفر اهل مصر به راسل تاج الدولة تتش بن الب ارسلان يستنجده ، فتحرك لذلك ويسال اخاه السلطان ملك شاه ابن الب ارسلان ان يوليه الشام ، فاقطعه السلطان ابو الفتح ملك شاه بن الب ارسلان الشام ، (فسار) اليها ونزل حلب سنة إحدى وسبعين ، فلم يقدر عليها ، فشمتا بسديار بكر ، وسار إلى دمشق وتسلمها من اطمسز ، ثم قبض عليه في ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، فكانت مدة ملكه بدمشق ثلاث سنين وستة أشهر وواحد وعشرين يوما .

أق سنقر قسيم الدولة

(من بغية الطلب لابن العديم)

أق سنقر بن عبد الله ، المعروف بقسيم الدولة ، مملوك السلطان أبي الفتح ملك شاه ، وقيل أنه لصيق له ، وقبل اسم أبيه آل ترغان من قبيلة ساب يو ، نقلت ذلك من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وأنبأنا به أبو اليمن الكندي وغيره عنه .

وتزوج أق سنقر داية السلطان ادريس بن طغان شاه ، وحظي عند السلطان ملك شاه ، وقدم معه حلب في سنة تسع وسبعين وأربعمائة حين قصد تاج الدولة تتش أخاه ، فانهزم عن حلب ، وكان قصدها وملكها السلطان ملك شاه في شهر رمضان من سنة تسع وسبعين وخرج عنها إلى انطاكية وملكها وخيم على ساحل البحر أياما ، وعاد إلى حلب ، وعيد بها عيد الفطر ، ورحل عنها ، وقرر ولاية حلب لقسيم الدولة أق سنقر في أول سنة ثمانين وأربعمائة ، فأحسن فيها السياسة والسيرة ، وأقام الهيبة ، وجمع الذعار ، وأفنى قطاع الطرق ، ومخيفي السبل ، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع ، فأستأصل شأفتهم ، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله لتأمن الطرق وتسلك السبل ، فشكر بذلك الفعل وأمنت الطرق والمسالك (٢٦٧ - ظ) وشار الناس في كل جهة بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار ، وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات ، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم رحمه الله .

وفي أيامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة واسمه منقوش عليها إلى اليوم ، وهو الذي أمر ببناء مشهد قرنبيا ووقف عليه الوقف ، وأمر بتجديد مشهد الدكة

أخبرني عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري

قال : كان قسيم الدولة أق سنقر أحسن الأمراء سياسة لرعيته ، وحفظا لهم ، وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وأمن واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل ، أو أحد من الناس ، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل أو كثير ، فكانت السبيارة إذا بلغوا قرية من بلاده الأقوا رجالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته.

سمعت والدي القاضي أبا الحسن رحمه الله يقول لي فيما يأثره عن أسلافه: إن قسيم الدولة أق سنقر كان قد نادى في بلد حلب بأن لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده. قال : فخرج يوما يتصيد ، فمر على قرية من قرى حلب ، فوجد بعض الفلاحين (٢٦٨ - و) قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفع على دابة ليحمله إلى القرية ، فقال ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعا ولا شيئا من موضعه ؟ فقال له حفظ. الله قسيم الدولة قد أمنا في أيامه ، وما نرفع هذه الآلة خوفا عليها أن تسرق ، لكن هنا دابة يقال لها ابن أوى تساتي إلى هذا النير فتأكل الجلد الذي عليه ، فنحن نحفظه منها ، ونرفعه لذلك

قال : فعاد قسيم الدولة من الصيد ، وأمر الصيادين فتتبعوا بنات أوى في بلد حلب فصادها حتى أفزوها من بلد حلب . قلت : وهي إلى الآن لا يوجد في بلد حلب منها شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد .

قرأت في كتاب عنوان السير تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : واقطع السلطان حلب وقلعتها مملوكه أق سنقر ، ولقبه قسيم الدولة ، وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة فاحسن السيرة ، وظهر منه عدل لم يعرف بمثله ، واستغلها في كل يوم ألف وخمسمائة دينار ، ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة تنش بن الب أرسلان في سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

قلت وكان تاج الدولة تتش قتله صبيرا بين يديه بسبعين ، قرية من قرى حلب من نقرة بني اسد على نهر الذهب ، وقيل بكارس الى جنبها وذلك ان تتش كان قد حصل في نفسه شيء من قسيم الدولة ، وكان (٢٥٨ - ظ) قسيم الدولة يستصغر أمر تتش حتى انني قرأت بخط أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه ، سنة اربع وثمانين واربعمائة وفيها :

نزل تاج الدولة إلى السلطان ، يعني نزل تتش إلى ملك شاه ، فلما رآه ترجل له ، وكان في الصيد ، خيفة أن يتخيل منه ، وحضر هو وقسيم الدولة في حضرته ، فقال تاج الدولة تتش : كان من الأمر كذا وكذا ، فقال له قسيم الدولة : تكذب ، فقال له السلطان : تقول لأخي كذا ، قال : نعم ، يطلع الله في عينيه ما يريده لك ، ويطلع في عيني ما أريده لك .

قلت : وعاد تتش من خدمة أخيه إلى دمشق ، فلما توفي السلطان ملكشاه برز تاج الدولة تتش في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين ، وخرج معه خلق من العرب ، ولقيه عسكر انطاكية بالقرب من حماة مع يغى سغان ، وسار تاج الدولة ، وقطع العاصي في شهر ربيع الآخر من السنة ، ورعى عسكره الزراعات ، ونهب المواشي وغيرها ، واتصل الخبر باق سنقر وهو بحلب ، وكاتبه السلطان بركيارق وخطب له بحلب ، فجمع وحشد ، واستنجد بمن جاوره ، فوصل اليه كربوقا صاحب الموصل ، وبزان صاحب الرها ، ويوسف ابن ابق صاحب الرحبة في أقي فارس وخمس مائة فارس ، منجدين قسيم الدولة على تتش ، وحصل الجميع بحلب ، ووصل تاج الدولة تتش الى الحانوتة ، ورحل منها إلى الناعورة ، وأغارت خيله على المواشي بالنقرة ، وأحرقوا بعض زرعها ، ورحل من الناعورة قاصدا نهر الوادي (٢٦٩ - و) وادي بزاعا ، فتهياق سنقر للقاءه ، والخروج إليه ، واستدعى منجما ليأخذ له الطالع ، فحضر عنده واختار له وقتا ، وقال : تخرج الساعة ، فركب ومعه النجدة التي وصلته ، وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع و مبارك بن

شبل ، وكان أطلقهما من الاعتقال ، ومحمد بن زائدة ، وجماعة من أحداث حلب ، والدليم والخراسانية ، في أحسن زي ، وأكمل عدة ، وقيل أنه قدر عسكره بعشرين ألف فارس ، وقيل كان يزيد عن ستة آلاف ، وقصد تاج الدولة يوم السبت التاسع من جمادى الأولى من السنة ، وقطع أق سنقر سواقي نهر سبعين قاصدا عسكر تتش (١٣) فأقاموا على حالهم ، وكان أول من برز للحرب أق سنقر ، فالتقى الفريقان .

ولم يثق أق سنقر بمن كان معه من العرب ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصاف ، ثم نقلهم إلى القلب ، فلم يغنوا شيئا ، وحمل عسكر تتش على عسكر أق سنقر ، فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا ويزان معهم إلى حلب ، ووقع فيهم القتل ، وثبت قسيم الدولة ، فأسر وأكثر أصحابه وحمل إلى تاج الدولة تتش فلما مثل بين يديه أمر بضرب عنقه وأعناق بعض خواصه ، ودخل تتش إلى حلب وملكها على ما نذكر في ترجمته إن شاء الله .

وبلغني أن تاج الدولة تتش قال لقسيم الدولة أق سنقر لما حضر بين يديه : لو ظفرت بي ما كنت صنعت ؟ (٢٦٩ ظ) قال : كنت أقتلك ، فقال تتش : فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي ، فقتله صبرا .

وقرأت بخط بعض الحلبيين أن السلطان ملك شاه بن العادل وصل ، يعني إلى حلب ، في شعبان سنة تسع وسبعين ، فتسلم البلد والقلعة وسلمها إلى قسيم الدولة أق سنقر ، فأقام بحلب ثمان سنين فقتل بكارس من أرض النقرة ، نقرة بني أسد ، في صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتله تاج الدولة بن العادل .

وقرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين الشيباني في تاريخه: في جمادى الأولى ، يعني سنة سبع وثمانين ، كان المصاف بين تاج الدولة تتش وبين الأميرين أق سنقر وبوزان ومن أمدهما به بركيا روق قريبا من حلب ، فلما التقى الصفاق استأمن ابن أبوق إلى تتش ، وانهزم الباقيون ، وأسر أق سنقر فجيء

به الى تتش فقال له تتش : لو ظفرت بي ما كنت صانعا قال :
أقتلك ، قال : فاني أحكم عليك بحكمك في ، وقتله .

قال : وكان اق سنقر من احسن الناس سياسة ، وآمنهم رعية
وسابلة .

وقرات بخط ابي منصور هبة الله بن سعد الله بن الجبراني الحلبي :
الصحيح ان قسيم الدولة قتل يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة
سبع وثمانين وأربعمائة .

ونقلت من خط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه
سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، فيها : كانت وقعة قسيم الدولة (اق)
سنقر وتاج الدولة يوم السبت تاسع جمادى الأولى (٢٧٠ - و)
وذلك ان تاج الدولة لما اراد العبور مختلفيا ليمضي إلى خراسان ،
فبلغ خبره قسيم الدولة ، فخرج إليه ، فقال لأصحابه الحقوني بحبال
لكتاف الاسرى استصغارا لهم ، فقال له سكران بن ارتق : حركش
هم - اي ارانب هم - ؟ ولم يتمهل إلى حين تصله خيله ، فمضى
واستعجل ، فكسره تاج الدولة بأرض نبل ، وأسره ورحل من موضع
الكسرة إلى حلب فملكها ، واستولى على المواضع التي كانت لقسيم
الدولة وجلس في قلعة حلب ، وشرب فيها ، وأحضر قسيم الدولة ،
كما حدثنا رومي بن وهب ، قال : حضرته وقد أحضر قسيم الدولة ،
فدخل وفي رقبته بند قبائه يسحب ، فلا والله إن أنكرت من عزة نفسه
شيئا مما كنت أعرفه ، فما زال يمشي حتى وقعت عينه على تاج
الدولة فجلس وأدار ظهره إليه فسحبوه وكلموه ، فما رد جوابا ولا
تحرك ، فقام إليه تاج الدولة فكلمه ، فلم يرد له جوابا مرتين أو ثلاثة
فضرب رقبته بيده ، وقطع راسه فطيف به البلاد وحملت جثته
فدفنت عند مشهد قرنبيا .

وبقي ليلتين ، وسار تاج الدولة إلى خراسان ، وبقي قسيم الدولة
في قبره ، وقد طوف براسه إقليم الأرض من الشام ، من سنة خمس
وثمانين إلى سنة ست وعشرين ، إلى حين ولي السلطان ، والخليفة
المسترشد بالله ، ولده زنكي بن اق سنقر وهو عماد الدين ، ملك

الأمراء بهلوان جهان ، عمر له مدرسة تولى أمرها الشيخ الأجل
الفقيه الامام أبو طالب بن العجمي ووقف عليها ضيعتين
(٢٧٠ - ظ) يساوي مغلها ألف دينار كل سنة ، وعمر بها عمارة
معجزة ، ونقل رمتة اليها ، رايتها في سنة سبع وعشرين ، ولم تكن
كملت ، وهي تزيد عن الوصف ، وجعل قبره قبالة البيت المسجد من
الشمال ، وأجرى إليها قناة ماء ، وغرس وسطها ، وجعل القبر مثل
قبر أبي حنيفة رضي الله عنه .

هكذا نقلت من خط ابن منقذ وفيه اوهام من جملتها أنه قال:
«فكسرة تاج الدولة بأرض نبل» وليس كذلك ، بل بأرض سبعين أو
كارس من نقرة بني أسد ، ونبل ليست من هذه الكورة وبينهما
مسافة يوم ، ومن جملة اوهامه أنه قال : «جلاس في قلعة حلب
وضرب رقبة أق سنقر فيها» وليس الأمر كذلك ، بل ضرب
رقبته عقيب الكسرة بسبعين ، أو كارس ، ورومي بن وهب حكى له
صورة قتلة ، لأنه كان بحلب والذي قتله تاج الدولة صبرا بحلب هو
بُزان صاحب الرها ، وكان انهزم في هذه الوقعة الى حلب ، فلما
دخلها تساج الدولة احضره وقتله وقيل بل أسره ، وحمله الى حلب
فقتله على ما ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى :وقال : «بقي
قسيم الدولة في قبره من سنة خمس وثمانين إلى سنة ست وعشرين»
وهذا طغيان من القلم ، فان قسيم الدولة قتل سنة سبع
وثمانين ، وقد ذكره كذلك ، وقال : «عمر - يعني ولده زنكي له -
مدرسة ، ووقف عليها ضيعتين ، والمدرسة لم يعمرها زنكي ، بل
عمرها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وابتدا في عمارتها في سنة
سبع عشرة ، واسمه وتاريخ عمارتها على جدارها ، لكن قسيم
الدولة أق سنقر (٢٧١- و) لما قتل دفن الى جانب مشهد قرنيبا بالقبة
الصغيرة المبنية بالحجارة من غربي المشهد ، وكان قسيم الدولة بنى
مشهد قرنيبا لنام راه بعض اهل زمانه ، ووقف عليه وقفا ، فدفن
الى جنبه ، وعمر على قبره تلك القبة ، فلما ملك زنكي حلب اثر أن
يبني لأبيه مكانا ينقله اليه ، وكانت المدرسة بالزجاجين لم تتم
وكان شرف الدين أبو طالب بن العجمي هو الذي يتولى عمارة هذه

المدرسة ، فأشار على زنكي أن ينقل أباه إليها فنقله ، وتم عمارة المدرسة ، ووقف على من يقرأ على قبره القرية المعروفة بشامر ، وهي جارية الى الآن ، وأما كارس التي هي وقف على المدرسة ، فأظنها وقف سليمان بن عبد الجبار .

وأخبرني أبو حامد عبد الله بن عبد الرحمن بن العجمي قال : أراد أتابك زنكي أن ينقل أباه إلى موضع يجده عليه ، ويليق به ، فقال له أبي : أناقد عمرت هذه المدرسة بالزجاجين ، وسأله أن ينقل إليها ففعل ، واتخذ الجانب الشمالي تربة لأبيه ، ولمن يموت من ولده وغيرهم .

وحكى لي والدي رحمه الله أن أتابك زنكي لما نقل أباه من قرنبيا ، وأدخله إلى مدرسة الزجاجين لم يدخل به من باب من أبواب مدينة حلب ، وأنهم رفعوه من بعض الأسوار ودلوه إلى المدينة ، لأنهم يتطيرون بدخول الميت إلى البلدة .

قال لي أبي : ووقف زنكي القرية المعروفة بشامر على تربة أبيه أق سنقر رحمه الله .

قرات بخط أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي وأنبأنا به عنه المؤيد بن محمد الطوسي وغيره قال . سنة (٢٧١ - ظ) ثمانين وأربع مائة دولة قسيم الدولة وزيره أبو العز بن صدقة: فيها استقرت الرتبة بحلب للأمير قسيم الدولة أق سنقر من قبل السلطان العادل أبي الفتح ، وتوطبت له الأمور بها ، وأقام الهيبة العظيمة التي لا يقدر عليها أحد من السلاطين ، وأظهر فيها من العدل والانصاف مع تلك الهيبة ما يطول شرحه ، ورخصت الأسعار في أيامه الرخص الزائد عن الحد ، وقرب الحلبيين وأحبهم الحب المفرط ، وأحبوه اضعاف ذلك ، وأقام الحدود ، وأحيا أحكام الاسلام وعمر الأطراف ، وأمن السبل ، وقتل قطاع الطرق، وطلبهم في كل فج ، وشنق منهم خلقا ، وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قد قصده ، وأخذه وصلبه على أبواب المدينة ، وكثرت في أيامه الأمطار ، وتفجرت العيون والأنهار ، وعامل أهل حلب من

الجميل بما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر .

قال : وفيها يعني سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، خرج الأمير قسيم الدولة أق سنقر رحمه الله يودع تابوت زوجته داية السلطان أبي الفتح ، ماتت بحلب ، وقيل إنه جلس وفي يده سكين . فأوماً بها إليها ، فوقع في مقتل وهو غير متعمد لها ، فماتت في الحال ، فوضعها في تابوت ، وحملت إلى الشرق ، وخرج لوداعها يوم الاثنين مستهل جمادي الآخرة .

وقال : سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، فيها تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة افامية من يد ابن ملاعب يوم الخميس ثالث رجب ، وشحن بها بعض بني منقذ (٢٧٢ - و) .

وقال : سنة ست وثمانين وأربعمائة ، فيها فتح الأمير قسيم الدولة أق سنقر ومعه تاج الدولة مدينة نصيبين يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، وقيل في صفر ، حدثني بهذا والذي الرئيس أبو الحسن علي بن محمد العظيبي قال : كنت مع الأمير قسيم الدولة في هذا الفتح .

قال : وفيها شرق قسيم الدولة رحمه الله إلى بغداد إلى عند السلطان بكيارق (١٤) بن أبي الفتح ، وعاد إلى حلب في شوال سنة ست وثمانين .

قال : سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، وكان قسيم الدولة عاد إلى حلب والتقى هو وتاج الدولة ، فكسر تاج الدولة قسيم الدولة وقتله على نهر سبعين شرقي حلب سابع جمادي الأولى ، وقيل يوم السبت تاسع جمادي الأولى ، وأصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه رأس الأمير قسيم الدولة رحمه الله ، فتسلم تاج الدولة مدينة حلب العصر من يوم الأحد عاشر جمادي الأولى ، وتسلم القلعة يوم الاثنين ، وقتل مع قسيم الدولة رحمه الله أربعة عشر مقدما منهم نختكين شحنة بغداد ، وقجقر شحنة حلب ، وطغان واسرائيل ، وقتل بحلب غلامه طغريك ، وله حكاية معروفة .

وعلي بن السليمان ، واخوه ومحمد البخاري الذي قفز على
انطاكية ، واخواجه أبو القاسم ، والطندكيني مع
سليمان ، والطرنطاس خاص ملك شاه ، وانهزم الى حلب بوزان
وكربوقا ، ويوسف بن أبق ، فأما بوزان فإنه قتل (١٥).

السلطان الب أرسلان

(من بغية الطلب لابن العديم)

الب أرسلان بن جفري بك بن سلجوق بن تلقاق بن سلجوق وقيل سلجُوق ، وله ولكل واحد من أبائه اسم آخر . بالعربية ، اسمه بالعربية محمد بن داود بن ميكائيل بن سليمان ، أبو شجاع بن أبي سليمان الملقب بالعدل النوري ، أصلهم من قرية يقال لها النور .

وتقاق أول من دخل منهم في الاسلام ، وتقاق بالتركية القوس من الحديد وقيل في نسب سلجوق الأعلى : هو سلجوق بن داود بن أيوب بن تلقاق بن الياس بن بهرام بن يوسف بن عزيز .

ملك الب أرسلان خراسان بعد أبيه جفري بك ، وفتح العراق من يد ابن عم أبيه قلطمش بن اسراييل سنة ست وخمسين وأربعمائة واستقر في السلطنة حين توفي عمه السلطان طغرل بك في الثامن من شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وكان ولي عهد عمه ، لأن عمه لم يكن له نسل ، فملك الب أرسلان بعده ، وهو أول من ذكر على منابر بغداد بالسلطان .

وقدم حلب محاصرا لها وفيها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، فدام على حصارها الى أن خرج اليه محمود مع والدته السيدة ، فأنعم عليه بحلب ، وسار الى الملك ديوجانس ، وقد خرج من القسطنطينية ، فالتقاه وأسره ، ثم من عليه وأطلقه ، وغزا الخزر والأبخاز ، وبلغ ما لم يبلغ أحد من الملوك ، وكان ملكا عادلا مهيبا مطاعا (٢٧٩ - ظ) .

حدثني والدي رحمه الله يآثره عن سلفه قال : قدم السلطان ،

- يعني الب أرسلان - وحاصر حلب ، وكان نازلا بميدان باب قدسرين ، ونصب على برج الغنم منجنيقا وتواتر ضرب المنجنيق عليه ، فأخذ عوام حلب شقة أطلس وربطوها على ذلك البرج استهزاء به ، يعنون أن البرج قد صدعه رأسه من ضرب المنجنيق ، فسأل السلطان عن ذلك ، فقالوا : إنهم قد عصبوا البرج ، يعنون أن البرج قد صدعه رأسه من ضرب المنجنيق ، وقد عصبوه على رأسه ليستريح من الصداع الذي يلحقه من ضرب المنجنيق .

قال فاستشاط السلطان غضبا وفرق تلك الليلة في عسكره كذا وكذا ألف فرقة نشاب من الخلنج (١٦) غير ما كان من غيرها ، وباكر البلد بالزحف حتى أشرف على الأخذ ، فخرجت اليه السيدة أم محمود ومعها ابنها محمود ، وحملوا مفاتيح البلد والقلعة ودخلا تحت طاعته ، ووطئا بساطه ، والناس في خدمته بالميدان صفان ، فدخلت وابنتها بين الصدفين ، وجعلوا يقبلان الأرض خدمة له حتى انتهى اليه ، فأكرمهما وقال للسيدة ، أنت السيدة؟ فقالت: سيدة قومي ، فاستحسن ذلك منها ، ورد البلد على ابنها وأكرمه ، وعاد الى المدينة مكرما مسرورا .

قال : وقصد بتطويل الحصار تعظيم البلدة لكونها مجاورة للروم ، فيقع عندهم أن هذا السلطان مع عظم قدره ، وكثرة عساكره نزل عليها هذه المدة ، ولم ينل منها ما أراد ، فلا يطمع فيها العدو . (٢٨٠- و) .

وقيل إن السيدة أقامت في البلد ، وخرج محمود اليه ، وأن بخولها عليه كان بالرها ، توجهت اليه وهو متوجه الى حلب . فسألها : أنت السيدة ؟ فأجابته بما ذكرناه .

وقرأت بخط أبي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم (١٧) : إن محمود ووالدته خرجا اليه ، فعفا لهما عن حلب بعد أحد وثلاثين يوما من مقامه .

وسمع أن ملك الروم ديوجانس قد خرج من القسطنطينية على

طريق الثغور والديروب ، فرحل عن حلب بعد خروج محمود اليه بخمسة أيام وقصده حتى لحقه على منازل كرد ، فحاربه حتى هزمه ، وأسر ملك الروم ، وغنم معسكره ، وكانت عدة الترك ستمائة ألف رجل .

وقرات في بعض التواريخ التي لم يسم جامعها أن الب أرسلان العادل نزل على حلب محاصرا لها في سنة ثلاث وستين وأربعمائة وبها محمود بن نصر بن صالح ، ثم ملكها بالأمان ، خرج اليه محمود بن نصر في يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الآخرة من السنة فأنعم عليه وأمنه ، وولاه حلب من قبله .

ثم رحل عنها في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة قاصدا بلد الروم في طلب ملكهم وقد توجه الى منازل كرد ، فلحقه في عساكره وأوقع به ، فهزمه ، الأتراك ، وحصل ملك الروم أسيرا في أيدي المسلمين ، وصار الى الب أرسلان ، فلم تزل المراسلات بينه وبينه الى أن تقرر إطلاقه (٢٨٠ - ظ) على مهادنة منها أن لا يعرض لبسلاد المسلمين ، ثم سيره الى بلاده ، فيقال إن أهل مملكته قتلوه لأمور نقموها عليه .

قرات بخط الحافظ أبي الخطاب عمر بن محمد العليمي وأنبأنا به أبو عبد الله بن أحمد بن محمد النسابة عنه قال: وجدت بخط أبي الحسن يحيى بن علي بن محمد بن زريق: ذكر أخبار السلطان الشهيد المعظم الب أرسلان ، أبي شجاع محمد بن داود ، برهان أمير المؤمنين، نضر الله وجهه. والسبب في وصوله الى الشام:

كان هذا السلطان رحمه الله ولي بعد وفاة عمه السلطان الأعظم أبي طالب طغرل بك بن ميكائيل في سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وعمر السلطان طغرل بك على ما ذكر قد أناف على ثمانين سنة ، ونازع السلطان المذكور في المملكة قتلمش ابن عمه ، ولم يثبت لمقاومته ، وذكر أنه لقيه في تسعين ألفا ، ومع السلطان يومئذ اثنا عشر ألفا ، فكسره ، وأنهزم قتلمش على وجهه ، وسقط عن دابته في هزيمته ، فوجد ميتا ، وحمل ودفن

بالري. وكانت الدامغان دار مملكته ، وقيل إن اللقاء بقرب ضيعة تعرف بده نمك ، وكان أخو السلطان قاووت متملك كرمان ، وكان بينهما منازعات ، وألت الحال بينهما الى الصلح والاتفاق .

وفي أيامه أغمدت سيوف الفتنة بخراسان ، وبطل ما كان عليه الترك من الفساد والعيث قبل استقرار المملكة ، وانتشر عدله ودعوته .

وكان سبب ظهوره الى الشام ما حدثني به الفقيه أبو جعفر محمد ابن أحمد بن البخاري رسول ناصر الدولة بن حمدان ، المتغلب على مصر اليه ، يستدعي عساكره ليسلم ديار مصر ، ويغير الدعوة ، وذلك لما كان بينه وبين جماعة من الأمراء بمصر منهم بلدكوز وغيره بمصر ، وأمير الجيوش بدر الجمالي بالشام ، وكانت المراسلة في سنة اثنتين وستين على يد الفقيه المذكور ، فحين ورد عليه الى خراسان ، جهز العساكر التي تملأ الفضاء وتضيف بها الدهناء ، عُدّة وعُدّة ، ووصل من بلاده على طريق ديار بكر ، ونزل الرها في أول سنة ثلاث وستين ، وأقام عليها نيفا وثلاثين يوما ، وسير الفقيه المذكور رسولا الى محمود بن نصر بن صالح صاحب حلب يستدعيه الى وطى بسطة وخدمته أسوة بمن وفد عليه من الملوك ، مثل شرف الدولة مسلم بن قريش ، وابن مروان ، وابن وثاب وابن مزيد ، وأمراء الترك والديلم ، فلم يفعل ، وخاف منه .

فسار عن الرها الى الشام قاصدا له ، وقطع الفرات في النصف من شهر ربيع الآخر من السنة ، وهو اليوم التاسع عشر من كانون الثاني ، وكان قد راسله السلطان في سنة اثنتين وستين يأمره بإقامة الدعوة العباسية ، والمصارعة الى الخدمة ، وأنفذه خلعا وتشريفا ، فامتثل أمره من إقامة الدعوة للامام القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، والسلطان المعظم بعده ، ولبس الخطيب الاسود ، وبطلت الدعوة المصرية من الشام في شوال من سنة اثنتين وستين

ولما قطع السلطان المعظم الفرات من نهر الجوز نزل بعض المروج

على الفرات ، فرآه حسنا ، فأعجب به ، فقال له الفقيه أبو جعفر :
يامولانا أحمد الله تعالى على ما أنعم به عليك ، فقال : وما هذه
النعمة؟ فقال : هذا النهر لم يقطعه قط تركي الا مملوك وانتم اليوم قد
قطعتموه ملوك ، قال : فلعهدي به وقد احضر جماعة من الامراء
والملوك ، وامرني باعادة الحديث ، فأعدته ، فحمد الله هو وجماعة
من حضر عنده حمدا كثيرا .

ونزل السلطان المعظم نقرة بني اسد الى ارض قنسرين الى
الفنديق ، والرسيل مترددة الى محمود ليخرج الى الخدمة ، وهو
خائف منه ممتنع عليه ، وتمادى الأمر نحو شهرين ، وحصن
محمود حلب وجفل الناس من سائر الشام اليها ، ودخل الرعب في
قلوب الناس لعظم هيئته وبأسه ونجدته وما اجتمع اليه من العساكر
الجمية والجيوش الكثيفة الضخمة ، وكان الأمر بخلاف ما ظن
الناس من ذلك الخوف ، وأنه رحمه الله لما يذسر من خروج محمود
إليه عاد منكفئا من منزل يعرف بالفنديق ، ونزل حلب في آخر جمادى
الآخرة من السنة ، وكانت الخيام والعساكر من حلب ، الى نقرة
بني اسد الى عزاز الى الأثارب ، متقاربة بعضها من بعض ، وبعض
العساكر ببلد الروم وسائر مروج الشام .

وسار بعض عساكره مع ابن جابر بن سقلاّب الموصلّي أحد
الكتاب الى طرابلس لتقرير أمرها .

واقام محاصرا لحلب شهر واحد ويومين ، ولم يقساّتلها غير يوم
واحد ، فحدثني من كان مع محمود صاجب حلب وهو داخل السور
لتحريض الناس على القتال في وقت الزحف ، أنه لم يعبر محلة من
محال حلب الا واهلها قد اشرفوا على الهجوم عليهم ، ونقب البرج
المعروف ببرج الغنم ، وهو احصن برج بها ، وعلق فظفر اهل حلب
بمن دخل ذلك النقب ، فساخذوا بعضهم ووقع الردم على
الباقيين . وحمل السلطان في ذلك اليوم ، فوقع يد فرسه في خسف
كان هناك ، واصاب في الحال رأس فرسه حجر المنجنيق فركب

غيرها وعاد وصرف الناس عن الحرب بعد أن أشرف البلد على الأخذ.

ونكر عن هذا السلطان أنه قال: أخشى أن أفتح هذا الثغر بالسيوف فيصير إلى الروم ، وراسل السلطان أمراء بني كلاب وأحضرهم من البرية ، فوصلوا إليه ، وعزم على تقليد بعضهم وتركه في مقابلة محمود ، وعوده لأجل ما بلغه من ظهور ممتلك الروم ووصوله في الخلق العظيم إلى بلاد أرمينية طالبا لبلاد خراسان ، فشعر محمود بوصول أمراء العرب ، وأنه إن تم ذلك خرج الشام من يده ، فراسل السليماني المتردد إليه ، كان في المراسلة ، يعلمه أنه قد عزم على وطء بساطة وخدمته خوفا مما أشرف عليه ، وخرج إلى السلطان على غفلة منه في أول شعبان من السنة ، فرأى منه من الأكرام والتشريف والخلع ما زاد على أمديته ، وفي الحال رده إلى حلب ، وقال: أرجع إلى والدتك ، وكانت والدته المعروفة بالسيدة علوية بنت وثاب قد خرجت إليه برسالة أبنها عند كونه بالرها وتردد خروج محمود دفعة بعد أخرى ، وقرر معه السلطان أن يخرج بعساكره ويضيف إليه السليماني ، وأن يتوجهها إلى بلاد دمشق والأعمال المصرية ليفتحها ، ففعل ما أمره به.

وحكى الأمير أبو الحسن علي بن منذر أن خواجا بزرگ (١٨) الوزير سأله عند حضوره عنده وقت خروج محمود إليه عمن قتل بحلب يوم الحرب ، فقال: انهم نفر يسير ، فتعجب من ذلك ، وقال: في ذلك اليوم رمي من الخزانة بثمانين ألف نشاب ، سوى ما رماه بقية العسكر ، ودفع الله عن أهل الشام ، ولم يقاتل فيه مدينة ولا حصن ولا سيبت حرمة ، ولا اعترض لأحد من المسلمين وذلك من حسن سيرة هذا السلطان ، وعظيم هيئته ، تغمد الله بالغفران.

وعاد السلطان منكفئا إلى بلاده على طريق العراق ، معرجا منه نحو بلاد أرمينية قاصدا لممتلك الروم ، وأسرع في سيره بمن خوف معه ، ووصل فالتقى ممتلك الروم بالقرب من خلاط وتلك

البلاد ، فاعتبر من وصل معه من عسكره فكانت عدتهم ثلاثة عشر ألفا ، وتصاف العسكران في يوم الجمعة ، ووقف السلطان عن قتاله امتظارا لوقت الصلاة والدعاء على منابر الاسلام ، وترقبا للاجابة في نصرة المسلمين ، فلما صلى الظهر ناجزهم الحرب فآظفروه الله تعالى بعسكر الروم ، وأجراه على جميل العادة في الظفر ، ومكنه ممن بغى وكفر ، ونهب العسكر بأسره ، وأسر متملك الروم ، وأقامه بين يديه ومعه باز وكلب صيد ، ثم انعم عليه ، وخلع وأكرمه ، وأصطنعه وسيره مع قطعة من عسكره ليعده الى بلاده ومملكته ، فاختلت الأمور عليه ، ولم يتسم له ما أراد ، وذكر انه كحل ومات بعد مدة .

ولم يجر في الاسلام منذ ظهر مثل هذا الظفر ، ولا أسر للروم متملك قبل هذا في الاسلام ، وكان السلطان سأل متملك الروم عند حضوره بين يديه ما سبب خروجه وتعريضه نفسه وعسكره لهذا السبب ، فذكر انه لم يرد إلا حلب ، إذ كان كلما جرى على الروم كان محمود هو السبب فيه ، والباعث عليه لمن قصدها من الترك . وغنم من هذا العسكر ما يفوت الاحصاء والعد ، وتجاوز الأمد والحد ، وبيع من غنائه ما يساوي مائة دينار بدينار واحد ، فله الحمد على ذلك كثيرا .

قلت : ومن ذلك اليوم عرف تل السلطان بتل السلطان لنزول الب أرسلان على التل (٢٨٣ - ظ) وكان يعرف المكان أولا بالفنيديق ، وكان فيه فندق صغير يأوي إليه الناس ، شاهدته قبل أن يجدد الأمير سيف الدين علي بن سلمان بن جندر هذا الخان الذي هو الآن موجود .

قرأت بخط أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه ، في سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، في ذكر العادل الب أرسلان وحصاره حلب قال : حدث الأمير طغتكين صاحب دمشق أبي قال : كنت حامل وراء السلطان حين ضربه حجر المنجنيق ، ولو

سلم ساعة لأخذها ، وكان قد وصل الشام يريد الطلوع الى مصر ليفتحها ، ولو طلع لأخذ البلاد جميعها ، وأخذ مصر .

قال: وحدثني مولاي ابي قال: كانت خيامه من شمالي مسجد مرج دابق الى قناطر قدسرين ، اي موضع عبّرت فيه ورأيت السراق والخيام قلت في هذه السلطان.

وقال: قال ابي: وحدثني وزير تاج الدولة أبو النجم (١٩) قال: شرب السلطان على حلب وسكر ، وضل رشده بالسكر ، فقال هاتوا الأمير البدوي ، يعني محمود ، لأضرب رقبتة ، فجاء الغلمان إلى خواجا بزرگ وقالوا : قد قال السلطان كذا وكذا ، فمضى إليه خواجا بزرگ ، وقال له : يا سلطان العالم يظهر عنك مثل هذا وكان السلطان قد بلغ منه السكر ، فضربه بالمغسل الذي في دسست الشراب ، وقال : أريده ، ففتح أثراً في وجهه (٢٨٤ - و) فمضى خواجا إلى جانب السراق إلى خاتون فقال ، بادرينا يا خاتون وإلا الساعة يتلف العسكر وينهب بعضه بعضا ، كان كذا وكذا ، فقامت تمشي إليه ، فقال لها خاتون ما جاء بك ؟ فقالت : نم أنت سكران ، وتفرقوا ، فلما أصبحت قالت له : ما تحتشم تفتش عليك باب غدر ، قال : لا إن شاء الله ، قالت : بلى البسارحة ، أردت تحضر الأمير البدوي وتضرب رقبتة ، وأنت قد أعطيت أمانك ، هذا وأنت تريد تفتح مصر وما دونها ، وفعلت كذا وكذا بخواجا بزرگ قال : والله ما معي علم من هذا جميعه ، ولما حضر عنده خواجا قال له : يا حسن ما هذا الأثر في وجهك ؟ فقال : يا سلطان العالم هذا اثر ، وقعت البسارحة وأنا خارج من خيمتي ضربني عمود الخيمة ، ولم يعلمه بذلك ، فاستحسن الناس منه ذلك ، ثم رحل السلطان من حلب يريد مصر ، فرحل مرحلة واحدة فجاءه الخبر بأن ملك الروم ذيوخانس قد خرج لما رأى البلاد خالية من العساكر ، فرحل على ادراجه يريد ملك الروم .

قرات بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين : سار السلطان الب أرسلان ، يعني في سنة ثلاث وستين وأربع مائة ، إلى ديار

بكر ، فخرج إليه نصر بن مروان وخدمه بمائة ألف دينار ، وقصد حلب وحاصرها ، فخرج إليه محمود بن نصر ليلاً ، ومعه والدته ، فدخلوا على السلطان ، فقالت له : هذا ولوي فافعل به ما تحب ففعل معه الجميل وخلع عليه ، وغزا السلطان الب أرسلان بلاد الروم ، وخرج أمر (٢٨٤ - ظ) الخليفة القائم إلى الخطباء على المنابر بالدعاء له بما صيغته :

اللهم اعلي راية الاسلام وناصره ، وانقض الشرك بجب غاربة ، وقطع اواصره ، وامدد المجاهدين في سبيلك الذين في طاعتك بذفوسهم سمحوا ، وعلى متابعتك فاسزوا وربحوا ، بالعون الذي تطيل به باعهم ، وتملاً بالأمن والظفر رباعهم ، وأحب شاهنشاه الأعظم برهان أمير المؤمنين بالنصر الذي تذر به اعلامه ، وتستبشر بمكانه من اختلاف الظلال ايامه ، وأوله من التأييد الضاحكة مباسمه ، القائمة أسواقه ومواسمه ما تقوي به في إعرار دينك يده ، ويقضي بأن يشفع يومه في الكفار غده ، واجعل جنوده بملائكتك معصودة ، وعزائمه على اليمن والتوفيق معقودة ، فإنه قد هجر في كريم مرضاتك الدعة ، وتاجرك من بذل المال والنفوس ما انتهج فيه مسالك أوامرك الممتثلة المتبعة ، فإنك تقول ، وقولك الحق : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » (٢٠) .

اللهم فكما أجاب نداءك وإياه ، واجتنب التثاقل عن السعي في حياة الشريعة وإياه ، ولاقى أعداءك بنفسه وواصل في الانتصار لدينك يومه بأمره ، أنت أخصصه بالظفر ، وأعنه في مقاصده بحسن مجاري القضاء والقدر ، وحطه بحرر يدرأ عنه من الأعداء كل كيد . ويشمله من جميل صنعك بأقوى أيد ، ويسر له كل (٢٨٥ - و) مطلب يرومه ويزاوله حتى تكون نهضته الميمونة عن النصر مسفرة ، ومقلة أحزاب الشرك مع إصرارهم على الضلال غير مبصرة فابتهلوا معاشر المسلمين إلى الله تعالى في الدعاء له بذية صافية ، وعزيمة صادقة ، وقلوب خاشعة ، وعقائد في رياض الاخلاص

راتعة ، وواصلوا الرغبة إلى الله في إعزاز جسانبه ، وفل غرب
مجانبه ، وإعلاء رايته ، وأنالته من الظفر أقصى حده وغايته

وأنفذ السلطان في مقدمته أحد الحجاب ، فصادف عند خلاط
صليبا تحته متقدم الروسية في عشرة آلاف من الروم ، فحاربوهم ،
وأعطى الله المسلمين النصر عليهم ، فأخذ الصليب وأسر المقدم ،
وتقارب السلطان ، وعظيم الروم في مكان يعرف بالزهرة بين خلاط
ومنازكرد في يوم الأربعاء خامس ذي القعدة ، وكان السلطان في
خمس عشرة ألفا ، وصاحب الروم في مائتين ألف.

وراسل السلطان ملك الروم في الهدنة ، فقال ملك الروم : لاهدنة
الا بالري ، فعزم الله على السلطان على الرشد ، ولقيه يوم الجمعة
وقت الزوال ، وهو سابع ذي القعدة ، وأعطى الله المسلمين النصر
فقتلوا منهم قتلا ذريعا ، وأسر ملك الروم ، وضربه الب أرسلان ،
ثلاث مقارع ، وقطع عليه ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، واي وقت
طلب السلطان عساكر الروم نفذها ملكهم اليه ، وان يسلم كل أسير
من المسلمين عنده (٢٨٥ - ظ) (٢١)

ذكر صاحب ملك نامه الذي صنقه لألب أرسلان محمد بن داود أنه
استفاد أذسابهم وأحسابهم من الأمير اينانج بك اذ كان أسن القوم
وأعرفهم بأذسابهم وأحسابهم ، قال : كان الأمير سلجوق بن دقاق
من اعيان ترك خزر ، وكان دقاق يلقب بتمر بالغ اي شديد القوس .
قال اينانج بك : لما مر زمان على الأمير دقاق ، ولد له مولود مبارك
سماه سلجوقا ، وكان يلقبه بسببشي ، يعني مقدم الجيش ، وكان
لسلجوق أربعة اولاد : ميكائيل ، وموسى ، وأرسلان الملقب ببيغو
اكلان ، وآخر توفي زمن شبابه.

وكان للأمير ميكائيل بن سلجوق ولدان : طغرل بك ، وداود جفري
بك فعلى هذا يكون الب أرسلان محمد بن جفري داود بن ميكائيل بن
سلجوق بن دقاق.

وقرات في بعض التواريخ أن أباه جفري بك عهد اليه في سنة إحدى
وخمسين وأربعمائة حين مرض باليرقان ، وضعف مزاجه ، وجهز

اليه السلطان مودود^(٢٢) جيشا الى خراسان ، ففوض ولاية عهده الى ابنه الب ارسلان ، فأقام الب ارسلان ببلخ مدة حتى انكشف عنه وعثاء السفر.

ولما سمع مودود بذلك جمع الجنود ، ولزموا مكانهم ، فحمل عليهم السلطان الب ارسلان حملة ساق التقدير منها الى جيوش غزنة قتلا ذريعا ، وانتهزما سريعا ؛ واسر الب ارسلان الف رجل من القواد ، وغنم من الخيل والسلاح مالا يدخل في الحساب ، فلما دخل على ابيه جفري بك سر بذلك وزال (٢٨٦ - ظ) مرضه ، ثم سار بعد ذلك جفري بك الب ارسلان الى ترمذ ووالي القلعة بها الكاتب البيهقي^(٢٣) ، فخرج منها ، وتوجه الى غزنة ، وسلمها الى جفري بك ، ففوض جفري بك ولاية بلخ وطخير ستان وترمذ وخش وولوالج الى الب ارسلان ، وشد ازره بوزارة ابي علي بن شاذان ، فعمر بلاده بحسن كفايته ، ولما قرب موته سال الب ارسلان ان يفوض الوزارة بعده الى نظام الملك

ثم ورد خاقان الترك ترمذ وخربها ونهبها ، فطرده الب ارسلان عنها فمضى الخاقان وخيم على جيحون من جانب بخارى ، وطلب المصالحة ، مصالحة جفري بك ؛ واجتمع به ، ثم افترقا ، واثّر المرض في جفري بك ، وزاد ضعفه ، وكان عمره سبعين سنة ، فقضى نحبه في صفر سنة اثنتين وخمسين واربعمائة في سرخس ، وقام مقامه في الملك السلطان الب ارسلان ، وكان ملكشاه ديند ابن ست سنين ، وعاش طغرل بك السلطان بعد جفري بك ثلاث سنين .

قرات في كتاب الربيع تاليف غرس النعمة ابي الحسن محمد بن هلال ابن الحسن بن ابراهيم بن هلال الصابى ، واخبرنا به ابو محمد ابن عبد اللطيف بن يوسف بن علي البغدادي وغيره اجازة عن ابي الفتح محمد بن عبد الباقي بن البطي قال : انبانا ابو عبد الله الحميدي قال : اخبرنا غرس النعمة ابو الحسن قال : حدثني بعض الخراسانية ، قال : خرج الب ارسلان بن داود ، الملقب عضد الدولة ، وهو صهبي الى الصيد فرأى شيخا ضعيفا على رأسه شوك قد قطعه

وتعب به ، وهو ذا يقاسي (٢٨٧ - و) من حملة شدة وصعوبة فقال له: يا شيخ قال : لبيك ، قال : اتحب ان اريحك مما انت فيه من هذا الكد والتعب والنصب مع الشيخوخة وكبر السن ؟ فظن الشوكي انه يعطيه ما يكفه به عن ذاك ويعينه ، فقال : اي والله يا مولاي ، فرماه بذنابة قتلتة مكانه .

وهذا صدر من الب ارسلان في حال الصبوة والجهل ، وحمله عليه سكر الشباب ، اما في حالة اكتهاله واستقراره في الملك ، فكان من اعدل الملوك واحسنهم سيرة وارغبهم في الجهاد ونصرة الدين .

قرات في منتخب من كتاب زينة التواريخ للامير ابي الحسن علي بن الشهيد ابي الفوارس ناصر بن الحسيني قال : لما استبد السلطان الب ارسلان بالامر ، واستوى على سرير الملك بسط على الرعايا جناح العدل ومد عليهم ظل الرافة والبذل ، وقنع من الرعايا بالخراج الاصلي في ذوبتين من كل سنة ، وكان يتصدق في كل سنة في شهر رمضان باربعة الاف دينار ببلخ ، والـ الف بـ مرو ، والـ الف بهـ رة ، والـ الف بنيسابور ، ويتصدق بعشرة الاف في حضرته .

وكتب السعاة اليه سعاة بنظام الملك ، وتعرفا بمكاسبه ، ووضعوه على طرف مصلاه ، فدعا السلطان نظام الملك وقال له : خذ هذا الكتاب فان صدقوا فيما كتبوه فهدب اخلاقك ، واصلح احوالك ، وان كذبوا فاغفر للجارم ، واشغل الساعي بمهم من مهمات الديوان حتى يعرض عن الكذب والبهتان (٢٤).

قرات بخط ابي غالب بن الحصين : في شهر رمضان - يعني من سنة ست وخمسين واربعمائة - وصل زكابي من تبريز بكتاب من نظام الملك يخبر ان السلطان الب ارسلان اوغل في الغزاة ببلاد الخزر ، وبلغ حيث لم يبلغ احد من الملوك ، وافتتح بلدا عظيما يسمى اسد شهر ، وقتل نحو ثلاثين الف رجل ، وسبي منها يوفي على خمسين الف مملوك ، وهادن ملك الابخاز ، وعاد من ذلك الشغل ، ونزل على مدينة آني من بلاد الروم ففتحها عنوة وهي مدينة عظيمة تشتمل على سبعمائة الف دار ، واسر منه خمسمائة الف انسان .

قال : وهو اول من ذكر على منابر مدينة السلام بالسلطان عضد الدين الب أرسلان .

وقرات بخط ابي غالب ايضا ، سنة خمس وستين واربعمئة : في اولها غزا السلطان الب أرسلان جيحون ، وكان معه زيادة على مائتي الف فارس ، وعبر عسكره اليهم في ذيف وعشرين يوما من صفر ، وكان قد قصده شمس الملوك تكين بن طمغاج ، واتاه واصحابه بمسند حفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمي ، وحمل الى قرب سريره ، وهو مع غلامين ، فتقدم بان يضرب له اربعة اوتاد ، وتشد اطرافه اليها ، فقال : يا مخنث مثلي يقتل هذه القتلة ! فاحتد السلطان الب أرسلان ، واخذ القوس والذشابة ، وحرص على قتله ، وقال للغلامين : خليا فخلياه ورماه ، فاخطاه ، ولم تخطىء له قط ذشابة غير هذه ، فعدا يوسف اليه وكان السلطان جالسا على سدة ، فنهض ونزل فعثر ووقع على وجهه ، وقد وصله يوسف فبرك عليه وضربه (٢٨٨ - و) بسكين كانت معه في خاصرته ، ودخل السلطان الى خيمته وهو مثقل ، ولحق بعض الفراشين يوسف فقتله بمروة كانت في يده ، وقضى الب أرسلان نحبه ، وجلس للعزاء به ببغداد ثامن جمادى الآخرة ، ومولده سنة اربع وعشرين واربعمئة ، وبلغ من العمر اربعين سنة وشهرين ، ودفن السلطان الب أرسلان عند قبر ابيه بمرو .

اخبرنا ابو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي قال : اخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني قال : ملك البلاد الب أرسلان وهو محمد بن داود ، كسر قتلمش بنيه نمك في ذي الحجة سنة خمس وخمسين ، واستخلص المالك ، وغزا الروم في شعبان سنة ثلاث وستين ، وكسر الروم ، واسر ملكهم ، وذودي عليه في السوق ، ثم من عليه وخلاه ، ورده الى ملكه ، وقتل ببليدة يقال لها نرزم على طرف جيحون ، سلخ صفر ، او غرة شهر ربيع الاول من سنة خمس وستين واربعمئة ، وحمل الى مرو ، ودفن بجانب ابيه . انبانا عمر بن طبرزد عن ابي القاسم بن السمرقندي عن محمد

ابن هلال قال : حدثني ابو الحسن البصري الشاعر قال : رايت ابا طاهر بن ابي قراط العلوي في المنام وانا اقول له : ما فعل الله تعالى بك ، وكنت اعلم فساد اعتقاده ، فلم يجبني ، فلما كررت عليه القول وهو في حاله في ترك الاجابة قال لي : دع عنك هذا فقد ضرب الله نيسابورا ثنتين وسبعين عصا ، وانتبهت ، ففسرته على بعض من يدخل الي ممن له بذلك معرفة ، فقال : عد يا سيدنا اثنى وسبعين يوما وانظر ما يتجدد بنيسابور ، فكان قتل عضد الدولة الب ارسلان ابن داود سلطانها على جيحون في الجانب الشرقي ، وقد عبر لقتال شمس الملك بن بورخان صاحب سمر قند وبخارى وتلك الاعمال في اليوم الثالث والسبعين من المنام ، وكان ذلك عجيبا ، ويقال ان اهل بخارى وسمر قند وما يتاخمها من الاعمال اجتمعوا بسمر قند لما اظلمت من عساكر الب ارسلان وكانت عظيمة ، والاكثر يقول : انها قاربت مائتي الف فارس ، وان لم يكن لسلطانهم ولهم به قوة ، وبدا الاجتياح والنهب في الاعمال ، وبات صلحاء الناس بسمر قند في الجامع مدة اسبوع يصومون ويفطرون على الرماد والملح ، ويدعون الله كفايتهم ما قد اظلمهم وامر من قد قصدهم ، فلم تنسلك يام الاسبوع حتى ورد اليهم خبر قتله ، وان يوسف احد اصحاب شمس الملك لما اخذ من قلعة هناك احضر بين يديه ، فتهنئده وتوعده ، ثم ضرب اليه نشابة ، وقال لغلامين اتراكا كانا يمسكانه : خليه ورماه فلم يصبه ، وعدا اليه يوسف قبرك عليه وجرحه بسكين كانت في خفه جراحة عاش منها ثلاثة ايام ومات.

الب ارسلان بن رضوان بن تتش

(من بغية الصلب لابن العديم)

الب ارسلان ، ويسمى محمد ايضا ، بن رضوان بن تتش بن الب ارسلان بن جغري، بك بن سلجوق بن تقاق ، ابو شجاع ، الملقب تاج الدولة ، الاخرس ، والب ارسلان الذي قدمنا ذكره جد ابيه.

ملك حلب حين مات ابوه رضوان وهو صبي ، وتولى تدبير امزه خادم ابيض كان من خدم ابيه اسمه لؤلؤ (٢٨٨ - ظ) ويعرف باليايا ، فلم تتم له سنة حتى قتله غلماناه بالمركز من قلعة حلب ، ووافقهم على ذلك لؤلؤ اليايا .

وكان الثغ لا يحسن الكلام فدعي بالاخرس لذلك . وكان مهورا قليل العقل ، سفاكا للدم منهمكا في المعاصي .

سمعت والدي رحمه الله يقول : جمع تاج الدولة الاخرس بن رضوان جماعة من الامراء والاجناد وادخلهم الى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب او المصنع لينظروه ، فلما حصلوا كلهم فيه قال لهم : ايش تقولون فيمن يضرب رقابكم كلكم ها هنا ، فتضرعوا اليه ، وايقنوا بالقتل ، وقالوا : يامولانا نحن مماليكك وبحكمك ، وخضعوا له حتى اخرجهم ، ثم انهم خافوا على انفسهم منه فاجمعوا على قتله فقتلوه .

وقال لي الامير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم : كان جدي مالك من جملة الامراء الذين فعل بهم ذلك ، فلما نزل من القلعة سار عن حلب الى قلعة جعبر ، وترك المقام بحلب خوفا على نفسه .

قال : ومضى اكثر الامراء من حلب من خدمته الى ان قتل ، عمل

عليه لؤلؤ الخادم مملوك ابيه مع جماعة من الامراء ، فقتلوه .
قال : ثم ان لؤلؤ خاف فاخذ الاموال من قلعة حلب ، وسار طالبا بلاد
الشرق ، فلما وصل الى دير حافر قال سنقر الجكرمشي : تتسكونه
يقتل تاج الدولة ، وياخذ الاموال ، ويمضي ! فصاح بالتركية - يعني
- الارنب الارنب ، فضربوه بالسهم فقتلوه .

قال : ولما هرب لؤلؤ (٢٨٩ - و) اقامت القلعة في يد امنة
خاتون بنت رضوان يومين فلما قتل لؤلؤ ، ملكوا سلطان شاه بن
رضوان . هكذا قال لي ، ولؤلؤ ، هو الذي نصب سلطان شاه بعد قتل
اخيه ، وبقي سنة وثمانية اشهر يدير دولته .

وقرات في كتاب عنوان السير تاليف محمد بن عبد الملك الهمذاني
قال : وولي بعده - يعني رضوان - ابو شجاع محمد بن رضوان ،
وكان لا يحسن ان يتكلم ، واستولى على حلب وله من العمر تسع
عشرة سنة ، وقتل خالقا من اصحاب ابيه ، فاغتاله خادما كان
خصيصا به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمسمائة ، وكان ملكه
بحلب سنة واحدة .

قال لي بدران بن حسين بن مالك : بلغني ان تاج الدولة الاخرس
خرج يوما الى عين المباركة ، ونصب بها خيمة ، واخذ معه اربعين
جارية ، ووطنهن كلهن في ذلك اليوم .

انباننا ابو نصر محمد بن هبة الله بن محمد القاضي قال : اخبرنا
الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : الب ارسلان بن
رضوان بن تتش بن الب ارسلان التركي ولي امرة حلب بعد موت
ابيه رضوان في جمادى الاخرة سنة سبع وخمسمائة وهو صبي
عمره ست عشر سنة ، وتولى تدبير امره خادما لابيه اسمه لؤلؤ ،
ورفع عن اهل حلب بعض ما كان جدد عليهم من الكلف ، وقتل اخويه
ملك شاه وميريجا (٢٥) ، وقتل جماعة من الباطنية ، وكانت دعوتهم قد
ظهرت في حلب ايام ابيه ، ثم كاتب (٢٨٩ - ظ) طغتكين امير
دمشق ، ورغب في استعطافه ، فأجابه طغتكين الى ذلك ، ودعا له على
منبر دمشق في شهر رمضان من هذه السنة ، ثم قدم الب ارسلان في

هذا الشهر دمشق ، وتلقاه طغتكين واهل دمشق في احسن زي ، وانزله في قلعة دمشق ، وبالح في اكرامه ، فاقام بها اياما ، ثم عاد الى حلب في اول شوال ، وصحبه طغتكين ، فلما وصل حلب لم ير طغتكين ما يحب ففارقه وعاد الى دمشق .

وسمعت سيرة الب ارسلان بحلب وانهمك في المعاصي واغتصاب الحرم ، وخافه لؤلؤ اليايا ، فقتله بقلعة حلب في الثامن من ربيع الاخر من سنة ثمان وخمسمائة ، ونصب اخاله طفلا عمره ست سنين ، وبقي لؤلؤ بحلب الى ان قتل في اخر سنة عشر وخمسمائة (٢٦).

قرات في مدرج وقع الي بخط العضد مرهف بن اسامة بن منقذ فيه تعاليق من الحوادث في السنين قال : وفيها - يعني سنة ثمان وخمسمائة ، قتل الاخرس ابن الملك رضوان في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الاخر .

قلت : ومن العجب العجيب الذي فيه عبرة لكل اريب ان رضوان لما ملك حلب قتل اخوين كانا له ، فقوبل في عقبه ، فلما ولي الب ارسلان قتل اخويه ابني رضوان .

نقلت من خط ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وانباؤنا به ابو اليمان الكندي عنه قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها : مات الملك رضوان بحلب ، وجلس موضعه ولده تاج الملوك الب ارسلان ، وصار اتابكه لؤلؤ الخادم ، وقتلوا من الخدم والخواص جمعا حتى استقام امرهم ، وقبض على اخوته ، وفيها قتل تاج الدولة بن الملك رضوان اخوته ملك شاه وابراهيم صبيبين احسن الناس صورا ، وقتل خادم ابيه التونتاش المجني ، وقتل الفتكين الحاجب وخافه الناس ، فالب عليه خادمه اتابكه لؤلؤ من قتله .

ثم قال : سنة ثمان وخمسمائة ، فيها ، قتل تاج الدولة الب ارسلان بن رضوان صاحب حلب بداره في قلعة حلب بتدبير اتابكه لؤلؤ ، واجلسوا موضعه اخاه الملك سلطان شاه بن رضوان (٢٧).

كذا قال العظيمي : « ملك شاه و ابراهيم » وهو وهم وانما هو
وميريجا ، واما ابراهيم فانه اخر من بقي من ولد رضوان ، ولم يبق
من ذرية رضوان الا عقبه الى يومنا هذا . (٢٩٠ - و) .

بدر الجمالي

(من المقفى للمقرئزي - مجلدة برتو باشا)

بدر ابو النجم الجمالي المنعوت بالسيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام ، كافل قضية المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين . كان مملوكا ارمنيا لجمال الدولة ابي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس الشام ، وما زال ياخذ نفسه بالجد من زمن الشبيبة فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم ، وينتقل في الخدم الى ان ولي دمشق من قبل المستنصر بالله في يوم الاربعاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الاخر سنة خمس وخمسين واربعمائة ، فتسلمها ومعه الشريف القاضي ثقة الدولة ذو الجلالين (٢٤٢ - و) ابو الحسين يحيى بن زيد الحسيني الزيدي ناظرا في الاعمال ، واقام بها الى ان خرج منها كالهارب من اهلها في ليلة الثلاثاء لاربع عشرة خلت من شهر رجب سنة ست وخمسين ، ثم وليها ثانيا يوم الاحد السادس من شعبان سنة ثمان وخمسين ، فاقام بها الى ان بلغه قتل ولده بعسقلان ، فخرج منها ونزل على مسجد القدم خارج دمشق في شهر رمضان سنة ستين واربعمائة ، فخرج الاحداث والعسكرية الى قصره واحرقوه .

وفي سنة اثنتين وستين نزل على صور وحاصر القاضي عين الدولة ابا الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن ابي عقيل الغالب عليها ، ثم حصره في سنة ثلاث وستين .

وتتابع وصول الاتراك من العراق الى اعمال فلسطين والساحل وبلاد الشام مع اتسز بن اوق الخوارزمي واخوته جاولي والمأمون وقرلو وشكلي ، واخذوا اعمال فلسطين ، واختلفوا هناك فصار بعضهم مع امير الجيوش بدر بعكا وبلاد الساحل التي هي في يده ، وبعضهم مع القاضي عين الدولة محمد بن ابي عقيل صاحب صور ،

وبقي اتسز بن اوق الخوارزمي واخوه بفلسطين ، واستولى على الرملة وطبرية والقدس ، فلم يزل امير الجيوش بعكا الى ان انتهكت حرمة المستنصر بتغلب ناصر الدولة الحسن بن حمدان الى ان قتل ، فاستطال عليه الامير بلد كوز والاقسراك والوزير ابن ابي كدينة ، فكتب الى امير الجيوش كتابا من املاء الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر بن المغربي ، وهو يومئذ يتولى الانشاء ، يستدعيه للقدوم عليه وانجاده من جملته :

« فإن كنت ماكولا فكن خير اكل » ، والا فادركني ولما امزق

فلما بلغه الكتاب قال : ليبيك وكررها ثلاثا ، وكتب الى المستنصر يشترط عليه انه لا يقدم الا بعسكر معه ، وانه لا يبقى على احد من عساكر مصر ، فانعم له بذلك ، فسار من عكا بمائة مركب مشحونة بالارمن وغيرهم من العسكر ، فنهاه الناس عن ركوب البحر من اجل ان الوقت شتاء في كانون الاول ، فابى ونزل على دمياط بعد (٢٨) يومين من اقلاعه ، فزعم البحرية انهم لم يعرفوا صحوة تهادت اربعين يوما في الكوا نين الا هذه ، فكان هذا الامر بدء سعادته ، واستدعى تجار تنيس واقترض منهم مالا ، واقام له سليمان اللواتي بالعليق وغيره من الضيافة ، وسار الى ظاهر قيلوب ، وبعث الى المستنصر يقول له : لا ادخل الى القاهرة ما لم يقبض على بلد كوز ، فامسكه ، وعبر امير الجيوش عشية يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ست وستين واربعمائة ، ودخل على المستنصر ، فاستدعاه وقربه ، ودعا له وشكر سعيه ، وبالغ في كرامته ، وقرر ان يكون السفير بينه وبين امير الجيوش الوزير ابن المغربي كاتب الانشاء ، فصار ابن المغربي اليه وعرفه ما فيه الغرض ، وصار من خواصه ، ولم يكن عند اهل الدولة علم من ان المستنصر استدعاه وظنوا انه قدم زائرا فلم يتاخر احد منهم عن ضيافته والقيام بما يتعين من كرامته وقدموا اليه اشياء كثيرة (٢٩) ، وحين كملت خدمة الجميع استدعى الامراء الى دعوة صنعها لهم وقرر مع خواصه انه اذا بات الامراء ، وجهم الليل ، فانه لا بد لكل واحد منهم ان يصير الى الخلاء لقضاء حاجته فمن صار منهم الى الخلاء يقتل فيه ،

وكل بكل امير منهم واحدا من اصحابه (٣٠) وجعل له سائر ما هو بيد ذلك الامير من اقطاع وجار ودار ومال وجواري وغير ذلك ، فلما حضر الامراء عنده وقام لهم بما يليق بهم ظلوا نهارهم عنده (٣١) وهم في ارغد العيش ، وباتوا مطمئنين اليه ، فلم يطلع الفجر حتى استولى اصحاب امير الجيوش على بيوت الامراء . وصارت رؤوس الامراء بين يديه ، فقويت شوكته وانبسطت يده ، وخلت الديار له من منازع ، فاستدعاه حينئذ المستنصر وقرره في الوزارة ، ورد اليه الامور كلها ، وعاهده على ذلك ، وكتب له سجل نعت فيه بالسيد الاجل امير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين ، وصار القاضي والداعي نائبين عنه يقلدهما (٢٤٢ - ظ) هو ، وكان من جملة ما في سجله بعد التقريظ الكبير : وقد قللك امير المؤمنين من ذلك ، مدبرا للبلاد ، مصلحا للفساد ، ومدمرا لاهل الفساد ، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجواهر بدل الطوق الذي كان للامراء ، وزيد له الحنك الذي يعرف اليوم باللائم مع الذؤابة المروحة ، وهي التي يقال لها العذبة ، وجعل له الطيلسان المقور ، ويعرف اليوم بالطرحة وهي التي يلبسها قاضي القضاة ، ونزل الى داره ، فحضر اليه المتصدرون بالجامع الاسلام عليه ، وقرأ القارئ : « ولقد نصركم الله ببدر » (٣٢) وسكت عن تمام الآية ، فقال له بدر : والله لقد جاءت في مكانها ، وجاء سكوتك عن تمام الآية احسن ، وانعم عليه وشرع في تدبير الاحوال ، واستبد بامور الدولة وحجرت على المستنصر اتم حجر وكبر امره واخذ في تلافي ما انتهك من حرمة ، وكانت الاحوال قد فسدت والامور قد تغيرت ، وطوائف العسكر قد انتشرت ، والوزراء (٣٣) «يقنعون بالاسم دون نفاذ الامر والنهي ، والرخاء قد ايس منه ، والصلاح لا يطمع فيه ، ولو اته قد ملكك الوجه البحري كله ، والعبيد في الصعيد ، والطرق قد انقطعت برا وبحرا الا بالخفارة الثقيلة ، والخراب قد شمل مدينة مصر والعسكر .

فتجرد لازالة الفساد ، وساعده الاقدار حتى اشاد دولة جديدة واستعاد ما كان قد تغلبت عليه امراء البلاد وقضاتها مثل عسقلان وصور وطرابلس وقتل سائر اهل الفساد ، وانشأ داراً بحارة

برجوان من القاهرة ، وسكنها فعرفت بعده بدار المظفر ، وقتل من امائل المصريين وقضائهم (٣٤) ووزرائهم واعيانهم خلقا كثيرا ، وقدم اليه عدة من طوائف الارمن تقوى بهم .

فلما دخلت سنة سبع وستين حاصر شكلي اخو اطرش الخوارزمي ثغر عكا واخذه بالسيف ، وكان به اولاد امير الجيوش واهله ، فلم يعترضهم بسوء واحسن اليهم ، وبعثهم اليه .

وفيها سار امير الجيوش الى الوجه البحري ، ووقع بعرب لواته وهزمهم ، وقتل مقدمهم سليم اللواتي وولده ، واستصفى اموالهما ، ثم سار الى دمياط وقتل عدة من المفسدين واحرقهم ، واصلح سائر البر الشرقي من مصر ، ثم عدا الى البر الغربي ، وقتل من الطائفة الملحية واتباعهم بالاسكندرية عددا كبيرا ، بعدما اقام اياما على الاسكندرية يحاصرها حتى اخذها من الملحية عنوة ، وعفا عن اهل البلد ، فلم يضرهم بشيء .

وفي سنة تسع وستين اجتمع كثير من عرب جهينة ، والجعافرة ، والثعالبة وغيرهم بمدينة طوخ العليا من صعيد مصر ، واتفقوا على محاربة امير الجيوش ، فخرج اليهم ، وسار حتى كان قريبا منهم ونزل تجاههم واقام الى نصف الليل ثم امر فضربت طبوله ، واشتعلت المشاعل ، واكثر من وقود النار ، وضرب الطبول والبوقات . وصرخ كل من في عسكره ، وحملوا حملة واحدة على العرب ، فقتل اكثرهم بالسيف ، وانهزم باقيهم ففرقوا ولم ينج منهم الا القليل ، واحتوى من اموالهم على ما لا يحد كثرة وبعثها للمستنصر .

ثم سار الى اسوان وبها كنز الدولة محمد قد تغلب عليها ، وعظم شأنه ، وكثرت اتباعه ، فقاتله وقتله ، وبنى في موضع الوقعة مسجدا سماه مسجد النصر ، ثم عاد الى القاهرة ، وقد صلحت ارض مصر كلها اعلاها واسفلها ، وزالت العربان والعساكر المفسدة منها . وقدم اترش بن اوق الخوارزمي في مدة غيبته ببلاد الصعيد الى القاهرة يريد الاستيلاء عليها ، فقابلته (٣٥) المستنصر وهزمه

ثم خرجت عرب قيس وعرب فزاره وسليم عن الطباغة ، فخرج اليهم وقاتلهم وهزمهم الى برقة .

ثم ندب في سنة سبعين واربعمئة العساكر الى دمشق وقدم عليها نصر الدولة ايتكين الجيوشي ، فسار اليها وحاصرها مدة ايام ، ثم رجع ، فلما كانت سنة اثننتين وسبعين سير عسكرا اخر فحاصرها (٣٤٢ - و) حتى اشرف على اخذها ، ثم عاد خوفا من قدوم تاج الدولة تتش .

وفي سنة سبع وسبعين عصى الاوحد بن امير الجيوش على ابيه بالاسكندرية وصار في جمع كبير من العسب ففسار اليه وحاصر الاسكندرية الى ان اخذها وقبض على ولده ، وقتل كثيرا من الناس واغرم اهل البلد مالا كثيرا ، وبنى بها الجامع المعروف بجامع العطارين ، وقتل ابنه .

فلما كانت سنة اثننتين وثمانين واربعمئة جهز جيشا اخذ صور وصيدا ، وفتح جبيل وعكا ، وكانت بيد تاج الدولة تتش ، واخذ عدة من اصحابه وقبض منهم مالا كثيرا من نخائر تتش .

وفي سنة خمس وثمانين اذشأ باب ذويلة الكبير على ما هو عليه الان ، واذشأ باب الفتوح ، وباب النصر ، بناها له ثلاثة اخوة من اهل الرها ، ولم يزل على قوة وسداد من امره الى ان مات ، بعد مرض طويل اسكت فيه مدة ولم يقدر على الكلام ، في ذي القعدة ، وقيل في شهر ربيع ، وقيل في جمادى الاولى سنة سبع وثمانين واربعمئة عن ثمانين سنة ، منها مدة تحكمه بديار مصر زيادة على عشرين سنة ، وكان شديد الهيبة ، مخوف السطوة ، كثير البطش قتل في سلطنته خلقا لاتعد من كبار المصريين وقوادهم وكتابهم ووزرائهم ، وقد ذكره الشريف ابو يعلي محمد بن محمد بن الهبارية في كتاب الصادح والباغم فقال :

كان بمصر بدر

له عليها الامر

يقتل كل ساعة
من اهلها جماعة
ويشرب الدماء
حتى تخال ماء
اصلحها بسيفه
وجوره وحيفه
جزاء كل فعل
لديه سوء القتل
لما عصاه ولده
وبان منه نكده
خنقه بيده
ثم رمى بجسده
فغضب المستنصر
وقال هذا منكر
فقال : لو عصاني
قلبي من جثماني
نزعته من صدري
ولم يكن بنكر
ثم غزا لواته
اذ ظنهم حماته
فحين قيد الاسرى
قال اقتلوهم صبورا
عشرين الفا كانوا
حتى جرى الميدان
في النيل من دمانهم
ولج في افنانهم

وهو على ظهر الفرس
كضيفم اذا افترس

ومات حتف انفه

لم يعتسف بعسفه (٣٦).

وكان واسع النفس بحيث انه كان عنده وهو بعكا ثلاثمائة قنطار
بالشامي سكرًا ، فعز في سنة اثنتين وستين واربعمئة السكر بعكا ،
وبلغت قيمة القنطار الى خمسين دينارا وطلب فلم يوجد في اول شهر
رجب منها ، فقليل لبدر ثمن السكر الذي عندك خمسة عشر الف دينار
تبيعه او بعضه ، فامتنع وقال : نحن نحتاج اليه في هذه الشهور ،
يعني رجب وشعبان ورمضان ، فاستعملت كلها (٣٧) في مطابخه ،
وسمحت نفسه باتلاف هذا المبلغ الكبير من الذهب .

وعلى يده صلحت ارض مصر وعمرت بعد تحكم الفساد بها
وخرابها ، ومن محاسن سيرته انه اباح الارض لمن يزرعها مدة ثلاث
سنين حتى تراجعت الي الفلاحين احوالهم واستغنوا في ايامه ،
ومنها انه بسط العدل فامنت الطرق .

وحضر الى القاهرة ومصر كثير من التجار وارباب الاموال بعد
انتزاحهم عنها في ايام الشدة .

ومنها كثرة كرمه وقد حكى ان علقمة بن عبد الرزاق
العلمي قصده فاذا على بابيه اشراف الناس واكابرهم فلم يتجاسر
على العبور الى مجلسه وبقى اياما الى ان (كان) خروج امير
الجيوش يريد الصيد فوقف له على تل رمل واشار برقعة في يده
وانشد :

نحن التجار وهذه اعلاقنا

در وجود يمينك المتاع

(٢٤٣ - ظ)

قلب وفدشها بسمعك انما

هي جوهر تختاره الاسماع

كسدت علينا بالشام وكلما
قل النفاق وتعطل الصنائع
فأتاك يحملها اليك تجارها
ومطيتها الآمال و الاطماع
حتى اناخوا ببابك والبرجا
من دونك السمسار والبيع
فوهبت ما لم يعطه في دهره
هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلى
والناس بعدك كلهم اتباع
يا بدر اقسم لو بك اعتصم الورى
ولجوا اليك بعدك كلهم ما ضاعوا (٣٨)

قال العليمي : وكان بيده باز فدفعه لاحد مماليكه وجعل يستعيد
الابيات وانا معه الى ان استقر في مجلسه ، فلما اطمأن (٣٩) قال
للحاضرين : من احبني فليخلع عليه فخرجت من عنده ومعها سبعون
جملا يحملون انعامه ، وأمر لي من ماله بعشرة الاف درهم *
وهو اول من ولي في الدولة الفاطمية الوزارة من ارباب السيوف
واقام دولة الأرمن بديار مصر *

بشارة الاخشيدي الخادم

(من المقفى للمقريزي - مجلدة برتو باشا)

فلما مات سيف الدولة بن حمدان بحلب سار بتأبوتيه الى ديار بكر
بشارة الخادم وتقي ، في جمادى الاولى سنة ست وخمسين
وثلاثمائة وكان بينهما منافرة ، فاذاغ تقي (٤٠) عن بشارة انه كاتب
حمدان بن ناصر الدولة وكان قد غلب على الرقة (٤١) عند وفاة عمه
سيف الدولة وحثه (٤٢) على اخذ حلب وكتب تقي الى قرعوية القائد
بضبط حلب نيابة عن سعد الدولة ابي المعالي شريف بن سيف الدولة
فقبض قرعوية على اسباب بشارة بحلب.

فما بلغ ذلك بشارة داخل تقي ووانسه ، فأذس به ، وصفي بنيتيه له
واطلعه على انه يريد ديار بكر ليعمل على ابي المعالي شريف بن
مولاه ويقبض عليه ، ويمك التدبير وضمن لبشارة انه يسلم له
ميفارقين ، فاطهر له بشارة القبول ، وسار بمسيره الى قريب من
ميفارقين فكتب بشارة مع من يثق به الى ابي المعالي يحذره
الخروج الى (٢٤٨٧ - و) لقاء تابوت ابيه ويعرفه ما عزم عليه
تقي

فلما قرب تقي كتب اليه بخبر التابوت وان يخرج لتلقيه ، فاطهر
ابو المعالي علة وامتنع عن الركوب ، واخرج كل من في البلد لتلقيه ،
وضرب تقي مضاربه ولم يدخل المدينة (٤٣) ، ووكل بابوابها الرجال ،
فطلع بشارة على السور، وغلق الابواب وخاطب اصحابه عن الامير
ابي المعالي بكل جميل ، فانقلبوا عن تقي ، وبطل ما دبّره ، وسلمه
الى بشارة فقتله.

وسار الى حلب في رجب منها ومعه بشارة فلم يزل عنده اسيرا
الى ان مات في رمضان سنة احدى وثمانين وثلاثمائة وبأيع اجناده
كلهم ابنه ابا الفضائل سعيد بن شريف الا بشارة استأمن الى

العزیز بالله نزار بن المعز لدين الله (٤٤) معد الفاطمي في نحو اربعمائة غلام ، وقدم عليه بالقاهرة ومعه وفاء الصقلي ايضا في ثلاثمائة غلام ، فقبلهم العزیز ، وكان يميل الى الاتراك اكثر من المغاربة لاسيما الحمدانية لشدة باسهم ، وفضل النجدة فيهم •

وولى بشارة طبرية وولى وفاء ثغر عكا ، وولى رباحا قيسارية وذلك في سنة احدى وثمانين وثلاثمائة فاستجلب بشارة من جند حلب عدة وضبط الامور وعمل وقوي امره بطبرية ولما خرج يبتكين التركي من القاهرة على عسكر كبير لقتال (دغفل) (٤٥) بن الجراح سار اليه بشارة من طبرية ليكون عوناً له على ابن الجراح فلقيا ابن الجراح وهزماه عن الرملة ، وسارا الى دمشق وفيها قسام فقاتلا وابلى اصحاب بشارة في القتال بلاء حسناً لكثرة الرماة فيهم الى ان اخذ قسام وحمل الى مصر ، ولم يزل في طبرية الى ان كتب له من من القاهرة بولاية دمشق فسار ونزل عليها يوم الجمعة رابع رجب سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فاجتمع جيشه مع عسكر جيش بن الصمصامة على دمشق ، فاستخلف على البلد •

وسار مع جيش في رابع عشر رجب الى افامية ، وقد نزل عليها الدوقس (٤٦) ، متملك انطاكية فقاتلوه قتالاً شديداً انهزم فيه عسكر جيش وملك الروم ما معهم ، فانهزم من كان مع بشارة من بني كلاب وغيرهم من العرب ، وتفرقوا على طريق جوسية (٤٧) الى بعلبك وعلى طريق الجادة الى دمشق ، فلما رأى جيش وبشارة لما نزل بالناس حملاً فيمن معهما على الروم فانهزموا واخذهم السيف فقتل منهم نحو الخمسة آلاف وقتل الدوقس وذلك يوم الثلاثاء لتسع بقين من رجب ، وتفرق المنهزمون في الجبال ووصلوا الى انطاكية.

ونفر الناس بعد ذلك من دمشق واعمالها ومن الساحل الى عسكر جيش ، فسار بهم الى مرعش وسار بشارة الى دمشق فنزلها يوم الاثنين النصف من شوال وقدم جيش لتسع بقين من ذي القعدة فنزل بيت لثيا (٤٨) وكان الشتاء قد هجم ، فكتب من مصر بصرف بشارة عن دمشق الى طبرية وولاية جيش •

ثمال بن صالح بن مرداس

(من المقفى للمقرىزى - مجلة برتو باشا)

ثمال بن صالح بن مرداس بن ادريس * الأمير معز (٤٩) الدولة
ابو علوان الكلابى تغلب ابوه صالح بن مرداس على حلب الى ان
قتله امير الجيوش انو شتكين الدزبرى بالاقحوانة على الاردن في
معاربته العرب في ربيع الاخر سنة عشرين وأربعمائة ، فاقتسم من
بعده ابناه معز الدولة هذا واخذ القلعة ، واقام اخوه شبل الدولة
نصر في المدينة ثم ان معز الدولة جرى بينه وبين زوجته كلام ،
فغضبت عليه وخرجت الى الحلة بظاهر حلب فأمر ان يصاغ لها
لالكة من ذهب مرصعة بالجواهر فلما تهيأت اخذها في كفه وخرج الى
زوجته فبادر اخوه نصروركب واخذ القلعة وقال : ان من قدم اخي
على اساء لأننى أولى بمدارة الرجال ، وهو أولى بمدارة النساء .

وانفرد نصر بن صالح بأمر قلعة حلب والمدينة ، وجعل لآخيه ثمال
بالس والرحبة ، وذلك في سنة احدى وعشرين وأربعمائة ، فاستمر
نصر في ملك حلب الى ان قتله الدزبرى في نصف شعبان سنة تسع
وعشرين وملك حلب من بعده ، فلما مات في النصف من جمادى
الاولى سنة ثلاث وثلاثين قدم معز الدولة ثمال بتوقيع سيره اليه
امير المؤمنين المستنصر بالله ابو تميم معد بن الظاهر بولاية حلب
فدسلم البلد لليلتين بقيتا من جمادى الاخرة (٢٩١ - ظ) وكان
الوزير بمصر يومئذ علي بن احمد الجرجاني ، فقرر عليه في كل سنة
مالا يحمله ، فلما صارت الوزارة الى الوزير صدقه بن يوسف
الفلاحى ثم وزارة ابي البركات الحسن بن محمد الجرجاني فسأخر
الحمل سنتين بأربعين الف دينار ، فسير اليه الامير ناصر الدولة ابا
محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان متولي دمشق بعد
الدزبرى ، فوصل الى حلب ، ورجع عنها الى دمشق من غير ان يقدر

على ثمال فنقم عليه ذلك وقبضه الامير مثير الدولة ثم ان معز الدولة بعث الى المستنصر بالقسط على يد شيخ الدولة علي بن احمد بن الايسر، وسير معه ابنه الامير وثاب وزوجته السيدة علوية بنت وثاب ومعها من مال القلعة اربعين الف دينار وهدايا فاخرة فأكرمها المستنصر ، وكتب لمعز الدولة بحلب واعمالها وسير اليه بتشريف ولجميع بني عمه (٥٠) .

ولما اندفع الامير ابو الحارث ارسلان البساسيري من بغداد الى الشام في سنة سبع واربعين منهزما من طغرل بك وحصل في ارض الرحبة، وقد وصل في قل من الرجال، فلقه ثمال واكرمه وحمل اليه مالا عظيما ، فقبل عن البساسيري انه لم ير مثله في الشجاعة والمكر، وكان اذا ركب معز الدولة قفز اليه ليمسك له الركاب ويصلح ثيابه في السرج، وسلم اليه معز الدولة الرحبة في سنة ثمان واربعين ليحصل فيها ماله واهله .

فلما ولي الوزير الناصر للدين ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وزارة المستنصر لم يرض من معز الدولة بما رضى منه الوزراء قبله ورأى ان الحيلة والخديعة ابلغ فيما يريده فاستعمل السياسة وبعث خفايا التدبير وندب لذلك رجلا من ثقافته فسار الى حلب وساس الامر واحكم التدبير مع كاتب الدولة معز بكثرة ما وعده به ومناه الى ان نزل معز الدولة من القلعة وسلمها الى الامير مكين الدولة ابي علي الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي نائب المستنصر وسار من حلب الى مصر . فلما بلغ رفح سمع بالقبض على اليازوري ، فقال : والله اني اموت بحسرة نظرة الى من استلبني من ذلك الملك ، واخرجني بلا رغبة ولا رهبة الا بحسن السياسة ولو رام ذلك مني قسرا ربما تعذر عليه : وسار حتى قدم على المستنصر بالقاهرة في المحرم سنة خمس واربعمائة ، فعوضه عن حلب مدينة عكا وبيروت وجبيل فاتفق في مدة اقامته بمصر قتل البساسيري ، فسار اسد الدولة ابو نؤابة عطية بن صالح بن مرداس الى الرحبة واخذ جميع ما تركه البساسيري بها من السلاح

الذي لم ير مثله كثرة وجوده، فطمع بنو كلاب في حلب وقدموا عليهم محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، ففسار اليها في جمادى الاولى سنة اثنيتين وخمسين وتسلمها فانحاز مكيين الدولة بن ملهم الى القلعة وانفذ الى المستنصر يطلب النجدة فوصل اليه ناصر الدولة ابو علي الحسين ابن ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان وكانت وقعة الفنديق وهو المعروف بتل السلطان ، واسر ابن حمدان وعاد محمود بن نصر الى حلب .

فلما بلغ ذلك المستنصر صرف معز الدولة عن عكا وبירות وجبيل وقال له : ان هذه اخذتها عوضا عن حلب وقد عادت الى ابن اخيك ، فامضي الى حلب واستعدها منه، فعاد الى ان وصل معرة النعمان فسير محمود ابا محمد عبد الله بن محمد الخفاجي رسولا الى ملك الروم يستنجد به على عمه معز لدولة، ثم صالح محمود عمه وسلم اليه حلب يوم الاثنين اول شهر ربيع الاخر سنة ثلاث وخمسين، فلم يزل بها حتى مات فيها يوم الخميس است بقين من ذي القعدة سنة لربيع وخمسين واربعمئة، فدفن في مقام ابراهيم الفوقاني بقلعة حلب وبقي الى ايام ٥١) الملك رضوان فقلع وبلط عليه .

و كان معز مع الدولة كريما حكيما حكى ان العرب اقترحوا عليه مضيرة فتقدم (٢٩٢ - و) الى وكيله ان يطبخها لهم وسأله كم ذبحت لاجلها فقال : سبعمئة وخمسين رأسا فقال والله لو اتممتها الفا لو هبت لك الف دينار .

ويحكي عن حلمه ان فراشا صب يوما على يده ماء بابريق كان في يده فصادت انبوبة الابريق بعض ثنية معز الدولة فكسرتها وسقطت في الطشت وهم به الغلمان فمنعهم ، وامر برفعها وعفا عنه ، فقال ابن ابي حصينة فيه من ابيات :

حليم عن جرائمنا اليه

وحتى عن ثنيته انقلعا (٥٢)

وقدم عليه الوزير فخر الدولة ابو نصر محمد بن محمد بن جهير

فاستوزره وفوض اموره اليه جميعها فحسد على مكانته وقربه منه ،
وسعى به اليه وكان معز الدولة له وفاء وذهبه ، فذهب على ما سعى به
عليه فاستأذنه ابو نصر في المفارقة فأذن له وسار من حلب ، وذلك في
سنة ست واربعين واربعمئة .

ولما مات معز الدولة ولي بعده حلب اخوه اسد الدولة ابو نؤابة عطية
بن صالح بن مرداس •

جعفر بن فلاح

(من المقفى للمقرئزي - مجلدة برتو باشا)

جعفر بن فلاح بن مروان ، أبو الفضل الكتامي ، من أرقى الكتامين بيتا واجلهم قدرا ، كان أبوه قائدا جليلا ولي مدينة طرابلس وبرقة وباجة ، وكان حسن السيرة في الرعية ، مات في رجب سنة خمس وأربعين وثلاثمائة . وذنبا ابنه جعفر بالمغرب في خدمة المعز لدين الله وهو أحد الجعفرين اللذين أرشد ابن هانيء الشاعر الاندلسي اليهما فإنه لما امتدح جوهر القائد أعطاه مائتي درهم فاستقلها ، وسأل عن كريم يمدحه فقليل له عليك بأحد الجعفرين : جعفر بن فلاح ، وجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية ، فمدح جعفر بن فلاح فأعطاه مائتي دينار ومن شعره فيه :

كانت محادثة الركبان تخبرني

عن جعفر بن فلاح اطييب الخبر

حتى رايت فلا والله ما سمعت

أذناي بالعشر مما قد رأى بصري

ثم انتقل الى جعفر بن الاندلسية وهو يومئذ أمير الزاب ، فلم يزل عنده الى أن استدعاه المعز لدين الله فبعث به اليه في جملة تحف وطرائف .

ولما جهز المعز لدين الله القائد جوهر من بلاد المغرب لأخذ مصر سار معه جعفر بن فلاح الى أن وافى العسسساكر الجيزة وقد نزل الاخشيديية بالجيزة التي تعرف اليوم بالروضة لقتال جوهر ، وضبطوا الجسرين وتقدم منهم عدة الى الجيزة ، فلما شاهد جوهر ذلك عاد الى منية شلقان فعبر مصر من هناك ، وبعث فاستقبل المراكب الواردة من تنيس ودمياط واسفل الأرض فأخذها ، وتولى العبور اليهم جعفر بن فلاح عريانا في سراويل ومعه جمع من المغاربة

فوقع القتال، وقتل خلق من المصريين ، وكان الفتح ودخول جوهر
وبنائنه القاهرة في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .

فأقام جعفر بن فلاح بالقاهرة الى ثاني عشر المحرم سنة تسع
 وخمسين وثلاثمائة ، وسار الى الشام في عسكر كبير الى أن قدم
 الرملة وبها الحسن بن عبيد الله بن طغج وجعفر بن القرمطي وفاتك
 ودرامك وعدة من قواد الاخشيدية ورجالهم ، فقاتلهم قتالا شديدا
 وأسر الحسن بن عبيد الله وجعفر القرمطي وابن الرياحي وفاتك
 وعدة من الأعيان في يوم الثلاثاء لسبع خلون من ربيع الآخر ،
 وأنفذهم الى القاهرة في القيود مع ابنه ، وأخذ السيف بقيتهم فقتل
 كثيرا منهم ، وتمكن من الرملة وذلك للنصف من شهر رجب ، وأقام
 يتبع ما للحسن بن عبيد الله ولأصحابه من الأموال حتى استخلصها ،
 ثم سار الى طبرية وأخذ يبني قصرا عند جسر الصنبرة ، وكان
 على طبرية فاتك غلام ملهم من قبل الاخشيدية ، فكاتبه جعفر وقعه
 حتى قعد عن الحسن بن عبيد الله ، وكاتب شمول الاخشيدي وهو
 على دمشق قد استخلفه عليها الحسن بن عبيد الله واستماله ووعد
 فتمكن من طبرية ، وثقل عليه امرأ بني عقيل أهل بلاد حوران
 والبتنية الذين أقامهم كافور الاخشيدي وهم شبيب بن ... وظالم بن
 موهوب بن ... (٥٣) فاستجلب اليه عرب مرة وعرب فزارة وأوعز
 الى من يفتك بفاتك غلام ملهم ، فوقف له عدة من المغاربة ووثبوا به
 على حين غفلة ، فجرد سيفه وضرب رجلا منهم رمى نصف رأسه ،
 وكثروا عليه وقتلوه ، فتبرا جعفر من قتله ، وأظهر جزعا عليه وقبض
 على الجماعة الذين قتلوه وبعثاني ابن ملهم ، فقال لما وصلوا اليه
 (٣٠٠ ظ) : هو غلامي ومملوكي وقد وهبته للقائد ، وأطلق الجماعة
 الذين قتلوه .

واتفق من الأمر الرديء أهل دمشق ، أن مشايخ أهلها لما بلغهم
 قدوم جعفر بن فلاح الى طبرية خرجوا الى لقائه وفيهم عقيل بن
 الحسن بن الحسين العلوي و (أبو القاسم) (٥٤) بن أبي يعلى
 العباسي ، فوافوا يوم دخولهم الى طبرية قتل فاتك وقد ثارت فتنة ،

والمغاربة ركبانا وفيهم من يأخذ الناس ، فقصدوا أهل دمشق فأخذوهم وجردوهم من ثيابهم وسبوهم وتوعدوهم وقالوا لهم : أو ذا نحن سائرون اليكم ، فصاروا في أسوأ حال قد أخذت أثقالهم وثيابهم فلقوا جعفر بن فلاح وعادوا الى دمشق ، فأخبروا الناس بما جرى عليهم من الوعيد ، وأنهم لقوا قوما جفاة قباح المنظر والزي والكلام ناقصين العقول ، فاستودشت قلوب أهل دمشق من المغاربة ، وكان شمول قد خرج الى لقاء جعفر بن فلاح ، وخلت مدينة دمشق من السلطان ، فطمع الطامع وكثر الذعار وحمال السلاح (٥٥) اتفق أيضا ان جعفر لما قتل فانتك عمل في قلع بني عقيل من أرض حوران والأبذية ، فأنفذ اليهم مرة وفزارة ، وجهاز بعدهم جيشا من المغاربة فالتقى القوم وأدركهم المغاربة فانهزم العقيليون وتبعوهم الى أرض حمص ، ثم عادوا عنهم ومالوا على جبل سنبر الذي يقال له اليوم جبل الثلج فنهبوا ونزلوا الغوطة ، فجالوا فيها وساروا حتى نزلوا على نهر يريد نحو الدكة ، فثار عليهم أهل دمشق وقاتلوهم وقتلوا منهم كبيرا (٥٦) من العرب يقال له عيسى بن دهاس الفزاري وهزموهم عن دمشق ، وذلك يوم الخميس لثمان خلون من ذي الحجة ، فاقبل صبيح بطلانغ (٥٧) عسكر جعفر بن فلاح ونزل خارج دمشق ، فخرج الناس اليه مستعدين في خيل ورجل فاقتتلوا يومهم ذلك ثم انصرفوا واصبحوا يوم الجمعة فاقتتلوا وصاح الناس في جامع دمشق بعد الصلاة النفير ، فخرج النفير واشتد القتال الى آخر النهار ، ونزل جعفر يوم السبت لعشر خلون من ذي الحجة يوم عيد الاضحى فقاتله الناس على الشماسية والقطيعة ولم يصل الناس يومئذ صلاة العيد ، وخرج ابن ابي يعلى فلم يزل القتال الى بعد العصر ، فكلت الدماشقة ، وحمل عليهم المغاربة فانهزموا وركبت المغاربة اقفيتهم وبذلوا فيهم السيف فقتلوا من ظفروا به ، وقام بأمر البلد ابو اسحق محمد بن عصيدا ، واغلق الابواب واوقف الرماة على شرفات السور فرموا المغاربة بالذشاب ، ونزل العسكر أرض عاتكة وطرحوا النار فيما هنالك من الأبذية ، فانهزم ابن ابي يعلى وانفصل (٥٨) من كان معه فقتل خلق ودخلت (٥٩) فرقة من المغاربة باب

الجابية فتكاثر الناس عليهم واخرجوهم واغلقوا الباب ، فأحاط
العسكر بالبلد من كل ناحية ووقعت المضاربات ، وارتفع ضجيج
الرجال والنساء والصبيان بالبكاء والنفير ، وظنوا ان القوم يدخلون
البلد بالسيف ، وكان قد قرب غروب الشمس ، فأمسك العسكر عن
القتال وتقدم رجل من العسكر وأشار الى من فوق الأسوار ،
وحدثهم فأمسكوا عن الرمي ، وبات أهل دمشق ليلة الأحد في سد
الأبواب وتضييق الدروب وكسر القني في الأسواق وحفر الخنادق ،
وعزموا على القتال وباتوا على خوف فلما أصبحوا خرج المشايخ
الى جعفر بن فلاح ليتحدثوا معه في الصلح ، فما هو الا أن ساروا
عن البلد قليلا خرج عليهم فرسان من المغاربة أخذوا ما عليهم من
الثياب وقتلوا منهم رجلين ، فلما رأى من كان فوق المآذن والأسطحة
ذلك صاحوا : اضبطوا الأبواب فقد شلحوا المشايخ فظن الناس ان
العسكر يريد الركوب ، ودخل المشايخ عريا فارتاع أهل البلد واشتد
خوفهم وتحيروا ، ثم جرت بينهم مراسلة فخرجوا الى جعفر فرعب
عليهم (٣٠١ - و) ووعد البلد بالنار والسيف فعادوا خائفين
وجلين ، وبلغوا أهل البلد ما أقلقهم ، فاشتد اضطرابهم ، وعاد
المشايخ ثانيا الى جعفر فاشتد عليهم وأرعد وابرق فسألوه العفو ،
فقال : ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إلي ومعكم النساء فيتضرعن
ويكشفن شعورهن ويمرغنهن في التراب بين يدي ، فقالوا : نفعل ما
يقول القائد ، ورجعوا الى البلد ، وخرجوا اليه بما طلب من تضرع
النساء وكشفهن الشعور بين يديه وهو مع ذلك يرهبهم ثم باسطهم
وقال : أريد أدخل يوم الجمعة الى الصلاة ، فأنصرفوا عنه وركب
يوم الجمعة في عسكره ودخل البلد ، فلما خرجوا من الجامع وضع
جماعة من العسكر أيديهم في السوق ونهبوه ، ثم أرادوا أن يدخلوا
الى الأزقة فثار بهم الناس وقتلوا كثيرا من الرجال ، فاشتد جعفر
على المشايخ ووعدهم بكل مكروه وقال لهم : دخل رجال أمير المؤمنين
إلى الصلاة فقتلتموهم لأسوين بهذا البلد الأرض ، فلطفوا به
وداروه فقال : أريد دية من قتل من رجال أمير المؤمنين ، فاذعنوا
لذلك ، وكان الذي يتولى خطابه الشريف أبو القاسم أحمد بن

الحسين العقيقي و ... (٦٠) بن أبي هاشم ، ودخلوا البلد وقسطوا المال على الناس ، وشرع العسكر في البناء فوق نهر يزيد عند الدكة وعملوا مساكن وأسواقا حتى صارت تشبه المدينة ، وبنوا قصرا عظيما شاهقا في الهواء غريب البنيان .

فلما استقر في الدكة طلب حمال السلاح وضرب أعناق كثير منهم وصلب جثثهم وعلق رؤوسهم على أبواب المدينة ، منها رأس اسحق ابن عسودا .

وبعث يازرق إلى حمص وسلمية فخرج إليه أهل السلمية بكتاب عبيد الله المهدي جد المعز لدين الله بترك الخراج لهم متى ملكهم ، فبعث بذلك إلى جعفر فأمره بالوفاء لهم .
وقدم ابن عليان العدوي وقد قبض على (أبي القاسم) (٦١) بن أبي يعلى العباسي لما انهزم من نحو تدمر وهو يريد بغداد ، فأمر به جعفر فشهر في العسكر على جمل ، ثم حمله إلى القاهرة .

وأما محمد بن عسودا فإنه لما انهزم سار إلى الاحساء هو وظالم بن مرهوب العقيلي ، وحثا القرامطة على المسير إلى الشام فوافق ذلك منهم الغرض لأن الاخذشيدية كانت تحمل في كل سنة إلى القرامطة مالا ، فلما أخذ جوهر مصر انقطع المال عن القرامطة فأخذوا في الجهاز للمسير إلى الشام .

وجهز جعفر غلامه فتروحا في عسكر إلى انطاكية وكانت بيد الروم ، فسار في صفر سنة ستين ، وطلب أهل أعمال فلسطين وطبرية ، وسير عسكرا بعد عسكر إلى انطاكية فنازلوها ، وكان الوقت شتاء إلى أن دخل الصيف وهم يداومون القتال ، وبعث سرية فيها أربعة آلاف إلى إسكندرونة وعليهم عرايس ومعهم ابن الزيات أمير طرسوس ، وكان عليها عسكر للروم ، فظفروا في طريقهم بمائتي بغل تحمل علوفه لأهل انطاكية فقوقوا بها ، وساروا إلى مرج إسكندرونة وفيه مضارب الروم الديباج فتسرع إليها رجاله تنهبها ، فحمل عليهم الروم فانهزموا وأخذهم السيف ، ونجا عرايس وابن الزيات في طائفة ولحقوا بجعفر ، وهلك كثير ممن كان في السرية .

فكثرت الأخبار بمسير القرامطة إلى الشام ، وأنهم نزلوا على الكوفة ، وكتبوا إلى الخليفة ببغداد ، فأنفذ إليهم خزانة سلاح ، وكتب لهم بأربعمائة ألف درهم على أبي تغلب عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان من مال الرحبة ، وأنهم ساروا من الكوفة إلى الرحبة وأخذوا من ابن حمدان المبلغ ، فكتب جعفر إلى غلامه فتوح وهو على انطاكية يأمره بالرحيل ، فوافاه الكتاب مستهل شهر رمضان فشرع في شد أحماله (٦٢) ، ونظر الناس إليه فجفلوا ورموا خيمهم ، وأراقوا طعامهم وأخذوا في السير مجدين إلى دمشق ، فلما وافوا جعفر أراد أن يقاتل بهم القرامطة فلم يقفوا ، وطلب كل قوم موضعهم ولم يبالوا بالموكلين على الطرق .

وعندما نزل القرامطة على الرحبة أكرمهم أبو تغلب ، وبعث إلى الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي المعروف بالأعصم كبيرهم يقول له : هذا شيء أردت أن أسير أنا فيه بنفسي ، لكنني مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إلي خبرك ، فإن احتججت إلى (٣٠١ - ظ) مسيري سرت إليك ، ونادى في عسكره من أراد السير من الجند الاخشيدية وغيرهم إلى الشام مع الحسن بن أحمد فلا اعتراض لنا عليه وقد أذننا له في المسير ، والعسكران واحد ، فخرج إلى القرامطة كثير من الاخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين ممن فر من جوهر ومن جعفر بن فلاح ، وكان جعفر لما أخذ طبرية بعث إلى أبي تغلب بن حمدان بداع يقال له أبو طالب التنوخي يقول له : إنا سائرون إليك فتقيم لنا الدعوة ، فلما قدم الداعي على أبي تغلب وهو بالموصل وأدى (٦٣) الرسالة ، قال له هذا ما لا يتم لأننا في دهليز بغداد والعساكر منا قريبة ، ولكن إذا قربت عساكركم من هذه الديار أمكن مباذركه ، فانصرف بغير شيء .

ثم إن الحسن بن أحمد القرمطي سار عن الرحبة إلى أن قرب من دمشق فجمع جعفر خواصه واستشارهم فانفقوا على أن يكون لقاء القرامطة في طرف البرية قبل أن يتمكنوا من العمارة ، فخرج إليهم

ولقيهم فقاتلهم قتالا كبيرا ، فانهزم عنه عدة من اصحابه ، فولى في عدة ممن معه ، وركب القرامطة اقفيتهم وقد تكاثرت العربان من كل ناحية ، وصعد الغبار فلم يعرف كبير من صغير ، ووجد جعفر قتيلا لايعرف له قاتل ، وكانت هذه الواقعة في يوم الخميس است خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة ، فامتلات ايدي القرامطة بما احتوا عليه من المال والسلاح وغيره ، وخرج محمد بن عسودا إلى جثة جعفر بن فلاح وهي مطروحة في الطريق ، فأخذ رأسه وصلبه على حائط داره ، أراد بذلك اخذ ثأر اخيه إسحق بن عسودا ، وملك القرامطة دمشق ، وورد الخبر بذلك على جوهر القائد ، فاستعد لحرب القرامطة .

وكان جعفر أحمقا هذارا كثير الكلام ، أكثر كلامه بغير طائل ، وكان يحسد جوهر القائد لتقدمه عليه ، وكانت العرفية لجوهر كما هو مذكور في ترجمة جوهر .

جواهر الصقليبي

(من المقفى للمقرئزي - مجلدة برتو باشا)

جواهر بن عبد الله ، القائد ، أبو الحسن الصقليبي (٦٤) الرومي الكاتب ، مولى المعز لدين الله أبي تميم معد ، ولد في سنة إثنى عشر وثلاثمائة ، وصار إلى ملك غلام لهم يقال له صابر ، ثم انتقل إلى خادم لهم يقال له خيران ، ثم إلى خادم يقال له خفيف ، فآهده خفيف إلى الامام المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل ، فحمله (إلى) (٦٥) ابنه الامام المعز لدين الله وهو صغير ، فرباه حتى بلغ مبالغ الرجال في خدمته ، وكناه بأبي الحسن ، ورقاه في الخدم إلى أن قام في الخلافة بعد أبيه (٦٦) .

ولما كانت (سنة) (٦٧) خمس وأربعين وثلاثمائة ارتفع أمر جواهر ، وصار إلى رتبة الوزارة ، ثم أخرجه المعز في يوم الخميس لتسع خلون من صفر سنة سبع وأربعين على عسكر عظيم بالعدة والقوة ليتوجه به إلى جعفر بن علي الأندلسي ، وزير بني مناد الصنهاجي ، ويعلى بن محمد الزناتي ، فخرجوا معه بعساكرهم ، حتى وصلوا إلى تاهرت (٦٨) ، فتلقاه يعلى بن محمد الزناتي ، وكان صاحب المغرب ، وأكرمه وقام له بالوظائف والعلف أياما غير أن أهل مدينة (٦٩) أفكان (٧٠) كانوا إذا باعوا أهل عسكر جواهر شتموهم واستخفوا بهم ومع (٣٠٦ - ظ) ذلك فإن (٧١) يعلى لم يسارع بالمسير مع جواهر ، فلما رحل جواهر بعساكره من عند يعلى ، مشى يعلى ليشيعه ، فسار جواهر ، وأخذ العسكر في رفع أثقالهم إذ سمع صياحا عظيما فقال : ما هذا ؟ فقليل له : أصحاب يعلى قد ضربوا على ساقه (٧٢) العسكر ، وقد شغبوا ، فقال يعلى : أنا أمضي لأفرقهم ، فمنعه جواهر من المضي ، وزاد الصياح ، فأمر جواهر بيعلى فأرجل عن فرسه وأركب بغلة ، ثم زاد الأمر ، فأمر جواهر بيعلى فأنزل عن البغلة ومشى بين يديه راجلا ، فاشتد

الأمر ، ونهبت الزوامل (٧٣) فأتى أبو طاعة بن يوصل الكتامي إلى جوهر وقال : السيف يعمل في عسكرنا وهذا حي ؟ فجرد سيفه فضرب يعلى أطار رأسه ، ورفعها على قناة وحملها إلى موضع القتال ، فلما راها أصحابه انهزموا ، فمال عليهم العسكر حتى بلغوا إلى أفكان والسيف يعمل فيهم ، فدخلوا أفكان بالسيف ، فقتل أكثر أهلها ، ونهب كل ما فيها وأسر يدو بن يعلى ، ثم هدمت أفكان ، وحرقت بالنار ، وذلك كله يوم الاثنين الثاني من جمادى الأولى .

ورحل جوهر حتى انتهى إلى فاس وبها أحمد بن بكير ، فامتنع من جوهر وقاتله مدة ، فلم يقدر عليه جوهر ، ورحل عن فاس إلى سجلماسة ، فلما قرب منها فر عنه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر لله أمير المؤمنين ، وكان قد تغلب عليها ست عشرة سنة ، ثم أخذ أسيرا وحمل إلى جوهر في يوم الأربعاء لثمان خلون من رجب بغير حرب .

فمضى جوهر إلى البحر المحيط وأمر أن يصطاد له من حيتانه وجعلها في قلة فيها ماء ، وكتب إلى المعز كتابا في قصبة من ضريح (٧٤) البحر المحيط ، وبعثه بذلك إليه ، يشير أنه انتهى إلى البحر المحيط .

ثم عاد إلى فاس بعد أن ملك تلك البلاد كلها ، فنزل عليها وقاتل أهلها مدة قتالا طويلا حتى يذس منها ، ثم جد فيها إلى أن ملكها ونهب عسكره ما فيها ، وسبوا نزاريتها ، وأخذ أحمد بن بكير وقيده وجعله مع محمد بن الفتح أمير سجلماسة ، وذلك لعشر بقين من رمضان ، وعمل قفصين من خشب سجن فيهما المذكورين وقفل إلى إفريقية بعدما فتح الفتوح ، وأدار البلدان إلى البحر المحيط ، ولم يتعرض لسبته وكانت بيد بني أمية .

فلما قدم تاهرت ولي عليها زيري بن مناد وضمها إلى يده فقوي أمره وتركها بها ، وسار إلى المسلية (٧٥) فتركها عليها عاملها جعفر ابن علي الاندلسي ، ورد كل قوم إلى مواضعهم ، ووصل إلى

المنصورة (٧٦) ومعه أحمد بن بكير أمير فاس (٧٧) ومحمد الزناتسي أمير تاهرت وكثير من الأسرى في يوم الجمعة لاثنتي عشرة بقية من شوال.

ثم أخرج المعز في سنة سبع وخمسين لإصلاح المغرب في عسكر عظيم ، وليحشد كتامة الذين ينهض بهم إلى المشرق ، ويجبي من البربر خمسمائة ألف دينار ويدوخ المغرب ، وقدم يوم الأحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين بعساكر عظيمة من كتامة والجند والبربر فاقام خارج المنصورة لتجتمع إليه الحشود والعساكر وفتح المعز بيت المال وأعطى الأموال من ألف دينار إلى عشرين ديناراً .

ثم دخل في يوم السبت لاربع عشرة مضت من ربيع الأول بالعساكر ومعه زيادة على مائة ألف فارس ، وبين يديه أكثر من ألف ومائتي صندوق فيها المال ، فنزل برقادة (٧٨) وخرج إلى المعز وخلا به ، وأطلق يده ليتصرف في بيوت أمواله كيف شاء ، ويأخذ منها زيادة إلى مائة ما أحب واختار.

فقال المعز وجوهر قائم بين يديه ، والعساكر مجتمعة والله (٧٩) لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر وليدخل مصر بالأردية من غير حرب ولينزلن في خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا.

وامر المعز أولاده وأخوته وسائر الأولياء وعبيد الدولة أن يمشوا بين يدي جوهر وهو راكب ، وكتب (٣٠٧ - و) إلى جميع من يمر عليه جوهر من العمال يأمرهم إذا قدم عليهم أن يترجلوا إليه عند لقائه ، ويمشوا في خدمته ، ثم تقدم إلى جوهر بالمسير ، فرفع من مناخه والمعز واقف ، ثم اكب على جوهر وقد ركب فرسه فساره طويلاً ، ثم التفت إلى الأمراء أولاده وأخوته فقال : ودعوه فنزلوا عن خيولهم ، ونزل بنزولهم كافة الناس فودعوه على قدر

مراتبهم واحدا بعد واحد فلما فرغوا من وداعه اقبل جوهر فقبل يد
المعز وحافر فرسه فقال له المعز : اركب فركب وسار والمعز يسايره
طويلا ثم وقف وقال له : سر فسار ثم التفت والمعز قائم ، فأوما اليه
بكمه ان امض ، فتنحرك جوهر يريد عسكره حتى لحق بهم ثم نزل
منزله وعاد المعز الى منزله فنزع ثيابه وانفذها كلها الى جوهر ما
عدا السراويل والخاتم ، واذشد ابو القاسم محمد بن هانى قصيدة
بديعة في يوم رحيل جوهر ، وكان من ايام الله العظيمة المهولة منها :

رايت بعيني فوق ما كنت اسمع
وقد راعني يوم من الحشر اروع

غداة كان الأفق سد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم ادر اذ ودعت كيف اودع
ولم ادر اذ شيعت كيف اشيع

الا ان هذا حشد من لم يذق له
غرار الكرى جفن ولا بات يهجع

اذا حل في ارض بناها مدائننا
وان سار على ارض ثوت وهي بلقع

تحل بيوت المال حيث يحله
وجم العطايا والرواق المرفع

وكبرت الفرسان لله اذ بدا
وظل السلاح المنتضى يتقعقع

وعب عباب الموكب الضخم حوله
وزف كما زف الصباح الملمع

رحلت الى القسطنطينية اول رحلة
بأيمن قال بالذي انت تجمع

فان يك في مصر ظمأ لورد
فقد جاءهم نيل سوى النيل يجمع

ويمسهم من لايفار بنعمة
فيسلبهم لكن يزيد فيوسع (٨٠)

وفي غد رحيل جوهر هرب من البربر خمسمائة فارس فخرج في طلبهم ففاتوه فقال المعز : الله اكرم من ان ينصرنا بأرازل البربر وإني لأرجو ان يكون بزوالهم زوال النحس عن عسكرنا ، واقام جوهر بمكانه الى يوم الاحد لست بقين من شهر ربيع الأول ، ثم رحل بجميع العساكر في قوة عظيمة ومعه من الأموال والأسلح والعدد والكراع مالا يوصف كثرة فلم يزل سائرا حتى وصل الى برقة ، فافتدى منه أفلح الناشب الصقلي متولي برقة بخمسين ألف دينار يحملها اليه ويعفيه من ان يمشي راجلا بين يديه ، فلم يجد أفلح بدا من المشي لما لقيه حتى نزل .

واتت الاخبار الى مصر في جمادى الآخرة بمسير جوهر اليها وكان في عامة ارض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء امر لم يعهد قبله مثله بحديث انه أحصى من مات في أيام يسيرة فكانوا ستمائة ألف انسان ، وكانوا يلقون الغرباء في النيل وبلغ الفروج دينارا والبيضة درهما وبيع الأردب القمح بثمانين دينارا ، مع كثرة الفتن وتغلب كل واحد من العمال وغيرهم على ما يليه واختلاف أهل الدولة بمصر من الاخشيدية والكافورية وكثرة تحاسدهم ، وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر ، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام ، فاختلفت من اجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر واتضعت امور الناس ، وتغيرت نياتهم ، وساءت معاملاتهم . (٣٠٧ ظ) وفست اكثر اوضاعهم وتشمل الخراب عامة ارض

مصر لموت أهلها وقلة أموالها وتعذر وجود الأقوات وكثرة الخوف .

وكان بمصر جماعة من دعاة المعز قدا^(٨١) استمالوا خلائق من القواد ووجوه الرعية ، وانفذ اليهم المعز بنودا ففرقوها فيمن استجاب لهم وأمرهم أن يذبحوها اذا قاربت عساكره مصر ، فعندما قرب جوهر من أرض الاسكندرية جمع الوزير ابو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات ، المعروف بنين حنزانة الناس بداره من مصر واتفقوا على مراسلة جوهر وأن يشترطوا عليه أن يقرهم على ما يابدهم من الضياع التي يتولوها ، وشرط تحرير شويزان أن لا يجمع مع جوهر وارسلوا اليه بذلك الشريف ابا جعفر مسلم ، والشريف ابا اسماعيل ابراهيم بن أحمد الرسي والقاضي ابا الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر الذهلي ، وابو الطيب العباسي بن أحمد العباسي الهاشمي ، في جماعة ، فبرزوا الى الجيزة في يوم الاثنين ثامن عشر رجب ، وساروا فلقوا جوهر في تروجة^(٨٢) فوافقهم واجابهم الى ما التمسوه وكتب لهم كتابا نصه بعد البسملة:

هذا كتاب جوهر عبد امير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة اهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرها :

إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم: ابو جعفر مسلم الشريف اطال الله بقاءه، وابو اسماعيل الرسي ايده الله ، وابو الطيب الهاشمي ايده الله ، وابو جعفر أحمد بن نصر اعزه الله ، والقاضي ابو طاهر اعزه الله ، وذكروا عنكم انكم^(٨٣) التمستم كتابا يشتمل على امانكم في انفسكم واموالكم وبلادكم وجميع احوالكم ، فعرفتم ما تقدم به مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه^(٨٤) وحسن نظره اليكم.

فاحمدوا الله على ما اولاكم ، واشكروه على ما اتاكم ، وادابوا فيما يلزمكم ، وسارعوا الى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم والعصمة الشاملة لكم ، وهو انه صلوات الله عليه

لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة الا لما فيه اعزازكم وحمائتكم ، والجهاد عنكم ، ان قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المستدل واطمعتة نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه واسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم واموالكم حسب ما فعله في غيركم من اهل بلدان المشرق ، وتاكيد عزمه واشتد طلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر ، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة لمقاتلته دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزي ، وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصائب وتتابععت لديهم الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغثهم الا من ارضه امرهم ، ومضه حالهم وابكى عينه ما نالهم ، واسهرها ما حل بهم وهو مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه فرجا بفضل الله (٨٥) واحسانه لديه ، وما عوده واجراه عليه استفاد من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب اليم ، وأن يؤمن من استولى عليه الوجل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل ، وأثر اقامة الحج الذي تعطل واهمل العباد فروضه وحقوقه من الخوف المستولي عليهم واذ لا يأمزون على انفسهم ولا على اموالهم مع اعتماد ما هي عادته من اصلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليتطرق الناس آمنين ويمشوا مطمئنين ويتحفظوا بالأطعمة والأقوات ، اذ كان قد انتهى اليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، اذ لازجر للمعتدين ، ولادافع للظالمين.

ثم تجديد السكة وضربها على العيار الذي (٣٠٨-و) عليه السكة الميمونة المنصورة المباركة وقطع الغش منها اذ كانت هذه الثلاث خصال ما يسع من ينظر في امور المسلمين الا اصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها

وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المسلمين (٨٦) صلوات الله عليه الى عبده من نشر العدل وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطاع

العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والمناداة في الحق ، واعانة
المظلوم ، والتقريب والاشفاق والاحسان ، وجميل النظر ، وكريم
الصحة ، ولطف العشرة ، وافئدة الأحوال ، وحيطة أهل البلد في
ليلهم ونهارهم ، وحسن تصرفهم في أوان ابتغائهم معاشهم ، حتى
لا تجري أمورهم الا على ما لم شعئهم ، واقام اودهم واصلح بالهم ،
وجمع قلوبهم والاف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير
المؤمنين صلوات الله عليه.

وما أمر به مولاه من اسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي
صلوات الله عليه باثباتها عليكم.

وأن اجريكم في المواريث على كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله
عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم (٨٧) لبيت المال
عن غير وصية من المتوفى بها ، فإنه لا استحقاق لتصييرها ببيت
المال.

وأن أتقدم في رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأعطي
مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ، فلا
اقطعها عنهم ، ولا أدفعها الا من بيت المال ، الا بإحالة على من
يقبض منهم.

واما غير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه
مما نصه من ترسل عنكم ايدهم الله انكم ذكرتم وجوها التمسستم
ذكرها في كتاب امانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لانفسكم وان لم
يكن لذكرها معنى ولا نشرها فائدة ، ان كان الاسلام سنة واحدة
وشريعة متبعة ، وهي اقامتكم على مذاهبكم وان تتركوا على
ما (٨٨) انتم عليه من اداء الفروض في الاشتغال بالعلم والاجتماع
عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الائمة
من الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين بعدهم ، وفقهاء الامصار
الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وان يجري فرض الأذان

والصلاة وقيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما
أمر الله به ، ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم في سنده ، وأجراء
أهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل
المتجدد (٨٩) والمتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم
وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه
لا يعترض عليكم معترض ، ولا يجتني عليكم مجتني ولا يتعقب ، وعلى
أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم ،
فلا يتعرض إلى أذاكم ، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ، ولا في
الاستطالة على قوياتكم فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لا يزال مجتهدا
فيما يعمكم صلاحه ، ويشملكم نفعه ، ويصل اليكم خيره ، وتتعرفون
بركته ، وتغبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات
الله عليه .

ولكم على الوفاء بما ألزمته نفسي ، وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ
ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء
المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز
لدين الله صلوات الله عليه ، فتصريحون بها وتعلنون بالانصراف
إليها ، وتخرجون وتسلمون علي ، وتكونون بين يدي إلى أن أعبّر
الجسر ، وأنزل في المناخ المبارك وتحفظون (٣٠٨ - ظ) وتحافظون
من بعد على الطاعة ، وتتأبرون عليها ، وتسارعون إلى فروضها ،
ولا تخذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ،
وتلزمون ما أمرتم به ، وفقكم الله وأرشدكم أجمعين .

وكتب جوهر القائد هذا الأمان بخطه في شعبان سنة ثمان
وخمسين وثلاثمائة ، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين
الطاهرين الأخيار.

وفي آخره قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه (٩٠) الأكرمين : كتبت هذا الأمان على ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى الوفاء بجميعة لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم على ما شرطت فيه والحمد لله رب العالمين ، وحسبي الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين ، وكتب جوهر بخطه وأشهد جوهر على نفسه جماعة الحاضرين وهم : أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسيني (٩١) وأبو اسماعيل إبراهيم بن أحمد الرسي الحسيني (٩٢) . وأبو الطيب العباسي بن أحمد الهاشمي ، والقاضي أبو الطاهر محمد ابن أحمد وابنه أبو يعلى محمد بن محمد ، ومحمد بن مذهب بن محمد وعمر بن الحارث بن محمد .

وأخذ منه أبو جعفر مسلم كتابا إلى جماعة منهم : الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات ، وأجاز جوهر الجماعة ، وحملهم ، فلم يقبل أبو جعفر مسلم منه شيئا ، وطعم الجماعة عنده معه وودعوه وانصرفوا . فبلغهم أن الجماعة بمصر قد نقضوا الصلح فأسرعوا في الانصراف ، وبلغ ذلك جوهر فأدركهم بمحلة حفص وقال لهم : قد بلغني أن القوم قد نقضوا الصلح فردوا علي أمانتي ، فرفقوا به فقال لأبي طاهر : يا قاضي ما تقول في هذه المسألة ؟ فقال : ما هي ؟ قال ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضي إلى الجهاد ويقا تل الروم . فمنع ، اليس له قتالهم ؟ فقال القاضي : نعم ، فقال جوهر : وحلال قتالهم ؟ قال : نعم ، فسار عبد العزيز بن هيج الكلابي من عسكر جوهر فدخل الفيوم ، وأقام الدعوة ، ففر منه مبشر الأخشيدي إلى القسطنطينية ، ووافى الشريف مسلم والجماعة من عند جوهر ، في ثامن شعبان ، ونزل بداره فأتاه الناس فيهم الوزير ابن الفرات ، فقرا عليهم (أمان) جوهر ، وأوصل إلى ابن الفرات وغيره كتبهم ، فامتنع الأخشيدي والكافورية وقال فرج البجكمي : لو جاءنا يا شريف جدك محمد صلى الله عليه وسلم بهذا ضربنا وجهه بالسيف ، فلامهم ابن الفرات على ذلك وقال لهم : أنتم سألتم الشريف في هذه

الرسالة فلم يتمنع حتى أخذ معه أبا اسماعيل وهو حسني ، وأخذ معه قاضي المسلمين ، وأخذ رجلا عباسيا ، هذا وأبو جعفر مسلم ساكت لم يزد على أكثر من قوله : خار الله لكم ، واشتغل بمساررة ابن الفرات ، والكافورية مع الأخشيدي في خوض ، وقالوا كلهم : ما بيننا وبين جوهر إلا السيف ، فقال أبو منجل : فتكون حرب بغير أمير ؟ فقالوا : هو كذلك ، فقال : ترضوا بمن أَرْضَى ؟ فقالوا : (٩٣) : نعم ، فقام قائما واستقبل تحرير شويزان وقال : السلام عليك أيها الأمير ، وقاموا كلهم فسلموا عليه ، وخرجوا يحجبوه إلى داره ،

فانعقد له الأمر ، وأحمد بن الأمير علي بن الأخشيدي لا يفكر فيه ولا يعتد به ، واستعد القوم للقتال ، وساروا في عاشره ونزلوا بالجزيرة ، وضبطوا الجسرين ، فلما رأى ذلك جوهر عاد إلى منية شلقان (٩٤) ليعبر من هناك ، وبعث جعفر بن فلاح لاستقبال المراكب الواردة من تديس (٩٥) ودمياط أسفل الأرض ، فأخذها ، فبعث الأخشيدي تحرير الأزغلي ويمن الطويل ، ومبشر وبلال الطائي في خلق ليمنعوا من العبور فأبدي القتال في يوم الخميس حادي عشر شعبان ، فقتل من المصريين كثير ، وانصرف الناس عشية الأحد النصف من شعبان ، فلما كان نصف الليل انصرف من كان بالجزيرة

إلى دورهم ، وأصبحوا فارين إلى الشام وكان ممن قتل تحرير الأزغلي ومبشر (٣٠٩ - و) الأخشيدي ، ويمن الطويل ، وبلال الطائي في خلائق ، فلما كان يوم الاثنين اجتمع أحمد بن محمد الرودباري الكاتب ، وعبد الله بن أحمد الفرغاني وغيره من الوجوه عند الشريف أبي جعفر مسلم ، وسألوه أن يكتب إلى جوهر في إعادة الأمان ، فكتب كتابا بأملاء الرودباري وبعثه ، وكتب مع غلامه سعادة الأسود كتابا آخر وجلس الناس عنده لانتظار الأمان نهارهم فطاف علي بن الحسين بن لؤلؤ صاحب الشرطة ومعه رسول لجوهر ومعه جابر بن محمد الداعي ، ومعهم بند عليه المعز لدين الله وبين أيديهما الأجراس : بأن لامؤنة ولا كلفة ، وأمن الناس ، وكان جابر قد فرق البنود التي عنده ، فنشر كل من عنده بند في دبره ، فلما

كان وقت العصر وأنى سعادة بجواب جوهر ونصه بعد البسملة :

وصل كتاب الشريف الجليل ، أطال الله بقاءه ، وأدام عزه وتأييده وعلوه ، فهو المهني بما هنا به من الفتح الميمون ، ووقفت على ما سأل من إعادة الأمان الأول ، وقد أعدته على حاله ، وجعلت الى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ، ويزيد على ما كتبته كيف شاء ، فهو أمانى وعن أننى وأن مولانا وسيدنا (٩٦) أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وقد كتبت الى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين الى أن يرجعوا الى الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ، ويعمل الشريف أيده الله على لقائى في يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان .

فاستبشر الجماعة ، وعملوا على الغدو الى الجيزة ، ثم سأل الشريف غلامه عمن قتل ؟ فقال : نحريير الأزغلي ، ومبشر الأخشيدي ، ويمن الطويل وبلال ، فقال له : تدري ويلك ما تقول ؟ فقال : رأيت رؤوسهم في طشيت فضة فقال له : ومن ؟ فقال : وخلق كثير قد جمعت رؤوسهم ، فبات الناس على هدوء وطمانينة

ولما كان في غداة يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان خرج الشريف أبو جعفر مسلم ، والوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، وسائر الاشراف والقضاة وأهل العلم والشهود ، ووجه التجار والرعية الى الجيزة ، فلما تكامل الناس أقبل القائد جوهر في عساكره ، فصاح بعض حجابيه الأرض الا الشريف والوزير ، وتقدم الناس وأبو جعفر أحمد بن ناصر التاجر يعرفه بالناس واحدا واحدا فلما فرغوا من السلام عليه مضى الى فسطاطه ، فأقام الى زالت الشمس فسارت العساكر ، وعبرت الجسر أفواجا أفواجا ، ومعهم صناديق بيت المال على البغال ، وأقبلت القباب ، ثم جاء القائد جوهر في حلة مذهبة ، مثقل يحف به فرسانه ورجالته ، ومد العسكر بأسره الى المناخ الذي رسم به المعز ، وهو موضع القاهرة .

فلما استقرت به الدار جاءتة اللطاف (٩٧) والهدايا ، فلم يقبل من أحد شيئا الا طعام الشريف مسلم وحده ، فلما أصبح أنفذ علي بن الوليد قاضي عسكره وبين يديه أحمال مال ومنادي ينادي : من أراد الصدقة فليصر الى دار ابي جعفر أحمد بن نصر فاجتمع خلق من المستورين والفقراء فصار بهم الى الجامع العتيق لصلاة الجمعة وخطب بالناس (٩٨) هبة الله بن أحمد خليفة عبد السميع بن عمرو العباسي ببياض حتى بلغ الى الدعاء قرأ من رقعة ما نصه : اللهم صلي على عبدك ووليك ثمرة الذبوة وسليل السادة المهدي ، عبدك معد ابي تميم المعز لدين الله ، أمير المؤمنين ، كما صليت على أبائه الطاهرين واسلافه الائمة الراشدين .

اللهم ارفع درجته وأعلي كلمته ، وأوضح حجته ، واجمع الأمة على طاعته ، والقلوب على موالاته ومحبتة ، واجعل الرشاد في موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، وأحمد مبادئ الأمور وعواقبها ، فانك تقول وقولك الحق : «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» (٩٩) فقد أمتعض لديك ولما انتهك من حرمتك ودرس من الجهاد في سبيلك ، وأنقطع من الحج الى بيتك وزيارة قبر رسولك صلى الله عليه وسلم ، فأعد للجهاد عدته ، وأخذ لكل خطب أهبطه ، فسير الجيوش لذصرتك ، وأنفق الأموال في طاعتك ، وبذل المجهود في مرضاتك ، فارتدع الجاهل ، وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل.

فانصر اللهم جيوشه التي سيرها وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين ، وجهاد الملحدين ، والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرمين ، وإزالة الباطل ، وبسط العدل في الأمم ، اللهم فاجعل راياته عالية مشهورة ، وعساكره غالبية منصوره ، وأصلح به وعلى يديه.

وضرب السكة الحمراء ونقشها: دعا الامام معد لتوحيد الاله الصمد ، في سطر ، وفي السطر الآخر: المعز لدين الله امير المؤمنين ، وفي السطر الثالث ، ضرب هذا الدينار بمصر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وفي الوجه الآخر لا اله الا الله محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. علي(١٠٠) افضل الوصيين ووزير خير المرسلين.

وجلد متزانيين وطاف بهما وظهر المرأة مكشوف.
وكاتب مزاحم بن محمد بن رائق ، وكان قد سافر فيمن سار يريد الشام ، فرجع عن الدوف (١٠١) في عسكر كبير.

وفي هذا الشهر ابتداء بزيان القصر ، وبني المصلى الذي للعيد ، واقطر جوهر في عيد الفطر على عدد بغير رؤية ، وصلى صلاة العيد بالقاهرة ، صلى به علي بن الوليد الاشبيلي قاضي عسكره ، وخطب ، فلم يصل اهل مصر ، وصلوا من الغد في الجامع العتيق وفيهم القاضي ابو طاهر ، وكان قد التمس الهلال على عادته في سطح الجامع ، فلم يره ، فلما بلغ ذلك جوهر انكره وعاتب عليه وتهدد فيه.

وجلس للمظالم في كل سببت ، ثم رد المظالم الى ابي عيسى مرشد ، وصرف علي بن الحسين عن الشرطة وردها الى شبل المعرضي وإلى ابن عروبة المغربي ، واشرك بين علي بن يحيى بن العرمم وبين رجاء بن صولات في الخراج ، واشرك بين محمد بن احمد الشداني وبين موسى بن الحسين البصنهاجي في ديوان الضياع الاخشيدية ، واشرك بين محمد بن سالم وبين ابي اليمان قزمان بن مسهناخي في الضياع الكافورية

ووردت كتب الاخشيدية والكافورية من الشام بطلب الامان فامنهم ، ووافى منهم في ذي الحجة ستمة آلاف فأنزلهم جوهر خارج القاهرة.

وفي يوم الجمعة ثامن ذي القعدة زيد في الخطبة: اللهم صلي على النبي محمد المصطفى وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا. اللهم صلي على الأئمة الراشدين أباء أمير المؤمنين الهادين.

ونودي على التوابيت في الجامع العتيق برفع البراطيل وقائم الشرطيين ، وكذلك نودي في سائر البلد.

وورد الخبر بقدوم القرامطة الى الرملة. وقدم كتاب المعز لدين الله من المغرب بوصول رأس تحرير ومبشر ويمن وبلال.

وفي ذي الحجة فر فأتاك الهنكري الى الشام ، وبلغ جوهر أن المستأمنة من الاخشيدية والكافورية قد عزموا على القيام ، فحضر جنازة في خامسه ، وانصرف منها وهم معه ، فلما بلغ القصر من القاهرة قال للاخشيدية والكافورية: انزلوا ، فنزلوا ، فقبض على ثلاثة عشر من وجوههم ، واعتقلهم ستة أشهر حتى سيرهم الى المعز بالمغرب مع الهدية ، وقبض على اموال تحرير الازغلي وغيره. ودخلت سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، ف ضرب اعناق جماعة وصلبهم ، وندب جعفر بن فلاح لأخذ الشام ، فسار في ثاني عشر المحرم وملك الرملة ، وبعث علي بن عقبايا (١٠٢) الى الصعيد في البر ، وعلي بن محمد الخازن في البحر.

وفي ربيع الأول قبض على دواب الاخشيدية والكافورية وصرفهم مشاة ، وأمرهم بطلب المعيشة.

وتعذر الخبز لغلاء السعر ، ف ضرب جماعة من الطحانين وطيف بهم.

وفي يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الأولى صلى في جامع أحمد بن طولون ، وخطب به عبد السميع بن عمر العباسي بقلنسوة وشي وطيلسان وشي ، وأذن المؤذنون حي على خير العمل ، وهو أول ما أذن به مصر ، وصلى به عبد السميع فقرا سورة الجمعة وإذا جاءك المنافقون ، وقنت في الركعة الثانية وانحط ساجدا ، ونسي أن يركع ، فصاح به علي بن الوليد قاضي عسكر جوهر: بسطت الصلاة ، أعد ظهرا أربع ركعات. ثم أذن بحي علي خير العمل في سائر مساجد العسكر ، وأذكر جوهر على عبد السميع أنه يقرأ البسملة في كل سورة ، ولا قراها في الخطبة فصلى به الجمعة الأخرى ، وفعل ذلك، وكان عبد السميع قد دعا لجوهر في الخطبة ، فأنكر جوهر عليه ، ومنعه من الدعاء له.

وقبض على الأحباس من يد القاضي أبي طاهر وردها إلى غيره ، ولأربع بقين منه أذن في الجامع العتيق بحي على خير العمل ، وجهروا فيه بالبسملة في الصلاة ، وكانوا لا يفعلون ذلك بمصر ، وأمر في المواريث بالرد على نوي الأرحام ، وأن لا يرث مع البنات أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ، ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد ذكر كان أو أنثى إلا الزوج والزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد.

وخاطب أبو الطاهر القاضي القائد جوهر في بنت وأخ وأنه قد كان حكم قديما للبنات بالنصف وللأخ بالباقي ، فقال: ما أفعل ، فلما ألح عليه قال: يا قاضي هذه عداوة لفاطمة عليها السلام ، فأمسك أبو الطاهر ولم يراجع بعد ذلك ، وأشار الشهود على القاضي أبي الطاهر أن لا يطلب الهلال لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال ، فانقطع طلب الهلال وصام القاضي في هذه السنة مع القائد جوهر كما يصوم ، وأفطر كما يفطر.

ولسبع عشرة خلت من جمادى الآخرة أنفذ جوهر ابنه جعفر بن جوهر بهدية إلى المعز فيها تسع وتسعون بختية ، وإحدى وعشرون قبة بأجلة الديباج المنسوجة بالذهب ، ومناطق الذهب المكلفة

بالجواهر ، ومائة وعشرون جملا عرابا ، وستة وخمسون
جلا ، وثمانية وأربعون فرسا عليها اجلة (١٠٣) الديباج
المنقوش ، والسروج على جميعها اصناف الحلية من الذهب ، ومنها
ماهو من الفضة مموه بالذهب ، ولجمها منها ماهو بالذهب ومنها
ماهو بالفضة مموه بالذهب ، وعودان عظيمان من عود كأطول
مايكون من الصواري كان جواهر قد وجدهما فيما وجد لنحريير
الأزغلي ، وانفذ مع الهدية جماعة من قواد الاخشيدية ، وقواد
الكافورية ، ومن أنفذه جعفر بن فلاح من الشام وهم : الحسن بن
عبيد الله بن طغج ، وجعفر بن غزوان صاحب القرامطة ، وفاتك
الهنكري ، والحسن بن جابر الرياحي - كاتب الحسن بن عبد
الله - ونحريير شويزان ، ومفلح الوهباني ، ودري الخازن ،
ودرامك ، وقيلغ التركي الكافوري ، وأبو منجل ، وجكل
الاخشيدي ، وفرج العجمكي ، ولؤلؤ الطويل ، وفنك الخادم ،
فخرجوا في القيود وساروا إلى رشيد ففكت قيودهم هناك ، واركبوا
المحافل في البر إلى القيروان .

ومنع جواهر من (١٠٤) الدينار الأبيض ، وكان بعشرة دراهم ،
وأمر أن يجعل الدينار الرازي ، وهو الذي عليه اسم الخليفة الرازي
بالله - هو محمد بن المقتدر العباسي - بخمسة
عشر (٣١٠ - ظ) درهما ، والدينار المعزي بخمسة وعشرين
درهما ونصف ، فلم يرض الناس بذلك فرد الأبيض إلى ستة
دراهم ، فتلف بعد ذلك إلى آخر الدهر ، وافتقر خلق كثير .

وضرب أعناق عدة من الاخشيدية والكافورية ، وصلبهم عند
كرسي الجسر ، فأقاموا إلى أن نخل المعز إلى مصر .

وفي ذي الحجة أنفذ عسكريا وعشرين حمل مال وأحمال متاع إلى
الحرمين بمكة والمدينة .

وفي المحرم سنة ستين وثلاثمائة اشتدت الامراض والوباء بمصر
والقاهرة ، ومنع جواهر من بيع الشواء إلا بعد سلب الغنم ، وكان
يباع مسموطا بجلده .

وفي جمادى الآخرة نقل مجلس المظالم عن يوم السبت إلى يوم الأحد وأطلق لأصحاب الراتب ألف دينار فرقت فيهم .

وورد الخبر بقدوم الحسن بن أحمد الأعصم القرمطي (١٠٥) إلى دمشق وقتل جعفر بن فلاح واستيلاء القرامطة على دمشق وقصدهم مصر ، فتأهب جوهر لقتالهم ، وحفر جوهر خندقا ، وعمل بابين من حديد وبنى القنطرة على الخليج ظاهر القاهرة ، وحفر خندق السري ابن الحكم ، وفرق السلاح على العساكر فوجد رقاعا في الجامع العتيق فيها التحذير منه ، فجمع الناس ووبخهم فاعتذروا له فقبل عذرهم ، ونزل القرامطة عين شمس في المحرم سنة إحدى وستين فاستعد جوهر وضبط الداخل والخارج .

وفي مستهل ربيع الأول التحم القتال بين القرامطة وبينه على باب القاهرة ، فقتل من الفريقين جماعة وأسر كثير ، ثم استراحوا في ثانيه ، والتقوا في ثالثه فاقتتلوا قتالا كثيرا قتل فيه ما شاء الله من الخلق ، وانهزم القرمطي يوم الأحد ثالث ربيع الأول ، ونهب سواده ومر على طريق القلزم ، ونودي في مدينة مصر: من جاء بالقرمطي أو براسه فله ثلاثمائة ألف درهم وخمسون خلعة ، وخمسون سرج محلى على دوابها ، وثلاث جوائز .

وقبض جوهر على تسعمائة رجل من جند مصر في ساعة واحدة وقيدهم وسجنهم بالقاهرة في دار ، ووجد عدة ودائع لقواد الاخشيدي فأخذها .

ورفع المعاملة بالدينار المتقية وهي التي عليها اسم المتقي لله ابراهيم بن المقتدر العباسي ، وجعل قيمة الدينار الأبيض ثمانية دراهم .

وأمر الا يظهر يهودي إلا بغيار ، فاعتمد ذلك .

وفي شعبان منها دخل أبو محمود ابراهيم بن جعفر الرملة ، وفيه مرض الشريف أبو جعفر مسلم ، فأرسل إليه القائد جوهر ابنه حسينا لعيادته ، ولتسع خلون من رمضان فرغ القائد جوهر من بناء

الجامع بالقاهرة وجمعت فيه الجمعة. وفي شوال ابتداء القائد جوهر بحفر الخندق بالقرافة ، وبدايته من بركة الحبش (١٠٦) والقى الأموات حتى تلقى (١٠٧) إلى قبر الشافعي فعدل به عنه ثم شق مشرقا إلى الجبل على المقابر إلى قبر كافور الاخشيدي ليحفظ طريق مصر من السفح حتى لا يرد أحد من القلزم .

وفي ربيع الآخر سنة إثننتين وستين وثلاثمائة تواترت الأخبار بقدوم المعز لدين الله إلى مصر ، فتأهب جوهر وأخذ في عمارة القصر ، وفي أول رجب تقدم إلى الناس بلقاء المعز ، فخرجوا في ثامنه ، وقدم المعز في سابع رمضان فنزل قصره من القاهرة ، وجلس على سرير الذهب في الايوان وجوهر قائم بين يديه يقدم الناس قوما بعد قوم حتى انقضى السلام ، ومضى وأقبل بهدية وهي : من الخيل مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها بذهب ، ومنها مرصع ومنها بعنبر ، وإحدى وثلاثون ناقه من البخاتي عليها قباب بالثياب والديباج والمناطق والفرش ، منها تسعة بديباج مثقل ، وتسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل ، وثلاثة وثلاثون بغلا منها سبعة مسرجة ملجمة ومائة وثلاثون بغلا للحمل ، وتسعون نجيبا ، وأربعة صناديق مشبكة (٣١١ - و) يرى مافيها ، وتحتوي على أواني ذهب وفضة ، ومائة سيف محلى بذهب وفضة ، وتسعمائة مابين سبط وتخت فيها سائر ما أعده من ذخائر مصر .

ولما خطب المعز يوم العيد كان جوهر معه على المنبر ، وخلع عليه في سابع شوال خلعة مذهبة وعمامة حمراء ، وقلده سيفا ، وقاد بين يديه عشرين فرسا مسرجة ملجمة ، وحمل بين يديه خمسين ألف دينار ومائتي ألف درهم ، وثمانين تخت ثياب ، وكان إذا ركب المعز سار خلفه ، واستقر خليفة للمعز بديار مصر محكم في القاهرة ومصر ، ثم صرفه عن الخراج في سادس عشر المحرم سنة ثلاث وستين ، فكانت مدة تدبيره أمور مصر أربع وعشرين يوما ما صدر عنه فيها بخطه توقيع ملحون .

وأقام بالقاهرة حتى مات المعز في ربيع الآخر سنة خمس وستين

واستخلف بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، فانتدبه إلى الخروج إلى الشام ، وحمل إليه خزائن السلاح والأموال ، وسار من القاهرة في عسكر لم يخرج إلى الشام قبله مثله ، بلغت عدتهم عشرين ألفا ، فبلغ هفتكين (١٠٨) الشرابي وهو على عكا مسير جوهر ، والقرامطة على الرملة ، فولت القرامطة منهزمين عجزا عن مقاومته ، وسار هفتكين إلى دمشق وجوهر في إثره إلى أن نزل بين داريا وبين الشماسية ظاهر دمشق يوم الأحد لثمان بقين من ذي القعدة سنة خمس وستين ، وحفر على عسكره خندقا عظيما وجعل له ابوابا ، وبنى البيوت من داخل الخندق ، وكان قد انضم إليه ظالم ابن مرهوب العقيلي ، فأنزله خارج الخندق ، وجمع هفتكين الذعار وحمال السلاح من عوام دمشق ، وقدم عليهم قسسام السسناط (١٠٩) التراب ، وأجرى له الأرزاق ، وأخرجه إلى قتال جوهر ، فاستمرت الحرب بين جوهر وهفتكين من يوم عرفة ، فجرى بينهم ثنتي عشرة وقعة إلى سلخ ذي الحجة ، ولم تزل الحرب إلى يوم الخميس حادي عشر ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، فانهزم هفتكين ، وعزم على الفرار إلى انطاكية ، ثم ثبت عندما بلغه قدوم الحسن بن أحمد القرمطي إليه فاستظهر ، وبلغ ذلك جوهر فدعا إلى الصلح ، وكان الشتاء قد هجم عليه وهلك أكثر مامعه من الكراع ، وصار معظم أصحابه رجالا بغير خيل ، وقلت العلوفات عنده ، واشتد وقوع الثلوج فامتنع هفتكين من إجابته ثم أذعن وأنفذ إلى جوهر بجمال ، ورحل عن دمشق بعدما أحرق ما عجز عن حمله من الخزائن والأسلحة ، وسار يوم الخميس ثالث جمادى الأولى مجدا لخوفه أن يدركه القرمطي ، فهلك كثير من عسكره لشدة الثلج ، وأخذ القرمطي يسير خلفه من طبرية إلى الرملة ، فتحصن جوهر بسزيتون الرملة ، وخرج هفتكين من دمشق ولحق بالقرامطة ، واجتمعوا على قتال جوهر فجرت بينهم حروب طويلة شديدة آلت إلى التجاء جوهر إلى عسقلان وقد فني معظم عسكره ونهبت أثقاله ، فنزل هفتكين عليه وحصره حتى بلغ منه الجهد الشديد ، وغلت عنده الأسعار بعسقلان فبلغ قفيز القمح أربعين دينارا ، وتذكر عليه من معه من الكتاميين واحتقروه وتنقصوه وشتموه ، وكانوا قبل ذلك تخاذلوا ولم

يصدقوا في القتال، وكايدوا القائد جوهر، فضماقت بجوهر ومن معه الأرض، ولاذ إلى الصلح، فبعث إليه هفتكين: إن أردت الخروج بمن معك فأننا أومئنا حتى تنصرف إلى صاحبك، فتعاسقوا على ذلك، وصالح هفتكين على مال، وخرج وقد علق هفتكين سيفه على باب عسقلان حتى يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه، فسار (٣١١ - ظ) إلى القاهرة وقد بلغ العزيز ما هو فيه من الجهد، فبرز يريد السفر إلى الشام، فسار معه، وكانت مدة قتال القرامطة وهفتكين لجوهر على الزيتون ظاهر الرملة وعلى عسقلان سبعة عشر شهرا، فلما قدم جوهر على العزيز وبلغه تخاذه الكتاميين غضب من ذلك غضبا شديدا، وعذر جوهر وأظهر أنه قد تذكر له وعزله عن الوزارة وصير مكانه يعقوب بن كلس .

فلما فرغ العزيز من قتال هفتكين وعاد إلى القاهرة لم يزل جوهر بها إلى أن مات يوم الخميس لاحدى عشرة بقيت، وقيل بل مات لسبع بقين من ذي القعدة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، فبعث العزيز بالله إليه بالحنوط والكفن، وبعث إليه الأمير المنصور بن العزيز، وبعثت إليه السيدة العزيزة أيضا ، فكفن في سبعين ثوبا ما بين مثقل ووشي مذهب، وصلى عليه العزيز،

وكان له من الولد: حسين، وحسن، وأبو أحمد جعفر، فأما الحسين بن جوهر فإن العزيز خلع عليه وجعله في مرتبة أبيه، وله ترجمة كبيرة في هذا الكتاب، وأما حسن فإنه مات بالمغرب، وصلى عليه المعز لدين الله في سنة ستين وثلاثمائة، وأما أبو أحمد جعفر فبعثه أبوه من القاهرة إلى المغرب بهدية، وله ترجمة أيضا .

ولما مات جوهر لم يبق شاعر بمصر من أهلها ولا طارئ (١١٠) غريب إلا رثاه، ووصف مآثره وما فتحه من البلاد شرقا وغربا .

جيش بن الصمصامة

القائد ابو الفتح

(من المقفى للمقرئى - مجلة برتو باشا)

قدم الى القاهرة فيمن قدم اليها مع المعز ، وخرج مع خاله ابي محمود ابراهيم بن جعفر بن فلاح الى الشام ، فولاه مدينة دمشق لايم بقت في ربيع الآخر سنة اربع وستين وثلاثمائة ، وقتل اهلها فنزل عليها ايما ثم عبر اصحابه الى جهة باب الفردايس فثار بهم اهل دمشق وقتلوا منهم ، وساروا الى الجيش ففر منهم ، وغنموا ما كان له فاصبح جيش ونازل المدينة ومعه نفاطون فضرب مواضع بالنار وقتل من قدر عليه الى ان اهل جمادى الاولى ، فناصبه الناس وجدوا في قتاله يوما خلف يوم من بكرة النهار الى الليل والى ان صرف ابو محمود عن دمشق بريان الخادم ، وسار الى الرملة فصار معه .

ثم لما قدم هفتكين الشرايى الى دمشق وملكها بعثه أبو محمود (١١١) في نحو الألفين الى دمشق فصار حتى قرب من سنير (١١٢) وبها شبل بن معروف العقيلي في جمع من العرب فقاتله واسره واسلمه الى هفتكين فاسلمه هفتكين الى الدمستق ملك الروم وهو يومئذ نازل على دمشق ينتظر ما يجيى اليه اهلها من المال ، فما زال عنده حتى رحل عن دمشق بالمال وبزل طرابلس فهلك في طريقه ونجا جيش وصار الى خاله ابي محمود ، و قدم القاهرة فاقام بها الى أن ورد على العزيز كتاب منجوتكين بنزول بسيل (١١٣) ملك الروم على حلب فسيره على عسكر كبير في اول شهر رجب سنة خمس وثمانى وثلاثمائة الى الشام فمات العزيز بعد (٣١٣ - و) قليل وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله وصرف منجوتكين عن الشام بسلمان (١١٤) بن جعفر بن فلاح ثم عزل سلمان بن جعفر بعد تسعة اشهر بجيش بن الصمصامة.

فسار من القاهرة في تاسع ذي القعدة سنة سبع وثمانين ونزل على دمشق بعدما اقام بالرملة مدة في يوم الجمعة لأربع خلون من رجب سنة ثمان وثمانين وقدم اليه بشارة متولي طبرية وسارا بالعساكر الى فامية يوم الاثنين رابع عشره ، وقد نازلها الروم فقاتلهم قتالا كثيرا قتل فيه من الروم نحو خمسة آلاف وانهزم باقيهم في يوم الثلاثاء لتسع بقين من رجب. ومضى جيش الى نحو مرعش يحرق ويهدم. ونزل على انطاكية وبها الروم وقاتلهم اياما ثم سار الى شمير وعاد الى دمشق فنزل المزة يوم الثلاثاء لتسع بقين من ذي القعدة ونزل بشارة القصر الذي بدمشق على انه ولي دمشق فقدم الكتاب من مصر باستقرار جيش على اماره دمشق .

وكانت دمشق قد خربت وقل ناسها وضعفوا وثار قوم من الجهال وصاروا يأخذون الخفارة من الناس فكثرت اموالهم ، وركبوا الخيل ومشيت الرجال بين ايديهم وزاد عجبهم واظهروا انهم تحت طاعة السلطان وفي خدمته ، فأمنهم جيش ووعدهم بالأرزاق حتى اطمأنوا اليه فقبض عليهم وقيدهم وحبسهم وشدد العقوبة عليهم حتى استصفى اموالهم وتتبع من استتر منهم وضرب اعناقهم وصلبهم على ابواب المدينة حتى خلا البلد منهم .

ثم طمع في بقية الناس من اهل المدينة والقرى وجبى منهم الأموال الى ان (١١٥) شمل ضرره الكافة فكثرت الدعاء عليه وهو يطرح الأموال على القرى وعلى اهل المدينة ويعدهم ببذل السيف فيهم .

وبينما هو في ذلك اذ ورد الخبر بمسير الروم اليه في طلب ثارهم بفامية ، فجمع العربان وغيرهم وانزلهم في حرسنا الى القايون ونزل الروم على شمير وقاتلوا اهلها وملكوها ثم اخذوا مدينة حمص وسبوا وحرقوا ، وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وهي دخلة الروم الثالثة حمص ، ثم ساروا الى طرابلس ونازلوها مدة ، ثم افرجوا عنها وتوجهوا الى الثغور الجزرية فاشتد بأس جيش عند رحيلهم وزاد ضرره لاهل دمشق .

وكان به طرف جذام فتزايد به حتى تمعط (١١٦) شعره ورشح

بدنه واسود ته انحنت سحنة وجهه وباد كله ، وبتن جميع جسده
فصار يصيح: ويحكم اقتلونني اريحوني الى أن هلك (١١٧) يوم
الأحد لسبع خلون من ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة ، وكان
مقامه على دمشق ستة عشر شهرا وستة عشر يوما.

ووصل ابنه عبد الله بتركته في جمادى الآخرة ، ودفع درجا الى
زيدان الصقلبي حامل المظلة بخط أبيه جيش يتضمن وصيته وتعيين
ما خلفه مفصلا مشروحا ، وفيه أن ذلك جميعه لأمير المؤمنين
الحاكم بأمر الله . لا يستحق احد من اولاده في ذلك درهما واحدا فما
فوقه وتبلغ قيمة ذلك زيادة على مائتي ألف دينار ما بين عين ورحل
ومتاع، فلما مثل ابنه عبد الله بن جيش بحضرة الحاكم قال زيدان:
ان التركة كلها قد حزتها وهي على البغال محمولة تحت القصر
واستأذن الحاكم فيمن يتسلمها فاخذ الحاكم منه الدرج واوصله الى
ابني جيش بن الصمصامة وقال لهما بحضرة اوليائه ووجوه دولته:
قد وقفت على وصية ابيكما رحمه الله من عين ومتاع مما وصى به
فخذوه هنيئا مباركا لكم فيه، وخلق عليهما فانصرفا بجميع التركة

الحسن بن الصباح

(من المقفى للمقرئى - مجلة برتو باشا)

الحسن بن صباح ، الرازى ، رئيس الاسماعيلية ، المعروف بالكىال .

كان رجلا شهما كافيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك . فمال الى دعوة الباطنية ، وصار تلميذا لأحمد بن عبد الله بن عطاش الطبيب . وكتب للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالرى . فاتهمه أبو مسلم رئيس الرى بدخول جماعة من المصريين عليه ، فخافه ابن الصباح وخرج من الرى ، فطلبه أبو مسلم فلم يدركه .

ومضى ابن الصباح فطاف فى البلاد . فقدم الى مصر فى سنة تسع وسبعين وأربعمائة فى زى تاجر واجتمع بالخليفة المستنصر بالله ، وحدثه فى إقامة دعوته ببلاد خراسان ، فوصله بمال ، وأقام عنده مدة . فبلغه عنه ما أوجب اعتقاله . ثم أخرجهم وأنعم عليه ، وكتب له بخطه جوابا عن مسائل سألها عنها على مذهب الاسماعيلية .

وخرج من القاهرة الى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم . ورجع الى خراسان ودخل كاشغر وماوراء النهر ، وهو يطوف على الناس ويدعو الى المستنصر وينشر الدعوة ببلاد الجبل وقزوين وأصبهان حتى شاعت . وسير دعائه ورسله الى بلاد العجم والقى عليهم مسائلهم التى منها :

لم كانت الأيام سبعة ؟

والبروج اثني عشر ؟

والسماوات سبعة ؟

والأرضون سبعة ؟

والشهور اثني عشر ؟
وفي كل كف من الانسان خمس اصابع ؟
وفي كل إصبع ثلاثة شقوق ؟
وفي ظهر الانسان اثنتا عشرة خزيمة ؟
وفي عنقه سبع خزمات ؟
ونحو ذلك •

• وادعى انه استأثر من إمامه بغوامض علوم وبديع أسرار •
• وكانت الدعوة الاسماعيلية هناك قديمة فقبلها كثير من الناس •
• وأخذ في ابتياع الأسلحة والعدد الحربية سرا • وواعد أصحابه ممن
استجاب له على ليلة عينها لهم من شعبان سنة ثلاث وثمانين
واربعمائة • والسلطان يومئذ ملك شاه بن الب أرسلان • وأخذ
قلعة الموت (١١٨) وهي بنواحي قزوين ، ولها بلاد كثيرة بأصبهان
وقلاع عديدة • وكانت قديما قبل الاسلام وفي صدر الاسلام للوك
الديلم ، وهي من الحصانة والمناعة على غاية ، لا ترقى الهمم الى
بلوغها وتحيط بها بحيرة • فبعث نظام الملك عسكرا الى قلعة الموت
فحصر ابن الصباح الى أن ضاق ذرعه بالحصر • فأرسل من قتل
نظام الملك ، فلما قتل رجع العسكر عنه •

ولما ملكها اجتمع باطنية أصبهان ونواحيها مع رئيس دعائهم
أحمد بن عطاءش ، وأخذوا قلعتين عظيمتين فعظم أمرهم وكثر عملهم
بالسكين • وكان أول عملهم بالسكين أن الحسن بن الصباح لما بث
دعوته وصار معه طائفة أظهر التدين والزهادة وقال لأصحاب قلعة
الموت : نحن قوم ضعفاء زهاد نريد عبادة الله عندكم • فبيعونا
نصف هذه القلعة !

فباعوها منهم بتسعة آلاف دينار وسكنوا فيها • فاستولى
عليها ، وبلغ خبره ملك تلك الناحية فقصده بعسكره ليحاربه • فقال
عليه اليه علي بن الحسن بن صباح ولمن معه : أي شيء يكون لي عندكم
إن كفيتمكم أمر هذا العسكر ؟

فقال : نذكرك في تسابيحنا •
فقال : رضيت •

ونزل بهم • وقسمهم أرباعا في أرباع العسكر : وجعل معهم
طبولا وقال : إذا سمعتم الصائحة فاضربوا الطبول •

ثم هجم على صاحب العسكر في الليل وقتله • فوقع الصباح في
العسكر ، فضرب أولئك الطبول ، فلم يثبت العسكر لما ملأ قلوبهم من
الخوف وفروا بأجمعهم وتركوا خيامهم ، فنقلها أصحاب ابن
الصباح الى قلعة الموت •

ومن ذلك الوقت سنوا سنة السكين ، واغتالوا الملوك والرؤساء ،
وكثر قتلهم للناس •

فاستدعي الامام أبو حامد الغزالي الى نيسابور وأقام بالمدرسة
النظامية فيها واشتغل بمناظرة أصحاب ابن الصباح وألف كتاب
« المستظهري » (١١٩) وأجاب عن مسائلهم • وجد السلطان ملك شاه
في قلعهم فلم يتمكن من ذلك •

فلما مات المستنصر بالله في ذي الحجة سنة سبع وثمانين
وأربعمائة ، ادعى الحسن بن الصباح انه قال للمستنصر لما كان
عنده : « من الامام بعدك ؟ قال : ولدي نزار » • وأنكر إمامة
المستعلي ودعا لنزار بن المستنصر • فلما قتل نزار في ذي القعدة
سنة ثمان وثمانين قال أصحاب ابن الصباح له : إنك تدعي
حضوره •

فقال لهم : الآية في ذلك أن يطلع القمر في غير وقته من غير
مطلعه •

ثم عمد الى جبل بجانبهم شديد الارتفاع • وعمل بعض مخاريقه
فصار يرى كالقمر قد طلع من وراء الجبل • فعند ذلك صار بعضهم
يبشر بعضا بالامام نزار • وأقرفوا (١٢٠) من أهل مصر وشرعوا في
افتتاح الحصون فأخذوا قلاعاً ، واشتغلوا بعمل السكين التي سنها
لهم علي اليعقوبي • وأخذ ابن الصباح يقول لأصحابه : إن الامام
نزارا بين أعداء كثيرة ، والأعداء محيطة به ، والبلاد بعيدة ، ولم

يتمكن من الحضور ، وقد عزم على أن يستخفي في بطن امرأة ويستأنف الولادة ليجيء سالما .

فصدقوه في ذلك ، وأخرج إليهم جارية حبلى وقال لهم : « إن الامام قد اختفى في هذه » . فعظموها حتى ولدت ذكرا وسماه حسنا وقال : قد تغير الاسم بتغيير الصورة .

وفي المحرم سنة ثلاث وخمسمائة سير السلطان محمد بن ملك شاه وزيره أحمد بن نظام الملك الى قلعة الموت لقتال الحسن بن الصباح ، فحصره وهجم عليه الشتاء فعاد بغير طائل .

وفي سنة خمس وخمسمائة ندب أيضا لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب ساوة فملك عدة قلاع للحسن بن الصباح ونزل على قلعة الموت بعساكره ، وأمدّه السلطان محمد بعدة من الأمراء ، فجد في قتال الحسن وبنى له مساكن يسكنها هو ومن معه . فضاق الأمر على الحسن وقلت الأقوات عنده حتى كان يجري لكل من أصحابه رغيفا وثلاث جوزات في اليوم . فبيناهم في ذلك إذ مات السلطان فرحل العسكر وغنم الحسن ما تخلف عنهم .

ثم إن ابن صباح ندب لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش من أصحابه ، فلما قتل في شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة وولي القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك المعروف بالمأمون البطائحي وزارة الخليفة الأمر بأحكام الله بعد قتل الأفضل ، اتصل به أن النزارية والحسن بن الصباح فرحوا بموت الأفضل ، وأن أمثالهم امتدت إلى قتل الأمر والمأمون (١٢١) . وقد بعث ابن الصباح رسلا لمن في مصر من أصحابه بأموال تفرق فيهم .

فضبط حينئذ المأمون أمر مصر ضبطا عظيما حتى قبض على جماعة كثيرة من أصحاب ابن الصباح . وعقد مجلسا بالقصر للنظر في أمر النزارية . وكتب الى الحسن بن الصباح يعظه ويأمره بالرجوع عن القول بإمامة نزار ، فلم يقنع بذلك ، وأقام على دعوتيه الى أن مات بناحية الموت في سنة ثمانى عشرة وخمسمائة

وكان ذا سميت وزهد ، وله اتباع من جنسه .

وقام من بعده بالموت ديلمى يعرف بزرك أميد، وهذه الطائفة الاسماعيلية يقال لها أيضا الباطنية ، وأصل دعوتها مأخوذ عن القرامطة •

وأول ما عرف أمرها أنه اجتمع منها ثمانية عشر رجلا يوم العيد في مدينة ساوة ، وقد فطن بهم الشحنة ، وأخذهم وسجنهم ثم سئل فيهم فخلى عنهم ، وكان ذلك في سلطنة ملك شاه • ثم إنهم دعوا مؤذنا من أهل ساوة كان بأصبهان فلم يجبههم فقتلوه فأمر الوزير نظام الملك بتتبعهم • فأخذ رجل نجار اسمه طاهر وقتل ومثل به وجرت العامة برجله في الأسواق •

فحنق الباطنية وفسدوا على نظام الملك حتى قتلوه بالنجار ، ثم اجتمعوا في موضع بالقرب من قايين وأخذوا قافلة عظيمة مرت بهم من كرمان ، وقتلوا سائر من بها إلا رجلا تركمانيا ، فإنه فر إلى قايين وأعلم الناس فخرجوا إليهم فلم يقدروا عليهم • وعظم أمرهم واشتدت شوكتهم بنواحي أصفهان ، وصار دعائهم يسرقون من قدروا عليه ويقتلونه حتى أتلفوا خلقا كثيرا ، وانتشرت دعوتهم •

ثم إن الفقيه أبا القاسم مسعود بن محمد الخجندی الشافعي تجرد لهم بمدينة أصفهان ، وجمع الجمع الغفير بالأسلحة وتطلبهم وأخذ منهم عالما كبيرا ، وحفر لهم أخاديد وأضرهم نارا ، وجعلت العامة تأتي بالباطنية أفواجا وفرادى وتلقيهم في النار ، وقد أوقفوا على رأس الأخاديد رجلا سموه مالكا • فقتل منهم خلق كثير في شعبان سنة أربع وتسعين وأربعمائة •

وكان الباطنية قد اجتمعوا على أحمد بن عبد الملك بن عطاش والبسوه التاج وجمعوا له الأموال وقدموه عليهم ، مع جهله ، لأن أباه كان مقدما فيهم • فاتصل بدردار قلعة أصفهان التي بناها السلطان ملك شاه ، وبقي معه فوثق به الدردار وقلده الأمور • فلما مات الدردار بعد موت ملك شاه في أيام خاتون الجلالية أم السلطان محمد بن ملك شاه ، استولى أحمد بن عبد الملك بن عطاش على

القلعة بعده ، ونال المسلمون منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل
الأنفس وقطع الطريق والخوف الدائم •



وفي الحسن بن الصباح يقول الشريف أبو يعلى محمد بن محمد
ابن الهبارية العباسي ، وكتب بها من كرمان في سنة ست وسميعين
وأربعمائة إلى أمين الدولة أبي سعد ابن الموصلايا نائب الديوان
ببغداد ، فعرضها على الخليفة المستظهر بالله ، وهي :

عز على المنصور والسفاح
ظهور أمر الحسن الصباح
يدعو الى ميمونه القداح
بألسن السفاح والرماح
أناؤم أنت أبا العباس؟

ناحت دعاة القوم في النواحي
فدعوة الصباح كالصباح

قد صرحت بشرها الصراح
قائلة بألسن فصاح :

حي على قتل بني العباس!

فأكثر العالم مستجيب
إلا امرؤ محقق نجيب

بقلبه من خوفهم وجيب
وذاك في هذا الورى عجيب

وكلهم شارب هذا الكأس

لم يبق في ظهورهم خفاء
قد ذهب النفاق والرياء

ولغّبوا بالملك كيف شاؤوا
واستذابت للجرة الجماء
إذ غلبت أسد عن الأخياس
فالباطل اليوم جهارا ظاهرا
شيطانه للمسلمين قاهر
بكنبه معالن مجاهر
سيفه على العباد شاهر
مفتخر بمكره في الناس
حذار من شرهم حذار
فإنهم كالأسد الضواري
قاذية الأنياب والأظفار
ليس لها في الغاب من قرار
شوقا الى العراك والمراس
فنارهم تستعر استعارا
ترمي إليك الجمر والشرار
ترى فراش ضوءها الأعمار
فاحذر أبيت اللعن ثارا
فهي بلا أس ولا نحاس
حقرتم الشرار في الرماد
فعاد كالجمر في الانتقاد
وحره والله في فؤادي
وسائر القلوب والأكباد
قلوب اهل السنة الأكياس
كأننا نبصر ما يكون
إن اللبيب ظنه يقين

هونه قوم وما يهون
والاحتقار لهم جنون
واحزنا ليس لجرحي اس!
إن تم امر القوم في كرمان
تب إلى الأقطار والبلدان
وانكشفت سريرة السلطان

وجاء بغداد بلا احتباس

نظام الملك أحد أفراد الدنيا

(من بغية الطالب لابن العديم)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

الحسن بن علي بن اسحق بن العباس أبو علي الطوسي ، الوزير المعروف بنظام الملك ويعرف بخواجه بزرگ ، وخواجه بالفارسية الوزير ، وبزرگ العظيم ، وزير للسلطان العادل الب أرسلان بن جفري بك ، وقدم معه حلب في سنة ثلاث وستين وأربعمائة حين قدمها محاصرا لها .

ثم وزير بعده لولده السلطان ملكشاه أبي الفتح ، وقدم معه حلب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وسمع بحلب أبا الفتح عبد الله بن اسماعيل بن الجلي الحلبي ، وروى عن أبي عبد الله بن محمد الطوسي ، وأبي بكر محمد بن يحيى بن إبراهيم المزكي ، وأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، وأبي حامد أحمد بن الحسن الأزهري ، وأبي بكر محمد بن أحمد بن محمد الصفار ، وأبي بكر محمد بن أحمد بن الحسن الطاهري ، وأبوي منصور شجاع بن علي بن شجاع المصقل الشيباني ، ومحمد بن أحمد بن علي القاضي وأبي نصر علي بن عبد الله الكاغدي ، وأبي بكر أحمد ابن منصور بن خلف المقرئ ، وأبي القاسم اسماعيل بن زاهر الطوسي ، وأبي الحسن علي بن عبد الله بن محمد ، وأبي مسلم محمد ابن علي بن مهر برد الأديب ، وأميرك بن أحمد ، وأحمد بن عبد الرحمن الصائغ ، وأبي عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله المذكر ، وأبي الحسن علي بن محمد بن يحيى المرندي ، وغيرهم

روى عنه أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف بن عمر الأرموي ،

وأبو الصمصام (٢٨٥ - ظ) ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسني
وأبو الفتح نصر الله محمد بن عبد القوي اللاذقي ، وأبو نصر
محمد بن محمود الشجاع ، وأبو محمد الحسن بن منصور
السمعاني ، وأبو القاسم نصر بن نصر الواعظ العكبري ، وأبو
محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي ، وأبو الفتح محمد بن محمد
ابن عبد الله البسطامي ، وأبو سفيان محمد بن أحمد العبدوسي ، وأبو
بشر مصعب بن عبد الرزاق المصعبي ، وأبو الحسين محمد بن محمد
ابن محمد السهلبي ، وأبو القاسم : علي طراد الزينبي ، واسماعيل بن
محمد بن الفضل الحافظ ، وأبو الفضل محمد بن أبي نصر ابن
المسعودي ، وأبو غالب محمد بن إبراهيم الصيقل ، وأبو نصر علي
ابن هبة الله بن مأكولا ، وغيرهم .

وعقد مجلس الاملاء لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وكان وزيراً عادلاً سائساً قيماً بأمور المملكة فاضلاً ، عالماً ، جواداً ،
حليماً ، كثير الصدقة والمعروف ، ووقف عدة مدارس لطلبة العلم ،
وكان كثير المخالطة لأهل العلم ، مكرماً لهم ، حسن الأخلاق .
أخبرنا أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي
قراءة عليه بدمشق قال : أخبرنا القاضي أبو الفضل محمد بن عمر بن
يوسف الأرموي ، ح .

وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن عبد الله بن موهوب
ابن البناء بدمشق قال : أخبرنا أبو القاسم نصر بن نصر الواعظ
العكبري قال : حدثنا صاحب الأجل العالم العادل نظام الملك قوام
الدين غياث الدولة وشمس الملة أتابك أبو علي الحسن بن علي بن
اسحق رضي (٢٨٦ - ٩) أمير المؤمنين إماماً في يوم الثلاثاء ثالث
عشر المحرم من سنة ثمانين وأربع مائة بالمدرسة ببغداد قال : أخبرنا
الشيخ أبو بكر أحمد بن منصور بن خلف المقرئ بنيسابور قال :
حدثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن اسحق بن خزيمة قال
حدثنا أبو العباس محمد بن اسحاق السراج قال : حدثنا قتيبة ابن
سعيد قال : حدثنا مالك بن أنس عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن

عمرو بن سليم الأنصاري عن أبي قتادة السلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس.

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : أخبرنا أبو سعد المروزي قال : أخبرنا أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق قال : أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أسحق الوزير بأصبهان قال : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد الطوسي قال : حدثنا أبو عبد الله بن محمد الخازمي قال : حدثنا عبد الله بن عمر بن علك قال : حدثنا عبدان بن محمد الزاهد قال : حدثنا علي بن عيسى قال : حدثنا خلف بن تميم قال : حدثنا عبد الله بن السري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها ، فمن كان عنده علم فليظهره ، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » (٢٨٦ - ظ) .

أخبرنا عمي أبو غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة بقراءتي عليه قال : أخبرنا والدي أبو الفضل هبة الله بن محمد ، ح .

وأخبرنا أبو هاشم الحلبي قال : أخبرنا عبد الكريم بن أبي المظفر قال : أخبرنا أبو الصمصام ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسيني بقراءتي عليه بالموصل قال : أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن أسحق الوزير بأصبهان قال : حدثنا أبو بكر محمد بن يحيى بن إبراهيم المزكي قال : حدثنا أبي قال : حدثنا محمد بن داود بن سليمان قال : حدثني إبراهيم بن عبد الواحد قال : حدثنا وريزة بن محمد الغساني قال : حدثنا الفضل بن محمد عن أبيه عن جده قال : قيل لعبد الله بن عباس : كم تكتب العلم ؟ فقال : إذا نشطت فهو لذتي وإذا اغتممت فهو سلوتي .

قرأت في كتاب زينة الدهر لأبي المعالي سعد بن علي الحظيري الكتبي وذكر نظام الملك وقال : وبلغني أنه كان يقول الشعر ، والذي وقع إلي من شعره ، وهو بديع ، وكان عند كبيره يتكئ على عصا :

بعد الثمانين ليس قوة
لهفي على قوة الصبوة
كانني والعصا بكفي
موسى ولكن بلا نبوة

قال الحظيري : وله :

أتذكرها وقد خرجت عشيا
بأتراب لها كالعين رود

فمدت من أصابعها وقالت
خضبناهن من علق الوريد (٢٨٧ - و)

نقلت من مجموع بخط ولد أسامة بن مرشد بن منقذ ، وقال خواجه
بزرگ رحمه الله :

الحيابنا لا شئت الدهر شملكم
ولا ذقتم من لوعة البين ما عندي

تحملت لي كلکم شوق واحد
وحملتوني شوق کلکم وحدي

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : أخبرنا أبو سعد
السمعاني قال : قرأت بخط أبي محمد عبد الله بن أحمد بن
السمرقندي : مولده - يعني صاحب نظام الملك - يوم الجمعة
الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمانى وأربعمائة .

أنبأنا أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل القاضي عن
أبي محمد عبد الكريم بن حمزة عن أبي نصر علي بن هبة الله بن
ماكولا قال في كتاب الاكمال : بزرگ بفتح الباء ، وبعدها زاي
مضمومة ، ثم راء ساكنة ، فهو نظام الملك قوام الدين غياث الدولة
رضي أمير المؤمنين أبو علي الحسن بن علي بن اسحق يعرف بين
العجم بالبزرگ ومعناه العظيم ، سمع الكثير ، وحدث ، وأملی
بخراسان جمعا ، وبالثغور ، وبقوهستان وغيرها من البلاد ،

وسمعت منه إملاء بالري ، وسمعت منه بنواحي خت ، وبقراءة غيري
وكان ثقة ، ثبتا ، متحريرا ، فهما ، عالما (١٢٢) .

وقال ابن ماكولا في موضع آخر من الكتاب المذكور : أما نظام فهو
نظام الملك ، قوام الدين ، غياث الدولة (٢٨٧ - ظ) وزين الوزراء ،
أبو علي الحسن بن علي بن اسحق ، ولد بطوس ، وسمع الكثير ،
وحدث بمرور ، ونيسابور ، والري ، وأصبهان ، وبغداد ، وجميع بلاد
خراسان ، وبلاد أران وهي جنزه وبرذعة ، وبيلقان ، وسائر البلاد
(١٢٣) . أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : أخبرنا أبو سعد
عبد الكريم بن أبي بكر السمعاني قال : الحسن بن علي بن اسحق
ابن العباس الطوسي أبو علي الوزير نظام الملك العالم العادل ، كعبية
المسجد ، ومنبع الجود ، ومعدن الكرم والأفضال ، ذو القلم الماضي ،
واللسان القاضي ، والمعدلة ، والأمانة ، والصلاح ، والديانة ، وكان
صاحب أناة ، وحلم ، ووقار ، وصفح ، وصمت ، وكان مجلسه عامرا
بالقراء والفقهاء ، وأئمة المسلمين وأعلام الدين ، وأهل الخير ،
والستر ، والصلاح ، وصار مثل الكعبة ، يقصده كل أحد من الأقطار
وأمر ببناء المدارس في الأمصار ، ورغب في العلم كل أحد ، سمع
الحديث الكبير ، وأملى في البلاد ، وحضر مجلسه أكثر الحفاظ
والحدثين ، ورغبوا في السماع منه لعلو رتبته ، وارتفاع درجته .

وأما ابتداء حالته : فإنه كان من أولاد الدهاقين : وأرباب
الضياع بناحية بيهق ، وقصبة الراذكان من نواحي طوس ، قيل أنه
نفي عن والدته رضيعا ، وأن أباه كان يطوف به على المرضعات
فيرضعنه حسبة حتى شرب ولم يدر أحد مكنون سر الله في
(٢٨٨ - و) أمره ، فذشأ ، وساقه التقدير إلى أن علق به شيء من
العربية ، وقاده ذلك إلى الشروع في رسوم الاستيفاء ، فلم يزل الدهر
يعلو به ، وينخفض حضرا وسفرا ، وكان يطوف في بلاد خراسان ،
ووقع إلى غزنة في صحبة بعض المتصوفين إلى أن تنبه بخته ، وحن
وقته ، ووقع في شغل أبي علي بن شاذان المعتمد عليه ببلخ من جهة
الأمير جفري حتى حسن حاله عند ابن شاذان . وظهر أثر خدمته ،

ولاحث اثار كفايته ، وصار معروفا عند ذي أمره ، إلى أن توفي ابو علي بن شاذان ، فذكر انه اوصى إلى الملك ألب أرسلان به ، وذكر له كفايته وأمانته واستصلاحه لشغله ، فنصبه مكانه ، وصار وزيرا له والحال بعد مستورة ، والدولة مغمورة إلى أن انتهت الدولة الركزية (١٢٤) نهائيتها ، وكانت ولاية مرو لآلب أرسلان ملكا ، وهو الوزير المتمكن من الأمر ، فاتفقت وفاة طغرل بك ، ولم يكن له من الأولاد من ينوب منابه ، فتوجه الأمر إلى ألب أرسلان ، وتعين للسلطنة فتحرك عن مرو ، والوزير يرتب أمره ، ويرتب قواعد ملكه حتى زحف الى نيسابور ، وإلى العراق ، وخطب له على منابر خراسان ، والعراق .

وارتفع أمر الصاحب . وصار سيد الوزراء ، صافيا له الورد من سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وانقضت ايام فترة المذاهب والرسوم الممقوتة في الدولة الماضية ، وظهر الله مكنون سره في دولة نظام الملك (٢٨٨ ظ) فجري له من الرسوم المستحسنة ، ونفي الظلم ، واسقاط المؤن والقسم ، وحسن النظر في أمور الرعية ، وتقدير المعاملات على سنن الانصاف والعدل .

وضبط الأمور ، واستقامت الأحوال ، ورتبت الدواوين أحسن ترتيب ، وتزينت الأقطار بآثار العدل والانصاف ، وكان من أكفى الكفاة والسلطان من أعدل الولاة ، فصفي العيش ، وأطردت التجارات ، واهلت الطرق ، وقل أهل العيث والفساد ، وأخذ الوزير في بذل الصلوات ، وبناء المدارس والمساجد والرباطات وتحصين العمارات بالأوقاف الدارة ، وتزيين المدارس بخزائن الكتب المودعة فيها ، المشتمة على نفائس الأعلام ، ثم اسكان البقاع طلبة العلم والمدرسين في كل فن من الفنون ، وكل ذلك من الأسباب الموثقة للملك والبذور .

حتى انقضت النوبة للسلطان ألب أرسلان بعد استكمال عشر سنين ، إلى سنة خمس وستين وأربعمائة ، وطلع نجم الدولة الملكشاهية ، وظهرت كفاية نظام الملك بعد تقدير الله في تقرير تلك المملكة ، مع اتفاق الوقعة الهائلة للسلطان عند قصدهم ما وراء

النهر ، وطفاء الخصوم اللد من كل ناحية ، وتزاحم الأولاد المستعدين للملك ، حتى توطدت أسباب الدولة ، واستقام الأمر ، فصار الملك حقيقة لنظامه ورسمه واسما للسلطان ، فما كان له إلا إقامة رسم (٢٨٩ - و) التخت والاشتغال باللهو والصيد ، وكان تحمل إليه الأحمال المطلوبة من الأقطار ، والذهب وشنان ، والسعد جذلان ، والندس خزيان ، واستمر على ذلك عشرون سنة اتفقت لهم فيها غزوات إلى الروم ، وظفر منها بطرف الدنيا من الأموال ، والعبيد ، والدواب وغيرها ، ثم نهضت إلى الموصل ، وحلب وتلك الديار ، وحركات إلى ما وراء النهر ، وكان في أثناء ذلك ظهور خصوم من الأطراف يتمنون أمانى فلا يدركونها ، ويتحركون عن مواضعهم ، وكانت عاقبتهم تؤول إلى أنهم يتركونها ، وكل ذلك بكمال كفاية نظام الملك ، وتمهيد القواعد ، وبركة أيامه ، وسعادة جده .

إلى أن انتهى الحال إلى الكمال ، فما رضيت تلك النوبة المباركة ، والدولة الميمونة إلا وأن تختتم بعاقبة تليق بها ، وما كانت إلا الشهادة ، فأدركه قضاء الله في شهر رمضان صائما شهيدا ، ووجيء في الطريق بين أصبهان ومدينة السلام ليلة ، ومضى إلى رحمة الله سنة خمس وثمانين وأربعمائة وما كانت إلا زوال بركته وحشمته حتى تغيرت الأمور واضطربت المملكة ، وتشوشت أمور العالم ، ونسيت تلك الرسوم ، وما ركبت بعد سنين أثار تلك النائرة والظن أنها لا تعود إلى مثل ذلك والله أعلم .

قال أبو سعد : سمع بأصبهان أبا مسلم محمد بن علي بن مهر برد الأديب وأبا منصور شجاع بن علي بن شجاع المصقلي ، وبنديسابور أبا القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وأبا أحمد بن أحمد بن الحسن الأزهري ، وخلقا يطول ذكرهم .

روى لنا عنه عمه الشهيد أبو محمد الحسن بن منصور السمعاني وأبو بشر مصعب بن عبد الرزاق المصعبي بمرور ، وأبو نصر محمد بن محمود الشجاعى بسرخس ، وأبو الحسين محمد بن محمد بن

محمد السهلبي ببسطام ، وأبو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان ، وأبو القاسم علي بن طراد بن محمد بن علي الزينبي ببغداد ، كتب عنه املاء بجامع الرصافة ، وأبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي اللانقي بدمشق ، ، وأبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله البسطامي ببليخ .

انبأنا أبو اليمان زيد الحسن عن أبي منصور بن الجواليقي عن الخطيب أبي زكريا التبريزي أن فخر الملك بن نظام الملك حدثه أن والده كان يكتب (٢٨٩ - ظ) للأمير ياخر صاحب بلخ ، وفي رأس كل حول يصادره ، ويأخذ ما معه ، ويقول له : قد سمعت ، ويدفع اليه فرسا ومقرعة ، ويقول : هذا يكفيك ، فلما طال عليه هرب منه ، ولقيه اصحاب ياخر فأخذوه وهو على فرس بطيء فلقي ركابيا فأعطاه فرسه ، فقويت نفسه ، وهرب منهم ودخل إلى داود بن ميكائيل ، فلما راه أخذ بيده ، وسلمه إلى ولده الب أرسلان وقال له : هذا حسن الطوسي فتسلمه ، واتخذته والدا ، ودخل ياخر في الحال وقال : هذا كاتبني وقد أخذ أموالي ، وكان قد ركب خلفه فقال له داود : لا خطاب لك معي ، والخطاب لولدي محمد ، فلم يتمكن من خطابه ، ولما خاطبه فيه لم يسمح به .

داود بن ميكائيل هو جفري بك ، ومحمد ابنه هو الب أرسلان ، ولكل واحد من الملوك السلجوقية اسمان ، اسم عربي واسم تركي .
أخبرنا عبد المطلب بن الفضل قال : أخبرنا أبو سعد السمعاني قال : سمعت أبا منصور علي بن علي بن عبد الله الأمين يقول : سمعت الأمير أبا الحسن العبادي يقول : حين جاءنا نعي نظام الملك في شهر رمضان سنة خمس وثمانين - قال : كنت بسرخس في مجلس شيعي أبي علي الفارمذي فقال في أثناء كلامه : وهذا الحسن سد للفتن ، مشفق على المسلمين ، وكان يشير إليه ، فنظرت فإذا النظام جالس تحت سريره - ثم قال الأمير العبادي : أخاف بعد قتله ظهور (٢٩٠ - و) الفتن ، فإن الشيخ قال : هو سد للفتن .

أخبرنا عبد المطلب قال : أخبرنا أبو سعد بن أبي بكر بن أبي

المظفر قال : قرأت بخط والدي رحمه الله : سمعت الفقيه الأجل أبا القاسم يعني عبد الله بن علي بن اسحق أخا نظام الملك يقول : كان أخي نظام الملك يملئ بالري ، فلما فرغ قال : إني أعلم اني لست أهلاً لما أتولاه من هذا الاملاء ، لكنني أريد أن أربط نفسي على قطار بغلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : قال والدي رحمه الله ، وسمعته - يعني الفقيه الأجل - يقول : سمعته - يعني نظام الملك - يقول : مذهبي في علو الحديث غير مذهب اصحابنا ، انهم يذهبون إلى أن الحديث العالي ما قل رواه ، وعندني : إن الحديث العالي ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان بلغت رواته مائة .

قرأت بخط الحسن بن جعفر بن عبد الصمد بن المتوكل ، وانبأنا به الحسن بن المقيّر عنه ، قال : حدثني الشيخ الامام احمد بن محمود بن ابراهيم الضرير الأزجي المعروف بابن الصياد صاحب الشيخ أبي سعد المعمر بن علي بن المعمر الواعظ المعروف بابن أبي عمارة قال : سمعت من لفظ الشيخ الحسن بن علي بن اسحق ، نظام الملك ، وفي سنة ثمانين واربعمائة ، قصد الناس نظام الملك ، واستجدوه ، وكثر عليه الناس والشعراء ، فلم يرد أحدا ممن قصده ، حتى قيل أنه لما خرج إلى (النهروان) تقدم بأن يثبت ما خرج منه (٢٩٠ - ظ) مدة قبل مقامه ، فكان مائة ألف ونيّف وأربعين ألف دينار .

أخبرنا أبو هاشم بن أبي المعالي الحلبي قال : أخبرنا عبد الكريم بن محمد بن منصور قال : وقرأت بخط والدي : سمعت الفقيه الأجل يعني أبا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول : كنت بمكة وأردنا الخروج إلى عرفات ، فأخبرني رجل أن انساناً من الخراسانية مات في بعض الزوايا ، وأنه اذتفخ وفسد ، ولزمني القيام بحقه لما أدبت من الأمانة إلي فيه ، فتمكثت لذلك .

قال : فرأني بعض من كان يأتّمه صاحب نظام الملك على أمور الحاج فقال لي : ما وقوفك ها هنا والقوم قد ذهبوا ؟ فقلت : أنا

واقف لكذا وكذا ، فقال : إذهب ولا تهتم لأمر هذا الميت ، فإن عندي خمسين ألف ذراع من الكرباس لتكفين الموتى من جهة الصاحب نظام الملك .

أخبرنا أبو هاشم بن أبي المعالي قال : أخبرنا تاج الإسلام أبو سعد السمعاني قال : وكان أكثر ميله إلى الطائفة المتصوفية مع الأيمان بما كانوا يتوسلون به إليه من فنون الرؤيا ، فيقبلهم على ذلك ، ويقربهم ، وينجح حوائجهم ، ويوصل إليهم مآربهم ، ويقضي ديونهم ويدر عليهم الادارات والمرسومات .

وحكي عن بعض المعتمدين أنه قال : حاسبت مع نفسي وطالعت الجرائد فبلغ ما قضاه الصدر من ديون واحد من المتنمسين المقبولين عنده في مدة سنين يسيرة ثمانين ألف دينار حمر ، وكان صادقا فيما حكاه .

نقلت من خط عماد الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ، وأنبأني عنه أبو الحسن محمد بن أبي جعفر وغيره ، قال : ومناقب نظام الملك أكثر من أن تحصى ، وحكى من أحضر محاسبة ابن أسحما اليهودي بإحالاته وتوقيعاته فوجدها في أشهر قد اشتملت على ثلاثين ألف دينار ، ليس فيها توقيع إلا لفقيه ، أو فقير أو شريف ، أو لرجل من أهل بيت (٢٩٠ - و) .

أخبرنا أبو هاشم قال : أخبرنا أبو سعد قال : سمعت أبا الفضل مسعود بن محمود الطرازي ببخارى يقول : سمعت شيوخنا الحسن بن الحسين الأندقي يحكي عن عبد الله السماوجي أنه قال : كان الوزير نظام الملك استأذن السلطان ملك شاه في سفر الحج ، فأذن له ، وكان ببغداد ، فعبر الدجلة ، وعبروا بالقماشات والآلات ، وضربت الخيام على شط الدجلة ، فكنت أريد أن أدخل إليه يوما ، فرأيت على باب الخيمة واحدا من الفقراء يلوح من جبينه سيماء القوم ، فقال لي : يا شيخ أمانة توصلها إلى الصاحب ، قلت نعم ، فأعطاني رقعة مطوية ، فدخلت ، ولم أنشر الرقعة ، وما نظرت فيها ، وحفظت الأمانة ، فوضعت الرقعة بين يدي الوزير فنظر فيها ، فبكى

بكاء كثيرا حتى ندمت ، وقلت في نفسي : ليتني كنت نظرت فيها ، فإن كان شيء يسوءه ما دفعته اليه ، ثم قال لي : يا شيخ أدخل علي صاحب الرقعة ، فخرجت فلم أجده ، فطلبت فلم أظفر به ، فأخبرت الوزير أنني لم أجده ، فدفع إلي الرقعة ، فإذا فيها : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وقال لي : اذهب الى الحسن وقل له أين تذهب إلى مكة ، حجك ها هنا أما قلت لك أقم بين يدي هذا التركي وأغث أصحاب الحوائج من امتي ؟ فرجع النظام وما خرج .

قال : وكان يقول لي الوزير مرات : لو رأيت ذلك الفقير حتى نتبرك به ، فرأيته يوما على شط الدجلة وهو يغسل (٢٩١ - ظ) خريقات له ، فقلت له : إن صاحب يطلبك ، فقال : ما لي وللصاحب كانت عندي أمانة فأبيتها .

قال أبو سعد : وعبد الله الساجي هو عبد الله بن حسويه بن اسحق الساجي من أهل ساوة ، نفق سوقه على الوزير نظام الملك حتى أنفق عليه وعلى الفقراء بإشارته واقتراحه في مدة يسيرة قريبا من ثمانين ألف دينار حمر .

قرأت بخط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وأنبأنا عنه صديقنا ورفيقنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار قال : وفيه - يعني محرم سنة خمس وثمانين وأربعمائة - مرض نظام الملك ، فلم يداو نفسه بغير الصدقة فعوفي .

أخبرنا أبو هاشم بن الفضل العباسي قال : أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني قال : وأما ميله - يعني نظام الملك - إلى أهل العلم ، ورغبته في أولي الفضل فهو أنه لا يخلو مجلسه عنهم في أي قطر كان ، وكان بابه مجمع الأفاضل من الفقهاء للمناظرة بين يديه ، والشعراء والمترسلين يعرضون بضائعهم عليه ، فيقابل كل أحد بما يليق به من خلعة أو صلة . أو إدرار على قدر حاله .

قال : سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن حماد الطحان بقاسان يقول : سمعت عبد الله بن هرون البزاز يقول : كان نظام الملك في مجلس الشيخ أبي علي الفارمذي ، فبكى حتى ابتل ثيابه ،

فقال له : لا تبك كي ترشوي (٢٩٢ - و) يعني تصير ثيابك مبلولة :
ثم قال بعد ساعة : لو كانت الدنيا بحذافيرها لانسان وأنفقتها في
المصالح وسبل الخير لا يصل إلى الله بها ، ثم قال بعد ساعة : ينتقل
من الدست إلى موضع الحساب ، وقال بالفارسية : اربيكشاه
بحساب كاهت خواهند برد (١٢٥) .

وقال أبو سعد السمعاني : سمعت أبا البركات اسماعيل بن أبي
سعد الصوفي ببغداد مذاكرة يقول : سمعت محمد الأصبهاني ، وكان
مختصا بنظام الملك ، قال : كان النظام إذا دخل عليه الأستاذ أبو
القاسم القشيري ، والامام أبو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلس في
مسندهما كما هو ، وإذا دخل عليه أبو علي الفارمزي يقوم إليه ويجلسه
في مكانه ، ويجلس بين يديه ، فقال لي أبو المعالي الجويني يوما ، قل
للصدر عني : يدخل عليك الأستاذ أبو القاسم وهو إمام في كذا وكذا
علم ، لا تكرمه هذا الأكرام الذي تكرم به هذا الشيخ يعني أبا علي
الفارمزي !

قال محمد الأصبهاني : وفي ضمن هذا الكلام تعريض بنفسه
أيضا ، فاعتذرت خلوة من النظام وقلت يا مولانا إمام الحرمين قال
لي : كذا على كذا ، وحكى له ما قال لي ، فقال النظام : هو وأبو
القاسم القشيري وأمثالهما إذا دخلوا علي يقولون لي أنت : كذا
وأنت كذا ، ويثنون علي ويطرونني بما ليس في ، فيزيدني كرمهم
عجبا وتبها في نفسي ، وإذا دخل علي هذا الشيخ - يعني أبا علي
الفارمزي - (٢٩٢ - ظ) يذكر لي عيوب نفسي وما أنا فيه من
الظلم ، فتتكسر نفسي وأرجع عن كثير مما أنا فيه ، ذكر لي هذا أو
معناه ، فإني كتبت من حفظي .

وقال السمعاني : قرأت في بعض مسودات والدي رحمه الله
بالري بخطه : سمعت : الفقيه الأجل أبا القاسم عبد الله بن علي بن
اسحق يقول : سمعت صاحب نظام الملك يوصي ابني ويقول : انك
شرعت في أمر - يعني الفقه - فلا تقنع فيه بالاسم ، وإذا تنزهت
فيه فلا تغرر بنفسك ، وأيقن أن ما لا تعلم أكثر مما تعلم ، ثم حكى

الصاحب أن الامام أبا حامد الغزالي الصوفي كان رحل إلى أبي نصر الاسماعيلي بجرجان ، وعلق عنه ، ثم رجع إلى طوس ، فقطع عليه الطريق ، وأخذ تعليقه ، فقال لمقدم قطاع الطريق : ردوا علي تعليقتي ، فقال : وما التعليقة ؟ قال : مخلاة فيها كتب علمي ، وقصصت عليه قصتي ، فقال لي : كيف تعلمت وانت تأخذ هذه المخلاة تتجرد من علمك ، وبقيت بلا علم ! فردها علي ، فقلت : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني لأمري ، قال : فدخلت طوس ، وأقبلت على أمري ثلاث سنين حتى تحفظت جميع ما علقته ، فصرت بحديث لو قطع الطريق لا أحرم علمي .

قال أبو سعد : قرأت في كتاب سر السرور لصديقنا القاضي أبي العلاء محمد بن محمود الغزنوي أن نظام الملك كان في بعض أسفاره إذ صادف راجلا في زي (٢٩٣ - و) العلماء قد مسه الكلال ، واضجره التعب ، فقال له نظام الملك : أيها الشيخ أعيت أم أعيت ؟ فقال الرجل : أعيت يا مولانا فتقدم إلى حاجبه ليقرب إليه بعض الجنائب ويصلح من شأنه ، وأخذ في أصطناعه ، وإنما أراد ليتمحن فضله وعلمه باللغة ، فان عبي في اللسان وأعيت في المشي .

قال : وذكر انه ولي رجلا قضاء سرخس فلم يرتض طرائقه فيه فصرفه بآخر وتوسل المعزول بشفاعة بعض الأكابر ، فوقع نظام الملك على ظهر كتاب الشفاعة قلدها أمرا عظيم الخطر ليوم الفرع الأكبر ، فثاقل وتقاعد عن حسن القيام به ، ولم يبال بالتفريط في جنب الله ، ألم يعلم أنه المقلد لا المخلد !

أخبرنا أبو هاشم قال : أخبرنا أبو سعد قال : سمعت أبا الحسن علي بن أحمد بن الحسين اليربوعي الفقيه قال : سمعت أبا نصر محمود بن الفضل الأصمبهماني يقول : سمعت نظام الملك أبا علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير برد الله مضجعه يقول : رأيت في المنام إبليس في صورة رجل طوال مصفار اللون كوسجا (١٢٦) فلما وقع بصري عليه عرفت أنه إبليس ، فقلت : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، فلم يبرح من موضعه ، فأعدت هذه الكلمة عليه مرات

بصوت ، وأنا اقول في نفسي ما أعجب ذلك ، هذا إبليس ولا يهرب من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم» فكنت في ذلك وأنا رافع صوتي (٢٩٣ - ظ) بها اذ ترآى لي بيت خلف ظهره فدخل . فقلت له : يا لعين أنت خلقت الله وأمرك بسجدة واحدة ، فخالفته ، حتى لعنك ولعن متابعيك ، وأنا الحسن بن علي بن اسحق أمرني بالسجدة فاسجد له كل يوم سجدة ، لا جرم ما من حاجة أرفعها عليه إلا ويستجيبها لي وأنا في كل نعمة وراحة منه ، فقال :

من لم يكن للوصال أهلا
فكل احسانه ذنوب

أخبرنا أبو هاشم قال : أخبرنا أبو سعد قال : قرأت بخط والدي رحمه الله سمعت الفقيه الأجل أبا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يذكر أن صاحب نظام الملك أخاه كان يقول : كنت أتمنى أن يكون لي قلاية خالصة ومسجد أتخذ فيه لطاعة ربي ، ثم بعد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة من الأرض بشربها ، ، أتقوت بريعتها ، ومسجد أتخلى فيه لعبادة ربي في جبل ، ثم الآن أتمنى أن يكون لي رغيف كل يوم ، ومسجد أتعبد فيه لربي .

قال أبو سعد : قال والدي رحمه الله وسمعتة يقول : كنت ليلة من الليالي عنده وأنا على أحد جانبيه ، والعميد خليفة على الجانب الآخر ، وبجنب العميد الخليفة فقير مقطوع اليد اليمنى ، قال : فشرفني صاحب المؤاكلة ، وجعل يلحظ العميد خليفة كيف يؤاكل الفقير ، قال : فتنزه خليفة من مؤاكلة الفقير لما رآه يأكل بيساره ، فقال لخليفة : تحول (٢٩٤ - و) إلى هذا الجانب ، وقال للفقير : إن خليفة رجل كبير في نفسه يستنكف من مؤاكلتك ، فتقدم إلي ، وأخذ يؤاكله .

وقال : قرأت بخط الامام والدي رحمه الله : سمعت الفقيه أبا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق الطوسي يقول : دخل أخي نظام الملك على الامام أبي الحسن الداودي وقعد بين يديه . وتواضع له

غاية التواضع . فقال له الامام أبو الحسن : أيها الرجل إن الله سلكك على عبيده . فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم .

قلت : هذا أبو الحسن الداودي هو عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد البوسنجي كان من العلماء الأبرار ، وهو يروي كتاب البخاري عن الحموي .

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ، واخبرنا أبو الحسن بن أبي جعفر إجازة عنه . قال : وكان نظام الملك من طوس ، وأهل طوس ، يقال لهم في اصطلاح الناس بقـر طوس ، و كان للخزانة صائغ يقال له حسين ، حسن الصنـاعة في الصياغة ، قال : استدعاني يوما نظام الملك . وقال : أحضر لي قوالب لعمل سخوت ، فأحضرتها له فأول ما وقعت يده على قالب فيه صورة البقر ، وقد كنت غفلت عن الحديث ، فعجل وقال : يا استاذ ما تخلينا من يدك ، فلم يترك الظرف واللاطف مع جلالـة قدره ، وكبر سنـه

اخبرني أبو علي الحسن بن اسماعيل القيلوي بحلب قال : قرأت في بعض مطالعاتي أن الشريف أبا يعلى (٢٩٤ - ظ) بن الهبارية كان له رسم على الوزير نظام الملك فنظم قطعتين من الشعر ، أحديهما يمدحه فيها ويقتضيه رسمه ، والأخرى يهجوـه فيها ، وترك الورقتين اللتين فيهما الشعر في عمـامته ، وحضر عند نظام الملك ، وأراد أن يدفع إليه الرقعة التي فيها الاقتضاء ، فدفع إليه الأبيات التي هجاه فيها ، وإذا فيها مكتوب :

لاغرو أن ملك ابن اسحق وساعده القدر
وصفا لدولته وخص أبا الغنائم بالكر
فالدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

يعني بأبي الغنائم تاج الملك ، وكان من أصحاب السلطان ملكشاه ، وكان بين نظام الملك وبينه عداوة .

قال : فلما قرأ نظام الملك الأبيات وقع على رأسها: يطلق لهذا القواد رسمه مضاعفا ، وناولـه إياها ، فأخذ ابن الهبارية الرقعة ، فلما

نظرها أخذ يعتذر ، فقال له النظام : لا تقل شيئا ، وخذ الرقعة ،
وامضي إلى الديوان ، فمضى وأخذ رسمه
قال : إن ابن الهبارية هجاه بعد ذلك بقوله :
لايشمخن بأنفه

غير الكريم المفضل

اهون بفقرتي والكلاب

على عيال أبي علي

فأهدر دمه ، ثم عفا عنه ، والقصة قد ذكرناها في ترجمة أبي يعلى بن
الهبارية (١٩٥ - و) ، وقيل إن الأبيات الرائية للأبيوردي ،
والصحيح أنها لابن الهبارية .

قرأت بخط عبد المنعم بن الحسن بن اللعية في دستور جمعة قال
الفقيه الأبيوردي يهجو خواجا بزرك وزير السلطان ملك شاه رحمه
الله ، وهو الوزير أبو علي الحسن بن اسحق :

لا غرو أن وزر ابن اسحق وساعده القدر

وصفت له الدنيا وخص أبو الغنائم بالكدر

فالدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

ولما تمت هذه الأبيات إلى الوزير رحمه الله استدعى الأبيوردي
وكانت أياديه عنده جمّة ، وله عليه رسوم في كل سنة لها قيمة كبيرة ،
فلما مثل بين يديه قال له : يا هذا بسم استوجب منك أن تهجوني
تعصبا بعدوي علي ؟

وهذا أبو الغنائم الذي ذكره هو تاج الملك عدو الوزير ، فأنكر أن هذا
شعره ، فقال له الوزير : إن لزمك الإنكار أحضرت من أنشدنيها ،
فوافقك عليها ، ومع هذا فأنت تعلم ما لي عندك من الأيادي التي لا
تذكر ، وما كنت تسألني فيه من الحوائج التي تؤخذ عليها الأموال
مع الرسوم ، فلاذ الفقيه بالعدر ، واعترف أنها من جملة غلطاته التي
لا تستقال ، وعثراته القبيحة ، فقال له الوزير : لا شك أن الرسوم

التي لك لا تكف و لا تكفي ، وقد تقدمت باضعافها لك ، فاقبضها ولا تغلط بعد ذلك .

ونقلت من خط العماد الكاتب أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد وذكر شعرا (٢٩٥ - ظ) ١٢٠ العجم فيه - يعني في نظام الملك - : إن الله أقام الأرض على قرن ثور وملكها الثور

أخبرنا أبو هاشم الصالحي قال : أخبرنا عبد الكريم بن أبي بكر المروزي قال : أنشدني كيزسر بن يحيى بن بساكير الفارسي من حفظه أملاه علي قال : أنشدني أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي للسيد العلوي البلخي :

تولى الأرض اعجاز لنام
وباد سواف كرمت وهاموا (١٢٨)

كذاك الدور إن خربت وأقوت
تولاهن أصداء وهام

قال عبد الكريم : قال لي كيزسر بن علي : قال لي أبو زكريا التبريزي : قال السيد البلخي لما أفضت الوزارة إلى نظام الملك في حقه ، فلما بلغ البيتان إليه أرسل بي إليه ، واستأذن في زيارته ، فأذن فزاره وحمل معه بمائة ألف درهم أغراضا ودنانير ، واعتذر إليه وكأنه هجاء بهذين البيتين ، ثم تعاهدا على أن يعود علي شغله في الاستيفاء فوفيا بالعهد إلى أن مات .

أخبرنا أبو هاشم قال : أخبرنا أبو سعد قال : سمعت محمد بن يحيى بن منصور الجنزي الإمام يقول : سمعت في حياة والدي رجلا يقول : أقام والدي في حجرة النظام الوزير ثلاثة أيام بلياليها ما أكل فيها ولا شرب ، وكان الفراش قد نسي أن يقدم له شيئا إلى أن تنبه النظام لذلك ، فقام بنفسه وحمل إليه الطعام بنفسه .

قال الإمام محمد بن يحيى : فحكيت هذه الحكاية لوالدي . فسكت . قرأت بخط أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ

(٢٩٦ - و) في تاريخه قال : حدثني أبي عنه - يعني نظام الملك - قال : كان رجلا يصوم الدهر ، وله في أصبهان أربع نسوة يعمل له في كل دار طعام ولأصحابه ومن يكون عنده بقيمة وافية ، فأبي دار أراد أن يجلس بها كان الطعام الكثير معدا له - كما قال - : عشرة رؤوس غنم مشوية ، وعشرة ألوان وعشرة جامات حلواء .

سمعت القاضي أبا عبد الله محمد بن يوسف بن الخضر الحنفي قاضي العسكر رحمه الله ، وقد جرى ذكر نظام الملك وميله إلى أهل العلم ، يقول : كان نظام الملك يتعصب للشافعية كثيرا ، فكان يولي الحنفية القضاء ، ويولي الشافعية المدارس ، ويقصد بذلك أن يتوفر الشافعية على الاشتغال بالفقه ، فيكثر الفقهاء منهم ويشغل القضاء بالقضاء ، فيقل اشتغالهم بالفقه ويتعطلون .

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ، وانبأنا عنه أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن القاضي وغيره قال : كان عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك رئيس مرو ، وهناك شحنة مرو مملوك السلطان بردي فقبض عليه لأمر جرى منه ، ثم أطلقه ، فجاء مستغيثا ، فنفذ السلطان تاج الملك ، ومجد الملك وجماعة أرباب دولته وقال لهم : امضوا إلى خواجه حسن وقلوا له : إن كنت شريكي في الملك فلذلك حكم ، وإن كنت تابعي فيجب أن تلزم حدك ، وهؤلاء أراذل قد استولى كل واحد منهم على مملكة ، فواحد ببليخ ، وواحد بهراة ، وواحد ببليد كذا ، ثم لا يقنعهم ذلك حتى يتجاوزوا (٢٩٦ - ظ) حدودهم في سفك الدماء ، وقال للأمير بكبرد وكان من خواصه ، كن معهم حتى لا يحرفوا ما يقول .

فأتوا إلى نظام الملك وقالوا له ، فقال : نعم ، قولوا له : أما علم أنني شريكه في الملك ، أو ما يذكر حين قتل أبوه كيف قمت بتدبير أمره ، وأعلموا أن ثبات القلنسوة معنوق بفتح هذه الدواة ، ومتى أطبقت هذه ، زالت تيك التي يقر ، فقال له الرسل : قد كبرت يا مولانا وقد ضجرت ، وقد أثر فيك الأمران وعدلا بك عن الرأي الذي ما زالت الآراء معه ، فقال لهم : قولوا للسلطان عني ما أردتم ، فقد

دهمني ما لحقني من توبيخه فلما خرجوا من عنده قالوا : الصواب أن لا نذكر ما قاله ، وعرفوا بكبرد حرمة مكانه ، وسألوه أن لا يخبر بما جرى ، فلم يفعل ، ومضى بكبرد من حاله ، وأخبر السلطان ، وبكر الجماعة فوجدوا السلطان جالسا ينتظرهم فقال لهم : ما قال لكم ؟ قالوا : قال : أنا وأولادي عبيد دولته ، فقال السلطان : لم يقل هكذا ، ثم وقع التدبير في أمره .

وقال : في ليلة السبت عاشر شهر رمضان قتل نظام الملك في نهاوند ، بين نهاوند والسحنة وهو سائر مع العسكر إلى بغداد ، وذلك بعد أن فرغ من افطاره ، وتفرق من كان على طبقه من العلماء والفقراء والأجناد ، وحمل في محفة إلى مضرب حرمة ، فأتاه صبي ديلمي في صورة مستميج أو مستغيث ، فضربه بسكين كانت معه فقضى عليه ، وهرب ، فوقع في عثرة عثرها بطنب خيمة فأدرك (٢٩٧ - و) فقتل ، وركب السلطان ملك شاه إلى مخيم نظام الملك ، وسكن معسكره .

وحكي أن أحد الصالحين قال لنظام الملك وهم في الافطار : رأيت في بارحتنا كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاك وأخذك فتبعته ، فقال : ارجع أيها الرجل فلهذا أبغي ، فأولها .

نقلت من خط أبي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وأنبأنا به عنه رفيقنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار قال : وفي ليلة السبت عاشر شهر رمضان - يعني من سنة خمس وثمانين - قتل نظام الملك قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي الله عنه قريبا من نهاوند وهو سائر مع العسكر في محفة ، فضربه صبي ديلمي في صورة مستميج أو مستغيث ، بسكين كانت معه ، فقضى عليه ، وأدرك فقتل ، وجلس لعزائه عميد الدولة ابن جهير ببغداد .

وفضائله المشهورة في كل مكان وزمان تنوب عن لسان مادحه ، وأفعاله الصالحة من المدارس ، والربط ، والقناطر ، والجسور والصدقات الدارة باقية على الأيام .

وتحدث الناس أن قتل نظام الملك كان برضى من السلطان وتدبير تاج الملك أبي الغنائم ، وإشارة تركان خاتون لأنهم كانوا عزموا على تشعيث خاطر المقتدي ، وكان نظام الملك يمنعهم من ذلك .

قال ابن الحصين : وبلغني أنا أبا نصر الكندري لما عزل عن وزارة السلطان ، وفوضت الوزارة إلى نظام الملك ، وحبس وسعى (٢٩٧ - ظ) نظام الملك في قتله ، فلما هم الجلاء بقتله ، قال له : قل للوزير نظام الملك : بدس ما فعلت ، علمت الاتراك قتل الوزراء وأصحاب الدواوين ، ومن حفر مغواة وقع فيها ، ومن سن سنة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ورضى بقضاء الله المحتوم ، فكان الأمر كما قال .

قرات بخط أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه قال : سنة خمس وثمانين وأربعمائة فيها : قفز باطنية على خواجا بزرگ ببغداد وهو محمول في محفته التي كان يحمل فيها من ضعفه وكبره في تاسع شهر رمضان ، فجرحه وحمل إلى داره التي ببغداد ، فجاء السلطان ملك شاه يفتقده ويتوجع له ، فقال له خواجا : يا سلطان العالم كبرت في دولة أبيك ودولتك ، كنت تمهلت علي فما بقي من عمري إلا القليل ، أو صرفتني ولا أمرت أن يفعل بي هكذا ، فاخرج السلطان مصحفا في تقليده ، وحلف له بما فيه أنه لم يأمر ، ولم يعلم ، ثم قال : وكيف استجيز هذا وانت بركة دولتي ، وبمنزلة أبي : وكان الذي اتهم بذلك متولي الخزانة تاج الملك أبا الغنائم . قال ابن منقذ : حدثني أبي عنه قال : فمات خواجا ، ومضى السلطان فمات في العشر الأخير من شوال .

قال : وذكر أن السلطان لما مات اجتمع مماليك خواجا بزرگ ، وكانوا في سبعة آلاف مملوك مزوجين إلى سبعة آلاف مملوكة ، فقتلوا تاج الملك على ما ذكر في ترجمة تاج الملك (٢٩٨ - و) . كذا قال ابن منقذ أنه قتل ببغداد وحمل إلى داره التي ببغداد . وهو وهم ، والصحيح أنه قتل بقرب نهاوند وهو متوجه إلى العراق . نقلت من كتاب الاستظهار في التاريخ على الشهور تأليف القاضي أبي

القاسم علي بن محمد السمناني قال : في شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وأربعمائة قتل الشيخ الكبير قوام الدين نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي أمير المؤمنين رضي الله عنه في ظاهر نهاوند وهو سائر إلى العراق ، قتله انسان ديلمى غيلة بعد الفطر ليلة الجمعة حادي عشر منه .

وكان مولده في ذي القعدة من سنة ثمان وأربعمائة ، وبقي في الأمر وزيرا ، وناظرا ، ومشرفا نحو خمسين سنة . وبلغ في الوزارة ما لم يبلغه أحد من وزراء الدولتين . وكان يضرب له الطبل والقصاع ثلاث صلوات حضرا وسفرا ، وهو الذي بنى الدولة السلجوقية وأسس قواعدها ، وتفتحت الدنيا على يديه . وكان صدوق اللسان جيد الرأي كبير النفس حلما وقورا يصلي بالليل . ويصوم في أكثر الاوقات .

وهو أول وزير بنى المدارس في البلاد . وأجـرى على المدرسين ، والمتفكة ، والأدباء والشعراء ، وأهل البيوتات ، والرؤساء ، ولم ينظر قط إلى ظهر محروم ، وما قصده أحد في أمر إلا ناله أو معظمه ، فأما الحرمان فلا ، ولم يبق عليه من عظيم الملك غير ما فعله وبناه وخلد به ذكره في العالم ، وفاق به على جميع من تقدم ، رضي الله عنه وأرضاه (٢٩٨ - ظ) وأحسن له الجزاء عني فلقده وصلني في سبع سفرات بألف وأربعمائة دينار من ماله ، غير الثياب والنزلة والاقامة ، وأجرى علي من بيت المال سبع مائة دينار وعشرين دينارا في كل سنة ، ولاني قضاء الرحبة والرقبة وحران وسروج وحلب وأعمال ذلك كله ، وخاطبني بالقاضي السديد العالم ، بحر العلماء ، عين القضاة في مكاتبته إلي ، فأحسن الله له عني الجزاء .

وكان يكرم العلماء على اختلاف مذاهبهم ، وله فضل وكرم وبصيرة بالرجال ، قريب من القلوب ، لا يتشاغل إلا بتلاوة القرآن وسماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومناظرة الفقهاء بين يديه ، وتقدم في زمانه من لم يكن متقدما من الرجال ، وتأخر من

كان متقدما ، واسترجع الممالك كلها ، وقبضها إلى السلطان .

وهو اول من اقطع البلاد والضيايع للعساكر والأجناد ، وكان يرعى لأهل البيوتات بيوتهم وللعلماء علمهم ، وللشعراء شعرهم ، وللأدباء أدبهم ، وللأشراف شرفهم ، وكان أمر الدولة في الزيادة إلى أن شاركه في الراي غيره ، وداخل السلطان سواه ، فهلكت الدولة ، ولم يبق السلطان بعده إلا نيف وثلاثون يوما رضي الله عنه .

ذكر ابو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني في كتاب عنوان السير في محاسن أهل البدو والحضر وقال : نظام الملك ، ابو علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي ، وزير للسلطان ألب أرسلان ، ولولده السلطان ملك شاه تسعا وعشرين سنة (٢٩٩ - و) وقتل بالقرب من نهاوند في الليلة الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وعمره ست وسبعون سنة ، وعشرة اشهر ، وتسعة عشر يوما ، اغتاله احد الباطنية وقد فرغ من فطوره . وقيل ان السلطان ملك شاه ولف عليه من قتله لانه سأم طول عمره ، ومات بعده بشهر وخمسة ايام .

وتقدم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم ، وافضل على الخلق الافضال الكثير ، وعم الناس بمعروفه ، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي ، ووقف عليهم الوقوف ، وزاد في الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء ، ولم يبلغ احد منهم منزلته في جميع اموره ، وعبر جيحون فوق على العامل بانطاكية ما يصرف الى الملاحين ، وملك من الغلمان الأتراك الوفا عدة ، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفئاكهم من مماليكه .

وتحدث ابو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي قال : سألته عن السبب في تعظيمه الصوفية ، فقال : اتاني صوفي وانا اخدم ابن ياخر الامير التركي ، فوعظني وقال : اخدم من تنفعك خدمته ولا تشتغل بمن تاكله الكلاب غدا ، فلم اعرف معنى قوله ، فاتفق ان ابن ياخر شرب من الغد ، واغتبق ، وكانت له كلاب كالسباع تفرس السباع بالليل ، فغلبه السكر وخرج وحده ، فلم تعرفه الكلاب ، فمزقته ،

فعلمت ان الرجل كوشف ، فاننا اطلب أمثاله . (٢٩٩ - ظ) .

اخبّرنا ابو القاسم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن راحة الحموي بحلب ، وابو يعقوب يوسف بن محمود السساوي بالقاهرة عن الحافظ ابي طاهر احمد بن محمد بن احمد الاصمبھاني نزيل الاسكندرية قال : سمعت صواب بن عبد الله الخصي النظامي ببغداد يقول : قتل مولاي الوزير ابو علي الحسن بن علي بن اسحق شهيدا في رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، بقرب نهاوند ، وكان آخر كلامه ان قال : قل للعسكر : لا تقتلوا قاتلي فاني قد عفوت عنه ، وتشهد ومات ، فمضيت انا فاذا هو قتل ، ولو قلت لهم لما قبلوا قولي .

اخبّرنا الشريف عبد المطلب بن الفضل قال : اخبّرنا الامام تاج الاسلام ابو سعد السمعاني قال : سمعت ابا الفضل محمد بن ناصر ابن محمد بن علي السلامي الحافظ يقول : استشهد ابو علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير وهو متوجه الى العراق بقرية يقال لها سحنة ، في شهر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة . قلت : وزرت قبره باصمبھان .

وقال ابو سعد : قرأت بخط والدي رحمه الله بالري : سمعت الشيخ الفقيه الأجل ابا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول : حكى لي بعض من راه - يعني اخاه نظام الملك - في المنام ، فسأله عن حاله ، فقال : لقد كاد أن يعرض علي جميع عملي لولا الحديد التي أصيبت بها .

اخبّرنا ابو يعقوب يوسف بن محمود بن الحسين بالقاهرة قال : انبأنا الحافظ ابو طاهر احمد بن محمد السلفي قال : سمعت ابا مسلم داود بن محمد بن الحسن القزويني ، بقزوين ، يقول : سمعت (٣٠٠ - ظ) ابا بكر الطحان الصوفي بهمدان يقول : رأى الشيخ ابو عمر عثمان الكرجي صاحب ابا علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي الوزير في المنام وكأنه في الجنة وهو متوج بتاج مرصع بالجواهر ، قال : فقلت : بأي شيء بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : بفضل الله وحده .

أخبرنا عبد المطلب بن أبي المعالي قال : أخبرنا عبد الكريم بن محمد
قال : أنشدنا أبو مضر طاهر بن مهدي الطبري أملاء بنيسابور قال :
وأنشدني أبو عبد الله محمد بن الحسن الأرمني أملاء من حفظه ،
قال أبو مضر: بمرور ، وقال أبو عبد الله: بجبل تروع ، قالاً : أنشدني
شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطية البكري لنفسه في مراثية نظام
الملك :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها
فردّها غيرة منه الى الصدف

الحسين بن علي بن ملهم

(من المقفى للمقرئى - مجلة برتو باشا)

الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي أبو علي الأمير مكين الدولة وأمينها أحد الأمراء في الأيام المستنصرية ، انتدبه الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن اليازوري للتوجه الى رياح وزغبة بخلع سنية وانعام كثيرة ليصلح بينهم ، وكانت تنزل بطرابلس المغرب وما والاها ، وقد حدثت بينهما حروب ففسار وتلطف حتى تحمل ما بينهما من الديات وازال الضغائن من بينهما ، وكان رجلا سديدا عاقلا مستحكم الرجحان ، فلما تم له ما اراد من ذلك زاد في اقطاعاتهم وبعثهم على معاندة معز بن باديس صاحب افريقية (٣٧٠ - ظ) حتى ساروا اليه وحاربوه واخرجوه منها ، واخربوا القيروان الى اليوم .

ثم انه لما حدث الغلاء بمصر سنة سبع واربعين واربعمئة جهز ميخائيل متملك الروم بالقسطنطينية مائة الف قفيز غلة الى انطاكية حتى تحمل الى مصر توسعة للناس ، وجهز هدية الهدنة على العادة وهدية سنية من ماله فثار به الروم وقتلوه ، واقاموا بعده ابن سقلاروس (١٣٠) فمنع من ماله الهديتين والغلة من المسير الى مصر وقال انا انفق ذلك على حرب المسلمين فبلغ ذلك الوزير الناصر للدين ابا محمد الحسن اليازوري فسير مكين الدولة بن ملهم الى اللاذقية في عسكر كبير فحاصرها مدة ، فبعث اهلها الى ابن سقلاروس بما هم فيه ، وكاتب المستنصر في ذلك ، وما الذي اوجبه فاجيب بان المقتضى لهذا تعويق الغلة والهدية ، وطالت المكاتبات بينه وبين المستنصر فبعث الوزير جيشا ثانيا عليه الامير السعيد ليث الدولة ، ففتحت اللاذقية ، ووقع العيث فيها ، وجال ابن ملهم في اعمال انطاكية ، ثم اردفه بجيش ثالث عدته ثلاثة الاف وعليهم الامير موفق الدولة حفاظ بن فاتك ، والامير ابو الجيش عسكر ، ومقادة جميع

الجيش الى الامير مكين الدولة ، فساروا اليه ، واوغل في بلاد
الروم يقتل ويأسر حتى أنكى الزكاة البالغة ، وما زال على ذلك حتى
قتل الوزير اليازوري ، فحمل ابن سقلاروس ثمانين قطعة في البحر ،
فحاربت ابن ملهم وأسرتة ومن معه من اعيان العرب لليلتين بقيتا
من شهر ربيع الآخر سنة خمسين واربعمائة ؛ ثم انه تسلم قلعة
حلب من معز الدولة ابي علوان ثمال بن صالح بن مرداس ، وسار
ثمال الى مصر فلم يزل بحلب الى ان اخذ المدينة محمود بن نصر بن
صالح في جمادى الاولى سنة اثنتين وخمسين فانحاز الى القلعة ،
وكتب الى مصر يطلب نجدة ، ثم تسلم محمود القلعة في شعبان من
السنة المذكورة .

جناح الدولة حسين

(من بغية الطالب لابن العديم)

حسين ، ويلقب باقي الدولة ، كان تاج الدولة تتش بن الب ارسلان قد ولاه حلب ومكنه فيها ، واستولى عليها حين قتل تاج الدولة ، فلما بلغ خبر قتله رضوان بن تتش ، وكان متوجها الى ابيه عاد الى حلب فسلمها اليه ، وتسلمها رضوان منه . ومن وزير ابيه ابي القاسم ابن بديع في سنة ثمان وثمانين واربعمئة .

اذيانا ابو نصر القاضي قال : اخبرنا ابو القاسم علي بن الحسن قال . كان بدمشق ، يعني رضوان بن تتش عند توجه ابيه الى ناحية الري ، فكتب اليه يستدعيه ، فخرج اليه ، فلما كان بالانبار بلغه قتله فرجع الى حلب فتسلمها من الوزير ابي القاسم وكان المستولي على امرها باقي الدولة (١٩٧ - ظ) حسين في سنة ثمان وثمانين واربعمئة .

كذا ذكر الحافظ الدمشقي ١٢١ وهو حسين جناح الدولة صاحب حمص اتابك رضوان بن تتش ومديره ، كان تاج الدولة تتش حين قتل قسيم الدولة اق سنقر وتسلم البلاد ، سلم حمص الى جناح الدولة حسين ، وجعله اتابك ١٢٢ عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة تتش كان حسين يدبر امر رضوان وهو صبي بحلب ، فاستشعر جناح الدولة حسين من رضوان فهرب وانفصل عنه ومضى الى حمص ومعه زوجته أم الملك رضوان ، وعند هربه في الليل كسر باب العراق وخرج منه ، وبعد وصوله الى حمص كبس عسكر رضوان على سمرمين ، وأسر ارباب دولته وديوانه ووزيره ابا الفضل بن الموصول ، ومات صاحب الرحبة زوج امنة بنت قمار ، فخرج جناح الدولة اليها ليأخذها ، فوجد دقاق قد سبقه اليها في سنة ست وتسعين ، فعاد منها ، ونزل نفرة بني أسد ، وخرج اليه رضوان الى النفرة ، واصطلحا واخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ،

وأقام في ضيافته عشرة أيام ، ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه ،
وسار جناح الدولة حسين الى حمص وأقام بها الى ان نزل يوما
لصلالة الجمعة فهجم عليه جماعة من الاسماعيلية ، تقربا الى الملك
رضوان ، لما كان قد تجدد بينه وبينه من الودشة ، وكان حسين
رجلا شجاعا باسلا ذا رأي سديد وفيه دين وخير .

انبأنا ابو الحسن محمد بن ابي جعفر بن علي عن الأمير مؤيد
الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ قال : وتسلم قسيم الدولة اق سنقر
مدينة حمص ، يعني من خلف بن ملاعب ، وقلعتها ، فلما قتل قسيم
الدولة ، قتله تاج الدولة ، وتسلم البلاد ، وسلم حمص الى جناح
الدولة حسين ، وهو اتابك عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة
بالري استشعر جناح الدولة حسين من الملك رضوان ، وانفصل عنه
ووصل الى حمص فنزل من القلعة الى الجامع يوم الجمعة للصلالة
فلما وصل مصلاه أتاه ثلاثة نفر من عجم (٢٩٧ - ظ) الباطنية
في زي الصوفية يستميجونه ، فوعدهم ، فهجموا عليه بسكاكينهم ،
فقتلوه رحمه الله ، وقتلوا معه قوما من أصحابه ، وقتلوا وقتل نفر
كانوا في الجامع ، من الصوفية العجم بالتهمة وهم ابرياء ، وذلك يوم
الجمعة الثاني والعشرين من رجب سنة ست وتسعين واربعمائة :
واختبأ البلد ، وخافوا من الافرنج ، فراسلوا شمس الملوك (١٣٣)
يلتمسون منه انفاذ من يتسلم حمص وقلعتها قبل ان يخرج إليها
ويتسلمها من الافرنج من تمتد اطماعهم ، فتوجه شمس الملوك إليها
وتسلمها ، واحسن إلى اولاد جناح الدولة ، وسار بهم إلى دمشق ،
فأقر عليهم إقطاع أبيهم .

قرات في تاريخ ابي المغيث منقذ بن مرشد بن منقذ ، وفيها ، يعني
سنة ست وتسعين واربعمائة وثب قوم من الباطنية على جناح الدولة
حسين فقتلوه وذلك يوم الجمعة ثامن وعشرين رجب ، وكان ذلك من
تدبير ابي طاهر الصائغ ، وخدمة للملك رضوان ، واستولى بعده
قراجا على حمص .

قرات في مدرج وقع إلى بالقاهرة بخط العصد مرهف بن اسامة بن

مرشد بن منقذ يتضمن ذكر واقعات وقعت ذكرها على وجه الاختصار ، قال : سنة ست وتسعين ، يعني وأربعمائة ، فيها قتل جناح الدولة بدمص في يوم الجمعة •

قلت : وكان قتله في الثاني والعشرين من شهر رجب بتدبير الحكيم أبي الفتح المنجم الباطني ، ورفيقه أبي طاهر ، وقيل كان ذلك بأمر رضوان ورضاه ، وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات .

انبأنا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله العظيم ، ونقلته من خطه قال :

سنة ست وتسعين وأربعمائة فيها قتل الباطنية جناح الدولة بدمص في الجامع يوم الجمعة ، ستة نفر (١٢٤) ، أحدهم يعرف من أهل سمرمين .

وفيهما مات الحكيم العجمي المنجم الباطني بحلب ، (١٩٨ - و) •

حميدان بن حواس العقيلي

(من المقفى للمقرئزي - مجلدة برتو باشا)

ويقال فيه حمدان ، والاول أشهر • ولي دمشق من قبل العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله سنة ثمان وسستين وثلاثمائة ، بعد ظفره بهفتكين الشرابي • بعثه إليها في نحو مائتي رجل • وكان قسام إذ ذاك متغلبا على دمشق ، فلم يكن لحميدان مع قسام أمر • ولم تطل مدته حتى وقع بينه وبين قسام ، فأطرده العبيرون من أصحاب قسام ، وخرج هاربا من البلد ، فنهبوا داره • وقوي أمر قسام • فجاءت القرامطة جعفر وإخوته ، فنزلوا على دمشق فمنعهم قسام من البلد وعمل على قتالهم فساروا إلى الرملة •

فولي دمشق بعد حميدان أبو محمود •

ويقال إنه ولي دمشق في سنة واحدة ، وهي سنة ثمان وسستين هذه ، ظالم ، بن مرهوب العقيلي ، والقرمطي ، ووشاح وحميدان وأبو محمود •

حيدرة بن حسين

(من المقفى المقرئى - مجلة برتو باشا)

حيدرة بن حسين بن مفلح ، الأمير المؤيد ، مصطفى الملك ، معز الدولة نو الرئاستين ، ابن الأمير غضب الدولة •

ولاه المستنصر بالله إمرة دمشق ، فخرج من القاهرة في مستهل شهر رجب سنة إحدى وأربعين وأربعمئة وصرف بناصر الدولة أبى عبد الله الحسن ، ابن ناصر الدولة أبى محمد الحسن بن الحسين بن حمدان في نصف رجب سنة خمس وأربعمئة •

خلف بن ملاعب

(من بغية الطالب لابن العديم)

خلف بن ملاعب الأشهبى الملقب سيف الدولة ، كان كريما شجاعا ، جبارا ظالما ، يقطع الطريق ، ويخيف السبيل ، وإليه تنسب قبة ابن ملاعب ، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية ، وكان في يده حمص وافامية ، فكتب الولاة بالشام إلى السلطان ملك شاه ، وشكو إليه خلف بن ملاعب ، فكتب إلى أخيه تاج الدولة تتش صاحب دمشق وإلى قسيم الدولة أقي سنقر صاحب حلب ، وإلى (٢٢٠ - ظ) بزان صاحب الرها ، وإلى يغي سغان صاحب انطاكية . يأمرهم بمحاصرته ، وانتزاع معاقله من يده وحمله إليه .

فاجتمعوا عليه وهو بـحمص ، وسبقهم بزان فلم يمكنه من الخروج من حمص ، فافتتحوا حمص ، وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد إلى السلطان ملك شاه ، فأطلق حمص لأخيه تتش ، وحبس ابن ملاعب : وبقي في حربه إلى أن أطلقته خاتون امراء السلطان ملك شاه .

فمضى إلى مصر ، إلى الأفضل أمير الجيوش جماعة من أهل افامية في سنة تسع وثمانين ، وقيل سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وكان ولائهم فيها (له) ، والتمسوا منه واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم على ابن ملاعب .

فوصل في ذي القعدة من إحدى السنتين ، ودخل افامية وملكها ، وتجددت وحشة بينه وبين ابن منقذ ، أظنه أبا المرفع نصر ابن علي بن منقذ ، وكان قسيم الدولة أقي سنقر حين فتح افامية جعله بها ، واتصلت غارات ابن ملاعب على شـيزر ، وكفر طاب ، والجسر ، وزحف ابن منقذ إليه ومعه خلق ورجالة ، فظفر بهم ابن ملاعب ، وكان في نفر يسير ، فقتل جماعة وأسر جماعة ، وباعهم أنفسهم ، واستقرت الحال بينهم بعد ذلك . ثم عمل الباطنية حيلة

على القلعة وعليه حتى قتلوه في سنة تسع وتسعين وأربعمائة •

قرأت في تاريخ أبي المغيث منذ بن مرشد بن علي بن منذر الذي
ذيل به تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري ، قال : سنة ثلاث
وثمانين وأربعمائة فيها : كتب ولاية الشام إلى السلطان ملك شاه
يشكون مايلقونه من خلف بن ملاعب (٢٢١ - و) بحمص من قطع
الطريق ، وإخافة السبيل ، فأمر السلطان أن يسير إليه
بوزان ، وقسيم الدولة ، وتاج الدولة ، ويغي سغان ، فسبق إليه بزان
فنزل قريبا من حمص فكتبه ما يريد حتى بلغ منه غرضا ، ودخل
إليه رسوله ، فقال : عاش لك ملاعب ، ثم حضر بزان المدينة ،
 واجتمع عليها كل من في الشام ، فافتتحت ، وكل من الأمراء
المذكورين طلبها ، فكتبوا جميعا إلى السلطان فأنعم بها على أخيه
تاج الدولة ، وأمر السلطان بحمل خلف بن ملاعب في قفص من حديد
إلى قلعة أصبهان ، فحمل وحبس بها حتى مات السلطان •

وقال : سنة أربع وثمانين فيها : نزل قسيم الدولة أق سنقر على
أفامية وملكها ، وسلمها إلى عمي عز الدولة أبي المرهف نصر بن
سديد الملك ، وذلك في شعبان •

أنبأنا أبو محمد بن عبد الله الأسدي قال : كتب إلينا أبو المظفر
أسامة بن مرشد بن علي بن منذر قال : كانت حمص في سنة اثنتين
وثمانين وأربعمائة لسيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي ، فنزل
على سلمية ، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمي فرماه في المنجنيق إلى
برج سلمية ، وأخذ قوما من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم
واستغاثوا عليه بالخليفة والسلطان ملك شاه فخرج أمر السلطان
إلى أمراء الشام : تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وقسيم الدولة
صاحب حلب ، وبزان بن الب صاحب الرها ، ويغي سغان صاحب
أنطاكية ، بالنزول على حمص والقبض على سيف الدولة خلف بن
ملاعب (٢٢٢ - ب) وتسديره إليه ، فنزلوا على حمص وحاصروه ،
وأخذوه إلى السلطان ، فأقام في الحبس إلى أن توفي ملك شاه في
شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، فأطلقته خاتون امرأة

السلطان : وتسلم قسيم الدولة اق سنقر مدينة حمص وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة؛ قتله تاج الدولة ، تسلم البلاد ، وسلم حمص الى جناح الدولة حسين .

انبأنا أبو اليمن زيد بن الحسن قال : كتب إلينا أبو عبد الله محمد بن علي العظيمي وقال : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة : وفيها سار الأمير قسيم الدولة ، وبزان وغسبان وتاج الدولة ، ونزلوا حمص وفتحوها من يد ابن ملاعب ، وحملوا ابن ملاعب في قفص حديد الى عند السلطان فلما هلك السلطان ، خلاص ابن ملاعب وصعد الى مصر ، وعاد منها تسلم قلعة انامية واقام بها سبعة عشر سنة وقتل .

وقال : سنة أربع وثمانين وأربعمائة : فيها : تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة افامية من يد ابن ملاعب ، وترك فيها بعض بني منقذ ، وعاد الى حلب في العاشر من رجب (١٣٥)

قلت هكذا ذكر العظيمي ونقلته من خطه في كتاب في التاريخ جمعه وسماه المؤصل على الأصل المؤصل ، وقال : « وعاد منها ، يعني من مصر ، تسلم قلعة افامية سبعة عشر سنة » : وهذا وهم ، فإن قتل ابن ملاعب ظنه تسع وتسعين وعوده من مصر فيها ، وإن كان أراد ولايته الأولى ، فالكلام غير مستقيم لأنه أخبر (٢٢٢ - و) أنه تسلم قلعة افامية واقام بها سبع عشرة سنة وقتل ، وقد خرجت عن يده في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقتل سنة تسع وتسعين ، فبقيت خارجة عن يده قبل قتله أربع سنين وثلاثة أشهر ، وكانت افامية في يد ابن ملاعب مع حمص في أيام أبي المكارم مسلم ابن قريش؛ فانني قرأت في كتاب العظيمي بخطه قال : سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، وفيها في صفر حاصر شرف الدولة ابن ملاعب بقلعة حمص ، وفيها عاد شرف الدولة الى حلب ، وقد صالح ابن ملاعب (١٣٦)

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد الذي ذيل به تاريخ ابن المهذب قال : في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفيها ، طلع قوم من

اهل افامية إلى الأفضل يسألونه أن يولي عليهم سيف الدولة خلف ابن ملاعب ، فنهاهم وقال : لاتفعلوا وحذرهم من فسقه ، فقالوا : نحن نجعل عيالاتنا لنا ليلة وله ليلة ،فسيرهم معهم ووصل افامية ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة •

قلت : هؤلاء اهل تلك الجبال اكثرهم دهرية د رية يستبيحون ذوات الارحام ، ولا يعتقدون تحريم الحرام •

قرأت بخط عمر بن محمد العلوي المعروف بابن حوائج كش الحافظ ، واخبرنا به إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن النساب ، وذكر العلوي انه نقله من خط ابن زريق ، يعني أبا الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زريق ، وكان عالما بالتاريخ ، قال : وقدم الى افامية ، يعني خلف ابن ملاعب ، من مصر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، لأن اهل افامية مضوا الى مصر (٢٢٢ - ظ) يلتمسون واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم عليه ، فوصل في يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة ، ودخلها وملكها •

قال : ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة تسع وتسعين ، قتله جماعة وصلوا من حلب من أصحاب أبي طاهر الصائغ القائم بمذهب الباطنية ، بعد موت المنجم المعروف بالحكيم بحلب ، وكانوا من اهل سمرين ، وقاموا فيها بموافقة رجل داع كان بأفامية يقال له ابن القنچ أصله من سمرين ، واقام بأفامية يحكم بين أهلها ، وقرر ذلك مع أهلها ، وأحضر هؤلاء ، ونقب أهلها نقبا في سورها حتى قارب الوصول ، فلما وصل هؤلاء لقيهم ابن ملاعب ، فأهدوا له فرسا وبغلة كانوا أخذوها من افرنج لقوهم في الطريق ، فأعلموه انهم جاءوا بنية الغزو الى بلد الروم ، وباتوا بظاهر الحصن الى الليل ، ودخلوه من ذلك النقب ، ورتبوا بعضهم على دور أولاده لنلا يخرجوا ينجدونه ، وصعدوا ، فخرج إليهم فطعن في بطنه ، فرمى بنفسه من القلة يريد دار بعض أولاده ، فطعن أخرى ، ومات بعد ساعة ، وحين صاح الصائغ على القلة ، ونادى

بشعار رضوان بن تاج الدولة ، ترامى اولاده وخاصته من السور ، فبعضهم قتل ، واخذ اكثرهم فيما بين افامية وشيزر ، وقتلوا ، وسلم الله مصيبح ، ووصل الى شيزر واقام عند ابن منقذ مدة ، واطلقه .

ودخل طنكلي إلى افامية عقيب هذا الحادث طمعا في الحصن ومعه اخ لهذا ابن القنج من سرمين (٢٢٣ - و) كان مأسورا ، فقرروا له شيئا ، وعاد عنها ، فوصل بعض اولاد ابن ملاعب الذين كانوا بدمشق ، والذي كان بشيزر فذكروا لطنكلي قلة القوت بها ، فعاد في رمضان فنزل عليها ، فاقام إلى آخر السنة ، وفتحها في الثالث عشر من محرم سنة خمس مائة ، واسر ابن القنج والصايغ ، وعاقب ابن القنج وقتله ، واطلق بعض اهل افامية .

انبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي الفنكي قال : اخبرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني في كتابه ان قوما من اهل افامية من الاسماعيلية عملوا على مالكا وتحيلوا عليه بأن جاء منهم ستة نفر وقد حصلوا حصانا وبغلة وعددا افرنجية وتراسا وزردية وخرجوا من بلد حلب الى افامية بتلك العدة والدواب ، وقالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب - وكان رجلا كريما شجاعا - جئنا قاصدين خدمتك ، فلقينا فارسا من الافرنج ، فقتلناه ، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته ، فأكرمهم وانزلهم في حصن افامية ، في دار مجاورة السور ، فنقبوا السور ، وواعدوا الفاميين الى ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين واربعمائة ، فطلع الفاميون من ذلك النقب ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وملكوا حصن افامية .

قرأت بخط العضد أبي الفوارس مرهف بن أسامة بن مرشد بن منقذ :

سنة تسع وتسعين واربعمائة (٢٢٣ - ظ) فيها قفز اهل افامية مع القاضي ابن القنج على سيف الدولة خلف بن ملاعب وقتلوه ، وقتلوا اولاده في الرابع والعشرين من جمادى الأولى .

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيبي في تاريخه ،
وانبأنا به أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي ، والمؤيد بن محمد
الطوسي وغيرهما عنه قال : سنة تسع وتسعين وأربعمائة : وفيها :
عمل الباطنية على قلعة أفامية ، وقتلوا ابن ملاعب بها غيلة ، وملكوا
القلعة ، فعاجلهم الفرنج ونزلوا عليهم ، وحصروهم بها إلى أن
أخذوها (١٢٧) .

خلف بن ملاعب الاشبهى

(من الحقى للمقريزي - مجلة برتو باشا)

خلف بن ملاعب الاشبهى الكلابي ، الامير ابو منصور ، سيف الدولة
أصله من قبيلة من بني كلاب يقال لها الاشهب .

استولى على مدنة حمص في ولاية معلي بن حيدرة على دمشق من
قبل المستنصر بالله ابي تميم معد بن الظاهر ، في صفر سنة ست
وستين وأربعمائة فلما صار نصير الدولة بعساكر امير الجيوش من
مصر ، وفتح صور وصيدا ، ونزل بعلبك ، قدم عليه خلف بن ملاعب
ودخل في الطاعة ووجه بابن عمه إلى امير الجيوش ، فقبله ، وبعث
إلى خلف بالخلع والطوق ، فأقام بحمص ، وكان الضرر به عظيما ،
ورجاله يقطعون الطريق في جميع النواحي وكان في صحبته جماعة
من اللصوص ، فشمّل الناس في أيامه مضرة شديدة فلما سار تاج
الدولة تّدش بن الب أرسلان من دمشق ، ومعه الامير اق سنقر
صاحب حلب ، والامير بوزان صاحب حران ، وعولوا على قصد
مصر ، مضوا إلى حمص وقبضوا على خلف هذا وعلى ولديه ،
وحصل في حيز الامير اق سنقر فبعث به إلى ترکان خاتون الجلالية
زوجة السلطان ملك شاه ، فاعتقلته بأصبهان ، ثم أفرج عنه بعد موت
ملك شاه ، فورد بغداد على أسوأ حال .

فاجتمع عليه التجار وادعوا عليه أموالا أخذها منهم فوكل به من دار
الخليفة ، فتوصل القائد علي بن كتاش في إطلاقه وأدى عنه من ماله
ثلاثمائة وخمسين دينارا ، ثم دبر له في الخروج من بغداد فتم له ذلك
ولم يكافئه عنه ، وذهب ما أدى عنه ضياعا ، ومضى إلى مصر فلم
يلتفت إليه ، وأقام بها ومعه أهله وأولاده سنتين .

فكتب القائد بفامية من جهة الملك رضوان بن تّدش إلى المستنصر ،
وكان يميل إلى مذهب المصريين ، يستدعي من يتسلم أقاليمه منه ،
وكانت على حماية الحصانة . فواصل ابن ملاعب السعي في ذلك اليوم ،

ووعده أنه يحارب الفرنج رجاء المثوبة من الله تعالى . وكانت البلاد يومئذ أكثرها معهم ، فأجيب بأنه رجل كافر النعمة مخفر الأمانة لا يملك عنان فرسه فيرى لأحد عليه طاعة ، فقال : أنا أعطي أولادي رهينة وانصرف على السمع والطاعة لكم .

فوقع الاتفاق عليه وقلد أقالمة في سنة تسع وثمانين وأربعمائة فلما وصل وتمكن منها خلع الطاعة . فكتبوا إليه يعرفونه حال رهينته وما يحل بولده عند معصيته . فأجاب بأنني متمسك بمكاني مدافع عن تسليمه وانني أؤثر أن تطبخوا أولادي وتنفذوا إلي بعض أعضائهم حتى أكله .

فيئسوا منه وأعرضوا عنه ، وأقام بأقالمة على حالته من التخليط ، ومال إليه المفسدون ، وعظم قطع الطريق من جهته ، فاتفق أن استولى الفرنج على سمرين ففترق من كان بها ، وكانوا غلاة في التشيع ، وصار أكثرهم إلى رضوان مملك حلب ، وفيهم شجاعة وقوة ، والغالب عليهم حمل السلاح ، ومضى قاضيهما أبو الفتح السرميني إلى ابن ملاعب في فريق منهم وأقام عنده وحظي لديه وتقدم تقدما زائدا ، فصار يطلعه على سره ويشاوره في أموره ، والقاضي يدبر عليه ويكاتب أبا طاهر الصائغ بحلب ، وهو من خواص الملك رضوان ليستخدمه في تدبيرها ويرد إليه النظر في أمورها ، فاتفق أن أولاد ابن ملاعب تسللوا من مصر خفية ووصلوا إليه فأخبروه بأن القاضي أبا الفتح السرميني المقيم عنده قد اشتهر عندهم أنه يعمل عليه ويروم الفتك به ، وأشاروا بإبعاده ، فاستدعاه ابن ملاعب فحضر وقد أيقن بالفتك به ومعه مصحف . فلما جلس اعترف بما أولاه ابن ملاعب من الجميل ، وأنكر ما قيل في حقه وحلف بالمصحف على صحة ما يعتقده من جميل ولأنه . وسأله أن يطلقه عريانا إن كان قد داخله فيه شك . فقبل قوله وانخدع له وتركه على حالته .

فأخذ القاضي من تلك الساعة في الجد ، وكتب الصائغ بأن يوافق الملك رضوان على تسيير ثلاثمائة رجل من أهل سمرين وصحبته

شيء من خيل الفرنج وبغالهم وسلاح من أسلحتهم . وعرفه مكيدة يفهمها لهم ليقولوها عند حضورهم . ففعل ذلك الصائغ ، وحضر أولئك الخيالة وقالوا : كنا نخدم رضوان وفارقناه على حالة غير مرضية من قلة إنصافه ، وتوجهنا نحو الفرنج فأخذنا منها براءة للأمير إن رضينا له خدما - وقدموا له ما كان معهم من الخيل الفرنجية والبغال والسلاح - فتم ذلك عليه وظنه صحيحا ، واستخدمهم وقربهم وأسكنهم ربض القلعة . فاجتمعوا مع القاضي أبي الفتح على التدبير ، فواعدتهم . فلما كانت تلك الليلة طاف العسس كجاري العادة ومضوا وناموا فثار من بالحصن من أهل سمرمين ودلوا الحبال إلى الواصلين فرفعوهم . وقام السيف فقتل ابن ملاعب وأولاده ، لأربع بقين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وملكت القلعة ، وأفلت صبح ونصر ولدا خلف ابن ملاعب ، فتوجه صبح إلى شيزر وأقام عند ابن منقذ .

وبعث القاضي أبو الفتح إلى أبي ظاهر سعيد الصائغ ، فسار إلى أقامية لا يشك أنها له ، فأكرمه القاضي وامتنع من تسليمها إليه وقال : هذا الموضع نحن محترمون ما دام لنا وإذا خرج إلى غيرنا امتنها - فيئس منه .

وكان لخلف ابن يقال له مصبح في خدمة طغديكين بدمشق قد أعطاه حصنا بالبرية يحفظه فعرف بعده بقية ابن ملاعب فأفسد هناك فهدده طغديكين . فلحق بالفرنج وأوى إلى طنكري متملك أنطاكية ، وحسن لهم قصد أقامية . فساروا معه ونازلوها فسير إليهم القاضي أبو الفتح عشرة آلاف دينار . فرحلوا فلامهم ابن خلف وما زال بهم حتى أقاموا عليها إلى أن مات من بها من الجوع ، فملكها الفرنج وقتلوا القاضي وأسروا الصائغ وحملوه إلى أنطاكية معهم وقتلوه بها . فأخذ رضوان ماله وأولاده بحلب .

دقاق بن تَدش

(.من الجزء السادس من تاريخ دمشق لابن عساكر -
مخطوط الظاهرية ٣٤٥٠)

دُقاق بن تَدش بن الب أرسلان أبو نصر المعروف بالملك شمس
الملوك.ولي إمرة دمشق بعد قتل أبيه تاج الدولة في سنة سبع وثمانين
وأربعمائة ، وكان بحلب ، فراسله خادم لأبيه اسمه ساوتكين كان
نائبا في قلعة دمشق ، سرا من أخيه رضوان بن تَدش صاحب حلب ،
فخرج دقاق الى دمشق وحصل بها ، وأجلسه ساوتكين في منصب
أبيه ، ثم دبر هو وطغتكين المعروف بأتاك (١٣٨) زوج أم الملك دقاق
على ساوتكين فقتل.

وأقام دقاق بدمشق ، وقدم أخوه رضوان فحاصرها فلم يصل
منها الى مقصود فرجع الى حلب ، ثم عرض لدقاق مرض تطاول به
وتوفي منه في الثاني عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين
وأربعمائة ؛ وإن أمه زينت له جارية فسمته في عنقود عنب معلق في
شجرته ، ثقبته بأبرة فيها خيط مسموم ، وإن أمه ندمت على ذلك
بعد الفوت ، وأومأت الى الجارية أن لاتفعل ، فأشارت إليها أن قد
كان ، وتهرى جوفه فمات ٠٠٠ (٥٠ ظ)

رضوان بن تدش

(من بغية الطالب لابن العديم)

رضوان بن تدش بن الب ارسلان بن جفري بن سلجوق بن دقاق ،
ابو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة خمس وسبعين واربعمائة ،
ونشأ في دمشق في حجر ابيه ، وكانت امه ام ولد فزوجها ابوه من
جناح الدولة حسين ، وجعله ابوه اتابكا له ومربيا ، ولما توجه ابوه
تدش لمحاربة بركيارق ووصل الى همذان كتب الى ولده رضوان الى
دمشق ، وكان قد تركه بها ، يستدعيه اليه من دمشق ، وامره ان
يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتلأ امر ابيه وخرج
من دمشق بالعسكر متوجها الى ابيه ، ووصل الى عانة وقيل الى
الانبار ، فبلغه قتل ابيه تدش ، فحط خيمه وسار مجدا عائدا ،
فوصل الى حلب وتسلمها من وزير ابيه ابي القاسم بن بديع في سنة
ثمان وثمانين واربعمائة ، وتولى حسين زوج امه تدبير ملكه .

ووصل اخوه دقاق الى حلب ، ومضى سرا من رضوان الى دمشق
فملكها وقدم يفي سغان ، ويوسف بن ابق بعسكرهما من انطاكية
الى خدمة رضوان ، وسارا (٨٩ - و) معه الى الرها ليستلمها من
نواب والده ، فارادا القبض على حسين لينفردا بتدبير رضوان ،
فبلغ حسين ذلك ، فهرب الى حلب ، وتبعه رضوان اليها واستودش
رضوان منهما ، فرجعا الى انطاكية .

وسار رضوان الى دمشق ليأخذها من اخيه دقاق ، ونزل جناح
الدولة حسين بحلب ، وسار معه سكمان بن ارتق ، فلما وصل
رضوان الى دمشق اعتقل دقاق نجم الدين ايلغازي بن ارتق ، ولم
يستتب لرضوان امر دمشق فرجع الى حلب ، وتوجه سكمان الى
البيت المقدس ، وتسلمه من نواب اخيه ايلغازي .

ووصل يوسف بن ابق الى رضوان الى حلب وسكنها فخاف منه

رضوان وحسين فتقدما الى المجن الفوعي (١٢٩) فهجم عليه فقتله .
وخرج رضوان وحسين فتسلما تل باشر ، وشيخ الدير من نواب يغي
سغان ، واغارا على بلد انطاكية ، ثم توجهوا الى دمشق ، وسار يغي
سغان اليها منجدا دقاق ، فضعفت نفس رضوان عن دمشق ، فسار
الى البيت المقدس فتبعه دقاق وطفكتين ويغي سغان ، واشرف
عسكر رضوان على التلف فهرب حسين على البرية الى حلب ،
ووصل دقاق وطفكتين الى ناحية حلب ، واستنجد رضوان بسليمان
ابن ايلغازي صاحب سميساط ، فوصل الى حلب بعسكر كبير
 واجتمع العسكران على نهر قويق ، وتحاربا ، فهرب دقاق وطفكتين
الى دمشق ويغي سغان الى انطاكية .

وتغيرت نية رضوان على حسين فهرب من حلب الى حمص ومعه
زوجته ام رضوان .

ثم تجدد بعد ذلك خروج الفرنج (٨٩ - ظ) الى انطاكية ، ووصل
يغي سغان الى الملك رضوان الى حلب الى خدمة رضوان ، وتزوج
رضوان بابنته خاتون جيحك ، ونزل الفرنج على انطاكية ، وشنوا
الغارات على بلد حلب ، ووصل ابن يغي سغان الى حلب مستنجدا
على الفرنج ، فسير رضوان معه عسكر حلب وسكمان ، فلقاهم من
الفرنج دون عدتهم ، فانهزم المسلمون الى حارم ، وغلب اهل حارم
من الارمن عليها ، وعاد سكمان بن ارتق مفارقا رضوان ، وصار مع
دقاق .

واستولى الفرنج على انطاكية ، وضعف امر رضوان ، واستمال
الباطنية وظهر مذهبهم بحلب ، وشايعهم رضوان ، واتخذوا دار
دعوة بحلب ، وكاتبه ملوك الاسلام في امرهم ، فلم يلتفت ، ولم يرجع
عنهم ، ودام على مشايعتهم .

وقوي الفرنج عليه فباع من املاك بيت المال عدة مواضع للحلبيين ،
وقصد بذلك استمالتهم ، وان يتعلقوا بحلب بسبب املاكهم فيها حتى
انه باع في ساعة واحدة ستين خربة من مزارع حلب لجماعة من
اهلها وكتب بها كتابا واحدا ، يذكر حدود كل خربة ومشتريها وثمانها

وكان الكتاب عندي في جملة الكتب التي كانت لوالدي رحمه الله .

وكان الملك رضوان بخيلا شديحا يحب المال ، ولا تسمح نفسه باخراجه ، حتى ان امرائه وكتابه كانوا يذبزنونه بابي حبه ، وذلك هو الذي اضعف امره ، وافسد حاله مع الفرنج والباطنية . وجدد في حلب مكوسا وضرائب لم تكن ، ومع هذا كله كان فيه لطف ومحاسنة (٩٠ - و) للحلبيين حتى بلغني انه مر يوما راكبا ليخرج من باب العراق ، سمع امرأة تنادي اخرى يازليخا تعالي ابصري الملك ، فامسك راس فرسه ووقف ساعة ، ثم نظر فلم ير احدا ، فقال : اين هي زليخا قولوا لها تاتي تبصرنا او نمشي ، وهذا من ابلغ اللطافة من ملك مثله .

وحدثني والدي قال : اخبرني ابي قال : وقع بين والدي ابي غانم وبين القاضي ابي الفضل بن الخشاب مشاجرة في التخم الذي بين قرية والدي اقدار وبين قرية ابن الخشاب عيطين ، وال الامر في ذلك الى مواحدة وغلظة ، فبلغ الملك رضوان فقال : انا اخرج بنفسي واقف معكما على التخم ، فخرجا مع الملك ووقف معهما وقال لاحدهما : الى اين تدعي فقال : الى ها هنا ، وقال للآخر : الى اين تدعي . فقال : الى ها هنا ، فقال لكل واحد منهما : اريد ان تهب لي نصف ماتدعي على صاحبك ، فأجاباه جميعا الى ذلك ، واصلح بينهما على ان نزل كل واحد عن نصف المدعى به ، وجعل بينهما تخما اتفقا عليه ، ورجع الى المدينة ، وهذا ايضا من المآثر التي ينبغي ان تكتب وتسطر وتنقل في التواريخ وتذكر .

قرات بخط الشريف ادريس بن الحسن الادريسي الاسكندراني قال الشيخ ابو الحسن بن الموصول ، واملانيه بدار الشريف امين الدين ابي طالب احمد بن محمد النقيب الحسيني الاسحاقى من تعليق لبعض (٩٠ - ظ) اسلافه قال : وفي شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسمائة وصل الى حلب رجل كبير فقيه تاجر يقال له ابو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندي ومعه خمسمائة جمل عليها احمال اصناف التجارات ، وكان شبيدا على الاسماعيلية مسعدا لمن

يقصدهم ، مبالغاً في بابهم ، انفق في المجاهدين لهم بسببهم اموالاً جلية ، فقام في غلمان له يستعرض احواله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه ، وكان قد اصحب من خراسان باطنياً يقال له احمد بن نصر الرازي ، وكان اخوه قتله رجال هذا الخجندي ، فدخل الى حلب ، واستدل على ابي الفتح الصايغ رئيس الملاحدة بها ، وكان متمكناً من رضوان ، فصعد الى الملك رضوان ، وعرفه ما جرى بينهم وبين الفقيه ابي حرب ، واطمعه في ماله ، واراها انه بريء من التهمة في بابيه اذ كان معروفاً بعداوة الملحدة ، فطمع رضوان وانتهاز الفرصة فيه ، وطار فرحاً ، فبعث بغلمان له يتوكلون به ، فبرز الى ابي حرب عيسى الفقيه احمد بن نصر الرازي وهجم عليه ، فقال لغلمانه واصحابه : اليس هذا رفيقنا ؟ فقالوا : هو هو ، فوقعوا عليه فقتلوه ، وهجم جماعة من اصحاب ابي الفتح الباطني الحلبي على ابي حرب فقتلوا عن اخرهم ، ثم قال ابو حرب : الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، امنا المخاوف وراءنا وجئنا الى (٩١ - و) الامنة ، فبعث علينا من يقتلنا ، فرجعوا الى رضوان ، فاخبروه بما قال ، فابلس ، وصار السنة والشيعية الى هذا الرجل ، واطهروا انكار ما تم عليه ، وعبت احداثهم بجماعة من احداث الباطنية فقتلوهم ، وانهي ذلك الى الملك رضوان فلم يتجاسر على انكاره ، واقام الرجل بحلب ، وكاتب اتابك ظهير الدين (١٤٠٠) وغيره من ملوك الشام فتوافت رسلهم عند رضوان بكتبهم يذكرون عليه ما جاءه في بابيه ، فانكر وحلف انه لم يكن له في هذا الرجل نية ، وخرج الرجل عن حلب مع الرسل ، فخيروه في التوجه نحو الرقة ، وعاد الى بلده ، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل ، ونقص في اعين الناس فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

اذباننا زيد بن الحسن عن ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي في حوادث سنة احدى وخمسمائة قال : وفي هذه السنة بلغ فخر الملوك رضوان ما ذكر به عن مشايعة الباطنية واصطناعهم ، وحفظ جانبهم وانه لعن بذلك في مجلس السلطان ، فلما بلغه الخبر امر ابا الغنائم

ابن اخي ابي الفتح الباطني بالخروج عن حلب فيمن معه ، فاذسل القوم بعد ان تخطف جانبهم ، وقتل منهم افرادا (١٤١)

قلت ولما ملك رضوان حلب قتل اخوين له كانا من ابيه ، فلما مات رضوان وملك ابنه الب ارسلان قتل اخوين له كانا من احسن الناس صورة فانظر (٩١ - ظ) الى هذه المؤاخذه العجيبة .

اذباننا المؤيد بن محد علي الطوسي عن ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي قال : وفيها - يعني سنة تسعين واربعمائة - عصى المجن الموفق على الملك رضوان ، وتعصب معه الحلبيون ثم تخاذلوا عنه ، واختلفوا ، فقبض عليه الملك رضوان ، وعلى نويه وبنيه ، واستصفي امواله في ذي القعدة وعذبهم بأنواع العذاب ، ثم قتله بعد ذلك ، وقتلهم حوله .

قال : وفيها وصل رسول مصر الى الملك رضوان ، يعني من المستعلي بالتشريف والخلع ، وخطب للمصريين شهرا ، ثم عاد عن ذلك (١٤٢)

وقال : سنة ثلاث وتسعين ، وفيها كسرت الافرنج للملك رضوان على موضع يقال له كلا ، وكان المسلمون في خلق وكان الافرنج في مائة فارس ، فقتلوا خلقا من الناس ، واسروا خلقا ، وكانت الكسرة يوم الجمعة خامس شعبان (١٤٣)

وقال : سنة ثمان وتسعين واربعمائة ، فيها كسر الفرنج الملك رضوان على عين تسيلوا من ارض ارتاح ، وكان سبب ذلك حصن ارتاح ، خرجوا اليه لياخذوه ، وجمع الملك رضوان الخلق العظيم ، وخرج لنجدة الحصن ، ومعه من الرجالة الخلق العظيم ، وكان المصاف يوم الخميس ، فانهزمت الخيل ، واسلموا الرجالة ، فقتل منهم الخلق العظيم ، وفقد من الحلبيين جماعة كثيرة غزاة رحمهم الله ، وانهزم اكثر من به (١٤٤)

قلت : وبلغني انه قتل من المسلمين مقدار ثلاثة الاف ما بين فارس وراجل ، وهرب (٩٢ - و) من بارتاح من المسلمين ، وقصد الافرنج بلد حلب ، فاجفل اهله ، ونهب من نهب ، وسبي من سبي ،

واضطربت احوال بلد حلب من جبل ليلون الى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الامن والسكون وهرب اهل الجزر وليلون الى حلب ، فادركتهم ذيل الفرنج فسبوا اكثرهم وقتلوا جماعة ، وكانت هذه النكبة على اعمال حلب اعظم من النكبة الاولى على كلا ، ونزل طنكريد الفرنجي على تل اعذى من عمل ليلون واخذه ، واخذ بقية الحصون التي في عمل حلب ، ولم يبق في يد الملك رضوان من الاعمال القبلية الا حماه ، وليس في يده من الاعمال الغربية شيء ، وبقي في يده الاعمال الشرقية والشمالية وهي غير امنة .

وضاق الامر باهل حلب ، ومضى بعضهم الى بغداد واستغاثوا في ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر ، فجهز السلطان محمد بن ملكشاه مودود صاحب الموصل واحمديل الكردي ، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة ، ومات سكمان قبل وصوله الى حلب ، ووصلت العساكر الى حلب ، فاغلق رضوان ابواب حلب بوجههم ، واخذ الى القلعة رهائن عنده من اهلها لئلا يسلموها ، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور ، ومنع الحلبيين من الصعود اليه ، وضبر (١٤٥) انسان من السور (٩٢ - ظ) فامر به فضرب عنقه ، ونزع رجل ثوبه ورماه الى اخر ، فامر به فالقى من السور الى اسفل ، وبقيت ابواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، واقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه ، وكثرت اللصوص ، وخاف الاعيان على انفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فاطلق العوام السننتهم بسبه وتعيبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية ان يسلموا البلد ، وترك الركوب بينهم ، وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر فياخذونه ، وعاث العسكر فيما بقي سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له ، ورحل العسكر الى معبرة النعمان بعد استيلاء الفرنج عليها في اخر صفر من سنة خمس وخمسمائة واقاموا عليها ، وقدم عليهم اتابك طغتكين ، فراسل رضوان بعضهم حتى افسد ما بينهم ، وظهر لآتابك طغتكين منهم الوحشة ، فصار في جملة ممدود (١٤٦) وثبت له ممدود ، ووفى له ، وحمل

لهم أتابك هدايا وتحفا ، وعرض عليهم المسير الى طرابلس والمعونة لهم بالأموال ، فلم يعرجوا ، وسار أحمدل وبرزق بن برسق ، وعسكر سكمان الى الفرات ، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا من المعرة الى العاصي ، فنزلا على الجلالى ، ونزل الفرنج اقامية: بغدوين ، وطنكريد ، وابن صنجيل ، وساروا لقصد المسلمين ، فخرج أبو العساكر سلطان بن منقذ من شيزر (٩٣ هـ) بأهله وعسكره ، واجتمعوا بمودود وأتابك ، وساروا الى الفرنج ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد ، فأصبحوا هاربين سائرين تحمي بعضهم بعضا .

ونزل طنكر يد على قلعة عزاز وبذل له رضوان مقطعة عن حلب ، عشرين الف دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكر يد من ذلك ، ورأى رضوان أن يستميل طغتكين أتابك اليه ، فاستدعاه الى حلب ، فوصل اليه وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال واستقر الأمر على أن اقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر من رضوان الوفاء بما تعاهدا عليه ، ووصل مودود الى الشام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان ، فتأخرت الى أن اتفق للمسلمين وقعة استظهر فيها الفرنج ، ووصل عقبها نجدة للمسلمين من رضوان دون المائة فارس وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فانكر أتابك ذلك وتقدم بإبطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في أول شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة .

انبأنا سليمان بن الفضل بن سليمان قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن قال : رضوان بن تقي بن الب أرسلان بن جفري بك بن سلجوق بن تقي التركي كان بدمشق (٩٣ هـ) عند توجه أبيه الى ناحية الري ، فكتب اليه يستدعيه ، فخرج اليه ، فلما كان بالأنبار بلغه قتله ، فرجع الى حلب فتسلمها من الوزير أبي القاسم ، وكان المستولي على أمرها جناح الدولة حسين في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، ثم قدم دمشق بعد موت أخيه دقاق ،

فحاصرها وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب اموره وعاد الى حلب ، واقام بها ، وجرت منه امور غير محمودية في قتال الفرنج ، وظهر منه الميل الى الباطنية ، واستعان بهم بحلب ، ثم استدعى طغتكين اتابك الى حلب ولاطفه ، واراد استصلاحه ، وقرر بينهما امورا واقام له طغتكين الدعوة والسكة بدمشق ، فلم يظهر منه الوفاء بما وعد ، فابطلت دعوته .

وكان لما ملك حلب قد قتل اخويه ابا طالب وبهرام ابني تتش ، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة (٨٤٧) اذباننا ابو اليمان الكندي عن ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، ونقلته من خطه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها مات الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب بحلب . وفيها قتل تاج الدولة ابن الملك رضوان اخويه ملك شاه وابراهيم صبيين احسن الناس صورا (٨٤٨)

كذا وجدته ، وابراهيم بقي زمانا ، ورايت ولده بحلب ، واظنه مبارك والله اعلم .

وقرات في كتاب تاريخ وقع (٩٤ - و) إلي بماردين جمعه الرئيس ابو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وشاهدته بخطه ، قال : وفيها ، يعني سنة ثمان وخمسمائة مات الملك رضوان بن تتش بحلب وتولى ولده الاخرس .

وقرات في بعض ما علقتة من الفوائد ، مرض رضوان بحلب مرضا حادا ، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب امر حلب لوفاته ، وتأسف اصحابه لفقده ، وقيل انه خلف في خزانته من العين ، والآلات ، والعروض ، والاواني ما يبلغ مقداره ستمائة الف دينار .

قرات في كتاب عنوان السير تاليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وملكها ، يعني حلب بعده - يعني بعد قتل ابيه تتش - في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ابو المظفر رضوان بن تتش تسع عشرة سنة وشهورا ، وتوفي في سحرة يوم الاربعاء آخر يوم من جمادى الاولى

سنة سبع وخمسمائة ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، وخلف عينا
وعروضا تقارب الف الف دينار .

سابق بن محمود

(من بغية الطالب لابن العديم)

سابق بن محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس بن ادريس بن نصر ابو الفضائل الكلابي ، وتمام نسبة نذكره في ترجمة جد ابيه صالح بن مرداس ان شاء الله تعالى ، وامه بنت الملك ابي طاهر بن فناخسروه ابن بويه .

ملك حلب في الليلة الثانية من شوال سنة ثمان وستين واربعمائة ، وكان اخوه قد قتل يوم عيد الفطر بعد العصر على ما ذكرناه في ترجمته ، وكان قد فوض نصر اموره الى سيد الملك ابي الحسن علي بن منقذ بعد عوده من طرابلس ، وفوض اليه اموره ، وكان الوزير ابن النحاس بقلعة حلب ، وفي القلعة وال يقال له ورد وعندهما جماعة من الخواص ، فلما علموا بقتل نصر استدعوا اخاه سابق بن محمود ، وكان ساكنا في العقبة في الدار التي تنسب الى عزيز الدولة فاتك ، وكان قد شرب فيها وسكر ، فحمل من العقبة وهو سكران ، ورفع من السور (١٤٣ - ظ) بحبل الى القلعة وهو سكران ونادوا بشعاره واطاعه الاجناد ، واشاروا عليه باطلاق احمد شاه من الاعتقال ، وكان نصر اعتقله ، فاطلقه ، وخلع عليه . فنزل احمد شاه الى العسكر بالحاضر فسكن الفتنة .

واستقرت قاعدة سابق ، ولقب عز الملك ابو الفضائل . ودخل عليه ابو الفتيان بن حيوس ، فمدحه بقصيدته التي اولها :

علي لها ان احفظ العهد والودا

وان لم تقد إلا القطيعة والصداء (١٤٩)

فاطلق له سابق الف دينار ، وجعل له كل شهر ثلاثين دينارا .

وكان سابق من متخلفي آل مرداس ، وكان ينظم الشعر ، فأنني

وقفت في ديوان شعر ابن النحاس على أبيات يخاطب بها سابق بن محمود وقد انشده شعرا لنفسه فيه :

كنت اشدتني من الشعر نظما
بحترى يفوق لفظا ومعنى

لما ملك سابق وعرف بنو كلاب تخلفه اجتمعوا الى اخيه وثاب ، وحسنوا له اخذ حلب ، وانضاف اليه اخوه شبيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما : فسير سابق واستدعى احمد شاه امير الاتراك ، وكان في الف فارس ، واستعان به ، فانفذ الى رجل من الاتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، ويضمن له مالا ، فوصل ابن دملاج في يوم الاربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان (١٤٣ - و) وستين واربعمائة ، وتحالفوا ، وخرجوا الى وثاب وبني كلاب في يوم الخميس مستهل ذي الحجة ، وكان بنو كلاب في جمع يقارب سبعين الف فارس ، وراجل ، وكانوا بقدرين ، فعندما عاينوا الاتراك ، انهزموا من غير قتال وخلفوا حلالهم ، وأموالهم. ونسبائهم وأموالهم ، فغزم أحمد شاه وابن دملاج واصحابهما جميع ذلك ، فيقال انهم أخذوا لهم مائة الف جمل ، واربعمائة الف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر ، واماتهم وعبيدهم مالا يحصى كثره ، وعادوا بالأسرى الى حلب فأطلقهم سابق وانزل اخته زوجة مبارك بن شبل في دار واکرمها.

فسار وثاب ومبارك بن شبل الى السلطان ملك شاه بن الب ارسلان ، وشكوا حالهم ، وسألوا منه ان يعينهم على سابق ، فوعدهم واقطعهم في الشام ، واقطع الشام اخاه تتش ، ففسار ومعه جموع الترك ووثاب ومبارك بن شبل ، ووصل اليه بنو كلاب ، فنزل على حلب سنة احدى وسبعين واربعمائة ، ووصل اليه ابو المكارم مسلم بن قريش ، ونزل معه عليها ، وكان هواه مع سابق ، فكان يسير اليه بما يقوي نفسه ، وينكر على بني كلاب خلطتهم ، ودام الحصار ثلاثة اشهر ، واحدس ابو المكارم بتغير النية فيه ،

وتحقيق التهمة به من مراسلة سابق واهل حلب ، فاستان تاج
الدولة في الرحيل ، ورحل . وجعل رحيله وعبره بعسكره على باب
حلب .

وباع (١٤٣ - ظ) اصحابه اهل حلب كلما كان في عسكره
عصبية وتقوية لهم ، وقوى نفوسهم ونفس سابق ، وسار بعد ان
قوي اهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضعف الشديد الى
بلادهم ، ورحل معظم بني كلاب ، وبقي مع تاج الدولة تدش من بني
كلاب وثاب وشبيب اخو سابق ومبارك بن شبل في عدد يسير فاشار
عليهم ابو المكارم بن قريش بالاحتياط على انفسهم او الهرب الى
حلب وكاتبهم سابق ، وتالفهم ، وقال لهم : انما اذنب واحامي عن
بلادكم وعزكم . ولو صار هذا البلد الى تدش ، ازال ملك العرب
وذلوا واستوحشوا من الاتراك ، فهربوا الى حلب ، وصاروا الى
سابق ، وكتب سابق الى الامير ابي زائدة محمد بن زائدة قصيدة من
شعر وزيره ابي نصر بن النحاس يعرفه ما هو فيه من الضيق ،
ويسأله الاقبال عليه . والقيام بمعونته ، ويحذره من التخلف عنه
فيكون ذلك سببا لزال ملك العرب ويعتب عليه في التوقف عنه ،
والقصيدة :

دعوت لكشف الخطب والخطب معضل
فلبيتني لما دعوت مجاوبا
وفيت بالعهد الذي كان بيننا
وفاء كريم لم يخن قط صاحبا
وما زلت فراجا لكل ملمة
اذا المحرب الصنديد ضجع هايبا
فشمم لها وانفض نهوضه مشيع
له غمرات تستقل النوايبا
وقل لكلاب بدد الله شملكم
او يحكم ما تتقون المعائب (١٤٤ - و)
تستبدلون الذل بالعز ملبسا
وتمسون اذنايا وكنم نوايبا

وما زلتهم الاساد تفترس العدى
فما بالكم مع هؤلاء ثعالبا
ثبوا وثبة تشفي الصدور من الصدا
ولا تخجلوا احسابنا والمناقبا
ولا بد من يوم يحكم بيننا
وبين العدى فيه القنا والقواضيا
أرى الثغر روحا انتم جسد له
اذا الروح زالت اصبحت الجسم عاطبا
وقد نددت عنه طالبا حفظ عزكم
اباء ولاقيت المنايا الشواغبا
وها انا لا انفك ابذل في حمى
حماكم مجدا مهجتي والרגابا
الانخر مالي عنكم ونخائري
اذا بت عن طرق المكارم عازبا
شكرت صنيع ابن المسيب اذ اتى
يجر مغاوير تسد السبابا
منها :

ايا راكبا يطوي الفلاة بحسرة
هملة لقيت رشدا راكبا
الا ابلغ ابا الريان عني الوكة
تريح من الايلاف ما كان واجبا
اخا شخصه لا يبرح الدهر حاضرا
تمثله عيني وان كان غائبا
متى تجمع الايام بيني وبينه
اشد عليه ما حبيت الرواجبا
واهد الى شبل سلامي وقل له :
لك الخير دع ما قد تقدم جانبنا

فتلك حقوق لو تكلم صامت
لجاء اليها الدهر منهن نائبا
وقد امكنتكم فرصة فانهمضوا لها
عجالا والا اعوز الدر جالبا (٤٤١ - ظ)
فاني رايت الموت اجمل بالفتى
واهون ان يلقي المنايا مجاوبا

وكان قد بلغ سابقا ان اميرا من امراء خراسان يقال له تركمان
التركي قد توجه منجدا تاج الدولة تتش ومعه عسكر ، فخرج سابق
منصور بن كامل الكلابي ، احد امراء بني كلاب ، من حلب ليلا
واعطاه كتابه الى ابي زائدة وفيه هذه الابيات ، ومعه بعض
اصحاب سابق ، ومعهم مال فاتفق مع منصور ونائب سابق ،
وجمعوا ما يزيد على الف فارس وخمسمائة راجل من بني زمير .
وقشير ، وكلاب وعقيل بتدبير ابي المكارم بن قريش والتقوا
تركمان التركي في ارض الفايما . فكبسوا عسكره وقتلوه .

وبلغ ذلك تاج الدولة تتش فرحل عن حلب الى الفرات وشتى بديار
بكر . ثم عاد الى حلب وافتتح منبج في طريقه وبزاعا وعزاز ،
وصبح حلب صباحا فخرج عسكر حلب فالتقوا على الخناقية ،
وانهزم عسكر تتش بغير قتال .

وكان ابو زائدة وابن عمه شبل بن جامع بن زائدة في قدر خمسين
فارسا مقابلهم فحملوا عليه واتفقت هزيمتهم فقتلوا من الغز جماعة
وغنموا : وتقدم محمد بن زائدة الى الشيخ ابي نصر منصور بن
تميم السرميني المعروف بابن زنكل ان يجيب ابا الفضائل سابق بن
محمود عن القصيدة التي انفذها اليه ، ويعرفه ما لبني كلاب من
الايام المعروفة . ويذكر هذه الوقائع فعمل :

دعوت مجيبا ناصحا لك مخلصا
يرى ذاك فرضا لا محالة واجبا (٤٥ - و)

فلبيت لا مستنكفا جزعا ولا
هدانا اذا خاض الكريهة هائبا

قال فيها في ذكر هذه الوقائع :

ولما دعاني المدركي ابن صالح
شدقت ولم اهرب اليه الكرايبا
اسابق صرف الدهر في نصر سابق
الى تركمان الترك ازجي النجايبا
فلما التقيناهم غدا البعض سالباً
لانفسهم والبعض للمال ناهباً
فيا لك من يوم سعيد بيمينه
عن الثغر اضحى عسكر الضد هارباً
وكان يرى في كفه الشام حاصلاً
ويوم بزاعا رد ما ظن خانباً
وفي يوم خناقية قد خنقتهم
بعثير ذل رد ذا الشرخ شائباً
عطفت لهم اذ خام من خام منهم
بفتيان كالعقبان شامت تواباً
فلله قومي الصادرون لو اذنوا
معي او فريق كنت للجمع ناكباً
فولوا وقضبان المخافة فيهم
مسابقة ارماحنا والقواضبا
فكم فارسا منهم تركنا مجدلاً
يباشر ترب القاع منه التراباً
واذ ايقنوا ان ليس للكسر جابر
تولوا وعن جبرين حثوا الركائب
وخلوا بها كسبها حووه وابصروا
سلامتهم منا اجل مكاسبها
ورحل تاج الدولة تتش من جبرين ، وكان نازلاً بعسكره عليها الى
دمشق .

ولما جرى هذا الحادث طمع شرف الدولة . ابو المكارم ، مسلم بن قريش في الشام وكاتبة سابق بن محمود ييذل له تسليم حلب اليه . ووفدت (١٤٥ - ظ) عليه بنو كلاب باسرها ، فتوجه الى حلب ، ونزل عليها في السادس عشر من ذي الحجة من سنة اثنتين وسبعين واربعمائة ، فغلقت ابوابها في وجهه . وكان عند سابق اخواه شبيب ووثاب بحلب ، فلم يمكناه من التسليم ، فلم يقاتلها ، واهلها يحرسون على التسليم اليه لما هم فيه من الجوع ، وعدم القوات ، وسلم البلد اليه ولد الشريف الحيتي ، على ما نذكره في ترجمة ابي المكارم مسلم بن قريش فانحاز سابق الى القلعة ، واخواه شبيب ووثاب في القصر لصيق القلعة ، وحصر ابو المكارم القلعة الى ان دبر شبيب ووثاب وهما في القصر على سابق ، وقفزا في القلعة وصاح الاجناد بها شبيب يامنصور ، فقبض سابق فحبس ، وتسلم شبيب ما كان بها من المال وسفر سيد الملك ابن منقذ بين مسلم بن قريش وبين شبيب الى ان تسلم القلعة في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وسبعين واربعمائة ، وانقضى امر سابق بعد حصار القلعة اربعة اشهر . وانقضت دولة آل مرداس .

دفع إلي القاضي ابو محمد بن الخشاب جزءا بخطه وذكر لي انه نقله من خط ابي الحسن علي بن عبد الله بن ابي جرادة في ذكر ملوك حلب . وكتب اليها المؤيد بن محمد بن علي الطوسي عن ابي الحسن قال بعد ذكر نصر بن محمود وقتله بظاهر حلب ثاني عيد الفطر من سنة ثمان وستين : بعده اخوه سابق بن محمود اقام اربع سنين ، وسلم البلد الى شرف الدولة ابي المكارم مسلم (١٤٦ - و) ابن قريش العقيلي سنة اثنتين وسبعين واربعمائة - يريد البلد دون القلعة .

قرأت بخط ابي عبد الله العظيم . وانبأنا ابو اليمن الكندي وغيره عنه : سنة ثمان وستين واربعمائة فيها : قتل نصر بن محمود صاحب حلب يوم الاحد ، يوم عيد الفطر . وجلس سابق بن محمود مكانه .

قال : وفي هذه السنة يعني سنة اثنتين وسبعين واربعمائة . وصل

شرف الدولة الى حلب وتسلمها من سابق بن محمود ، وامتنعت
القلعة عليه ، وكان بالقلعة سابق واخوه شبيب ، فقبض شبيب على
سابق يوم السبت ثاني عشر من صفر ، وتولى الامر بنفسه يوما
واحدا ، ثم عاد سابق فقبض على أخيه شبيب وتولى الامر كما كان
اولا ، وبقي الحصار اربعة اشهر ، ثم سلم القلعة سابق الى شرف
الدولة يوم الأحد عاشر ربيع الآخر ، وقيل جمادى الآخر وهو
الاصح ، يعني من سنة ثلاث وسبعين واربعمائة (١٥٠) .

نقلت من خط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه
قال : واقام نصر مالكا الى سنة ثمان وستين ، فلما كان يوم عيد
الاضحى عيد وخرج العصر لنهب الاتراك ابن خان واصحابه ،
ويأخذ نساءهم فانه قال : « نريد الوجوه الملاح » فضربه واحد
فقتله . واختبأت حلب ، وقفلت ابوابها ، وقفل باب القلعة ،
فجاء الامير ابو الحسن سيد الملك ، وكان قد نزل لما مات محمود
وقال له نصر : « ما يرب هذه الدولة غيرك » : فلما قتل نصر لم
يجسر ان يذكر للوزير ابن النحاس ، وكان صديقه ، ذلك ظاهرا
فقال له وهو في القلعة من تحت السور : الامير نصر (١٤٦ . ظ)
سالم كما تحب ولكن سألتني عن شيء قبل خروجي وهو : القيل فاد ،
معناه : القيل الملك ، وفاد مات .

فاحتفظ ابن النحاس من القلعة ، واجلسوا بعده اخاه سابقا ، وكان
سابق كما قيل لي من احسن الناس محاضرة ، واصبحهم وجها ،
واسواهم فعلا في نفسه وافعاله .

حدثني مولاي رحمة الله قال : من طريف عمله انه مدحه الشريف
ابو المجد بثلاث قصائد ، فتأخرت الجائزة ، فكتب اليه وقد ضاع له
دنانير ثم وجدها .

قل للامير ابي الفضائل سابق
قولا يفوه به لسان الناطق
فبحق من رد الدنانير التي
ضاعت بتقدير الاله الخالق

اردد علي مدائحها انشدتها
ذهبت لديك ذهب خلب بارق
قال : فانفذ له قصيدة وكتب اليه على ظهرها نحن نسأل عن الباقي
وننفذه اليك .

واقام بحلب مستضعفا يغير بنو كلاب على باب حلب تاخذ منه
الغسلات والقوافل ، ولا يخرج احد الا بخفارة ، ولا يدخل الا
كذلك .

والامير سديد الملك مقيم بالجسر لعلمه ان الداء قد اعضل : قال :
فاشتغل عنهم بحصنه وبلده كفر طاب ، يشتو بالجسر ، ويصيف
بكفر طاب الى ان غلب سابق ، واستحكم يأسه ، انفذ اليه وقال :
اشتهي ان تحضر ، تفصل بيني وبين اخوتي ، وما قد دهمنا من
شرف الدولة ، فمضى حينئذ وقد امن غائلتهم .

وقال : سنة ثلاث وسبعين واربعمائة : فيها تسلم شرف الدولة
(١٤٧ - و) قلعة حلب . شهر ربيع الآخر ولم يكن فيها ما يؤكل .
قلت انقطع ذكر سابق بعد اخذ حلب منه . فلم نقع له على ذكر ولا
خبر والظاهر انه لم تطل مدته وانه توفي بعد ذلك بقليل .

سالم بن مالك

سالم بن مالك بن بدران بن مقلد بن المسيب بن رافع بن مقلد بن جعفر بن عمرو بن المهيا بن زيد بن عبد الله بن زيد بن قيس بن جونة ابن طخفة ابن ربيعة بن حزن بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن خصيفة بن عكرمة بن قيس بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ابو الزمام ، وقيل ابو الزمام ، العقيلي الامير ، كان ابو المكارم مسلم بن قريش حين ملك حلب ، ولاه زعامتها لحكم ما بينهما من النسب ، فلما قتل ابو المكارم ولي حلب مع الشريف الحديتي في سنة ثمان وسبعين واربعمائة .

واقام سالم بالقلعة والشريف بالمدينة . واتفقا على ان كاتبا السلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب ويحدثانه على الوصول ، او وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

ونزل سليمان على حلب وطال انتظار السلطان فاتفق الشريف الحديتي ومبارك بن شبل الكلابي على استدعاء تاج الدولة تتش ، فوصل ، والتقى بسليمان وقتله ، ونزل على حلب وفتحها . وعصى (١٩٧ - ظ) سالم في القلعة ، فوصل الخبر بوصول ملك شاه . فتوجه تتش الى دمشق ، ووصلت مقدمة عسكر ملك شاه ، فسارع سالم بن مالك الى طاعة الواصل وخدمته .

ووصل ملك شاه الى قلعة جعبر بن سابق القشيري ، فتسلمها منه وقتله ، ووصل الى حلب ، فتسلم حلب وقلعتها من سالم بن مالك سنة تسع وسبعين واربعمائة ، وعوض سالم بن مالك بقلعة جعبر ، واقطعه الرقة وعدة ضياع .

ويقال إن سالم بن مالك لم يذكرها للسلطان ، وانما سير اليه يقول:

ان لي ولدا وعائلة كبيرة وقد اردت ان ينظر السلطان لهم فوق نظري لهم ، فشاور في ذلك نظام الملك ، فقال له : ان قلعة جعبر تريد منا في كل عام جملة من المال وليس لها عمل جيد ، وهو يرضى بها ، فكتب نظام الملك يعرف سالم بن مالك ما جرى ، فطار سالم فرحا بما سمع فبعث الى نظام الملك بخادمه اقبال ، وكان احسن خادم يكون ، له في الفروسية اسم ، وفي الكتابة يد طويلة ، الى خط بديع من طريقة ابن البواب ، يترسل عن مولاه وفي صحبته خمسون الف درهم . فقال نظام الملك ما اسديت اليك شيئا تعترض به عن اقبال . ورد الدراهم عليه : وبعث بجاريتين بكرين احديهما افرنجية والاخرى اندلسية . ليس لهما نظير في الحسن والجمال والادب . والصنائع الحسنة ، فبعث بهما نظام الملك مع اقبال الخادم الى السلطان ، فلما دخل بهما على السلطان قال للحاجب : رد اقبال (١٩٨ - و) لا يدخل علي ، فعجب منه بطانته واستحسن ذلك منه : فبلغ نظام الملك قوله . فبعث به في عشرة من الخدم ، فقبلهم الا اقبال فانه اعاده بعد ان رمى بين يديه ، وكتب وتبذل في الحوائج ، فقال : ان بنظام الملك اليك اشد حاجة . فخدم اقبال واجاب السلطان احسن جواب عن قوله ، وانصرف .

نقلت من خط الرئيس ابي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي في حوادث سنة تسع عشرة وخمسمائة قال : وفي يوم الاربعاء العشرين من شوال مات شمس الدولة سالم بن مالك بقلعة جعبر .

قرأت بخط حمدان بن عبد الرحيم : رايت في بعض التعاليق بحلب ان الامير سراج الدين سالم بن مالك بن بدران العقيلي مالك الدوسرية ، وهي قلعة جعبر : كانت وفاته فيها في العشرين من شهر شعبان سنة تسع عشرة - يعني - وخمسمائة .

انباؤنا ابو الحسن محمد بن ابي جعفر عن ابي المظفر اسامة بن مرشد بن منقذ قال : ان الامير شمس الدولة كان نائبا للامير شرف الدولة مسلم بن قريش في قلعة حلب ، فلما قتل شرف الدولة في ربيع الاول سنة ست وثمانين واربعمائة حفظ الامير شمس الدولة قلعة

حلب وقال : لا اسلامها الا بامر ملكشاه ، ففسار اليها السلطان من خراسان فسلمها اليه ، وكان السلطان لما اجتاز بقلعة جعبر وفيها سابق الدين جعبر القشيري فقبضه (١٩٨ - ظ) السلطان وقتله لما بلغه عنه من الفساد . فلما سلم شمس الدولة سالم بن مالك قلعة حلب الى السلطان عوضه عنها قلعة جعبر . فاقام مالكها الى ان توفي فيها يوم الاربعاء العشرين من شوال سنة تسع عشرة وخمسمائة .

طغتكين أتابك دمشق

(من المجلد الثامن من تاريخ دمشق لابن عسّاك

مخطوط الظاهرية ٣٣٧٢)

طغتكين ، ابو منصور ، المعروف بآتابك ، كان من رجال (تاج)
(١٥١) الدولة ، وزوجه بام ابنه دقاق . وكان مع تاج الدولة لما ذهب الى
الري لقتال ابن اخيه (١٥٢) ثم رجع (١٥٣) الى دمشق بعد قتل تاج الدولة
وكان آتابك دقاق مدة ولايته ، فلما مات دقاق استولى على دمشق ،
وكان شهما مهييا ، مؤثرا لعمارة ولايته ، شديدا على اهل العيث
والفساد ، وامتدت ايامه الى ان مات يوم السبت السابع ، ويقال
الثامن من صفر . سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ودفن عند المسجد
الجديد قبلي المصلى ٢٥٧ -]

علي بن المقلد بن نصر بن مذقذ بن محمد بن مذقذ
ابن نصر بن هاشم ، أبو الحسن الأمير الكناني

المعروف بسديد الملك ، صاحب شيزر

(من تاريخ دمشق لابن عساكر)

أديب فاضل. له شعر حسن سائر. ورد دمشق غير مرة ، وأقام
بطرابلس سنوات ، وعمر حصن الجسر ثم اشترى حصن شيزر من
الروم.

كان سديد الملك علي بن مقلد بن نصر بينه وبين ابن عمار مودة
كبيرة ، وكان بينهما كاتب ، وكان سبب ذلك أنه كان له مملوك
أرمني يسمى رسلان ، وكان زعيم عسكره ، فبلغه عنه ما أنكره ،
فقال: اذهب عني ، وأنت آمن مني على نفسك ، فذهب إلى
طرابلس ، وقصد ابن عمار ، فنفذ إلى سديد الملك وسأله في حرمه
وماله ، فأمر باطلاقهم ، وما اقتناه من دوابه . فلما خرج لحقه سديد
الملك ، فقال له الرسول: غدرت بعبدك ، ورغبت في ماله ، فقال : لا ،
ولكن كل أمر له حقيقة ، حُطوا عن الجمال أحمالها ، وعن البغال
اثقالها ، ففعلوا ، فقال: أثبتوا كل ما معه ليعرف أخبي قدر ما
فعلته ، فكان ما أخرج له من ذهب عين خمسة وعشرين ألف دينار في
قدور نحاس ، وكان له من الديباج والفضة ما يزيد على القيمة ،
فقال للرسول: ابلغ ابن عمار سلامي ، وعرفه بما ترى لئلا يقول
رسلان أخذته بغير علم مولاي ، ولو دري لم يمكنني منه ، فزاره
سديد الملك في بعض السنين. فلما فارقه كتب إليه:

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم
من الصباية ما لاقيت في طعني

لأصبح البحر من أنفاسكم نفسا
كالبر من أدمعي يذشق بالسفن
قال أبو الحسن ما عرفت أنني أعمل الشعر حتى قلت:

يجني ويعرف ما يجني فأذكره
ويدعي أنه الحسن فأعترف

وكم مقام لما يرضيك قمت على
جمر الغضا وهو عندي روضة انف

وما بعثت رجائي فيك مستترا
إلا خشيت عليه حين يذكشف

وله:

في كل يوم من تجنيك لي
تعنت يعزب معناه

إني لأرثي لك من طول ما
تفكر فيما تتجناه

وكتب إلى سابق بن محمود بن نصر بن صالح صاحب قلعة حلب
شفاعة في أبي نصر بن النحاس الكاتب الحلي:

إيها أبا النصر يقيقك بنفسه
خل يجلك أن يقيق بماله

سل ما بقلبك عن ذخائر قلبه
فلسان حالك مخبر عن حاله

كيف استسر ضياء فضلك كاملا
مايستر البدر عند كماله

لاتجزعن اذا غربت فانه
ليل دجا سيضيء من أنياله

أتخاف من عز الملوك جناية
وخصيمه فيها كريم خلاله

حاشاه يسلب ماكسا احسانه
فكثير وجدك من قليل نواله

ملك يحب العدل في أحكامه
الا مع الراجي على أقواله

لو تنصف الدنيا لكان ملوكها
عماله والأرض من أعماله

ياأيها الملك الذي آياته
في المجد بين يمينه وشماله

فيد تشب النار في سدواته
ويد تصب الغيث من أفضاله

ارجع لعبدك صافحا عن جرمه
فالملك مفتقر الى امثاله

عقم النساء فما يلدن ذنائره
في فضل صنعته وفضل مقاله

د ع رتبة لم تله أهلا لها
وازده في المعروف من أشغاله

توفي الأمير أبو الحسن سنة تسع وسبعين وأربع منه.

معركة منا زكرد

(من تاريخ ميخائيل بيسلوس ص ٣٥٥ - ٣٥٦)

اما بالنسبة للامبراطورة فقد عاملها الامبراطور وكأنها امة اسرت في الحرب ، وكان على استعداد للموافقة حتى على طردها الى خارج القصر وكان يرتاب بالقيصر ، وسارع في عدة مناسبات لالقاء القبض عليه ومن ثم اعدامه ، لكنه غير رأيه بعد ذلك وتخلي عن الفكرة ، وكان قانعا في الوقت الحالي بربطه مع ابنه بحلف يمين بانهما سيبقيان مخلصين له ، وعندما وجد نفسه لايمتلك سببا مسوغا لتنفيذ خطته التي رعاها سرا ودبرها ضد القيصر ، انطلق في حملته الثالثة ضد البرابرة ، الذي اتخذوا موقفا معاديا بكل وضوح ، فقد كانوا منهمكين في الاغارة على الاراضي الرومية ، وما ان حل الربيع حتى اجتاحتها ثانيا بقوات معتبرة ، ولهذا غادر رومانوس مجددا العاصمة ليقا تلهم ، مصطحبا بتشكيلات كبيرة من الحلفاء والقوات المحلية كانت اكبر من ذي قبل

ووفقا لما اعتاد عليه في رفض جميع النصائح سواء حول المسائل المدنية او العسكرية انطلق بالحال مع جيشه واسرع نحو قيسارية وبعدما وصل الى غايته وجد نفسه كارها لمتابعة الزحف وحاول ايجاد عذر للعودة الى القسطنطينية ، واراد هذا لامن اجل نفسه فقط بل من اجل جيشه ، وعندما شعر بالعار الذي سيتورط فيه اذا قام بهذا التراجع ، وان ذلك لايمكن التساهل به ، رأى ان عليه ان يتوصل على الأقل الى اتفاق مع اعدائه فيوقف غاراتهم واعتداءاتهم السنوية ، لكنه عوضا عن ذلك زحف يريد الحرب ولاادري سبب ذلك هل كان مصدره اليأس او انه كان واثقا من نفسه اكثر مما ينبغي . زحف دون ان يتخذ ما يكفي من اجراءات لحماية ساقته ، وعندما رأى العدو زحفه قرر التفرير به واجتذابه مسافة أبعد

وتصيده بالحيلة والخديعة ، وبناء عليه ظهر الأعداء أمامه ثم تراجعوا ثانية ، وكان واضحا ان هذا التراجع كان مخططا له ، واستطاعوا بتطبيقهم هذا التكتيك مرارا ان ينجحوا في عزل بعض قادته الذين اخذوهم اسرى .

وكننت الآن عارفا - مع انه لم يكن كذلك - ان السلطان نفسه ملك الفرس والكرد كان موجودا شخصيا مع جيشه وان معظم اختصاراتهم يعود الفضل في حيازتها لقيادته ، ورفض رومانوس ان يصدق اي انسان حاول ان يبين له مدى تأثير السلطان على هذه النجاحات ، في الحقيقة انه لم ير السلم ، وقد خيل اليه انه سيتمكن من الاستيلاء على معسكر البرابرة بدون قتال ، ولسوء حظه وبسبب جهله بالعلوم العسكرية وزع قواته وفرقها ، وفقط تجمع حوله قلة منهم ، اما الآخرين فقد أرسلوا بعيدا ليتمركزوا في مواقع أخرى ، وهكذا قام بمواجهة اعدائه فعليا باقل من نصف قواته بدلا من مواجهتهم بها موحدة جمعا واحدا .

ومع انني لاأستطيع ان امتدح تصرفاته المقبلة انه من الصعب بالنسبة لي توجيه النقد له ، والحقيقة هي انه حمل بنفسه ثقل المخاطر جميعها ، ويمكن تفسير عمله بطريقتين ، ويمثل رأيي الشخصي طريقا وسطا بين طريقين متباعدين جدا ، فمن الجانب الأول اذا ما اعتبرته بطلا لم يهتم بالمخاطر وقاتل بكل شجاعة فهنا انه لمن المنطقي مدحه ، ومن الجانب الآخر عندما يقدر المرء ان قائدا عسكريا متوجب عليه لدى تقبله لقوانين الاستراتيجية ان يبقى بعيدا عن خطوط القتال يشرف من عل على تحركات جيشه ويصدر الأوامر الضرورية للرجال تحت قيادته ، وعلى هذا سيظهر ما قام به رومانوس في هذه المناسبة حماقة الى ابعد الحدود لأنه عرض نفسه للمخاطر دون تفكير في النتائج ، واميل انا شخصيا الى المدح اكثر مني الى توجيه اللوم له على ما حصل .

ومهما يكن من امر لقد لبس سابغته وتسلح بشكل كامل مثله مثل اي عسكري عادي ، وامتشق حسامه ضد اعدائه ، وتبعنا لما حكاه

عدد من رواتي لقد قتل عددا كبيرا منهم وجعل بعضا منهم يلوذ بالفرار ، وفيما بعد عندما تعرف الذين كانوا يقاتلوه الى شخصيته وعرفوا من هو طوقوه من جميع الجوانب ، وقد أصيب بالجراح وسقط من على فرسه ، وطبعا اعتقلوه ، والآن اقتيد إمبراطور الروم بعيدا كأسير الى داخل معسكر العدو ، وتمزق جيشه وتفرق ، وكان عدد الذين نجوا ضئيلا بالنسبة للمجموع العام ، واخذ بعض الأكثرية اسرى ، وجرى قتل الباقين .

ليس في نيتي في هذه الساعة ان اكتب عن الوقت الذي قضاه الامبراطور فيما بعد ، وبعد عدة ايام من المعركة وصل احد الناجين الى المدينة ووقف امام رفاقه وروى لهم الاخبار المرعبة ، وما لبث ان وصل بعده رسول آخر ثم آخر ، ولم تكن الصورة التي رسموها واضحة ابدا ، لأن كل واحد منهم وصف الفاجعة بطريقته ، وهكذا قال بعضهم ان رومانوس قد مات ، وقال آخرون هو أسير فقط . واكد آخرون ثانية انهم رأوه يصاب بالجراح ثم يجر الى الأرض ، وقال آخرون انهم رأوه يقاد مقيدا بالسلاسل بعيدا الى داخل معسكر العدو ، وفي ضوء هذه المعلومات عقد مؤتمر في العاصمة ، واتفق المؤتمرون وقرروا بالاجماع ان عليهم ان يتجاهلوا الآن مسألة فيما اذا كان الامبراطور سجيناً او ميتاً ، وان على يودوشيا وابنها تحمل مسؤوليات حكومة الامبراطورية .

معركة منا زكرد

(من مرآة الزمان نقلا عن تاريخ غرس النعمة محمد بن
هلال الصابي ١٤٦ - ١٥١)

وضجر السلطان من المقام بحلب فكر راجعا فقطع الفرات وهلك
أكثر الدواب والجمال وكان عبوره شبه الهارب ولم يلتفت الى ما
ذهب من الأرواح والدواب وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه
فقوى ذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه ...

وجاءه (اي السلطان الب ارسلان) خبر ملك الروم انه قد تجهز في
العساكر الكثيرة وانه قاصد بلاد الاسلام ، وكان السلطان في قليل
من العسكر لانهم عادوا جافلين من الشام ، وتلك الجفلة استهلكت
اموالهم ودوابهم فطلبوا مراكزهم وبقي السلطان في اربعة الاف
غلام ولم ير الرجوع لجمع العساكر فتكون هزيمة ، فأنفذ بخاتون
السفيرية مع نظام الملك والأثقال الى همذان ، وأمره بجمع العساكر
وانفاذها اليه ، وقال لوجوه عسكره الذين بقوا ، انا صابر صبر
المحتسبين وصائر في هذه الغزاة مصير المخاطرين فان نصرني الله
فذاك ظني في الله تعالى ، وان تكن الاخرى فاننا اعهد اليكم ان
تسمعوا لولدي ملك شاه وتطيعوه وتقيموه مقامي فقالوا : سمعنا
وطاعة ، وبقي في جريدة مع العسكر الذي ذكرنا ، ومع كل غلام
فرس يركبه وآخر يجنبه ، وسار قاصدا ملك الروم ، وارسل احد
الحجاب الذين كانوا معه في جماعة من الغلمان مقدمة له ، فصادف
عند خلاط صليبا تحته مقدم للروم في عشرة الاف فحاربهم فنصر
عليهم واسر المقدم ، وكان من الروم ، واخذ الصليب وبعث به الى
السلطان بذلك فاستبشر وقال : هذه امارة النصر ، وارسل
بالصليب الى همذان وانف المقدم ، ثم امر بان يحمل الى
الخلافة

ووصل ملك الروم الى منازل كرد فساخذها بالامان وقصد ناحية السلطان في موضع يعرف بالزهرة بين خلاط ومنازل كرد لخمس بقين من ذي القعدة ، فبعث اليه السلطان بان يرجع الى بلاده ويتمم الصلح الذي توسطه الخليفة فقال : لا ارجع حتى افعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم ، وقد انفقت الأموال العظيمة فكيف ارجع وكان اليوم الأربعاء ، واقام السلطان الى نهار الجمعة وجمع وقت الصلاة اصحابه وقال :

الى متى نحن في نقص وهم في زيادة اريد ان اطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي جميع المسلمين يدعون لنا على المنابر ، فان نصرنا عليهم والا مضينا شهداء الى الجنة فمن احب ان يتبعني فليتبع ، ومن احب ان ينصرف فلينصرف مصاحباً فماها هنا اليوم سلطان وانما انا واحد منكم وقد فتحنا على المسلمين ما كانوا عنه غناء فقالوا : ايها السلطان نحن عبيدك ومهما فعلت تبغناك ، وكان قد اجتمع اليه عشرة الاف من الأكراد ، وانما اعتماده بعد الله تعالى على اربعة الاف الذين كانوا معه ، وملك الروم في مائة الف مقاتل ومائة الف نقاب ، ومائة الف جرّخي ، ومائة الف صانع ، واربعمائة عجلة تجرها ثمانمائة جاموس عليها نعال ومسامير ، والفا عجلة عليها السلاح والمجانيق والة الزحف ، وكان في عسكره خمسة وثلاثون الف بطريق ومعه منجنيق يمدّه الف رجل ومائتا رجل ، ووزن حجره عشرة قناطير ، وكل حلقة منه مائتا رطل بالشامي ، وكان في خزانته الف الف دينار ومائة الف ثوب ابريم ، ومن السروج الذهب والمناطق والمصاغيات بمثل ذلك، وكان قد اقطع البطارقة البلاد: مصر والشام وخراسان والري والعراق واستثنى بغداد فقال : لا تتعرضوا لذلك الشيخ الصالح فانه صديقنا - يعني الخليفة - وكان عزمه ان يشتهي بالعراق ، ويصيف بالعجم ، واستناب في القسطنطينية من يقوم مقامه ، وعزم على خراب بلاد الاسلام ، فلما كان يوم الجمعة وقت الصلاة وقد شاور السلطان اصحابه قام قائماً ورمى القوس والنشاب من يده وشهد ذنب فرسه بيده ، واخذ الدبوس ، وفعل اصحابه كذلك وبغثوا الروم

فقاتلوهم وما لحق الملك بان يركب فرسه ، وما ظن انهم تقدموا عليه فنصر الله المسلمين عليهم فانهمزموا وتبعهم السلطان بقية نهار الجمعة . وليلة السبت يقتل ويأسر فلم ينج منهم الا القليل ، وغنموا جميع ما كان معهم ورجع السلطان الى مكانه فدخل عليه الكوهرائين فقال : ان احد غلماني قد اسر ملك الروم ، وكان غلامي هذا قد عرض على نظام الملك فاحتقره واسقطه ، فكلمته فيه فقال مستهزئا به ، لعله يجيئنا بملك الروم اسيرا فاجرى الله تعالى اسر ملك الروم على يده ، واستبعد السلطان لذلك وارسل خادما يقال له شاذي كان قد راسله به فلما راه عرفه ، فرجع واخبر السلطان فامر بانزاله في خيمة ووكل به ، واستدعى الغلام وساله : كيف اسرتك ؟ فقال : رايت فارسا وعلى رأسه صليبان وحوله جماعة من الخدم الصقالبة فحملت عليه لأطعنه فقال لي واحد منهم : لاتفعل فهذا الملك . فاحسن السلطان اليه وخلع عليه وجعله من خواصه فقال : اريد بشارة غزاة فاعطاه اياها .

ثم ان السلطان احضر الملك واسمه ارمانوس وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : الم ارسل اليك رسل الخليفة اطال الله بقاءه في امضاء الهدنة فأبيت ؟ الم ارسل اليك بالأمس أسالك الرجوع فقلت : قد انفقت الاموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت الى هاهنا وظفرت بما طلبت فكيف ارجع الا ان افعل ببلاد المسلمين مثل ما فعلوا ببلادي ؟ ولقد رايت اثر البغي وكان قد جعل في رجله قيدين وفي عنقه غلا فقال : ايها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الاجناس وانفقت الاموال لاخذ بلادك ولم يكن النصر الا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما تريد فقال له السلطان : فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي ؟ فقال القبيح ، فقال : اه والله صدق ولو قال غير هذا لكذب ، هذا رجل عاقل ولا يجوز ان يقتل ، ثم قال له : ما تظن الآن ان افعل بك ؟ قال احد ثلاثة اقسام : اما الاولى : فقتلي ، والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، واما الثالث فلا فائدة في ذكره فانك لا تفعله ، قال : وما

هو ! قال :العفو عني وقبول الأموال والهدية واصطناعي وردي الى ملكي مملوكا لك وبعض اسفهلاريك ونائبك في الروم ، فإن قتلك لي لا يفيدك ، هم يقيمون غيري . فقال السلطان : ما نويت الا العفو عنك فاشتر نفسك ، فقال : يقول السلطان ما يشاء فقال : عشرة الاف ألف دينار فقال : والله انك تستحق ملك الروم اذ وهبت لي نفسي ولكن أنفقت أموال الروم واستهلكتها منذ وليت عليهم في تجريد العساكر والحروب وافقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد الى أن استقر الأمر على ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة ألف دينار وستين ألف دينار في كل سنة ، وأن ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة اليه وذكر أشياء : فقال : اذا مننت علي عجل سراحني قبل أن تنصب الروم ملكا غيري فيفسد المقصود ، ولا أقدر على الوصول اليهم فلا يحصل شيء مما شرطته علي . فقال السلطان : أريد أن تعيد انطاكية والرها ومنبج ومنازكر فأنها أخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن أسارى المسلمين .

فقال : اما البلاد فان وصلت سالما الى بلادني أنفذت اليهم بالعساكر وحاصرتهم وأخذتها منهم وسلمتها اليك ، فأما القوم فلا يسمعون مني وأما أسارى المسلمين فالسمع والطاعة اذا وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فأمر السلطان بفك قيوده وغله ثم قال : أعطوه قدحا ليسقنيه ، فظنه له فأراد أن يشربه فمنع وأمر بأن يخدم السلطان ويناوله القدح ، فأومأ الى تقبيل الأرض وناول السلطان القدح فشربه وجز شعره وجعل وجهه على الأرض وقال : اذا خدمت الملوك فافعل هكذا وانما فعل السلطان ذلك لسبب اقتضاه وهو : أن السلطان لما كان بالري عزم على غزو الروم فقال لفراموز بن كاكوية ها انذا أمضي الى قتال ملك الروم وأخذه أسيرا وأوقفه على رأسي ساقيا فحقق الله قوله ، واشترى جماعة من البطارقة ، وأستوهب آخرين ، فلما كان من الغد أحضره السلطان وقد نصب له سريرته ودبسته الذي أخذ منه ، فأجلسه عليه وخلع عليه قباءه وقلنسوته والبسه اياهما بيده ، وقال : قد اصطنعتك وقنعت بأمانتك وأنا أسيرك الى بلادك وأردك الى ملكك فقبيل الأرض ، وكان لما بعث

الخليفة ابن المحلبان اليه أمره بكشف رأسه وشد وسطه وأن يقبل الأرض بين يديه فقال له السلطان: الست الفاعل بأبن المحلبان رسول الخليفة كذا وكذا فقم الآن واكشف رأسك وشد وسطك وأومئ الى ناحية الخليفة وقبل الأرض ، ففعل ، فقال السلطان: اذا كنت أنا ، وأنا أقل الملوك الذين في طاعته فعلت بك ما فعلت وأنا في شزيمة من جندي وقد حشدت دين النصرانية ، فكيف لو كتب الخليفة الى ملوك الأرض يأمرهم فيك بأمر؟ وعقد له السلطان راية فيها مكتوب (لا اله الا الله محمد رسول الله) وأنفذ معه حاجبين ومائة غلام فوصلوا به الى القسطنطينية ، وركب معه وشيعه قدر فرسخ فأراد أن يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه اليه وتعانقا وعاد السلطان عنه.

ثم حكى ملك الروم فقال: العادة جارية أن الملك الخارج من القسطنطينية اذا أراد الخروج الى حرب دخل البيعة الكبرى واستشفع بصليب ذهب بها مرصع بالياقوت ، قال: فدخلت البيعة لما عزمت على هذه السفرة واستشفعت اليه واذا بالصليب قد زال عن موضعه الى القبلة الاسلامية فعجبت من ذلك وسووته الى المشرق ، وأتيته من الغد واذا به قد مال الى القبلة فأمرت بشده بالسلاسل ثم دخلت اليه في اليوم الثالث واذا به قد مال الى القبلة ، فتطيرت وعلمت أنني مغلوب ، ثم غلبني الهوى والطمع ، فسرت الى بلاد الاسلام فكان مني ما كان.

معركة منازكرد

(من تاريخ العظيمي «مخطوطة بيازید ١٨١ ظ»)

سنة ٤٦٣.

حصر السلطان العادل حلب ، وخطب بها محمود للمستنصر ،
ثم انصلح امره ، وخرجت أمه السيدة الى السلطان ، وخرج محمود
ووطىء بساطه ، فأنعم عليه بالبلد.
ورحل – السلطان – قاصدا للقاء ملك ديجانس ملك الروم لأنه
كان قد عاث في البلاد فلقية بأطراف منازكرد فكسره السلطان وأسره
وباعه بدينار ، وأطلقه السلطان ورده الى بلاده ، فكحله الروم.

معركة منا زكرد

(من كتاب المنتظم لابن الجوزي ٢٦٠ - ٦٥)

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

فمن الحوادث فيها ورد على السلطان خبر ملك الروم في جمعه العساكر الكثيرة ومسيره نحو البلاد الإسلامية ، وكان السلطان في قل من العساكر لأنهم عادوا من الشام جافلين إلى خراسان للغلاء الذي استنفد أموالهم ، فطلبوا مراكزهم راجعين ، وبقي السلطان في نحو أربعة آلاف غلام ، ولم ير مع ذلك أن يرجع إلى بلاده ولم يجمع عساكره فيكون هزيمة على الإسلام ، وأحب الغزاة والصبر فيها فأنفذ خاتون السفيرية ونظام الملك والأثقال إلى همذان وتقدم إليه بجمع العساكر وإنفاذها ، وقال له ولوجوه عسكره: أنا صابر في هذه الغزاة صبر المحتسبين ، وصائر إليه مصير المخاطرين ، فإن سلمت فذاك ظني في الله تعالى ، وإن تكن الأخرى فأنا أعهد إليكم أن تسمعوا لولدي ملك شاه وتطيعوه وتقيموه مقامي وتملكوه عليكم ، فقد وقفت هذا الأمر عليه وردته إليه ، فأجابوه بالدعاء والسمع والطاعة. وكان ذلك من فعل نظام الملك وترتيبه ورأيه. وبقي السلطان مع القطعة من العسكر المذكورة جريدة ومع كل غلام فرس يجنبه ، وسار قاصداً ملك الروم فحاربهم فنصر عليهم وأخذ الصليب ، وهربوا بعد أن أخذوا قتيلاً وجراحاً ، وحمل مقدمهم إلى السلطان فأمر بجذع أنفه وأنفذ الصليب وكان خشباً وعليه فضة واقطاع من فيروزج وأنجيلا كان معه في سبط من فضة ، إلى همذان ، وكتب معه إلى نظام الملك بالفتح وأمر أن يحمل إلى حضرة الخلافة .

ووصل ملك الروم فالتقيا بموضع يقال له الزهرة في يوم الأربعاء

لخمس وخمسين من ذي القعدة ، وكثر عسكر الروم ، وجملة من كان مع السلطان يقاربون عشرين ألفا ، وأما ملك الروم فإنه كان معه خمسة وثلاثون ألفا من الأفرنج وخمسة وثلاثون..... في مائتين بطريق ومتقدم مع كل رجل منهم بين ألفي فارس الى خمسمائة وكان معه خمسة عشر ألف روز جاري ، وأربعمائة عجلة عليها السلاح والسروج والعرادات والمجانيق منها منجنيق يمد ألف رجل ومائتا رجل.

فراسل السلطان ملك الروم بأن يعود الى بلاده: وأعود أنا وتتم الهدنة بيننا التي توسطنا فيها الخليفة ، وكان ملك الروم قد بعث رسوله يسأل الخليفة أن يتقدم الى السلطان بالصلح والهدنة ، فعاد جواب ملك الروم بأذي أنفقت الأموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول الى مثل هذه الحالة ، فإذا ظفرت بها فكيف أتركها ، هيهات لا هدنة الا بالري ، ولا رجوع الا بعد أن أفعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم.

فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل ويكى وتضرع ، وقال لهم: نحن مع القوم تحت الناقص وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر ، فاما أن أبلغ الغرض ، وأما أن أمضي شهيدا الى الجنة فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحبا عني فما هاهنا سلطان يأمر ، ولا عسكر يؤمر فأنما أنا اليوم واحد منكم وغاز معكم ، فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة والغنيمة ، ومن مضى حقت عليه النار. والفضيحة . فقالوا له : أيها السلطان نحن عبيدك ومهما فعلته تبعنك فيه وأعناك عليه فافعل ماتريد ، فرمى القوس والذئباب ولبس السلاح وأخذ الدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وركبها ، ففعلوا مثله وزحف إلى الروم وصاح وصاحوا ، وحمل عليهم وثار الغبار واقتتلوا ساعة أجلت الحال فيها عن هزيمة الكفار ، فقتلوا يومهم وليلتهم القتل الذريع ونهبوا وسلبوا النهب والسلب العظيم ، ثم عاد السلطان إلى موضعه فدخل عليه الكهراشي الخادم فقال : يا سلطان

أحد غلماني قد ذكر أن ملك الروم في أسره ، وهذا الغلام عرض على نظام الملك في جملة العسكر ، فاحتقره وأسقطه ، فخوطب في أمره فأبى أن يثبته وقال مستهزئاً : لعله أن يجيئنا بملك الروم أسيراً فأجرى الله تعالى أسر ملك الروم على يده ، واستبعد السلطان ذلك ، واستحضر غلاماً يسمى شاذي كان مضى دفعات مع الرسل إلى ملك الروم فأمره بمشاهدته وتحقيق أمره ، فمضى فراه ، ثم عاد فقال : هو هو ، فتقدم بضرب خيمة له ونقله إليها وتقييده وغل يده إلى عنقه ، وأن يوكل به مائة غلام ، وخلع على الذي أسره وحجبه وأعطاه ما اقترحه واستشرحه الحال ، فقال : قصده وما أعرفه وحوله عشرة صبيان من الخدم ، فقال لي أحدهم : لا تقتله إنه الملك فأسرته وحملته .

فتقدم السلطان بإحضاره ، فأحضر بين يديه ، فضربه بيده ثلاث مقارع أو أربعاً ، ورفسه مثلها ، فقال له : ألم أذن لرسول الخليفة في قصدك وإمضاء الهدنة معك ، وإجابتك في ذلك إلى ملمسك ؟ ألم أرسل لك الآن وأبذل لك الرجوع عنك فأبيت إلا ما يشبهك ، فأبي شيء حملك على البغي ؟ فقال : قد جمعت أيها السلطان واستكثرت واستظهرت وكان النصر لك فافعل ما تريد ، ودعني من التوبيخ ، قال : فلو وقعت معك ماذا كنت تفعل بي ؟ قال : القبيح ، قال : صدق والله ، ولو قال غير ذلك لكنت لكتب ، وهذا رجل عاقل جلد لا ينبغي أن يقتل . قال : وما تظن الآن أن يفعل بك ؟ قال : أحد ثلاثة أقسام : الأولى : قتلي ، والثانية : إشهاري في بلادك التي كدت بقصدها وأخذها ، والثالثة : لفائدة في ذكره فإنك لاتفعله ، قال : فاذكره ، قال : العفو عني وقبول الأموال والفدية مني واصطناعي وردي إلى ملكي مملوكاً لك نائباً في ملك الروم عنك ، قال : ما اعتزمت فيك إلا هذا الذي وقع يأسك منه وبعد ظنك منه ، فهات الأموال التي تفك رقبتك فقال : يقول السلطان ما شاء . فقال : أريد عشرة آلاف الف دينار فقال : والله أنك تستحق مني ملك الروم إذ وهبت لي نفسي ، ولكنني قد أنفقت واستهلكت من أموال الروم عشرة آلاف الف دينار منذ وليت عليهم في تجديد العساكر والحروب التي

بليت بها إلى يومي هذا فأفقرتهم بذلك ، ولولا هذا ما استكثر شينا تقترحه ، فلم يزل الخطاب يتردد إلى أن استقر الأمر على ألف دينار في كل سنة ، وإطلاق كل أسير في الروم ، وحمل الطاف وتحف مضافة إلى ذلك ، وأن يحمل من عساكر الروم المزاخرة العلى ما يلتمس أي وقت دعت حاجة إليها ، فقال له : إذا كنت قد مننت علي فعجل تسريحى قبل أن تنصب الروم ملكا غيري ، ولا يمكنني أن أقرب منهم ، ولا أفي بشيء مما بذلته .

فقال السلطان أريد أن تعيد أنطاكية والرها ومنبج فإنها أخذت من المسلمين عن قرب وتطلق أسارى المسلمين ، فقال : إذا رجعت إلى ملكي فأنفذ إلى كل موضع منها عسكرا ، وحاصره لاتوصل إلى تسليمها ، فأما أن ابتدء بذلك فلا يقبل مني ، وأما الأسارى فأنا أسرحهم وأفعل الجميل معهم .

فتقدم السلطان بفك قيده وغله ، ثم قال : أعطوه قدحا ليسقينيه فأعطي فظن أنه له فأراد أن يشربه فمنع منه ، وأمر أن يخدم السلطان ويتقدم إليه ويناول له إياه وأوما إلى الأرض إيماء قليلا على عادة الروم ، وتقدم إليه فأخذ السلطان القدح وجز شعره فجعل وجهه على الأرض وقال : إذا خدمت الملوك فافعل هكذا ، وكان لذلك سبب اقتضاه وهو أن السلطان قال في الري:ها أنا امضي إلى قتال ملك الروم وأخذه أسيرا وأقيمه على رأسي ساقيا ، وانصرف ملك الروم إلى خيمته فاقترض عشرة آلاف دينار فأصلح منها شأنه وفرق في الحواشي والأتباع والموكلين به ، واشترى جماعة من بطارقه واستوهم آخرين .

فلما كان من الغد أحضره وقد ضرب له سريرته وكرسیه اللذان أخذاه منه فأجلسه عليهما وخلع قباءه وقلنسوته فألبسه إياهما وقال له : قد اصطنعتك وقنعت بقولك وأنا أسيرك إلى بلادك وأردك إلى ملكك ، فقبل الأرض ، وقال له ، ألم ينفذ إليك خليفة الله تعالى في أرضه رسولا يملك به ويقصد إصلاح أمرك فأمرت بأن يكشف رأسه ويشد وسطه ويقبل الأرض بين يديك ؟ وكان بلغه أنه فعل هذا بأبن

المحلبان فقال : أليس الأمر على مايقول ؟ وبأن له منه تغير ، فقال : ياسلطان في أي شيء وفقت حتى أوفق في هذا ؟ وقام وكشف رأسه وأوماً إلى الأرض ، وقال : هذا عوض عما فعلته برسوله ، فسر السلطان بذلك وتقدم بأن تعقد له راية عليها مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فرفعها على رأسه ، وأنفذ حاجبين ومائة غلام يسيرون معه إلى قسطنطينية وشيعة نحو فرسخ ، فلما ودعه أراد أن يترجل فمنعه السلطان واعتنقا ثم افترقا .

وهذا الفتح في الاسلام كان عجيبا لانظير له فإن القوم اجتمعوا ليزيلوا الاسلام وأهله ، وكان ملك الروم قد حدثته نفسه بالمسير إلى السلطان ولو إلى الري ، واقطع البطارقة البلاد الاسلامية ، وقال لمن اقطعه بغداد لاتتعرض لذلك الشيخ الصالح فإنه صديقنا ، يعني الخليفة ، وكانت البطارقة تقول : لا بد أن نشتو بالري ، ونصيف بالعراق ، ونأخذ في عودنا بلاد الشام .

فلما كان الفتح ووصل الخبر إلى بغداد ضربت الدباب والبوقات وجمع الناس في بيت النوبة ، وقرئت كتب الفتح .

ولما بلغ الروم ماجرى حالوا بينه وبين الرجوع إلى بلادهم وملكوا غيره ، فأنظر الزهد ولبس الصوف ، وأنفذ إلى السلطان مائتي ألف دينار وطبق ذهب عليه جواهر قيمتها تسعون ألف دينار وحلف بالانجيل أنه ما يقدر على غير ذلك ، وقصد ملك الأرمن مستضيفا به وكحله ، وبعث إلى السلطان يعلمه بذلك .

معركة منا زکرد

(من تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الاصفهاني - الذي هذبه
البنداري : ٣٧ - ٤٢)

وبلغ السلطان خروج ارمانوس ملك الروم في جمع لايحصى عدده ،
فلما سمع هذا الخبر اغذ السير الى انزبيجان اذ شمع ان متملك
الروم اخذ على سمت خلاط ، وكان السلطان في خواص جنده فلم ير
ان يعود الى بلاده ليجمع عساكره ويستدعي من الجهات للجهاد
قبائل الدين وعشائره ، فسير نظام الملك وزيره وخاتون زوجته الى
تبريز مع اثقاله ، وبقي في خمسة عشر الف فارس من نخب رجاله
ومع كل واحد فرس يركبه وآخر يجنبه ، والروم في ثلاثمائة الف
ويزيدون ما بين رومي وروسي وغزي وقفجاقني وكرجي وابخاتي
وفرنجي وارمني ، وراى السلطان انه ان تمهل لحشد الجموع ذهب
الوقت وعظم بلاء البلاد وثقلت اعباء العباد ، فركب في نخبته وتوجه
في عصبته وقال : انا احسب عند الله نفسي ، وان سعدت بالشهادة
ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل الذنور الغبر رمسي ، وان
نصرت فما اسعدني وانا امسي ويومي خير من امسي .

ثم توكل على الله وسار بهذه العزيمة الماضية القوية والصريمة
الصارمة الروية ، وكان متملك الروم قد قدم رؤساء مقدمين من
الروس في عشرين الف فارس ومعهم عظيمهم الاصلب وصليبهم
الاعظم ، وخالطوا بلاد خلاط بالبلاء والسلب والسبأ ، فخرج اليهم
عسكر خلاط ومقدمهم صندوق التركي ، فصب صبج البيض على ليل
النقع المظلم وخاض الى العز مشمرا نار الحريق المتضرم ، وقتل
منهم خلقا كثيرا وقاد قاندهم في القيد اسيفا اسيرا فامر السلطان
بجدع انفه وارجاء حتفه ، وذلك يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة

٤٦٣ وعجل الصليب السليب الى نظام الملك ليعجل انفاذه الى دار السلام مبشرا لسلامة الاسلام ، وتلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ، واهلها واثقون بالله الذي لم يزل لدينه ناصرا ، ونزل متملك الروم على منازل كرد في انصار نصرانيتها وعمداء معموديته ، فانزعج سكانها وعلموا انه ليست لهم بما نزل بهم طاقة وان دماءهم لاشك بسيوف الكفر مهراقة ، فخرجوا بامان وسلموا البلد فبيتهم تلك الليلة عند بلاطه تحت احتياطه ، فلما بكر يوم الاربعاء سيرهم بامرهم في اسر ، واردفهم بعسكر مجر ، وخرج ليشيعهم بنفسه وهو في جماعة حماته وحمسه ، ووافق ذلك وصول اوائل العسكر السلطاني ووقعت العين في العين واجتمعت في المجادلة اجادل الجمعين وجرى الخيل وجرف السيل وانجر من الارض على السماء الذيل ، وصحت على الروم كسرة اردتهم وصدفتهم عن مقصدهم وصدتهم فانعكسوا الى مجثمهم في مخيمهم ، وانكشفوا بما تم من عرس الاسلام بما تمهم ، وشرعت المنازكرية بالتسلسل فقتل الروم منهم من ادركه اجله ونجا الباقون ، وعرف الروم انهم للموت ملاقون ، وعاد متملكهم الى مضاربهم وبسات تلك الليلة والكوسات تصرخ والبوقات تنفخ ، ولما اصبحوا بكرة الخميس وصل السلطان الب ارسلان ونزل على النهر ومعه من المقاتلة خمسة عشر الف فارس لايعرفون سوى القتل والقهر ، وكلب الروم نازل بين خلاط ومنازكر في موضع يعرف بالزهرة وهو في مائتي الف فارس من نوي القلوب المدلهمة والوجوه المكفهرة ، وبين العسكرين فرسخ وبين مجرى التوحيد والتثليث برزخ ، فارسل الب ارسلان رسولا وحمله سؤالا ، ومقصوده ان يكشف سرهم ويتعرف امرهم ويقول للملك ان كنت ترغب في هدنة اتممناها ، وان كنت تزهد فيها توكلنا على الله في العزيمة وصممناها ، فظن انه انما راسله عن خور فابى واستكبر ونبا وتعسر ، واجاب باني سوف اجيب عن هذا الراي بالري، وانتهى الى غاية الغي ، فاغتاظ السلطان وارتفعت بينهما المخاطبة وانقطعت المواصلات ، ولبثا يوم الخميس يعبيان ولداعي المنون يلبيان ، والشمس تشكو حر ما تصاعد اليها من زفرات

الاحقاد وكانما شعاعها دم اراقته على الافاق وخزات تلك الصعدا ،
والطلائع على المطالع ، والنوايا على الثنايا ، والعزم السلطاني الى
اللقاء مشرب والمضاء مستتب فقال له فقيهه وامامه محمد بن عبد
الملك البخاري الحنفي : انك تقاتل عن دين الله الذي وعد باظهاره ،
فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر ، فلما
اصبحوا يوم الجمعة ارتجت الارض بالاضجاج وارتجت السماء
بالعجاج ولقد لقحت الحرب العوان بالمهذبة الذكور والمسومة الفحول
والكمأة الحماة يحمون حمى الحمام ويحومون حول الدخول ،
ووقعت الطوالع في الطوالع ، وقرعت القواطع ، وغنت الظبى ،
ورقصت المران ومال القنا وجالت الفرسان ، ودارت الكؤوس
وطارت الرؤوس ، وما فتئت الفتيان تجور وتجول والخرصان
تصوب وتصول الى ان دنا وقت الزوال ، ودان لمقت الدين وقت
النزال وصدحت اعداء المنابر بالخطباء وصدقت نيات اهل الجمعة
للمجاهدين ، ثم ركب جواده وثبت فؤاده وقوى قلبه ، وفرق اصحابه
اربع فرق كل فرقة منهم في كمين ، وراح له من الروح الامين مجير
امين ، ولما علم ان الكمين مكين وان الضمير شاهد بما يشهده من
النصر ضممين ، تلقى بوجهه الحر حر الحرب واستحلى طعم الطعن
وضرب الضرب . وحمل متملك الروم بجمعه واخذ يبصر الدهر
وسمعه ، واقبل كالسيل يطلب القرار والليل يسلب النهار ، وثبتت
لهم خيل الاسلام ثم وثبت وجالت وما وجلت ، واستجرت الروم الى
ان صار الكمين من ورائها ووقفت المنون بازائها ، ثم خرج من
خلفها وذو الاقدام من قدامها ووقعت نار البيض في حلفاء هامها
فاذنت بانهازها ، وانكسرت كسرة لا تقبل جبرا ، فطائفة لم تثبت
للقتال ولم تصبر ، وطائفة ثبتت فقتلت صبورا فمما نجت من اولئك
الالوف احاد وما سلمت من اعداء الاسلام اعداد . وملك الملك وقيد
وقيذا واسر ولم يجد له معينا ولا معيذا ، وركب المسلمون اكتافهم
وقتل الاحاد الافهم وطهرت الارض من خبثهم وفرشت بجثثهم
وصارت الوهاد باشلاء القتلى اكما ، والمروت من قصد القنا اجما .

قال : وكانت مع الروم ثلاثة الاف عجل تنقل الاحمال وتحمل الاثقال

ومن المنجنيقات التي تحملها منجنيق هو اعظمها واثقلها له ثمانية اسهم ويمد فيها الف ومائتا رجل ويحمله مائتا عجل يرمي حجرا وزنه بالرطل الكبير الخلاطي قنطار وكانه جبل له في الجو مطار . قال : وشملهم باسراهم القتل والاسر ، وبقيت اموالهم منبوذة بالعرء لاترام معروضة لاتسام ، وسقطت قيمة الدواب والكراع والسلاح والمتاع حتى بيعت بسدس دينار اثنتا عشرة خوزة ، وبدينار ثلاثة ادرع .

ومن عجيب ما حكى في اسر الملك انه كان لسعد الدولة كوهرايين مملوك اهداه لنظام الملك فردده عليه ولم ينظر اليه ، فرغبه فيه كثيرا فقال نظام الملك : وما يراد منه عسى ان ياتينا بملك الروم اسيرا ، وذكر ذلك استهزاء به واستصغارا لقدره واحتقارا لامره ، فاتفق وقوع ممتلك الروم يوم المصاف في اسر ذلك الغلام ووافق تصديق قول النظام ، وخلع عليه السلطان وقال : اقترح من العطاء ما اعطيك فطلب بشاره غزنه .

قال : ودخل السلطان الى اذربيجان بملكه وايده والملك في قيده وصيده وهو اسيف جهده واسير جهله (ولا يحق المكر السيء الا بأهله) (سورة فاطر- الآية: ٤٣) .

فانه خرج وفي نيته فتح الدنيا وحذف الدين وقهر السلاطين ونصر الشياطين ، ثم نل بعد العز وهان وتعرض للابتذال كل ما صان ، ثم تعطف عليه السلطان واحضره بين يديه وقال : اخبرني بصديقك في قصيدك وما الذي قدرت لو قدرت ؟ فقال : كنت احسب اني احبس من اسرته منكم مع الكلاب ، واجعله من السبايا والاسلاب ، وان اخذتك مأسورا اتخذت لك ، وقد ساء جورى ، ساجورا . فقال السلطان : قد عثرت على سر شرك ، فماذا بك الان نصنع ونحن منك بما نوبته فينا لانقنع ، فقال : انظر عاقبة فساد نيّتي والعقوبة التي جرّتها الي جريرتي ، فرق له قلب الب ارسلان وارسله وفك قيده ووصله ، وافرّج عنه معجلا وسرحه مبعجلا ، ولما انصرف الملك ارمنانوس مانوسا رمى قومه اسمه ومحووا من الملك رسمه وقالوا : هذا من عداد الملوك ساقط ، وزعموا ان المسيح عليه ساخط .

معركة منازکرد

(من تاريخ دمشق لابن القلانسي ٩٩)

وفي هذه السنة ٤٦٣ هـ نزل السلطان العادل الب أرسلان بن داود اخي السلطان طغرل بك بن سلجوق رحمه الله على حلب محاصرا لها ، وبها محمود بن صالح ، في يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الآخرة وضايقها الى ان ملكها بالامان ، فخرج محمود اليه فامنه وانعم عليه وولاه البلد . ورحل عنه ثالث وعشرين رجب قاصدا الى بلاد الروم طالبا ملكهم وقد توجه الى منازکرد فلحقه ، ووقع به وهزمه ، وكان عسكره على ما حكى تقدير ستمائة الف من الروم وما انضاف اليهم من سائر الطوائف ، وعسكر الاسلام على ما ذكر تقدير اربعمائة الف من الاتراك وجميع الطوائف ، وقتل من عسكر الروم الخلق الكثير بحيث امتلأ واد هناك عند التقاء الصفيين وقد حصل الملك في ايدي المسلمين اسيرا ، وامتلئت الايدي من سوادهم واموالهم والاتهم وكراعهم ، ولم تزل المراسلات مترددة بين السلطان الب أرسلان وبين ملك الروم المأسور الى ان تقرر اطلاقه والمن عليه بنفسه بعد اخذ العهود والمواثيق بترك التعرض لشيء من اعمال الاسلام ، واطلاق الاسرى ، واطلق وسير الى بلده واهل مملكته ، فيقال انهم اغتالوه وسملوه واقاموا غيره في مكانه لاشياء انكروها عليه ونسبوا اليه .

معركة منازکرد

(من زبدة التواريخ للامير ابي الحسن علي بن الشهيد ابي الفوارس ناصر بن علي الحسيني ٤٦ - ٥٣)

وفي سنة ثلاث وستين واربع مائة مر السلطان الب ارسلان بالشام ، وخلف ابنه مع فوج من عساكره بكورة حلب ، وعبر ماء الفرات بسنابك الجياد دون السفائن والزواريق ، وورد نواحي خوي وسلماس ، فقرع سمعه ان ملك الروم قد فوض المملكة الى رجل من اولاد الملوك النصارى ، وجهز له جيشا يربى على ثلاثمائة الف فارس وراجل ، ورمت الروم الى السلطان افلاذ كبدها واخرجت الارض اثقالها من عديدها وعددها ، واجتمع على هذا الملك من اوباش الروم والارمن والفرس والبجناك والغز والفرنجة اقوام اطالت الفتنة بهم سواعدها ، واعلت النصرازية باجتماعهم قواعدها وحلفوا على انهم يزعمون الخليفة ويقيمون مقامه الجاثليق ، ويخربون المساجد ، ويبنون البيع ، فأنفذ السلطان الى زوجته ووزيره نظام الملك وقال : اني صائر بهذا القدر الذي معي الى العدو فان سلمت فنعمة من الله تعالى ، فان استشهدت فرحمة من الله تعالى فخليفتي ابني ملكشاه ، وهو في خمسة عشر الف فارس من الشجعان الرجال ومع كل واحد فرس يركبه . وتقارب السلطان من ملك الروم في موضع يعرف بالزهرة بين خلاط وملازکرد في يوم الاربعاء خامس عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين واربع مائة فراسله السلطان في الهدنة فأجاب : ان الهدنة تكون بالري فانزعج من ذلك السلطان ، فقال له امامه وفقهه ابو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : انك تقاتل عن دين الله وانا ارجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالحقهم يوم الجمعة في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر على الكافرين

والدعاء مقرون بالاجابة ، فتوقف السلطان الى يوم الجمعة عند خطبة الخطباء وقرأ قوله تعالى (وما النصر الا من عند الله) (سورة الانفال - الآية: ١٠) وقال السلطان : ربما يكون في الخطباء من اذا قال في آخر خطبته: اللهم انصر جيوش المسلمين وسراياهم حقق الله ببركات دعائه مقاصد الغزاة ومبتغاهم.

وعاد الوزير نظام الملك الى همذان صيانة للعراق وخراسان ومازندران عن اهل العيث والفساد ، والقى السلطان نفسه في المهالك وقال السلطان : من اراد الانصراف فليصرف فما هاهنا السلطان يأمر وينهى غير الله ، ورمى بالقوس والنشاب ، واخذ السيف وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل جميع عسكره مثل فعله ، فلما التقى الجمعان حفر الروم الخندق حول العسكر فقال السلطان : انهزموا والله فان حفر الخندق لهؤلاء مع كثرة عددهم دليل على الجبن والفشل ، وضرب قيصر الروم فسطاطا من الاطلس الاحمر وخيمة مثلها واخبية من الدبابيج ، وجلس على سرير من الذهب وفوقه صليب من الذهب مرصع بجواهر لاقيمة لها ، وبين يديه بشر كثير من الرهابيين والقسيسين يتلون بالانجيل .

والتقى الفريقان يوم الجمعة عند طلوع خطيب المسلمين في المنبر وعلت الاصوات بالقرآن واصوات الكوسات من عسكر السلطان واصوات النواقيس من عسكر الروم ، وهبت اعصار عمت عيون المسلمين وكاد ينهزم عسكر السلطان ، فنزل السلطان من الفرس وسجد لله تعالى وقال : اللهم توكلت عليك وتقربت بهذا الجهاد اليك وعفرت وجهي بين يديك وخرجته بعصارة كبدي وعيناي نضاحتان من البكاء وسالفتاي رشاحتان من الدماء فان كنت من ضميري خلاف ما اقول به لسانني فاهلكني ومن معي من اعواني وغلماي ، وان كان سرا لعلايتي فامدني على جهاد الأعداء واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وصير العسير علي يسيرا ، وكان يردد هذا التضرع حتى انعكست مهاب الرياح وأعمت عيون الكفار واجتث التقدير شجرة البغي ، واصطلم أنف البغي ، ودرس اعلام النصارى

« وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » (سورة الحج - الآية : ٢) وانجلت عند اصفرار الشمس غبرة المعركة وأحاطت بملك الروم يد الأسر والهلكة.

وكيفية ذلك انه عار فرس لبعض غلمان السلطان فتبع ذلك الغلام اثر فرسه فوجد فرسا مع لجام مرصع وسرج من ذهب ورجلا جالسا عند الفرس وبين يديه مغفر من الذهب ودرع مسرودة من الذهب ، فهم الغلام بقتله فقال له الرجل : انا قيصر الروم فلا تقتلني فان قتل الملوك شؤم ، فشدد الغلام يديه وجره الى معسكر السلطان ، فما رآه اسير من اسرى الرِّم الا الصق جبهته بالتراب فورد المبشر حضرة السلطان ، والسلطان يصلي المغرب ، فأدخلوه على السلطان والحجاب أخذوه من ضفيرته وجيبه يجرونه الى الارض بين يدي السلطان لما استهواه من زهو الملك والأبهة فقال السلطان : دعوه فحسبه معاينة هذا اليوم ، وكان لسعد الدولة كوهرائين مملوك اهداه الى الوزير نظام الملك فرد عليه ولم ينظر اليه ، ورأه حقيرا ، فرغبه فيه كثيرا ، فقال الوزير نظام الملك : وماذا يراد منه عسى ان يأتينا بملك الروم قيصر اسيرا فكان قال الوزير نظام الملك .

وحضر يوم الواقعة الغلام بين يدي السلطان وأحضر ملك الروم اسيرا فأمر بتقييده ، ومنى الغلام فتمنى بشارة غزنين فبذل ذلك له .

سمعت من خواجا امام مشرف الشيرازي التاجر على شاطئء جيحون مقابل درغان ونحن منحدرون الى خوارزم قال : سمعت مشائخي انه لما تقابل عسكر السلطان الب ارسلان وعساكر الروم سير ملك الروم رسولا الى السلطان وقال له : انني قد اتيتك ومعى من العساكر مالا قبل لك فيه فان انت دخلت في طاعتي فأنا أرفع لك من البلاد مايكفيك وتأمين سطوتي وبأسي ، وان انت لم تفعل ذلك فان معى من العساكر ثلاثمائة الف فارس وراجل ، ومعى اربعة عشر الف عجلة عليها خزائن الاموال والسلاح ، وليس يقف بين يدي احد من عساكر المسلمين ، ولا يغلق بوجهي مدينة من مدائنهم ولا قلعة من

قلاعهم ، فلما سمع السلطان هذه الرسالة اخذته عزة الاسلام ، وتحركت في صدره نخوة الملك فقال للرسول : قل لصاحبك انك انت ما قصدتني ولكن الله سبحانه حملك الي وجعلك وعساكرك طعمة للمسلمين فانت اسيري وعبدي ، وعساكرك بعضهم قتلاي وبعضهم اسراي وخزانتك كلها ملكي ومالي ، فاثبت للمقارعة وتهيأ للمكافحة فسوف ترى ان عساكرك هي رقاب تساق الى ضاربها ، وخزانتك هي اموال تحمل الى ناهبها ، وفي بكرة غد كان الحرب بينهما وجرى جميع ما قاله السلطان بعون الله وتوفيقه .

ولما احضر الملك امام سدة السلطان قال ملك الروم للترجمان : قل للسلطان ردني الى دار ملكي قبل ان تجتمع الروم الى ملك آخر يجاهرنا بالمكافحة ، ويدرس كتاب العدوان ويبرز صفحة العصيان وانا اطوع لك من عبيدك ، ولك علي كل سنة ان اودي على سبيل الجزية الف الف دينار ، فأجابه السلطان الى سؤاله بعد ما عرضه النخاسون على معرض البيع في الاسواق ثم اعتقه السلطان وخلع عليه وعلى من بقي معه من الاسارى ، وعاد الملك الى دار ملكه ووفي بما عاهد .

معركة منازکرد

(من بغية الطلب لابن العديم « ٣ - ٢٨٠ و ٢٨٥ ظ » من
مخطوطة احمد الثالث)

الب ارسلان بن جفري بك بن سلجوق بن تقاق بن سلجوق وقيل
سلجق ، ولكل واحد من ابائه اسم اخر بالعربية ، محمد بن داود بن
ميكايل بن سليمان ... وقدم حلب محاصراً لها وفيها محمود بن
نصر بن صالح بن مرداس سنة ثلاث وستين واربع مائة ، فدام على
حصارها الى ان خرج اليه مع والدته السيدة ، فأنعم عليه بحلب
وسار الى الملك ديوجانس وقد خرج من القسطنطينية فالتقاه واسره
ثم من عليه واطلقه ...

وقرات بخط ابي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم، وسمع ان ملك
الروم ديوجانس قد خرج من القسطنطينية على طريق الثفور والدرب
فرحل عن حلب بعد خروج محمود اليه بخمسة أيام وقصده حتى
لقيه على منازکرد فصاربه حتى هزمه واسر ملك الروم ، وغنم
معسكره وكانت عدة الترك ستمائة الف رجل .

وقرات في بعض التواريخ التي لم يسم جامعها ان الب ارسلان
العادل .. رحل عنها - حلب - في الثالث والعشرين من جمادى
الآخرة قاصدا بلد الروم في طلب ملكهم وقد توجه الى منازکرد فلحقه
في عساكره وأوقع به فهزمه وقيل إن ملك الروم كان في ستمائة الف ،
والب ارسلان في اربع مائة الف من الاتراك ، وحصل ملك الروم
اسيراً في ايدي المسلمين وصار الى الب ارسلان فلم تزل المراسلات
(بينهما) الى ان تقرر اطلاقه على مهادة منها انه لا يغرض لبلاد
المسلمين ، ثم سيره الى بلاده .

وقرات بخط الحافظ ابي الخطاب عمر بن محمد العليمي وانبأنا به

ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد الذسابة عنه قال : وجدت بخط
ابي الحسن يحيى بن علي بن محمد زريق ، ذكر اخبار السلطان
الشهيد المعظم الب ارسلان ابي شجاع محمد بن داود برهان امير
المؤمنين نصر الله وجهه ...

وعاد السلطان منكفئا الى بلاده على طريق العراق معرجا منه نحو
بلاد ارمينية ، واسرع في سيره بمن خف معه ، ووصل فالتقى بملك
الروم بالقرب من خلاط وتلك البلاد ، فاعتبر من وصل معه من
عسكره فكانت عدتهم ثلاثة عشر الفا ، وتصافى العسكران في يوم
الجمعة ، ووقف السلطان عن قتاله انتظارا لوقت الصلاة والدعاء
على منابر الاسلام وترقبا للاجابة في نصرة المسلمين ، فلما صلى
الظهر ناجزهم الحرب فأظفره الله تعالى بعسكر الروم ، وأجراه
على جميل العادة في الظفر ، ومكنه ممن بغى وكفر ونهب العسكر
بأسره ، واسر بملك الروم وأقامه بين يديه ومعه باز وكلب صيد ثم
انعم عليه وخلع واكرمه واصطنعه ، وسيره مع قطعة من عسكره
لتعده الى بلاده ومملكته ، فاختلفت الامور عليه ولم يتسم له ما اراد ،
ونكر انه كحل ومات بعد مدة ، ولم يجر في الاسلام منذ ظهر مثل هذا
الظفر ، ولا اسر للروم بملك قبل هذا في الاسلام ، وكان السلطان قد
سأل بملك الروم عند حضوره بين يديه ما سبب خروجه وتعريضه
نفسه وعسكره لهذا الأمر ؟ فنكر انه لم يرد الا حلب اذ كان كلما
جرى على الروم كان محمود هو السبب فيه والباعث عليه لمن
قصدها من الترك ، وغنم من هذا العسكر ما يفوق الاحصاء والعد
وتجاوز الأمد والحد ، وبيع من غنائمه ما يساوي مائة دينار بسدينار
واحد قلله الحمد على ذلك كثيرا .

قرات بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين .
وغزا السلطان الب ارسلان بلاد الروم ، وخرج امر الخليفة القائم
الى الخطباء على المنابر بالدعاء له بما صيغته : اللهم اعل راية
الاسلام وناصره وادحض الشرك بجب غاربة وقطع اواصره ، وامدد
المجاهدين في سبيلك الذين في طاعتك بنفوسهم سمحوا وعلى متابعتك

بمهمهم فازوا وربحوا بالعون ، الذي تطيل به باعهم وتملا بالأمن
والظفر رباعهم ، وأحب شاهنشاه الأعظم برهان أمير المؤمنين
بالنصر الذي تنشر به أعلامه وتستنسر بمكانه من اختلاف الظلال
أيامه ، وأوله من التأييد الضاحكة بمباسمه القائمة أسواقه ومواسمه ،
ما تقوي به في اعزاز دينك يده ، ويقضي بأن يشفع يومه في الكفار
غده ، واجعل حدوده بملائكتك معضودة وعزائمه على اليمن والتوفيق
معقودة ، فإنه قد هجر في كريم مرضاتك الدعة وتاجرك من بذل المال
والنفس ما انتهج فيه مسالك أوامرك الممتثلة المتبعة فإنك تقول : -
وقولك الحق - (يا أيها الذين آمنوا هل أهلكم على تجارة تنجيكم من
عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم
وانفسكم) .(سورة الصف ، الآية ١٠)

اللهم فكما أجاب نداءك ولباه واجتنب التثاقل عن السعي في
حياطة الشريعة وأباه ، ولأقى أعدائك بنفسه وواصل في الانتصار
لدينك يومه بأمره ، أنت أخصصه بالظفر وأعنه في مقاصده بحسن
مجاري القضاء والقدر وحطه بحوز يدرأ عنه من الأعداء كل كيد ،
ويشمله من جميل صنعه بأقوى أيد ، ويسر له كل مرام يحاوله
ومطلب يرومه ويزاوله حتى تكون نهضته الميمونة عن النصر مسفرة ،
ومقلة أحزاب الشرك مع اصرارهم على الضلال غير مبصرة ،
فابتهلوا معاشر المسلمين الى الله تعالى في الدعاء له بنية صافية
وعزيمة صادقة وقلوب خاشعة وعقائد في رياض الاخلاص رائعة ،
وواصلوا الرغبة إلى الله في اعزاز جانبه وفل غرب مجانبه واعلاء
رايته وأنالته من الظفر أقصى حده وغايته .

وانفذ السلطان في مقدمته أحد الحجاب فصاف عند خلاط صليبها
تحتة متقدم الروسية في عشرة آلاف من الروم ، فحاربوهم وأعطى
الله المسلمين النصر عليهم فأخذ الصليب وأسر المقدم ، وتحارب
السلطان وعظيم الروم في مكان يعرف بالزهرة بين خلاط ومنازكرد
في يوم الأربعاء خامس ذي العقدة ، وكان السلطان في خمسة عشر
الفا وصاحب الروم في مائتي ألف ، وراسل السلطان ملك الروم في
الهدنة ، فقال ملك الروم : لا هدنة إلا بالري فعزم الله على السلطان

على الرشد ، ولقيه يوم الجمعة وقت الزوال وهو سابع ذي العقدة
واعطى الله المسلمين النصر ، فقتلوا منهم قتلا ذريعا واسر ملك
الروم وضربه الب أرسلان ثلاث مقارع ، وقطع عليه الف الف
 وخمس مائة الف دينار ، واي وقت طلب السلطان عساكر الروم
نفذها ملكهم اليه ، وأن يسلم كل اسير من المسلمين عنده .

معركة منازکرد

(من كتاب زبدة الحلب لابن العديم ٢ / ٢٣ - ٣٠)

وقصد - السلطان - ملك الروم واسرع في السير لأنه بلغه أن ملك الروم خرج في جموع لاتحصى ، وأنه وصل الى قالقيلا وهي أرزن الروم ، فوصل السلطان الى أذربيجان حين بلغه أن ملك الروم قد أخذ على سميت خلاط ، وكان السلطان في خواص جنده بوجموع عساكره بعيدة عنه ولم ير العود الى بلاده فسير وزيره نظام الملك وزوجته الخاتون الى تبريز مع أثقاله ، وبقي في خمسة عشر ألف فارس من نخبة عسكره مع كل واحد فرسه وجنيبه ، والروم في زهاء ثلاثمائة ألف أو يزيدون ما بين فارس وراجل ، من جموع مختلفة من الروم والروس والخزر واللان والغز والقفقز والكرج والأبخاز والفرنج والأرمن ، وفيهم خمسة آلاف جرخي وفيهم ثلاثون ألف مقدم ما بين نوقس وقومس وبطريق ، فرأى السلطان أن الامهال للحشد والجمع مضر فركب في نخبته وقال : أنا أحتسب نفسي عند الله وهي اما السعادة بالشهادة واما النصر (ولينصرن الله من ينصره) (سورة الحج - الآية : ٤٠) ثم سار مرتبا جيشه قاصدا جموع الروم.

وكان ملك الروم قد قدم مقدما في عشرين ألف مدرع من شجعان عسكره ومعه صليبيهم ، فوصل الى خلاط فذهب وسبي ، فخرج اليه عسكر خلاط معه صندوق التركي الخارج الى بلاد حلب في سنة اثنتين وستين على ما قدمناه ذكره ، فكسر صندوق وأسره وصادف ذلك وصول السلطان فأمر بجذع أذنه ، وعمل على انفاذ الصليب الذي كان في صحبته الى نظام الملك ، وأمر بتعجيل انفاذه الى دار السلام مبشرا بالفتح ، وتلاحق عسكر الروم فنزلوا على خلاط محاصرين ، ونزل الملك على منازکرد فسلموها اليه بالأمان خوفا من

معركة جيوشه ان استولوا عليهم وذلك في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة ثلاث وستين واربعمئة.

فلما كان يوم الأربعاء سير اهل منازل كرد ، وخرج بنفسه ليشيعهم وهو في جموعه ، وحشوده ، ووافق ذلك وصول العسكر السلطاني ووقعت العين في العين فحمل المسلمون حملة رجل واحد فردوهم على اعقابهم ، وشرع اهل منازل كرد يتسللون من بينهم ، فقتل الروم بعضهم ونجا الباقون وترك الروم طريقهم الذي كانوا سالكين وعاد ملكهم فنزل في مضاربه بين خلاط ومنازكرد وباتوا ليلتهم على اعظم قلق واشده .

فلما اصبحوا بكرة الخميس وصل السلطان البارسلان في بقية عساكره ، فنزل على النهر ، وملك الروم على موضع يعرف بالزهرة في مائتي الف فارس ، والسلطان في خمسة عشر الف ، فأرسل السلطان رسولا حمله سؤالا وضراعة ، ومقصوده ان يكشف أمرهم ويختبر حالهم ويقول لملك الروم : ان كنت ترغب في الهدنة أتممناها ، وإن كنت تزهد فيها وكلنا الأمر الى الله عز وجل ، فظن الرومي انه انما أرسله عن ضرورة فأبى واستكبر واجاب بأني سوف أجيب عن هذا الرأي بالرأي ، فغاض السلطان جوابه وانقطعت المراسلة بينهما ، واقام الفريقان يوم الخميس على تعبئة الصفوف ، فقال أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي فقيه السلطان وامامه : أنت تقاتل عن دين الله الذي وعد باظهاره على الأديان ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر في اقطار الأرض ، فلما أصبحوا يوم الجمعة ركب السلطان بجموعه وركبت الروم فتواقفوا فلما حان وقت الزوال نزل السلطان عن فرسه واحكم شد حزامه وتضرع بالدعاء الى الله تعالى ، ثم ركب وفرق أصحابه فرقا كل فرقة منهم لها كمين ثم استقبل بوجهه الحرب .

وحمل ملك الروم بجمعه فاستطرد المسلمون بين أيديهم ، واستجروا الروم إلى ان صار الكمين من ورائهم ، ثم خرج الكمين من خلفهم ، ورد المسلمون في وجوههم ، فأنزل الله نصره ، وكسرت

الروم وأسر الملك واستولى المسلمون على عساكرهم وغنموا مالا يعد كثرة ولا يحصى عددا وعدة ، وقيد الملك أسيرا إلى بين يدي السلطان فأقامه بين يديه ومعه بازي وكلب صيد .

وكانت مع الروم ثلاثة آلاف عجلة تحمل الأثقال والمنجنيقات ، وكان من جملتها منجنيق بثمانية أسهم تحمله مائة عجلة ويمد فيه ألف ومائتا رجل وزن حجره بالرطل الكبير قنطار ، وحمل العسكر من أموالهم ما قدروا عليه ، وسقطت قيمة المتاع والأسلح والكرع حتى بيعت اثنتا عشرة خوزة بسدس دينار ، ولم يسلم من عسكر الروم إلا العسكر الذي كان محاصرا خلاط ، فلما بلغهم الكسرة رحلوا عن البلد جافلين فاتبعهم المسلمون وتخطفوا أطرافهم ، فلم يلو أولهم على آخرهم .

فمن عجيب الاتفاق ما حكى : أنه كان لسعد الدولة كواهرائين مملوك هداه لنظام الملك فردده عليه فجعل يرغبه فيه فقال نظام الملك : وماذا عسى أن يكون من هذا المملوك يأتينا بملك الروم أسيرا ، مستهزئا به .

ثم أنسى هذا الحديث الى أن كان في هذه الحادثة فاتفق وقوع ملك الروم في أسر ذلك الغلام ، فخلع السلطان عليه وبالسبب في إكرامه ، وحكمه في طلبه واقتراحه فطلب بشارة غزنة فكتب له بذلك .

ثم رحل السلطان الى أنربيجان والملك في قيده ، فأحضره السلطان بين يديه ، وسأله عن سبب خروجه وتعريضه نفسه وعسكره لهذا الأمر ؟ فذكر أنه لم يرد إلا حلب ، وكأما جرى علي كان محمود السبب فيه والباعث عليه ، فقال : اصدقني عما كنت عازما عليه ان لو ظفرت بي ؟ فقال : كنت أجعلك مع الكلاب في ساجور ، فقال السلطان : ما الذي تؤثر أن يفعل بك ؟ فقال انظر عاقبة فساد نيتي واختر لنفسك ، فرق له قلب السلطان فمن عليه وأطلقه وأكرمه وخلع عليه بعد أن شرط عليه أن لا يعترض لشيء من بلاد الإسلام ، وأن يطلق أسرى المسلمين كلهم ، وسيره الى بلاده وسير معه قطعة من العسكر توصله فلما انصرف ديوجانس الى قسطنطينة خلعه من

الملك ، ولم يتم له ما اراد ، وقيل انه كحل ومات بعد مدة ، ولم ينقل
انه أسر للروم ملك في الاسلام قبل هذا .

معركة منازکرد

(من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الجوزي
٨ / ١٠٧ - ١١٠)

في هذه السنة (٤٦٣ هـ) خرج ارمانوس ملك الروم في مائتي الف من الروم والفرننج والغز والروس والبنجساك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، فجاءوا في تجمّل كثير وزيّ عظيم وقصد بلاد الاسلام ، فوصل الى منازکرد من اعمال خلاط فبلغ السلطان الب ارسلان الخبر وهو بمدينة خوي من اذربيجان قد عاد من حلب ، وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع ، فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو ، فسير الاثقال مع زوجته ونظام الملك الى همذان ، وسار هو فيمن معه من العساكر وهم خمسة عشر الف فارس وجد في السير وقال لهم : انني اقاتل محتسبا صابرا فان سلمت فنعمة الله تعالى وان كانت الشهادة فان ابني ملكشاه ولي عهدي ، وساروا فلما قارب العدو جعل له مقدمة فصادت مقدمة عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف من الروم فاقتتلوا فانهزمت الروسية واسر مقدمهم ، وحمل إلى السلطان فجدع انفه ، وانفذ بالسلب إلى نظام الملك وامره أن يرسله الى بغداد ، فلما تقارب العسكران ارسل السلطان الى ملك الروم يطلب منه المهادنة فقال : لا هدنة إلا بالري ، فانزعج السلطان لذلك ، فقال له إمامه وفقهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واطهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالحقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فانهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالاجابة ، فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ، ودعا ودعوا معه وقال لهم : من

أراد الانصراف لينصرف فما ها هنا سلطان يأمر وينهى والقى
القوس والذئباب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل
عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط وقال : اذا قتلت فهذا كفني
وزحف إلى الروم وزحفوا إليه ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على
التراب وبكى واكثر الدعاء ، ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه
فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم فقتل المسلمون فيهم
كيف شاؤوا ، وانزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم مسالا
يحمى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى ، وأسر ملك الروم وأسر
بعض غلمان كوهرائين ، فأراد قتله ، ولم يعرفه فقال له خادِم مع
الملك : لا تقتله فإنه الملك ، وكان هذا الغلام قد عرضمه كوهرائين على
نظام الملك فردّه استحقاقا له فأتى عليه كوهرائين فقال نظام الملك :
عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك ، فلما أسر الغلام الملك
أحضره عند كوهرائين ، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك فأمره
بإحضاره ، فلما أحضر ضربه الب أرسلان ثلاثة مقارع بيده وقال له :
الم أرسل إليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما
تريد ، فقال السلطان ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟

فقال : أفعل القبيح ، فقال له : فما تظن أني أفعل بك قال : إما أن
تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الاسلام والأخرى بعيدة وهي العفو
وقبول الأموال واصطناعي نانبا عنك قال ما عزمت على غير هذا ،
ففداه بألف الف دينار وخمسمائة الف دينار ، وأن يرسل إليه
عساكر الروم أي وقت طلبها وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ،
واستقر الأمر كذلك .

وانزله في خيمة وأرسل اليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، فأطلق له
جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد ، فقال ملك الروم أين جهة
الخليفة ؟ فدل عليها ، فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة ،
وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره إلى بلاده ، وسير معه عسكرا
أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا .

معركة مناز كرد

(من تاريخ ابن ابي الدم « مخطوطة البودليان ١٣٣ - و)

وفيها (٤٦٣ هـ) وصل الملك العادل الب أرسلان الى الرها
راستدعى الأمير تاج الملوك أبا سلامة محمود بن نصر بن صالح بن
مرداس ، فلم يجبه ، فقطع الب أرسلان الفرات ، ونزل على حلب في
جيشه ما جر مثله في الليالي ، وقابلها يومين ثم كف عنها خوفا من
الخراب والقتل ، ثم اتفق خروج ملك الروم أرمانوس يريد بلاد الب
أرسلان بخراسان ، فلما سمع الب أرسلان بذلك رفق بتاج الملوك
محمود بن نصر و أرسله حتى خرج اليه فأكرمه وخلع عليه ، وفارقه .
وتوجه الب أرسلان فلقية ملك الروم أرمانوس بأرض ملاز كرد فأوقع
به ونصره الله تعالى ، وقتل منهم خلقا عظيما ونهب من الأموال مالا
يحصى ، وروي أنه أسر أرمانوس ملك الروم ، وقرر ألف ألف
 وخمسين ألف دينار حمر ، وتسلمها منه وأطلقه ، ولما وصل الب
أرسلان الى حلب واناخ عليها لم يتأذ أحد من أهل الشام بعسكره ،
ولاتعرضوا لمال أحد ، ولا لامرأة مع كثرتهم

معركة منازکرد

(من تاريخ الفارقي وهو احمد بن يوسف بن علي بن الارزق
(١٨٩ - ١٩٠)

ثم إن السلطان سمع أن ملك الروم عاد ، فنزل إلى الموصل ، فنزل خلفه جماعة كثيرة من أهل أخلاط ومنازکرد يعلمونه أن ملك الروم قد عاد إلى البلاد ، فرجع السلطان وصعد إلى أرزن وبدليس وكان معهم قاضي منازجرد ، فوصل أخلاط وملكها وأقام بها أياماً ، ثم وصل ملك الروم إلى ولاية منازجرد فخرج السلطان وسار ونزل على باب منازجرد ، وحصلت المراسلات تمضي بينهما ، وكان ملك الروم في خلق لا يحصى ، ومضى ابن المحلبان من عند السلطان إلى ملك الروم فسأله عن البلاد وحالها وقال : أخبرني أيما أطيب أصفهان أم همذان ؟ فقال : أصفهان ، فقال له : قد بلغنا أن همذان شديدة البرد ، فقال : هو كذلك ، فقال الملك : نشتي نحن في أصفهان والكراع في همذان ، فقال له ابن المحلبان : أما الكراع صحيح يشتي في همذان ، وأما أنت فلا أعلم ذلك ، ثم ابتعد عنه ، والتقوا للقتال فعبأت الروم صفوفها في ثلاثمائة ألف فارس والسلطان في نفر يسير فضيق الوقت للقتال ، وكان يوم الجمعة ، إلى وقت ما علم السلطان أن الخطيب على المنبر وحن وقت نزوله ، فقال للناس : احملوا فحملوا كلهم وكبروا ، وقال السلطان : هذا وقت الدعاء على جميع المنابر لجيوش المسلمين وباقي الناس يؤمنون على دعائهم فلعل الله يستجيب من واحد منهم ، ثم حملوا وكبروا فأعطاهم الله النصر ، فانهزم ملك الروم وقتل من أصحابه خلق عظيم ، وغنموا أموالهم بحيث تقاسموا الذهب والفضة بالأرطال ، وغنم أهل أخلاط ومنازجرد من أموالهم ما استغنوا به إلى الآن . فسانهم خرجوا وأقاموا مع الجيش وقتلوا ونهبوا أكثر النهب .

معركة منازکرد

(من أخبار مصر لمحمد بن علي بن يوسف بن جلب المعروف
بأبن ميسر « ٢ / ١٩ - ٢٠ »)

فيها (سنة ٤٦٢ هـ) بعث ناصر الدولة ابن حمدان الفقيه أبا
جعفر محمد بن أحمد البخاري رسولا الى السلطان الب أرسلان ملك
العراق . يسأله أن يسير اليه عسكريا من قبله ليقوم الدعوة العباسية
وتكون مصر له ، فتجهز الب أرسلان من خراسان في عساكر جملة ،
وسير لصاحب حلب أن يقطع دعوة المستنصر ويقوم الدعوة العباسية
فقطع دعوة المصريين ولم تعد ، وسار الب أرسلان فوصل الى حلب
في جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وأربعمائة وحاصرها شهرا ،
فخرج اليه صاحبها محمود بن صالح وكان قد امتنع من لقائه
فأكرمه وأعادته الى ولايته ، فقوي عزمه على المسير الى دمشق ثم
مصر ، فبينما هو على حلب اذ جاءه الخبر بأن ملك الروم قد قطع
بلاد أرمينية يريد خراسان فرجع الى بلاده ، والتقى مع عساكر
الروم على أخلاط وهزمهم أقبس هزيمة .

واسر ملكهم ، وكان قد خلف طائفة من الأتراك ببلاد الشام فملكوا
بلاد الشام ، وخرجت كلها من أيدي المصريين .

معركة منازکرد

(من تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع

« ٢ / ٣ / ١٨٩ - ٢٠١ »)

وفي سنة ستة آلاف وخمس مائة وستين للعالم ، وهي سنة سبع مائة
وثمانية وثمانين للشهداء ، وصل الملك العادل الب أرسلان من
المشرق في عساكر عظيمة عددها ستمائة ألف فارس سوى أتباعهم
فاضطربت البلاد وقلقت المملكة بمصر ، وفتح في الشام الفوقاني
بلاداً كثيرة ، وفي بلاد الروم ، الى أن حسن له أصحابه فتح المدينة
الجليلة الرها ، وكان فيها يومئذ دوقس يسمى باسيل بن اسار ابن
ملك الغز من قبل ديوجانس الملك ، وكان بالرها يومئذ ثمانية آلاف
أرمني وعشرين ألف سرياني وستة آلاف رومي وألف أفرنجي ،
فنزّل عليهم في ستمائة ألف مقاتل وضرب خيمته وأنفذ الى أهلها
يخـدعهم قـائلاً :

ما غرضي فتح بلدكم ، بل تقطعوا لي عليكم مال وأرحل عنكم ، فلما
سمعوا هذا اهتموا بجمع المال وهو ينقب تحت حصن المدينة ، ومن
بعد سبعة أيام كان في عسكره صبي سرياني ، فكتب رقعة يقول فيها
لأهل الرها : هو يخادعكم وقد نقب تحت البرج الفلاني والموضع
الفلاني حتى وصف لهم أحد عشر موضعاً فيها النقايبين ينقبوا ، وقد
بلغوا تحت الحصن وتجاوزوه ، وجعل الرقعة في نشابة ورمأها الى
المدينة فأخذوها ووقفوا عليها ، ونقبوا قبالة تلك المواضع ، وكان
الوالي المذكور يأخذ البوق ويجعل رأسه فيما يلي خارج البلد على
الأرض وطرفه عند أذنه فيسمع حس النقب ، فالتقوا النقايبين بغتة في
النقوب ؛ فقتل من نقابيين الرها ثلاثة ومن نقابيين الب أرسلان بن
داود المنعوت بالعدل عشرون رجلاً ، وأستأسروا تسعة فقتلوهم ،

ورموا رؤوسهم اليه في المنجنيقات والعرادات ، وكان عندهم تسعين منجنيق وعرادة ، وشتموه وصاحوا عليه يا غدار يا مكار يانكاث ، واكثروا من شتمه بكل قبيح ، فنصب عليهم القتال الشديد ثمانية وثلاثين يوما ، وكان يقاتلهم بالافيلة وعليهم الرجال لابسين الحديد فاذا دنوا ليقتربوا الحصن طرحوا عليهم الصخور العظيمة فيقتلوا منهم ، واستظهروا عليه بقوة السيد المسيح لانها المدينة التي دعا لها توا التلميذ ولأبجر ملكها.

ثم انه زحف اليها بسبع دبابات عظيمة ، فعملوا عليها صواري عظيمة وشحم وزفت ونفط ، وطرحوا عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها وقتلوا كل من كان فيها .

ثم امر الملك العادل بقطع الأشجار والأخشاب ورميها في الخندق الذي على الحصن. حتى يمشي الخيل والرجال عليه الى الحصن ، فتوصلوا اليها من داخل المدينة من النقب واطلقوا فيها النيران فتأجج النار حتى صار الخندق نيران تلتهب ، ووقع الضياع عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافتراء والشتيمة ، فأنفذ اليهم رسول يقول لهم : ما يحسن بي أن أرحل عنكم بعد قتالكم ، وقد أطاعتني جميع البلاد ، الا بعد أن يستقر لي عليكم مال يسير ، وأنا أرحل عنكم لنألا يصير علي فضيحة ، فأنزل الوالي رسوله في دار واكمه ، فلما كان بالغداة تخير عشرة الاف رجل أحداث مقاتلين من المدينة ، والباس جميعهم الحديد حتى لم يبق منهم الا جفون عينهم ، وأوقفهم صفين في الموضع الذي يعبر فيه الرسول الى باب الرها ، وقال للرسول : اركب عائدا الى صاجبك ، فركب ولم يزل سائر فيما بين أولئك الأحداث وهم يزعموا ويصيحوا الى أن انتهى الى باب المدينة ، فقال له باسيل الوالي : قل لهذا الكلب الغدار الذي أرسلك : كنا نظن أن لك قولا صادقا وأنت غدارا كذوبا نكاثا ، وما عندنا الا السيف ، لأن كذبك وغدرك قد عرفناه ، وما تحتاج الى نقب ولادبابات ، هو ذا باب المدينة مفتوح ووحق سيدي يسوع المسيح لاغلق باب هذه المدينة في هذا النهار الا بعد مغيب الشمس ، فان أريت القتال فتقدم ، ولم يزل باب هذه المدينة مفتوح ، وأولئك

الأحداث قيام ، والحضن معمر بالرجال الى بعد الغروب ، وأغلقوا الباب وصاحوا عليه من فوق السور .

وفي تلك الليلة رحل عنهم بعد أن اقام خمسة وأربعين يوما ، ومضى الى مدينة سروج والى حلب ، وحاصرها فكانوا يعيروه بما لقيه من أهل الرها ، وبعد هذا خرج اليه محمود بن صالح ليلاً في زي الغز حتى وصل الى خيمته فتطارح عليه ، فقبله وأحسن اليه وأخلع عليه وأعادته الى مدينته .

ثم عاد ايضا الى الرها في شهر بشنسر و اقام أربعة أيام بلا قتال ، وكتب اليه نصر بن نصر الدولة يقول له : أنت نازل على الرها وما تقدر تفتحها وديوجانيس ملك الروم قد أهلك بلد الاسلام الى أن قارب بلاد خراسان ، فرحل ليلاً وسجلاً الى أن وصل الى خلاط مجاور منازل كرد بلاد الأرمن ، وبين ~~طدينتين~~ نهر عظيم ، وكان ديوجانيس ملك الروم نازل على نهر منازل كرد بعسكره ، وهو ايضا في ستمائة الف فارس مقاتلة فالتقى الملكان في أيام من بوونة ، فعمل مقدمين عساكر ديوجانيس الرومي عليه منصوبة بدسياسة من ميخائيل ابن مارية الذي كان ملك قبله عمه قيصر ، فلما حمل الملك ديوجانيس على عسكر الغز وصار في وسطهم وهو يظن أن أصحابه وعساكره يحملوا معه ، وهم طائعين له ومناصحين ، فلما خذلوه وتخلوا عنه قتل بيده جماعة من الغز ، ولم يزل يقتل ويدفع عن نفسه الى أن قبضوه أسير وتفرقت عساكره بعد أن قبض منهم جماعة ، ودخل بعضهم الى منازل كرد فأحضره الملك العادل بين يديه وقال : أتريد أن أبيعك أو أقتلك أو أعتقلك ؟ فقال : له ديوجانيس : ما ملكتني بقتال وإنما أجنادي خذلوني وتخلوا عني ولم ينصحوني ، والآن فإن كنت جزارا فاقتلني ، وإن كنت صيرفيا فبيعني ، وإن كنت ملكا فاعف عني ، فقام اليه فاعتنقه وأجلسه معه في مرتبته وخلا به ثلاثة أيام يأكل ويشرب ويتحدث معه ويواوده ، وقرر معه عهد وهدية وسير معه ثلاثة الاف فارس حتى أوصلوه المصيصة وعادوا .

معركة منازكرد

(من تاريخ العالم لابن العبري « مترجم عن الترجمة الانكليزية ص ٣٢٠ - ٣٢٢ »)

« ثم جمع الملك دايوجنيس قوات هائلة ومضى زاحفا من جهة ارمينية بأبهة عظيمة وجاء الى امام منازكرد ، فطرد قوات السلطان منها ، لكنه لم يقتلهم ، واستولى على المدينة ، وعندما علم السلطان بهذا ، مال بنظره نحو الأراضي الرومية ، وبسبب أن التركمان كانوا قلة ، كان السلطان الب أرسلان خائفا فأرسل رسولا الى دايوجنيس اميرا اسمه ساوتكين لعلهما يصنعان سلما ويقولان لبعضهما ستمضي كل منا عائدا الى بلاده ، لكن دايوجنيس تبجح وقال : الآن وقد أخرجت جميع كنوزي وجمعت كل هذه العساكر ، والنصر لي ، انصرف ؟ ليس لكم معي الا السيف ، ثم إن الله له الحمد ، الذي يجلب الخفض الى الأرعن ، اعطى القوة للسلطان ، الذي هيا عساكره وخاطبهم بكلمات التشجيع ، ورمى القوس والنبال من يده ، ولبس درعه ، وأخذ مجنه ورمحه بيده وعقد ذيل حصانه واعتلاه ، ومثله فعل جميع الترك ، وهجموا على الروم في اليوم السادس للاسبوع (الجمعة) عند الظهر في مكان بين خلاط ومنازكرد ، وصرخوا صرخة مدوية واندفعوا بينهم وسقط الرعب على الروم ، وبعد أن قتل الكثير منهم بدأوا يفرون وآخرون أخذوا أسرى . وعند المساء جاء مملوك اسمه كوهرائين من بين الأمراء الترك الى السلطان وقال له : لقد ذكر أحد عبيدي بأنه قد أخذ ملك الروم أسيرا وإنه معه ... ومع أن السلطان لم يصدق ذلك فإنه لم يصر على قوله ، بل أرسل أحد الغلمان الذي كان اسمه شاذي الذي غالبا ما سافر مع الرسول الى ملك الروم ، ليذهب ويتأكد منه ، وعندما ذهب شاذي ورأى دايوجنيس سجد احتراما للملك ، ثم

ركض عائدا الى السلطان فأخبره بأن الأسير هو الملك ، وأعطى السلطان أوامره فنصبوا خيمة ملوكية لدايوجنيس وأخذوه الى هناك ووضعوا قيودا حديدية حول معصميه ورقبته ، وأرسل منة من الترك ليقوموا بالحراسة حوله .

وفي الصباح أمر السلطان فأحضر دايوجنيس أمامه فضربه بيده أربعة مقارع وخاطبه :

يا هذا كيف لم تصنع لي عندما خاطبتك من أجل السلم ؟ ثم إن دايوجنيس الذي كان حكيما ورجلا حانقا قال كلمات متزنة : لقد قصرت في كل هذه الأشياء التي هي ممكنة لرجل والتي يمكن لملك أن يصنع ، ولكن الله تمم ارادته ، والآن افعل ما تريده وجانب التوبيخ فقال له السلطان : اصدقني ماذا كنت فاعل بي فيما لو سقطت في يدك ؟ فأجابه (كل سوء لأن عدوا لا يقابل عدوا الا لعمل الشر له) . فقال السلطان : لقد تكلم هذا بالصدق ، ولو أنك أجبت بطريقة تختلف عن هذه كنت سأقطع رأسك ، والآن أخبرني أيضا ماذا تظن أنني صانع بك ؟ فأجابه الملك واحد من ثلاثة أمور :

اولها : أن تقتلني ، وثانيها يمكن لك أن تشمهنني في ممالكك حتى يعلم كل انسان بنصرك ويراها ، وثالثهما ليس من الضروري لي قولها لأنها ضرب من الخيال وبعيدة عن كل شيء يمكنك أن تصنع . فقال السلطان : ولماذا تمنع نفسك عن قولها ؟ فأجاب دايوجنيس تلك ان ترسلني الى المدينة الملكية ، وأنا ساكون كأحد أتباعك وعندما تطلبني سأتي ، وعندما تقول لي اصنع هذا سأصنعه . فأجاب السلطان : ليس لي نية في أن اصنع غير ذلك لأنك لم تكن جازعا .

ثم طلب السلطان منه دفع عشرة آلاف الف دينار حتى يفدي نفسه . فقال دايوجنيس لو أنني أعطيت كل مملكة الروم ذلك شيئا قليلا بالنسبة لما سأربحه ، لكن منذ أن أصبحت ملكا للروم قمت بصرف أموال مملكة الروم على الجيوش التي قذتها .

ثم أطلق سراح دايوجنيس على شرط أن يدفع الف الف دينار كفدية وجزية سنوية قدرها ثلاثمائة وستين ألف دينار . وهكذا أمر

السلطان أن تنزع القيود الحديدية عنه، وجلسا معا على مرتبة واحدة كانت قد انتزعت منه ، وأكل دايوجنيس وشرب مع السلطان وطلب السلطان منه انطاكية والرها ومنزج ومنازكرد التي كان الروم قد أخذوها من العرب.

فأجاب دايوجنيس : عندما أعود الى مملكتي أرسل جيشا وقاتل من أجلهم وأنا سأرسل لهم بأن يسلموا ، ولكن اذا أرسلت لهم الآن فإنهم لن يصغوا لي ، ثم تابع قوله اذا كنت سترسلني ابعثني بسرعة قبل أن يعين الروم ملكا ، وافعل ذلك حالا حتى وان كنت لاأستطيع أن أنفذ واحدا من هذه الشروط . فعلا حصل هذا ، وأمر السلطان وعين مئة عبد وأميرين ليركبوا معه حتى القسطنطينية ، ورافقه السلطان مسافة فرسخ واحد وعندما أراد السلطان أن يعود ، أراد دايوجنيس أن يترجل ، ولكن السلطان منعه من الترجل ، وهكذا قبلا بعضهما وهما راكبين جنباً الى جنب وافترقا.

معركة منازکرد

(من تاريخ المسلمين لابن العميد « مخطوطة المتحف
البريطاني ١٤٧ - و.ظ »)

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة سار السلطان الب أرسلان نحو
اخلاط في أربعين ألف فارس للقاء الروم ، فخرج اليه بطريق في
جموع عظيمة ، فنصر عليهم السلطان وأسر مقدمهم فجذع أنفه ، ثم
وصل ملك الروم بنفسه فلقية السلطان بمكان يعرف بالزهرة ، وذلك
لخمس بقين من ذي القعدة ، فقاتلهم السلطان يوم الجمعة فهزمهم ،
وقتل المسلمون منهم يومهم وليلتهم مالا يحصى ، وأسر ملك الروم ،
فأطلقه السلطان على أن يحمل ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ،
وتقرر عليه قطيعة في كل سنة ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار ،
واطلاق كل أسير في الروم من المسلمين .

فلما وصل ملك الروم الى بلاده وجد الروم قد ملكوا غيره ، فأظهر
الزهد ولبس الصوف ، وبعث الى السلطان مائتي ألف دينار وجوهر
قيمته تسعون ألف دينار ، وحلف أنه لا يقدر على غير ذلك ، ثم قصد
ملك الأرمن مستضيفا به فأجاره ملك الأرمن ، ونزل عليه ، فبعث الى
السلطان أعلمه بذلك .

معركة منازکرد

(من كتاب البداية والنهاية لابن كثير
« ١٢ / ١٠٠ - ١٠١ »)

وفيها (٤٦٣ هـ) أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرج والفرنج وعدد عظيم وعدد ، ومعه خمسة وثلاثون ألفا من البطارقة مع كل بطريق مائتا ألف فارس ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفا ومن الغز الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفا ، ومعه مائة ألف نقاب وحفار وألف روزجاري ، ومعه أربع مائة عجلة تحمل الذغال والمسامير وألف عجلة تحمل السلاح والسروج والعرادات والمناجيق ، منها منجنيق عدته ألف ومائتا رجل ، وكان من عزمه قبحه الله أن يبديد الاسلام وأهله وقد أقطع بطارقه البلاد حتى بغداد ، واستوصى نائبها بالخليفة خيرا فقال له : أرفق بذلك المشيخ فإنه صاحبنا ، ثم إذا استوثق ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة فاستعادوه من أيدي المسلمين والقدر يقول : « لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون » (سورة الحجر - الآية : ٧٢) فالتقاء السلطان الب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفا بمكان يقال له الزهرة في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة ، وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري أن يكون وقت الواقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين ، فلما كان ذلك الوقت وتوافق الفريقان وتواجه الفتیان نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره ، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم اكتافهم ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وأسر ملكهم أرمانوس أسره غلام رومي فلما أوقف بين يدي الب أرسلان ضربه بيده ثلاث مقارع وقال : لو

كنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل ؟ فقال : كل قبيل ، قال : فما ظنك بي ؟ فقال : أما أن تقتلني أو تشهر بي في بلادك وأما أن تعفو عني وتأخذ الفداء وتعيديني قال : ما عزمتم على غير العفو والفداء ، فافتدى نفسه منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض الى جهة الخليفة اجلالا واکراما ، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها وأطلق معه جماعة من البطارقة ، وشيعة فرسها ، وأرسل معه جيشا يحفظونه الى بلاده معهم راية مكتوب عليها لا اله الا الله محمد رسول الله ، فلما انتهى الى بلاده وجد الروم قد ملكوا عليهم غيره ، فأرسل الى السلطان يعتذر اليه وبعث من الذهب والجواهر ما يقارب ثلاثمائة ألف دينار .

معركة منازکرد

(من تاريخ دول الاسلام للذهبي «مخطوطة المتحف البريطاني
٥٩ - و - ظ»)

وفيهما تم مصاف لم يسمع مثله بين الاسلام والشرك خرج ارمانوس طاغية الروم في مائتي الف من الروم والفرنجة والغز الكفرة والروس والكرج وهو في تجميل عظيم يقصد بلاد الاسلام ، فوصل إلى أعمال خلاط ، وكان الب أرسلان ببلد خوي فبلغه كثرة العدو وهو في خمسة عشر الفا فقال : انا التقيهم واستعين بالله فإن سلمت بنعمة الله وان كانت الشهادة فالامر لله وابني ملكشاه ولي عهدي ، فوقعت طائفة على طلائع رومانوس فأسر المسلمون مقدمهم فأحضر إلى السلطان فقطع أنفه .

فلما التقى الجمعان بعث السلطان يطلب المهادنة فقال ارمانوس لا هدنة إلا بإعطاء الري ، فإنزعج السلطان فقال له إمامه : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على الأديان وأرجو أن يكون الله قد كتب اسمك بهذا الفتح ، فلما كان وقت الساعة التي يكون خطباء الاسلام يوم الجمعة على المنابر صلى السلطان وبكى وبكى الأمراء ودعا وأمنوا ، فقال : يا أمراء من أراد أن ينصرف فليتنصرف فما هنا سلطان يأمر وينهي ، وألقى قوسه ثم جرد سيفه وعقد ذنب فرسه بيده وفعل الجيش مثله ولبس البياض وتحنط للموت ، ثم زحف بجيشه فلما خالطوهم ترجل السلطان وغفر وجهه بالتراب وأكثر الدعاء والبكاء ، ثم ركب وحمل هو والجيش فحصلوا في وسط العدو وقتلوا فيه كيف شاؤوا ، ونزل النصر وامتلات الأرض بالقتلى فأنهزم العدو وأسر ملكهم الأعظم ارمانوس ، فلما حضر بين يدي السلطان ضربه بالمقرعة وقال : ألم أبذل لك في الهدنة ؟ قال : دعني من التوبيخ ، قال : فما كان عزمك أن تفعل بي لو أسرتني ؟ قال : كل

قبيح ، قال : فما تظن أنني أفعل بك ؟ فقال : إما أن تقتلني أو تشهرني في بلادك والثالثة بعيدة وهي العفو ، وقبول المال واصطناعي ، قال : ما عزمت على غير ذا ، ففدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار وأن يطلق كل أسير في ممالكه ، فأنزل في خيمة وخلع عليه وأطلق له جماعة من بطارفته ، فكشف أرمافوس رأسه وسجد إلى جهة الخليفة ، وهادنه السلطان خمسين سنة .

معركة منا زكرد

(من كتاب اتعاظ الحنفا للمقرئزي «حوادث سنة ٤٦٢ هـ من مخطوطة احمد الثالث »)

فيها (٤٦٢ هـ) بعث ناصر الدولة حسين بن حمدان الفقيه ابا جعفر محمد بن احمد البخاري رسولا إلى السلطان الب أرسلان ملك العراق ، يسأله أن يسير إليه العسكر ليقوم الدعوة العباسية بسديار مصر وتكون له ، فتجهز الب أرسلان من خراسان في عساكر عظيمة وبعث إلى محمود بن نصر بن صالح بن مرداس صاحب حلب أن يقطع دعوة المستنصر ، ويقوم الدعوة العباسية ، فقطعت دعوة المستنصر من حلب ولم تعد بعد ذلك .

وانتهى الب أرسلان إلى حلب في جمادى الاولى سنة ثلاث وستين ، وحاصرها شهرا فخرج إليه صاحبها محمود بن صالح بن مرداس ، فأكرمه وأقره على ولايته ، وأخذ يريد المسير إلى دمشق ليمر منها إلى مصر ، وإذا بالخبر قد طرقة بأن مملك الروم قد قطع بلاد أرمينية يريد أخذ خراسان ، فشغله ذلك عن الشام ومصر ورجع إلى بلاده ، فواقع جمائع الروم على خلاط وهزمهم ، وكان قد ترك طائفة من عسكره الأتراك ببلاد الشام فامتدت أيديهم إليها وملكوها كلها ، فخرجت - من - أيدي المصريين ولم تعد إليهم .

معركة منازكرد

(من الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية لابن أبيك الدواداري .
" ٣٩٢ - ٣٩٦ ")

ثم وردت الأخبار على السلطان الب ارسلان أن ملك الروم خرج في جموع عظيمة وورد الى منبج وأرجيش ومنازكرد ، فرجع السلطان وبلغ ملك الروم أن السلطان في عسكر خفيف فطمع في لقائه ووصل الخبر الى السلطان بما عزم عليه ملك الروم وطمعه فيه لقلّة جيوشه ، وكان قد بقي في أربعة آلاف فارس فقال لوجوه عسكره: أنا صابر في هذه الغزاة صبر المحتسبين وصائر إلى مصير المخاطرين فإن سلمت فذلك ظني بالله تعالى وإن تكن الأخرى فأنا أعهد إليكم أن تسمعوا وتطيعوا لولدي ملك شاه وتقيموه مقامي فقالوا : سمعنا وأطعنا ، وقصد الروم جريدة مع كل غلام فرس يركبه وآخر يجنبه ، وسار بنية خالصة لا يخالطها كدر الغزاة المشركين وقدم قدامه أحد حجابيه في جماعة من الجند ، فصادف عند اخلاط مقدمة الروم عشرة آلاف من الروم ، فالتقاهم ذلك الحاجب وكان في ثمان مائة فارس فنصره الله عز وجل على تلك الجموع بمعونة الله تعالى ، وأسر مقدم الجيش وكان من الروس ، وأخذ صليبهم وأنفذ الجميع إلى السلطان فسرّه ذلك وعلم أنها علامة النصر .

وصل ملك الروم الى منازكرد في تلك الجموع العظيمة مما يزيد عن مئة ألف فارس ومئة ألف جرخي وأربع مئة ألف عجلة تجرها ثمان مئة جاموسة عليها نعال ومسامير برسم الخيول وألف عجلة أخرى عليها السلاح والمناجيق وآلات الحصار . وكان في خزائنه ألف ألف دينار ومئة ألف ثوب أبرسيم وخرج في نية أنه يطأ الأرض ويفتح

مصر والشام واقطعها للبطارقة واوصى على بغداد وقال : لا يتعرض احد الى دار الشيخ الصالح يعني الخليفة فإنه صديقنا .

وكان قد اجتمع مع السلطان الب ارسلان تقدير عشرة الاف من الاكراد والمجتمعة من سائر الناس ، فلما كان نهار الجمعة قال السلطان وقد جمع وجوه أصحابه إلى متى هذا التأخير ؟ أريد أن اطرح نفسي عليهم هذا اليوم وقت الصلاة الذي الناس جميعهم من المسلمين يدعون لنا بالنصر على المنابر ، فإن نصرنا الله عز وجل عليهم وإلا متنا شهداء ، فمن أحب أن يتبعني فليتبّع ، ومن أحب الحياة فليزصر ف لا عتب عليه فما ها هنا اليوم سلطان وإنما أنا واحد منكم ، فقالوا جميعهم : لا حياة لنا بعدك ومهما اخترته لنفسك اخترناه لأنفسنا ، فلما كان وقت الصلاة اصطفت العسكران ، فعندها قام السلطان في سرجه ورمى القوس من يده وتناول لت حديد وفعل جميع أصحابه كفعله ، وصاح الله أكبر فتح الله ونصر ، وحمل على الروم حملة صادقة وحملوا جميع أصحابه بقلوب موافقة فلم يقف الروم قدامهم و لا طرفة عين لتلك الحملة المذكرة ، ونصر الله الاسلام وكسروا عبدة الصليبان والأشخاص والأصنام ، وركبوا اكتافهم قتلا وأسرا ، وتبعهم السلطان بقية يوم الجمعة مع ليلة السبت وهو يقتل ويأسر ، فلم ينج منهم إلا القليل النادر وغنم جميع ما كان معهم ورجع إلى مكانه ، فدخل عليه بعض الأمراء الذي له ، وقال : إن أحد مماليكي أسر ملك الروم ، وكان هذا المملوك قد أعرض على نظام الملك فاحتقره ولم يجز عرضه وأسقطه وقال مستهزئا به : لعله يأتينا بملك الروم ، فأسر الله ملك الروم على يده لكسر قلبه ، فأمر السلطان بعض الخدام عنده ممن كان يعرف ملك الروم أن يتوجه ويكشف عن حقيقة أمره ، فلما رآه عرفه ، فعاد إلى السلطان وأخبره بذلك ، فأمر له ووكل به من يحفظه ، وأحضر السلطان الغلام الذي أسره وأخلع عليه وأعطاه وقدمه وأقطعه غزنة وجعله من خاصته .

ثم إن السلطان أحضر ملك الروم يرفل بقيوده فرفسه برجله ثم

قال له : ما الذي تريدني أن أفعل بك ؟ قال : إحدى من ثلاث ، الأولى قتلي وأعدامي الحياة ، والثانية إشهاري وسجني والثالثة لا فائدة من ذكرها فانك لا تفعلها قال السلطان : وما هي ؟ قال : تعفو عني وتصطنعني وتتخذني خادما ما بقيت من عمري فقال السلطان : إنني لم أنو إلا العفو عنك فاشتر الآن نفسك فقال : يقول السلطان ما شاء فقال الف الف دينار ، ثم استقر بينهما الحال على ما أحب السلطان الف الف دينار وأن يتقدم إلى عساكر الروم بجميع ما يحتاج إليه المسلمون من سائر ما في بلاد الروم ، ثم حل وثاقه وأخلع عليه ونصب له سرير إلى جانب سريره فقال ملك الروم : عجل بإنفاذي قبل أن تقيم الروم لهم ملكا غيري. فقال له السلطان : أريد أن تعيد إلينا ما أخذته من بلادنا وهو الرها ومنبج ومنازكرد وتطلق سائر أسير عندك من المسلمين فقال : أما البلاد فإذا وصلت سالما إلى بلدي أنفذت بتسليمها إليكم فإنهم الآن لا يسمعون مني ، وأما أسارى المسلمين فإني قد كنت عاهدت الله عز وجل ونذرت من قبل أن تعفو عني إني متى رديت إلى بلادي سالما أعتقت كل أسير عندي وأنا فاعل ذلك .

ثم أن السلطان رده إلى خيمته ، ورتب له ما يصلح لمثله من سائر ما يحتاج إليه ، ثم أنه اقترض عشرة آلاف دينار وفرقها على الحاشية فلما كان بعد ثلاثة أيام أحضره السلطان وتلقاه ، وقام له قائما وأجلسه على سريره الذي كان له وكسب منه ، وأخلع عليه ثانيا بأحسن من الأولى وعقد له راية بيضاء مكتوب عليها بالسواد لا إله إلا الله محمد رسول الله وأنفذ معه حاجبين ومئة غلام مع سائر ما يحتاج إليه الملوك من الآلات ، وركب معه بنفسه وشيعة مقدار فرسخ وتعانقا وتودعا وسار إلى القسطنطينية .

الحواشي والهوامش

الفصل الاول

إن مهمة هذا المجلد لن تتجاوز الحديث عن قيام السلطنة السجلوقية بداية تاريخ التركمان ثم هجرتهم إلى خراسان واستيلاء السلاجقة على هذا الصقع .

١ - أخبار الدولة السجلوقية ، ٢ .

٢ - الراوندي ، راحة الصدور ، ٥٦ .

٣ - الغزالي ، التبر المسبوك ، ٦٤ - ٦٥ .

٤ - ما تزال بقايا هذا الاعتقاد قائمة وتظهر بشكل عفوي وتصدر من أفواه الكثيرين من مواطني هذا البلد ، ولكن سمعت بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ : «ان على العرب أن يتركوا محاولات التحرير والحرب ويسألوا الأتراك وتركية القيام بهذا العبء عنهم» ، بل أغرب من هذا ما يردد بين صفوف كثير من الناس حتى المثقفين منهم : «لوبيقت البلاد العربية قطعة من الامبراطورية العثمانية التركية لما قامت اسرائيل ولما عاشت» ، ناسين أن الذي أقام اسرائيل ولعدها بالحياة وما زال يهددها - يحكم تركية بشكل فعلي منذ أمد غير قصير .

٥ - صورة الأرض لابن حوقل ، ٣٨٧ ، المسالك والممالك للاصطخري ، ١٦٣ ، وينصح بقراءة كتاب D.M.Dunlop, The History of the Jewish Khazars, New York, 1967.

٦ - هو أبو جعفر محمد بن أحمد البخاري ، أرسله ناصر الدولة الحمداني من مصر كي يستدعي ألب أرسلان ليقوم بالقضاء على الخلافة الفاطمية ، وهي مسألة سيتعرض لها في المستقبل بشكل أكثر تفصيلا ، انظر زبده الخلب ٢٠/٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٣/٣ و .

٧ - وصلنا كتاب الكاشغري كاملا وقد طبع في ثلاث مجلدات في الأستانة سنة ١٣٣٣ هـ ، ولم يصلنا كتاب ملك نامه سوى خلال بعض النقول عنه ، انظر بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٦/٣ . ظ .

٨ - لعل وجود الاعتقاد بالجن لدى المسلمين كان من الاسباب التي ساعدت على اعتناق التركمان لهذا الدين لتوفر هذه العقيدة لديهم ، وربما استغلت هذه العقيدة من قبل الدعاة الصوفية الذي سببوا تحول التركمان إلى الاسلام .

٩ - انظر الكاشغري ، ٢٣٨/١ ، ٢٩٠ ، ٢١ ، ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٢٧١/٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، مختصر كتاب البلدان ، ٣٢٩ ، الكامل ، ٩٨/٨ ،

The Ghaznavids, 205

١٠ - هذه مسألة هامة تحتاج إلى مزيد من البحث ، وكتاب Mircea Elide بالفرنسية والمترجم إلى الانكليزية باسم Shamanism Archiac Techniques of Ecatasy, London 1964 هو خير كتاب أعرفه يعالج الديانة

- الشامانية معالجة علمية جيدة ، وقراءة هذا الكتاب قد تساعد على فهم وحل بعض مشاكل التاريخ الفكري للإسلام ، كما تساعد أيضاً على فهم تاريخ المغول الذين تحركوا بزعامة جنكيز خان .
- ١١ - الكاشغري ، ٤١/١ - ٤٢ ، ٥١ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٨٣ - ٨٥ ، ١٠١ - ١٠٣ ، ١٦٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤/٣ - ٣٠٧ .
- ١٢ - مختصر الكتاب البلدان ، ٣٢٩ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٣٦ ، صورة الأرض لابن حوقل ، ٣٨١ ، الاعلاق النفيسة ، ٢٩٥ .
- Hudud al- 'Alam 94,99; Turkestan, 64-65; The Lands of the Eastern caliphate 433-4.
- ١٣ - الشاهنامه ، الترجمة العربية ، ٤٢/١ - ٤٣ ، ١٠١ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ١٥ - ١٦ ، The Ghaznavids, 205 .
- ١٤ - رسالة في مناقب الترك ، ٥ - ٦ .
- ١٥ - تاريخ بخاري ، ١٩ - ٢١ .
- ١٦ - انظر أحسن التقاسيم ٣٢٥ - ٣٢٦ ، Hudud al-'Alam, 111-120 .
- Turkestan, 235-8, 255-6 Four studies on the History of central Asia, 1, 19-20.
- ١٧ - الاعلاق النفيسة ، ٢٩٥ .
- ١٨ - مختصر كتاب البلدان ، ٣٢٩ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٣٦ ، الاعلاق النفيسة ٢٩٥ .
- ١٩ - تاريخ بخاري ، ٨٦ - ٨٧ ، ١٠٥ - ١٤٩ .
- Four studies on the History of central Asia 1,12-13, 21; Turkestan, 222-45; The Cambridge History of Iran, V, 10-11; The Ghaznavids, 27-34; the Islamic Dynasties, 101-102.
- ٢٠ - تاريخ بخاري ١٤٣ - ١٤٩ ، الكاشغري ، ٣٩٣/١ .
- Four studies on the History of central Asia 21-26; Turkestan, 245-305; The Islamic Dynasties, 112-114; the Cambridge History of Iran, V, 11-12.
- ٢١ - تاريخ بخاري ، ١٣١ - ١٣٣ .
- Four studies on the History of central Asia 1, 25-26; Turkestan, 274-302; The Cambridge History C.E.Bosworth The Ghaznavids, 181-183; The Islamic Dynasties, 11-16; of Iran, V. 11-16; The Islamic Dynasties, 181-183; The Ghaznavids, 1963, Edinbergh, هو أحسن ما كتب حتى الآن عن تاريخ الغزنويين . Four studies on the History of central Asia 1,25
- ٢٢ - تاريخ بخاري ١٣١ - ١٣٣ .
- Four studies on the History central Asia 1,25-26; Turkestan, 274-302; The Cambridge History of Iran, V. 11-16; the Islamic Dynasties, 181-183; The Ghaznavids
- ٢٣ - مصادر الحاشية الثمانية ، تاريخ البيهقي ، ٤٣٧ .
- ٢٤ - ابن فضلان ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ .
- The Cambridge History of Iran, V. 16-17:
- ٢٥ - الكاشغري ، ٢٤/٢ ، ١١٧/٣ .
- ٢٦ - The Ghaznavids, 210; The Cambridge History of Iran, V. 16 .
- ٢٧ - صورة الأرض لابن حوقل ، ٣٨٧ .
- ٢٨ - Hudud al'Alam, 44.

- ٢٩ - انظر المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ٢٧٤ .
- ٣٠ - الكاشغري ، ٢٧/١ - ٢٨ ، ٥٦ ، ٣٩٣ ، وفي ٣/٣٠٤ ، يقدم الكاشغري قصة اسطورية طويلة تذكر بأن الاسكندر ذي القرنين هو أول من أطلق هذا الاسم ، ويوحى هذا بقدم الاسم ، كما توحى القصة بشموله لعدد من طوائف الترك ، انظر أيضاً The Ghaznavids, 214 .
- ٣١ - الكاشغري ، ٥٦/١ - ٥٨ ،
- The Ghaznavids, 219; The Cambridge History of Iran, V, 17.
- ٣٢ - بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٦/٣ ظ ، ورسم ابن العديم في مكان آخر من كتابه ٢٧٩/٣ ظ اسم دقاق بالثناء «تقاق» ، وقال : تفاق بالتركية معناه القوس من الحديد ، وهذا ما نقله ابن الأثير ٢٢/٨ ، والحسيني في أخبار الدولة السلجوقية ، ١ ، انظر أيضاً راحة الصدور ، ١٤٥ - ١٤٦ وعنده أن يونس هو اسم الذي توفي في زمان شبابه ،
- The Ghaznavids, 219; the Cambridge History of Iran, V. 17.
- ٣٣ - دولة آل سلجوق ، ٥ - ٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١ - ٣ . الكامل ٢٩٦/٧ - ٩٧ ، ٢٢/٠ - ٢٣ ، راحة الصدور ، ١٤٥ - ١٥٣ .
- ٣٤ - راحة الصدور ، ١٤٨ - ١٥١ .
- ٣٥ - The Ghaznavids, 223-224. وقد شك المستشرق الفرنسي كلود كاهين بأن شيئاً من هذا القبيل قد وقع في مثل هذا التاريخ وقد فعل ذلك في معرض رده على مقال كان ابراهيم كافس أوغلو أستاذ التاريخ التركي في جامعة استانبول قد برهن فيه على صحة تاريخ هذا الحادث ولقد ذكر لي الأستاذ ابراهيم شخصياً بأنه مؤمراً على أدلة جديدة تثبت ما ذهب اليه وتدحض شكوك كاهين .
- ٣٦ - أخبار الدولة السلجوقية ، ٣ ، دولة آل سلجوق ، ٥ ، الكامل ، ٢٢/٨ - ٢٣ ، ياقوت معجم البلدان ، The Ghaznavids, 224 .
- ٣٧ - راحة الصدور ، ١٥٤ .
- ٣٨ - الكامل ، ٢٣٧/٧ - ٣٣٩ ، راحة الصدور ، ١٥٤ .
- ٣٩ - البيهقي ، ١٢ - ١٣ ، ٦٧ ، ٧٣ - ٧٤ ، ١٣٩ - ١٤١ ،
- The Ghaznavids, 227-228.
- ٤٠ - البيهقي ، ٦٨ ، ٤٢١ - ٤٢٣ .
- ٤١ - البيهقي ، ٤٣٧ .
- ٤٢ - البيهقي ، ٤٧٤ - ٤٧٥ ، الكامل ، ٢٣/٨ ، راحة الصدور ، ١٥٤ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ ،
- The Ghaznavids, 225-226 the Cambridge History of Iran, V. 18-19.
- ٤٣ - البيهقي ، ٤٤٩ - ٥٠٢ - ٥٠٦ ، الكامل ٣٣٨/٧ - ٣٣٩/٨ ، ٧٨ ، ٧٩ ، راحة الصدور ، ١٥٤ - ١٥٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ ، رسالة ابن فضلان ٩٧ ، الكاشغري ، ١٩/٣ ، مفاتيح العلوم ، ٧٣ ،
- The Ghaznavids, 225-226; the Cambridge History of Iran, V. 19-20.
- ٤٤ - البيهقي ، ٥٠٢ - ٥٢٨ ، راحة الصدور ، ١٥٥ - ١٥٦ ، الكامل ، ٢٣/٨ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ - ٥ ،
- The Ghaznavids, 241-242; the Cambridge History of Iran, V. 19-20.
- ٤٥ - البيهقي ، ٥٢٨ - ٥٣١ ، راحة الصدور ، ١٥٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٥ ، الكامل ، ٢٣/٨ -

The Ghaznavids, 242; the Cambridge History of Iran, V. 20.

The Ghaznavids, 243.

- ٤٦

٤٧- البيهقي ، ٥٣٥ - ٥٣٦ ، راحة الصدور ، ١٥٧ .

٤٨- البيهقي ، ٥٤٤ - ٥٤٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٧ ،

The Ghaznavids, 242-234.

٤٩- البيهقي ، ٥٤٥ ، ٥٨١ - ٥٩٣ ، الكامل ١٧/٨ ، ٢٤ - ٢٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٥ - ٩ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦ ، راحة الصدور ، ١٥٨ ،

The Cambridge History of Iran, V. 20.

٥٠- هذه حادثة صارخة عن طبيعة العلاقات بين الحاكم والمحكوم والمحكوم في دول الخلافة العباسية ، وتبين النظرية والقاعدة السياسية للحكام ، وهي جديرة بالاهتمام والتعقب .

٥١- ربما مما ربحوه من القوات الغزنوية ولاظهار الابهة فقط .

٥٢- البيهقي ، ٥٩٤ - ٦٠٤ ، الكامل ، ٢٥/٨ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٩ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦ - ٧ ،

The Ghaznavids, 244-245; the Cambridge History of Iran, V. 20.

٥٣- البيهقي ، ٦٠٥ - ٦٠٧ ، ٦١٥ ، ٦٢١ ، ٦٢٤ - ٦٢٥ ، ٦٨٠ - ٦٩١ ، راحة الصدور ، ١٦٢ - ١٦٥ ، الكامل ٢٥/٨ - ٢٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٩ - ١٢ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ ،

The Ghaznavids, 243-258; the Cambridge History of Iran, V. 21-23.

٥٤- يبدو أنه كان زوجا لامها ولم يكن أخا لوالدهما .

٥٥- راحة الصدور ، ١٦٥ هذا وإن مثل هذا النوع من القصص التي تحض على التوحيد كثيرة في الادب العربي منها ما قام به المهلب بن أبي صفرة مع أولاده قبيل وفاته وسوى ذلك ، ولعل الراوندي أو سواه قد اخترع هذه القصة !!

٥٦- راحة الصدور ، ١٦٦ - ١٦٧ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧ - ٨ .

٥٧- هناك خلاف بين المؤرخين حول تاريخ هذا الحادث فالبعض يجعله ٤٣٥ هـ . انظر : أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ ، راحة الصدور ، ١٦٧ - ١٦٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ ، ابن الفلاني ، ٨٣ ، تاريخ العظمي ، ١٧١ ظ - ١٧٣ ظ ، المنتظم ، ٩٩/٨ ، ١٠٧ ، ١٣٧ ، الكامل ، ٣٨/٨ ، ٤٤ ، مرآة الزمان - مخطوطة المتحف البريطاني - ، ٢٣٣ و ، البستان الجامع ، ٨٧ - ظ ، التاريخ المنصوري ، ٧٢ - ظ ، الاعلاق الخطيرة - قسم فسرین مخطوطة المتحف البريطاني - ، ٨١ - ظ ، ابن العميد ، ٥٤٠ - ٥٤١ ، ابن جنفل ، ٢٢٠/٤ - ظ ، عيون اخبار الاعيان لاحمد البغدادي - مخطوطة المتحف البريطاني - ، ٢١٩ - ظ .

الفصل الثاني

- ١- كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد المتوفى سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م ، مخطوطة لندن ١٩١ وظ ، نسخة تركية ، ١٢٢ ظ - ١٢٣ و .
- ٢- صورة الأرض لابن حوقل ، ١٥٣ ، الاعلاق النفيسة ، ١٠٧ ، مختصر كتاب البلدان ، ٩١ - ٩٢ ، الاصطخري ، ٤٢ ، أحسن التقاسيم ، ١٨٦ ، معجم البلدان ، مادة الشام .
- ٣- انظر تاريخ خليفة ، ٣٢٦/١ ، الطبري ، ٥٤٠/٥ - ٥٤٢ ، ابن عساکر ، ٢١١/٦ و - ٢١٢ ظ . Hudud al-'Alam 148; Nuzhat al-Qulub, 262.
- ٤- ديوان ابن أبي حصينة ، ١٥٩/١ - ١٦٣ ، وخاصة قوله :
فما رعت حقنا كلب ولا حفظت لنا الصنيعة قحطان ولا أد
قصدت الشام إذ غابت فوارسه والذهب يرقص حتى يحضر الابد
وأطمعتم حماه في ممالكنا والمطعم السوء مقرون به الحسد
انظر أيضاً ، مرآة الزمان حوادث سنتي ٤٥٢ هـ - ٤٧١ هـ (مخطوطة أحمد الثالث) ، سيرة المؤيد في الدين ، ١٠١ ، هذا وسنبحث ثورة البساسيري ودور المؤيد في الدين فيها في فصل مقبل بشيء كبير من التفصيل .
- ٥- انظر ابن القلانسي ، ٢ - ٢٤ ، مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، ٨٧ - ٩٥ .
- ٦- The Emirate of Aleppo, 37-42 96-101.
- الحمدانية هم حكام حلب زمن العزيز الفاطمي ودغفل بن جراح كان أمير طليء وقد حاول أكثر من مرة أن يستقل بفلسطين ويفرد بحكمها دون الفاطميين .
- ٧- ابن القلانسي ، ٩٦ - ٩٧ ، ١٢٠ ، الكامل ١٥٠/٨ .
- ٨- انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، ٦٤ - ٧٦ .
- ٩- ابن القلانسي ، ١٣٩ ، الكامل ، ١٩٩/٨ - ٢٠٠ .
- ١٠- صبح الاعشى ، ٣٤٠/١ ، قلائد الجمان ، ١١٦ .
- ١١- صورة الأرض ، ٢٠٥ ، انظر أيضاً جمهرة ابن حزم ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ، بغية الطلب ، أياصوفيا ، ٤٨٢ - ٤٨٤ ، ابن خلدون ٥٤٥/٤ ، صبح الاعشى ، ٣٤٠/١ - ٣٤٣ .
- ١٢- صورة الأرض ، ١٩١ - ١٩٢ .
- The Emirate of Aleppo, 69-84.
- ١٣- The Emirate of Aleppo, 89.
- ١٤- أحسن التقاسيم ، ١٣٥ - ١٣٧ ، المسالك والممالك لابن خردادبه ، ٩٤ - ٩٧ ، الاعلاق النفيسة ، ١٠٦ ، مختصر كتاب البلدات ، ١٢٨ ، الاصطخري ، ٥٢ ، صورة الأرض ، ١٨٩ ، معجم البلدان ، آثار البلاد للزويني ، ٣٥١ ، تقويم البلدان ٢٢٣ ، نخبة الدهر ، ١٩٠ . Hudud al-'Alam, 140.
- ١٥- The Emirate of Aleppo, 97-101.
- ١٦- ابن القلانسي ، ١٠٦ - ١٠٧ ، العظمي ، ١٨٩ ، و ، تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، الكامل - طبعة لندن - ٣٣٣/٩ - ٣٣٤ ، مرآة الزمان حوادث سنة ٤٣٣ هـ - ٤٧٤ هـ اتماظ الحنفاء حوادث ٤٣٣ هـ ، زبدة الحلب ، ٣٤/٢ - ٣٦ - ٤٠ - ٤١ ، ٧٥ - ٧٩ ، بغية الطلب - أحمد الثالث - ١٤٣/٧ ، و ، ابن

العميد ، ٥٦٨ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و- ظ ، تاريخ الاسلام للذهبي - OR 50 - ١١٧ ، النجوم الزاهرة ١١٣/٧ - ١١٤ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٧٤/١ .

١٧ - انظر The Emirate of Aleppo, 235-254 ومثال على ردات الفعل ما حدث في حلب سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، فلقد كان في حلب عدداً من الكنائس أشهرها واحدة ينسب أمر بنائها الى القديسة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الكبير المتوفية سنة ٣٢٧ م ، وفي سنة ٥١٨ هـ حوصرت حلب من قبل جيش صليبي ، وقام هذا بنش بعض مقابر المسلمين التي كانت واقعة خارج أسوار حلب ، فما كان من قاضي حلب محمد بن يحيى الخشاش إلا أن استولى على أربعة كنائس من الست كنائس التي ملكها نصارى حلب وحوّلها جميعاً الى مساجد ، وما زالت هذه المساجد معروفة في حلب . انظر زبدة الحلب ، ٢٢٤/٢ ، الاعلاق الخطيرة ، ٣١/١ ، ٤١ ، ٤٥ - ٤٦ ، الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ، ٥٩ - ٦٢ ، ٦٧ .

١٨ - معجم الادباء (عثمان بن عبدالله الطرسوسي) ، بغية الطلب ، أيا صوفيا ، ٥١ و ٧١ ظ ، تاريخ أخبار القرامطة ، ٩٢ .

Encyclopaedia of Islam, new Edn, London 1960, Ahdath.

١٩ - ابن القلانسي ، ٣ - ٥٤ ، غتارات من كتابات المؤرخين العرب ، ٨٧ - ٩٥ ، تاريخ أخبار القرامطة ، ٩٥ - ١٠٨ ، المغني ، مخطوطة برتو باشا ، ٣٠٦ و- ٣١١ ظ ، ٣١٢ ظ - ٣١٣ و .

٢٠ - لقد بحث أمر أحداث شمال بلاد الشام بشكل مفصل في كتابي بالانكليزية The Emirate of Aleppo pp. 255-261. فليراجع .

٢١ - انظر ذيل مسكويه ، ١٧٦ - ١٧٩ ، الكامل ٩٨/٧ . دولة بني عقيل في الموصل ، ٥٠ - ٥١ .

٢٢ - ذيل مسكويه ، ٢٨٠ - ٢٨٤ ، الكامل ١٨١/٧ - ١٨٢ .

٢٣ - ذيل مسكويه ، ٢٨٩ - ٣٩٠ ، الكامل ٢٠٩/٧ - ٢١٠ .

٢٤ - دولة بني عقيل بالموصل ، ٥٧ - ٥٨ .

٢٥ - ذيل تجارب الامم ، ١٧٦ - ١٧٨ ، تاريخ الفارقي ، ٤٩ - ٥٨ ، الكامل ، ١٢١/٧ - ١٢٢ ، ١٤٢ .

٢٦ - صورة الأرض ، ١٩٥ ، ذيل تجارب الامم ، ١٧٨ - ١٨٠ ، الكامل ، ١٤٣/٧ - ١٤٤ ، تاريخ الفارقي ، ٥٩

The Islamic Dynasties, 53-54.

٢٧ - المنتظم ، ١١٧/٨ ، العظمي ، ١٧١ ظ - ١٧٢ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٥ ظ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ ، الكامل ، ٣٤١/٧ - ٣٤٤ ، التاريخ المنصوري ، ٧٢ ظ ، تاريخ دول الاسلام للذهبي ، ١٩٩/١ ، البستان الجامع ، ٨٧ و ، حوادث السنين ، ١٤٢ و ، ابن العميد ، ٥٤٠ - ٥٤١ ، الدرة المضية ، ٣٥٥ .

٢٨ - المنتظم ، ١٣٦/٨ ، الكامل ٥٠/٨ ، ٩٣ .

The Buwayhid Dynasty of Baghdad, 112-113.

٢٩ - المنتظم ، ١١٩/٨ ، ١٢٧ ، ١٥٩ - ١٦٥ ، العظمي ، ١٧٧ ظ - ١٧٨ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٦ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ - ٩ ، تاريخ الدولة العباسية - مؤلف مجهول - ، ٩٤ ظ - ٩٦ و ، الكامل ، ٤٠/٨ ، ٤٢ ، ٦٧ - ٦٨ ، ٧٠ - ٧٢ ، العبر للذهبي ، ٢١٢/٣ ، النجوم الزاهرة ، ٥٧/٥ ، انظر أيضاً ترجمة البساسيري الملحقه في آخر الكتاب ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ - ١٨ ، راحة الصدور ، ٦٩ - ١٧٠ ،

Bar Hebraeus, 207; The Buwayhid Dynasty of Baghdad, 113-115; Pre-Ottoman Turkey, 23-24;

History of the crusades, by, M.W. Balduin, I, 143-145.

٣٠- مسيرة المؤيد في الدين ، ١٠٠ - ١٢٩ ، العظمي ، ١٧٨ ، و ، المنتظم ، ١٦٣/٨ ، ابن ميسر ، ٨/٢ ، الكامل ٨١/٨ ، ترجمة البساسيري الملحق بهذا الكتاب ، مرآة الزمان ، سويم ، ٥ - ، النجوم الزاهرة ، ٥٧/٥ ، العبر ، ٢١٢/٣ ، ٢١٥ ،

The Emirate of Aleppo, 148-150.

٣١- سيرة المؤيد ، ١٢٩ - ١٣٥ ، الكامل ، ٧٧/٨ ، مرآة ، سويم ، ٤ - ١٤ ، العبر للذهبي ، ٢١٥/٣ .
٣٢- سيرة المؤيد في الدين ، ١٢٩ - ١٨٤ ، العظمي ، ١٧٨ ، و - ظ ، ١٨٤ ، و ، ابن القلانسي ، ٨٦ ، المنتظم ، ١٦٤/٨ - ٢١٢ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٦ و - ١٢٧ ، و ، ابن ميسر ، ٧/٢ - ٨ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ - ٢١ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٩ - ١٧ ، راحة الصدور ، ١٧٢ - ١٧٦ ، تاريخ الفارقي ، ١٥٢ - ١٦٠ ، الكامل ، ٧٢/٨ - ٨٧ ، تاريخ الدولة العباسية ، ٩٥ و - ٩٦ ، و ، مرآة الزمان - سويم ، ٤ - ٦٧ ، زبدة الخلب ، ٢٧٣/١ - ٢٧٤ ، ترجمة البساسيري الملحق في آخر هذا الكتاب ، ابن العميد ، ٥٤٤ - ٥٤٥ ، اتعاظ الخنفا ، حوادث سنة ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ هـ ، المقفى - مجلد بروتو باشا ، ٢٩٢ ، و ، تاريخ الاسلام الذهبي ، ٥٠ OR ٢٤ ظ ، دول الاسلام ٢٠٦/١ ، العبر للذهبي ، ٢١٥/٣ - ٢١٨ ، المختصر في أخبار البشر ، ١ - ١٤٩ ، ١٧٨ ، الدرة المضية ، ٣٦٩ - ٣٧٠ ، ابن خلدون ، ٥٨٥/٤ ، عقد الجمان ، ٥٧٨/١١ ، ابن جنفل ٢٠١/٤ ظ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ، البستان الجامع ، ٨٩ ، و ، النجوم الزاهرة ، ٦٧/٥ ،

Bar Hebraeus, 207, Pre-Ottoman Turkey, 24-25.

٣٣- المنتظم ٨ - ١٨٥١ ، البداية والنهاية ، ٦٤/١٢ ، النجوم الزاهرة ، ٥٤/٥ - ٥٥ .
٣٤- ارجع إلى كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء .
٣٥- الكامل ، ٩٢/٨ - ٩٤ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ١٨ - ٢٧ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٢١ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٧٨ - ١٠٢ ، راحة الصدور ، ١٧٦ - ١٧٨ ، المنتظم ، ٢١٨/٨ - ٢٣٤ .

الفصل الثالث

- ١- بغية الطلب ، أيا صوفيا ، ١٩٥ و ، ظ - ١٩٦ و .
- ٢- ديوان ابن أبي حصينة ، ٣٤/١ - ٣٧ .
- ٣- انظر تفاصيل هذه الأمور في The Emirate of Aleppo, 155-162.
- ٤- ابن أبي الهيجاء ، ١٢٨ ظ ، ابن القلانسي ، ٩٢-٩٣ ، العظمي ، ١٨٠ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٤/٩ - ١٦٥ ، زبدة الحلب ، ٢٩١/١ - ٢٩٧ ، ٩/٢ ، مرآة الزمان أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٥ - ٤٥٧ هـ ، الذهبي ، ٥٠ ، ٣ ، ١١٢ و ، ابن كثير ، ١١٣/١١ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، عقد الجمان ، ٥٨١ - ٥٨٠/١١ ، ابن خلدون ٥٨٦/٤ - ٥٨٧ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .
- ٥- ابن القلانسي ، ٩٣ ، العظمي ، ١٨٧ ظ ، زبدة الحلب ، ١٠/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٧ هـ .
- ٦- أخبرني أحد الاساتذة الأتراك في جامعة استانبول بأن أحد الباحثين الأتراك فسر كلمة ناوكي على أنها تعني خارجي . ولقد اعتبر السلاحفة جماعة التركمان العراقية والناوكية خوارج على سلطتهم ، هذا وفي معاجم اللغة الفارسية جاءت كلمة ناوك بمعنى القوس .
- ٧- العظمي ، ١٨٠ و- ظ ، ابن القلانسي ، ٩٢-٩٣ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٤/٩ - ١٦٥ ، ٤٠/١٠ - ٤١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ، ١٦٦ و ، زبدة الحلب ، ٢٩٤/١ - ٢٩٧ ، ١٠/٢ ، ٣١ - ٣٢ ، ٥٨ - ٥٥ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، ابن خلدون ، ٥٨٦/٤ - ٥٨٧ مرآة الزمان ، سويم ، ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٤٣ - ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٤٣ ،
- ٨- زبدة الحلب ، ١٠/٢ .
- ٩- الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، ابن خلدون ، ٥٨٧/٤ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .
- ١٠- مرآة الزمان ، سويم ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، زبدة الحلب ، ١٠/٢ ، النجوم الزاهرة ٧٩/٥ .
- ١١- ابن القلانسي ، ١٠٦ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ٣٨/١٠ - ٣٩ ، العظمي ، ١٨٢ و ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٩ هـ - ٤٦٨ هـ ، زبدة الحلب ، ٣٢ - ٣١/٢ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٣ و ، ابن خلدون ، ٣٢٨/١ ، ٣٢٨/٤ .
- ١٢- زبدة الحلب ، ١١/٢ - ١٢ .
- ١٣- بسلوس ، الترجمة الانكليزية ، ٣٥٢ - ٣٥٦ ، ابن القلانسي ، ٩٤ ، تاريخ آل سلجوق ، ٣٥ ، العظمي ، ١٨١ و- ط ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٨ ظ ، ابن العميد ٥٥٤ - ٥٥٥ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٦١ - ٤٦٢ هـ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ، الذهبي ، ٥٠ ، ٥٠ ، دول الاسلام ٢٠٨/١ ، العبر للذهبي ، ٢٣١/٣ ، ٢٤٨ - ٢٤٩ . ابن كثير ، ٩٩/١١ ، ابن جنبل ، ٢٢٤/٤ ظ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .
- History of the crusades, setton, 148- 149, 192-193; Bar Hebiaeus, 218-219.

١٤ - أي الجزية .

١٥ - تاريخ آل سلجوق ، ٣٦ - ٣٧ ، ابن ميسر ، ١٩/٢ - ٢٠ ، المنتظم ، ٢٦٠/٨ ، ابن أبي الهيثم ، ١٢٩ ط ، الكامل - ط ليدن - ٤٢/٩ - ٤٤ ، ابن العميد - ٥٥ - ٥٦ ، العظمي ، ١٨١ ط ، زبدة الحلب ، ١٦/٢ - ٢٣ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٠/٣ و - ٢٨٥ ط ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤٦ ، ٥٣ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٣ هـ ، راحة الصدور ، ١٨٨ - ١٩٠ ، تاريخ الفارقي ، ١٨٩ - ١٩٠ ، ابن القلانسي ، ٩٩ ، أتماع الحنفا ، حوادث سنة ٤٦٢ هـ ، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ، ١٩٨ - ٢٠١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٢ ط - ١٣٣ ، الدرر المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، ٣٨٨ - ٣٩٢ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ، ابن كثير ، ١٠١/١١ ، المختصر ، ٥ ط - ٦ و ، العبر 50 OR في أخبار البشر ، ١٩٦/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، للذهبي ، ٥٠/٣ ، دول الاسلام للذهبي ، ٢٠٩/١ - ٢١٠ ، النجوم الزاهرة ، ٨٦/٥ - ٨٧ ، ابن خلدون ، ٧٨٧/٤ ، Michael Psellus, 352-356; Bar hebraeus, 220; Setton, 1,148, 191; Pre-Ottoman Turkey, 29; Edessa, 220-21; ما جاء حول منازكر في المصادر العربية وغيرها من مطبوع ومخطوط ونشرته في كتاب مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، ٩٦ - ١٥١ . ومفيد أن ننبه هنا بأن ما شرحناه في النص عن السوقية لدى التركمان يمكن الاستفادة منه حين تدرس الفتوحات العربية وعلى الأخص معركة اليرموك .

١٦ - ابن حيوس ، ٥١١/٢ - ٥١٢ ، ابن القلانسي ، ١٠٦ - ١٠٧ ، العظمي ، ١٨٢ و - ط . مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٦٤ - ٤٦٧ هـ ، زبدة الحلب ، ٣٠/٢ - ٣٢ ، ٤٢ ، المنتظم ، ٣٠٤/٨ ، ابن أبي الهيثم ، ١٣٠ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ٧٢/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦١ - ٥٦٢ ، النجوم الزاهرة ، ١٠٠/٥ - ١٠١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ و ، حوادث السنين ، ١٥٤ و ، تاريخ الاسلام للذهبي ، 50 OR ، ١٠ و ١١٢ و ، دول الاسلام للذهبي ، ٢/٢ ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، ٢٠٢ ، ابن كثير ، ١١٢/١١ ، ابن جنفل ، ٢٣٢/٤ ، عقد الجمان ، ٥٨٠/١١ .

١٧ - مرآة الزمان ، سويم ، ١٤٣ .

١٨ - الكامل ، ط ليدن ، ٤٠/١٠ - ٤١ ، ابن ميسر ، ٢٠/٢ . انظر أيضاً ترجمة بدر الجبالي مع ترجمة أنسز في ملاحق هذا الكتاب .

١٩ - ابن أبي الهيثم ، ١٢٩ ط - ١٣٠ و ، ابن ميسر ، ٢٠/٢ ، الكامل ، ط ليدن ، ٤٠/١٠ - ٤١ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٤ هـ (مخطوطة أحمد الثالث) .

٢٠ - انظر ترجمة بدر الجبالي المنشورة في آخر هذا الكتاب بين الملاحق .

٢١ - ابن القلانسي ، ٩٨ - ٩٩ ، ابن أبي الهيثم ، ١٢٠ ط ، ابن الاثير ، ط . ليدن ، ٤٦/١٠ ، مرآة الزمان ، مخطوطة أحمد الثالث ، حوادث ٤٦٢ و ٤٦٦ هـ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ، تاريخ الاسلام للذهبي ، 50 OR ، ٦ ط ، النجوم الزاهرة ، ٨١/٥ . انظر أيضاً ترجمة أنسز في آخر الكتاب بين الملاحق .

٢٢ - مرآة الزمان ، سويم ، ١٧١ - ١٧٥ .

٢٣ - ابن القلانسي ، ١٠٨ ، ابن أبي الهيثم ، ١٣٠ ط - ١٣١ و ، ابن ميسر ، ٢٤/٢ ، الكامل ، ١٢٢/٨ ، مرآة الزمان ، سويم ، ١٧٨ - ١٧٩ ، ١٨٥ - ١٨٦ ، ابن العميد ، ٥٦٥ - ٥٦٧ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، 50 OR ، ١٠ و ، دول الاسلام للذهبي ، ٣/٢ ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٠١/٥ - ١٠٢ ، ابن كثير ، ١١٢/١١ - ١١٣ ، ابن خلدون ، ١٣٦/٤ - ١٣٧ . انظر أيضاً ترجمة أنسز في آخر الكتاب بين الملاحق .

- ٢٤ - زبدة الحلب ، ٤٦/٢ - ٤٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ط ، مرآة الزمان ، سويم ١٧٨ - ١٧٩ .
- ٢٥ - ابن القلانسي ، ١٠٩ - ١١٢ ، ابن عساكر ، ٤٣٣/١٠ - ٤٣٤ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢١ و ، الكامل ، ١٢٣/٨ - ١٢٤ ، ابن ميسر ، ٢٥/٢ - ٢٦ ، ابن أبي الدم ، ١٢٤ و ، زبدة الحلب ، ٦٥/٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ١٨٠ - ١٨٥ ، ١٩٧ - ٢٠١ ، ابن العميد ، ٥٦٥ - ٥٦٧ ، تاريخ الاسلام للذهبي OR 50 ، ١٠ و - ١١ و ، العبر للذهبي ، ٢٦٩/٣ - ٢٧٥ ، ابن كثير ، ١١٢/١١ - ١١٩ . انظر أيضاً ترجمة بدر الجعالي مع ترجمة أئمز بين الملاحق في آخر الكتاب .
- ٢٦ - ابن القلانسي ، ١٠٨ ، المنتظم ، ٣٠٤/٨ ، الكامل ، ط ، ليدن ، ١٦٥/٩ ، ١٠/١٠ ، حوادث سنة ٤٦٧ هـ ، حوادث السنين ، ١٨٤ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، 50 OR ١١٢ و ، العبر للذهبي ، ٢٢٦/٣ ، المختصر في أخبار البشر ١/١٤٩ ، ٢٠٢ ، ابن العميد ، ٥٦٣ - ٥٦٥ ، النجوم الزاهرة ، ١٠٠/٥ - ١٠١ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، ابن جنفل ، ٢٣٣/٤ و .
- ٢٧ - انظر زبدة الحلب ، ٤٦/٢ - ٤٨ .
- ٢٨ - ابن حيوس ، ٢٠٥/١ - ٢٠٧ ، العظمي ، ١٨١ ط ، ١٨٣ و ، زبدة ، ٤٦/٢ - ٤٧ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ط ، الكامل ، ط . ليدن ، ٦٩/١٠ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٨ هـ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، 50 OR ، ١٠ و ، دول الاسلام للذهبي ، ٣/٢ ، ابن كثير ، ١١٢/١١ ، ابن جنفل ، ٢٣٢/٤ و .
- ٢٩ - ابن حيوس ، ٢٧١/١ - ٢٧٣ ، زبدة ، ٤٦/٢ - ٤٨ ، مرآة الزمان حوادث سنة ٤٦٨ هـ .
- ٣٠ - ابن القلانسي ، ١٠٨ - ١٠٩ ، العظمي ، ١٨٣ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ط ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ابن العميد ، ٥٦٣ - ٥٦٥ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ط ١٦٦ و ، ١٤٦/٧ و - ٣ ، زبدة الحلب ، ٤٩/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٦٨ هـ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، المختصر في أخبار البشر ، ١/١٤٩ ، ٢٠٢ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ط ، البستان الجامع ، ٩١ ط ، تاريخ الاسلام للذهبي ، 50 OR ، ١١٢ و ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ط .
- ٣١ - ابن القلانسي ، ١٠٩ ، العظمي ، ١٨٣ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ابن العميد ، ٥٦٢ - ٥٦٣ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ط ، ١٤٢/٧ ط - ١٤٣ و ، ١٤٦ و - ١٤٧ و ، زبدة الحلب ، ٤٨/٢ ، ٥٣ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ط ، البستان الجامع ، ٩١ و ، المختصر في أخبار البشر ، ١/٢٠٢ . عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ط .
- ٣٢ - ابن حيوس ، ٤٨٢/٢ - ٤٨٣ - ٤٨٣ ، ٦٤٧ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث - ١٦٥/٢ ط - ١١٦ و ، ١٤٣/٧ ط - ١٤٤ و ط زبدة ، ٥٣/٢ - ٥٥ .
- ٣٣ - بغية الطالب ، أحمد الثالث ١٦٦/٢ و ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ .
- ٣٤ - ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، ابن القلانسي ، ١١٢ ، المنتظم ، ٣١٣/٨ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٧١/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦٧ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٤٣/٧ و - ١٤٤ و ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ - ٥٦ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ، ٤٦٨ هـ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، المختصر في أخبار البشر ، ١/٢٠٣ ، ابن خلدون ١٣٧/٤ .
- ٣٥ - ابن حيوس . ١٣٩/١ - ١٤٠ ، المنتظم ، ٣٠٧/٨ ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ - ٥٦ .
- ٣٦ - ابن القلانسي ، ١٢ ، العظمي ، ١٨٣ ط ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، الكامل ط وليدن ، ٧١/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦٧ - ٥٦٨ ، المنتظم ، ٣١٢/٨ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٦٦/٢ و ، ١٤٣/٧ ط -

- ١٤٤ و، زبدة الحلب، ٥٦/٢ - ٥٨، مرآة الزمان، أحمد الثالث، حوادث سنة ٤٧١ هـ، البستان الجامع، ٩١ و، تاريخ الاسلام للذهبي، OR 50، ١٠، الدرة المضية، ٤٠٥، ابن أبي الدم، ١٣٤ و، المختصر في أخبار البشر، ٢٠٣/١، ابن خلدون ١٣٧/٤.
- ٣٧ - ابن حيوس، ٥٢/١ - ٥٣، ابن القلانسي، ١١٢، زبدة الحلب، ٥٨/٢ - ٦٢، بغية الطلب، أحمد الثالث، ١٤٤/٧ هـ - ١٤٥ ظ، مرآة الزمان، أحمد الثالث، حوادث سنة ٤٧١ هـ.
- ٣٨ - ابن القلانسي، ١١٢، ابن عساكر، ٤٣٣/١٠ - ٤٣٤، زبدة الحلب، ٦٢/٢ - ٦٥، بغية الطلب، أحمد الثالث، ١٤٥/٧ و - ظ، الاعلاق الخطيرة - قسم قنسرين، مخطوطة المتحف البريطاني - ٦٠ و - ظ، ابن العميد، ٥٦٦ - ٥٦٧.
- ٣٩ - ابن حيوس، ٥٢/١ - ٥٣، ٤٨٢/٢ - ٤٨٣، ٥٧٠ - ٥٧٥، العظمي، ١٨٣ ظ، ابن القلانسي، ١١٤، زبدة الحلب، ٥٧/٢ - ٦٥، بغية الطلب، أحمد الثالث، ١٤٣/٧ ظ - ١٤٦ ظ، مرآة الزمان، أحمد الثالث، حوادث سنة ٤٧٢ هـ، أبي خلدون، ٥٨٨/٤.
- ٤٠ - زبدة الحلب، ١١/٢ - ١٣، ١٦، مرآة الزمان، سويم، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩، ١٩٧، المنتظم، ٢٥٤/٨ - ٢٥٥.
- ٤١ - ابن أبي الهيجاء، ١٣١ و، العظمي، ١٨٣ ظ، الكامل، ط، ليدن، ٧١/١٠ - ٧٢، ابن مسير، ٢٦/٢، زبدة، ٦٥/٢ - ٦٥، مرآة الزمان، سويم، ٢٠١، ابن أبي الدم، ١٣٤ و، ابن العميد، ٥٦٦ - ٥٦٧، البستان الجامع، ٩٠ و - ظ، دول الاسلام للذهبي، ٤/٢، تاريخ الاسلام للذهبي، OR 50، ١١ و، ابن كثير، ١١٩/١١، المختصر في أخبار البشر، ٢٠٣/١، ابن خلدون، ١٣٧/٤ - ١٣٨.
- ٤٢ - زبدة الحلب، ٦٥/٢ - ٦٧، مرآة الزمان، سويم، ٢٠١ - ٢٠٢.
- ٤٣ - ابن حيوس، ٥٧٠/٢ - ٥٧٠، زبدة الحلب، ٦٧/٢، بغية الطلب، أحمد الثالث، ١٤٦/٧ و - ١٤٨ ظ، مرآة الزمان، سويم، ٢٠٢ - ٢٠٣، ابن خلدون، ٥٨٨/٤.
- ٤٤ - ابن أبي الهيجاء، ١٣٠ و، الكامل، ط، ليدن، ٧٤/١٠، بغية الطلب، أحمد الثالث، ١٤٥/٧ ظ، زبدة الحلب، ٦٦/٢ - ٦٧، مرآة الزمان، سويم، ٣٠١، ابن خلدون، ٥٧١/٤.
- ٤٥ - ابن القلانسي، ١١٣، العظمي، ١٨٤ و، الكامل، ط، ليدن، ١٦٥/٩، ٧٤/١٠، المنتظم، ٣٢٣/٨، ابن العميد، ٥٦٨، زبدة الحلب، ٦٧/٢ - ٧٠، ٧٣، ٧٥، بغية الطلب، أحمد الثالث، ١٤٥/٧ ظ - ١٤٧ ظ، مرآة الزمان، سويم، ٢٠٢ - ٢٠٣، ٢٠٧، ابن أبي الدم، ١٣٤ و، تاريخ آل سلجوق، ٦٦، التاريخ المنصوري، ٧٤ ظ، المختصر في أخبار البشر ١٤٩/١٥ - ١٥٠، ٢٠٣، دول الاسلام للذهبي، ٤/٢، تاريخ الاسلام للذهبي، OR 50، ١١ و الدرة المضية، ٤٠٦، ٤٠٦، عقد الجمان، ٥٨١/١١، ابن خلدون، ٥٧١/٤ - ٥٧٢، ٥٨٨، منجم باثي، ٣٢٨/١ ظ.
- ٤٦ - العظمي، ١٨٤ ظ، ابن أبي الهيجاء، ١٣١ ظ، ابن العميد، ٥٦٨، بغية الطلب، أحمد الثالث، ١٤٧/٧ و - ظ، زبدة الحلب، ٧٥/٢، ٧٧، مرآة الزمان، أحمد الثالث، حوادث سنة ٤٧٤ هـ، التاريخ المنصوري، ٧٤ ظ، تاريخ الاسلام للذهبي، OR 50، ١١ ظ، ابن أبي الدم، ١٢٤ و - ظ، دول الاسلام للذهبي، ٤/٢، النجوم الزاهرة، ١١٣/٥ - ١١٤.
- ٤٧ - زبدة الحلب، ٧٧/٢، مرآة الزمان، سويم، ٢١٥.
- ٤٨ - ابن أبي الهيجاء، ١٣١ ظ، الكامل، ط، ليدن، ٧٨/١٠، مرآة الزمان، سويم، ٢٠٨، دول الاسلام، ٤/٢، النجوم الزاهرة، ١١٣/٥.
- ٤٩ - الكامل، ط، ليدن، ٧٨/١٠، زبدة الحلب، ٧٥/٢، ٧٨، ٧٩، مرآة الزمان، سويم، ٢٠٨، ٢١٦.

- ٥٠- ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، ابن القلانسي ، ١١٤ - ١١٥ ، العظيبي ، ١٨٤ ظ - ١٨٥ و ، الكامل ، ط : ليدن ، ٨٢/١٠ ، ٨٤ ، زبدة الحلب ، ٧٨/٢ - ٨٣ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٨ ، ٢١٥ - ٢١٦ ، ٢٢٣ ، وفيات الاعيان مسلم بن قريش ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠/١٢ ، ١٢ و ، ١٦٥ ظ ، العبر للذهبي ، ٣٨٣/٣ ، ابن خلدون ، ٥٧٢/٤ - ٥٧٣ ، البستان الجامع ، ٩١ ظ - ٩٢ و ، ابن كثير ١٢٤/١١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ و ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ - ١١٥ .
- ٥١- ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، العظيبي ، ١٨٥ ظ ، المنتظم ، ٧/٩ ، ١٤ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٨٣/١٠ ، ٨٦ ، ٨٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٩ - ٧١ ، زبدة الحلب ، ٨٤/٢ - ٨٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٦٣ - ٦٤ ، ابن القلانسي ، ١١٧ ، تاريخ الفارقي ، ٢٠٦ - ٢١٠ ، مفرج الكروب ، ١١/١ - ١٤ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٣ - ٣٢٩ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٤/١ - ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠/١٢ ، ١٣ و ، ١٦٥ ظ ، ابن كثير ١٢٤/١١ - ١٢٦ ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ٥٩/١ ، ابن خلدون ، ٥٧٣/٤ - ٥٧٥ ، Bar Hebraeus, 228 .
- ٥٢- زبدة الحلب ، ٨٤/٢ - ٨٥ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٣٢٤ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ .
- ٥٣- العظيبي ، ١٨٣ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن القلانسي ، ١٧ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٦٣ ، زبدة الحلب ، ٨٦/٢ - ٨٨ ، الكامل ، ١٣٦/٨ ، مفرج الكروب ، ١٤/١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٥/١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ ظ ، ابن كثير ، ١٢٦/١١ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٤/٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠/١٢ ، ١٣ و ، Bar Hebraeus, 229; Pre-Ottoman Turkey, 75-77.
- ٥٤- العظيبي ، ١٨٥ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن العميد ، ٥٦٨ - ٥٦٩ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٩١/١٠ - ٩٠ ، الباهر ، ٧ ، زبدة الحلب ، ٨٨/٢ - ٩٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، مفرج الكروب ، ١٥/١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٥ و ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٥/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠/١٢ ، ١٣ ظ ، ابن خلدون ، ٥٧٥/٤ - ٥٧٦ ، ابن كثير ، ١٢٦/١١ ، النجوم الزاهرة ، ١١٩/٥ ، Bar Hebraeus, 229-230 .
- ٥٥- العظيبي ، ١٨٥ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن العميد ، ٥٦٩ - ٥٧١ ، الكامل ، ٩٦/١٠ ، الباهر ، ٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧ و ١٩٨ ظ ، زبدة الحلب ، ٩٤/٢ - ٩٨ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٣٦ - ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ابن أبي الدم ، ١٣٥ و ، مفرج الكروب ، ١٥/١ - ١٦ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٦/١ - ٢٠٧ ، الدرة المضية ، ٤٢٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٤/٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠/١٢ ، ١٤ ظ ، ابن كثير ، ١٣٠/١١ ، ابن خلدون ، ٥٨٩/٤ ، Bar Hebraeus, 230 .
- ٥٦- ابن أبي الهيجاء ، ١٣٣ و ، ابن العميد ، ٥٧٠ - ٥٧١ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٩٧/١٠ - ٩٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٧ ظ - ٩٨ ظ ، زبدة الحلب ، ٩٨/٢ - ٩٩ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٣٩ ، مفرج الكروب ، ١٦/١ - ١٧ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، ابن خلدون ، ٥٨٩/٤ .
- ٥٧- الكامل ، ط . ليدن ، ١٠٥/١٠ ، الباهر ، ٨ ، العظيبي ، ١٨٦ ظ ، زبدة الحلب ، ١٠٠/٢ - ١٠١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٨/٧ و - ٣ ، مفرج الكروب ، ١٨/١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠/١٢ ، ١٥ ظ ، ابن خلدون ، ٥٩٠/٤ ، ابن كثير ، ١٢١ ج ١ ، البستان الجامع ، ٩٢ و .

٥٨ - العظيمي ، ١٨٦ ط ، ابن أبي الهيثماء ، ١٢٣ و ، الكامل ، ط . ليدن ٩٨/١٠ ، ١٠٧ ، الباهر ، ٨ ،
بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٣ ط ، ٢٦٨ ط ، ٢٧٢ و ، زبدة الحلب ، ١٠١/٢ - ١٠٢ ، مرآة
الزمان ، سويم ، ٢٤٠ - ٢٤١ ، مفرج الكروب ، ١٨/١ - ١٩ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ،
١٤ ط ، ابن أبي الدم ، ١٢٦ ط ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، التاريخ المنصورى ، ٧٥ و ، المختصر في
أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، ابن كثير ، ١٣٠/١١ - ١٣١ ، ابن خلدون ، ٥٩٠/٤ ، الروضتين ، ٦١/١ ،
. Bar Herbaeus, 231

الفصل الرابع

- ١ - ابن القلانسي ، ١٣٣ - ١٣٤ .
- ٢ - ابن القلانسي ، ١١٩ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٠٧/١٠ ، الباهر ، ٨ ، زبدة الحلب ، ١٠٢/٢ - ١٠٣ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٢ ط ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ، مرآة الزمان ، سويم ٢٤٤ .
- ٣ - بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٨/٣ و- ط ، زبدة الحلب ، ١٠٤/٢ - ٦٠٥ .
- ٤ - الكامل ، ط . ليدن ، ١٣٣/١٠ - ١٣٤ ، الباهر ، ٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧٥ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٣ ط - ٢٧٢ ط .
- ٥ - مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٤ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٧٨/١٠ - ٩٤ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٣ ط - ٢٧٢ ط ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و- ١٣٦ ط ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ و ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ ، ١١٦ ، ١٢٥ .
- ٦ - الكامل ، ط . ليدن ، ١١٦/١٠ - ١١٧ ، ابن ميسر ، ٢٨/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠ OR ، ١٧ و ، النجوم الزاهرة ، ١٢٨/٥ .
- ٧ - ابن القلانسي ، ١٢٠ - ١٢١ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٣٦/١٠ - ١٣٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٢٠/٥ ط - ٢٢٢ ط ، زبدة الحلب ، ١٠٦/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٢ - ٤٨٤ هـ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ - ٢٣ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠ OR ، ١٩ و- ط ، المختصر في أخبار البشر ، ٢١٢/١ ، ابن كثير ، ١٣٩/١١ - ١٤٠ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٨/٥ ، ١٣٠ ، ١٣٢ طرابلس الشام ، ٧٠ - ٧٢ .
- ٨ - ابن القلانسي ، ١٢١ ، العظمي ، ١٨٧ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١١/١٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٧٢ و ، ٢٢١/٥ ط - ٢٢٢ و ، زبدة الحلب ، ١٠٥/٢ - ١٠٦ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨١ ، ٤٨٤ هـ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ - ٢١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٨/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠ OR ، ١٩ و- ط ، النجوم الزاهرة ، ١٣٢/٥ .
- ٩ - الكامل ، ط . ليدن ، ١٣٣/١٠ - ١٣٤ ، الباهر ، ٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٩/٣ و ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٨٥ و ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٥ - ٦ ، ٧٥ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٢/٥ .
- ١٠ - ابن القلانسي ، ١٢٥ ، تاريخ الدولة العباسية ، ١٠٥ ط ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٤ ، ٧٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٧١ ، زبدة الحلب ، ١٠٦/٢ ، مفرج الكروب ، ٢٣/١ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٤٢/١٠ - ١٤٣ ، الروضتين ، ٦٥/١ .

Bar Hebraeus, 231-32.

- ١١ - زبدة الحلب ، ١٠٦ .
- ١٢ - ابن القلانسي ، ١٢١ - ١٢٤ ، تاريخ الفارقي ، ٢٣٠ - ٢٣٧ ، العظمي ، ١٨٧ ط - ١٨٨ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٤٩/١٠ - ١٥١ ، الباهر ، ١٣ ، المنتظم ، ٧٧/٩ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٤ و- ط ، ابن العميد ، ٥٧٤ ، زبدة الحلب ، ١٠٦/٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٧٢/٢ ط ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٦ هـ ، الروضتين ، ٢١٤/١ ، البستان الجامع ، ٩٢ ط ، النجوم الزاهرة ، ١٣٧/٥ - ١٣٨ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠ OR ، ٢١ ط - ٢١ و ، ابن كثير ، ١٤٤/١١ .

١٣ - ابن القلانسي ، ١٢٦ - ١٣٠ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٧٥ - ٧٦ ، ابن عساكر ، ٤٣٤/١٠ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧٦ - ٧٩ ، راحة الصدور ، ٣١٤ - ٣٢٠ ، العظمي ، ١٨٧ ظ - ١٨٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٤ ، و - ظ ، الكامل ، ١٤٩/١٠ - ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، الباهر ، ١٣ ، المنتظم ، ٧٧/٩ ، ابن العميد ، ٥٧٤ - ٥٧٧ ، زبدة الحلب ، ١٠٦/٢ ، ١٠٨ - ١١٠ ، ١١٩ - ١٢٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٧٢/٣ ، و - ٨٩/٤ ، ٩٥ ، و - مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، ٢٧٢/٣ ، ٨٩/٤ و - ٩٥ ، و - مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٦ - ٤٨٨ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ ظ ، مفرج الكروب ، ٢٢/١ - ٢٥ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢١٤/١ - ٢١٧ ، البستان الجامع ، ٩١ ظ - ٩٢ ، النجوم الزاهرة ، ١٣٧/٥ - ١٣٨ ، ١٥٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠ ، OR 50 ، الروضتين ، ٦٥/١ ، ابن كثير ، ١٤٤/١١ ، Bar Herbraeus, 232 .

١٤ - ارجع إلى الدعوة الاسماعيلية الجديدة للمستشرق الكبير برنارد لويس الذي نقلته إلى العربية . ط . بيروت ١٩٧١ .

١٥ - أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، الترجمة العربية ، ط . القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤١ .
١٦ - ابن القلانسي ، ١٣٠ - ١٣٢ ، ابن عساكر ، ٥٠/٦ ، العظمي ، ١٨٨ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٧٦ - ١٧٥/٨ ، زبدة الحلب ، ١١٩/٢ - ١٢٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٤ و - ظ ، ٨٩/٦ و - ظ ، اب أبي الهيجاء ، ١٢٤ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ - ظ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢١٦/١ - ٢١٧ .

١٧ - ابن القلانسي ، ١٢٤ ، ١٣٢ - ١٣٣ ، ابن ميسر ، ١٩/٢ ، العظمي ، ١٩٠ و - ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٦٨/٨ - ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، زبدة الحلب ، ١٢٢/٢ - ١٢٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٨٩/٦ و - ظ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، ٥٠ ، OR 50 ، ٢١ و - انظر ترجمة خلف بن ملاعب بين الملاحق آخر الكتاب .

١٨ - ابن القلانسي ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، العظمي ، ١٩٠ و - ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٨٤/٨ - ١٨٥ ، زبدة الحلب ، ١٢٧/٢ - ١٢٩ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٤ ، ٨٩/٦ و - ظ ، ١٩ - أعمال الفرنجة ، ٨٢ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩٢ - ٩٦ ، ابن القلانسي ، ١٣٣ - ١٣٦ ، العظمي ، ١٩١ و - ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٨٦/٨ - ١٨٧ ، زبدة الحلب ، ١٢٩/٢ - ١٣٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٨٩/٦ و - ٩٠ ، الحروب الصليبية لرفيق التميمي ، القدس ١٩٤٥ ، ص ٤٤ - ٥٠ ، الحركة الصليبية ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ٢٠٠/١ - ٢١٨ ،

The cursades, by A. Archer and C.L. Kingsford, London 1894, pp 65-75; H. Lamb, the crusades, London 1970, 138-162; S. Runciman, A History of the crusades, penguin, 1, 213-236; A History of the crusades, editor-in-chief, K. Setton; vol.1, 308-326; the crusades, Edited by R. Pernoud, English translation, new york 1964, pp 64-73; crusading warfare, by R.C. Smail, Cambridge 1967, p. 118.

٢٠ - الفوعة الآن تتبع ناحية معر تمصيرين التابعة لمحافظة ادلب ، وهي تبعد عن معر تمصيرين مسافة ٤ كم وعن ادلب ١٣ كم ، انظر التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٥٨ ، ص ٢٥٠ .
٢١ - ابن القلانسي ، ١٣٥ ، العظمي ، ١٩٠ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٧٩/٨ ، زبدة الحلب ، ١٣٨/٢ - ١٤١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٩٢/٦ و - .

٢٢ - أعمال الفرنجة ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ابن القلانسي ، ١٣٧ ، ابن عساكر ، ٥٠/٦ ، العظمي ، ١٩١ و - ١٩٣ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٨٧/٨ - ١٩٠ ، زبدة الحلب ، ١٤١/٢ - ١٤٧ ، بغية الطلب ،

أحمد الثالث ، ١٩٧/٤ ظ - ١٩٨ ، و ، ٩٢/٦ - و ، الحروب الصليبية تأليف رفيق التميمي ، ٥٤ - ٦١ ،
الحركة الصليبية ، ٢٣٨/١ - ٢٤٦ ،

The cursades, by Archer and Kingsford, 77-92; The History of the crusades by Charles Nills, 80-88; the crusades by Harold Lamb, 186-206; A History of the crusades by Steven Runciman, 1, 279-288; Pennsylvania History of the crusades, 1,326-337; the crusades, by Regine pernoud, 81-91.

٢٣ - ابن القلانسي ، ١٤٢ - ١٩٢ ، العظيمي ، ١٩٢ و ١٩٧ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ٢٢٢/٨ - ٢٦٨ ،
بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٨/٣ ظ - ٢٩٠ و ٨٩/٦ - و - ٩٤ - ظ ، زبدة الحلب ، ١٤٦/٢ -
١٧٢ .

مصادر الكتاب

- ٢ - خريدة القصر وجريدة العصر . تحقيق
شكري فيصل . دمشق ، ١٩٥٥ -
١٩٥٩ - ١٩٦٤ .
ابن ابيك الدواداري (عبد الله)
الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية . حققها
صلاح المنجد . القاهرة ١٩٦١ .
بدران (عبد القادر)
تهذيب تاريخ ابن عساکر - دمشق ١٩١٣ .
البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز
معجم ما استمع . حققه مصطفى السقا .
القاهرة ١٩٤٥ .
البيهقي (أبو الفضل)
تاريخ البيهقي - صحائف مسعودي - ألف
بالفارسية وترجمه الى العربية : يحيى
الخشاب . وصادق نشأت . القاهرة .
(بدون تاريخ)
ابن تفری بردي (أبو المحاسن يوسف)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٣٦ .
ابن جنفل (محمد بن علي)
تاريخ ابن جنفل . المتحف البريطاني OR. 5912

- ابن الاثير الجزوي (أبو الحسن علي)
١ - الكامل في التاريخ . ط . لندن -
ط . القاهرة ١٣٤٨ هـ .
٢ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية .
حققه عبد القادر طليمات .
القاهرة ١٩٦٣
ابن الاثير الحلبي (اسماعيل)
عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار
المتحف البريطاني رقم Add.23-334
الاصطخري (ابراهيم بن محمد)
المسالك والممالك .
القاهرة ١٩٦١ .
الاصفهاني (محمد بن محمد)
البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان
مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٩٥٩ .
Bulletin d'Etudes orientales,
tomes VII - VIII, Institut Francais
de Damas, 1938.
الاصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب)
١ - تاريخ دولة آل سلجوق - هذبه الفتح
البنداري - القاهرة ١٩٠٠ .

- ابن الجوزي (عبد الرحمن)
المنتظم في تاريخ الملوك والامم . حيدر اباد
١٩٤٠ .
- الجواليقي (ابو منصور موهوب بن
احمد)
المعرب من الكلام الاعجمي على حروف
المعجم .
تحقيق احمد محمد شاكر القاهرة ١٣٦١
حاجي خليفة .
كشف الظنون ليبزغ ١٨٣٧
- ابن حزم الاندلسي (محمد بن علي)
جمهرة انساب العرب . القاهرة ١٩٦٢ .
الحسيني (ابو الحسن علي بن ابي
الفوارس ناصر بن علي) .
اخبار الدولة السلجوقية (زينة التواريخ)
تحقيق محمد اقبال . لاهور ١٩٣٣ .
ابن ابي حصينة . تحقيق اسعد طلاس
دمشق ١٩٦٥ .
الحموي (محمد)
التاريخ المنصوري - موسكو ١٩٦٠
الحموي (ياقوت بن عبد الله)
١ - ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (معجم
الادباء) القاهرة ١٩٠٧ - ١٩٢٧ .
٢ - معجم البلدان . بيروت ١٩٦٨ .
ابن حوقل (ابو القاسم التصنيبي)
كتاب صورة الارض . بيروت . دار مكتبة
الحياة .
ابن حيوس (محمد بن سلطان)
ديوان ابن حيوس . تحقيق خليل مردم
بك .
دمشق ١٩٥١ .
ابن خرداذبه (ابو القاسم عبد الله ابن
عبد الله) .
- المسالك والممالك ليدن ١٨٨٩ .
خسرو (ناصر)
سفرنامه . نقله الى العربية يحيى الخشاب
القاهرة ١٩٤٥ .
ابن خلدون (عبد الرحمن)
العبر ونيوان المبتدا والخبر بيروت
١٩٥٨ .
ابن خاكان (احمد بن محمد) .
وفيات الاعيان القاهرة ١٣١٠ .
الخوارزمي (ابو عبد الله محمد بن احمد
بن يوسف)
مفاتيح العلوم المطبعة النيسورية في
القاهرة .
ابن خياط (خليفة)
تاريخ خليفة بن خياط تحقيق سهيل
زكار .
دمشق ١٩٦٧ - ١٩٦٨ .
ابن ابي الدم (ابراهيم)
تاريخ ابن ابي الدم .
مكتبة البودليان
الذهبي (محمد بن احمد)
١ - تاريخ الاسلام . المتحف البريطاني
٢ - العبر في خبر من غير . تحقيق فؤاد
السيد . الكويت ١٩٦١ .
٣ - دول الاسلام المتحف البريطاني
حيدر اباد ١٩١٩ .
الراوندي (محمد بن علي بن سليمان)
راحة الصدور وآية السرور في تاريخ
الدولة السلجوقية . ألف بـالفارسية ،
ونقله الى العربية : ابراهيم الشواربي ،
وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد الصياد .
القاهرة ، ١٩٦٠ .
ابن رسته (ابو علي احمد بن عمر)
الاعلاق الذهبية . ليدن ١٨٩١ .

- ابن الزبير (القاضي الرشيد)
النخائر والتحف - الكويت ١٩٥١ .
مختارات من كتابات المؤرخين العرب .
دمشق ١٩٧١ . زكار (سهيل)
سبط ابن الجوزي (ابو المظفر يوسف بن
قزاوغي)
مراة الزمان في تاريخ الاعيان . المتصف
البريطاني
مكتبة احمد الثالث ٢٩٠٧ س .
المكتبة الوطنية بباريس ١٥٠٦ .
الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين
السنوات ١٠٥٦ - ١٠٨٦ تحقيق علي
سويم . انقرة ١٩٦٨ .
السمعاني (عبد الكريم بن محمد)
الانساب . طبع بالتصوير ، لندن ١٩١٢ .
- ابن سنان الخفاجي (عبد الله بن محمد
بن سعيد)
ديوان ابن سنان الخفاجي . بيروت
١٨٨٦
ابن شاکر الکتبی (محمد)
- ١ - فوات الوفيات . حققه محي الدين
عبد الحميد . الحميد القاهرة ١٩٥١ .
ابو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية
والصلاحية تحقيق محمد حلمي احمد
القاهرة ١٩٥٦
ابن الشحنة (محمد)
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب .
بيروت ١٩٠٩ .
الاعلاق الخطيرة ، قسم مدينة دمشق :
دمشق
١٩٥٦ . قسم مدينة حلب : دمشق
١٩٥٢ .
- شيخ الربوة (ابو عبد الله محمد بن ابي
طالب الانصاري)
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ليبزغ
١٩٢٣ .
الصابي (ثابت بن سنان مع ابن العديم
والمقريزي)
تاريخ اخبار القرامطة . تحقيق سهيل
زكار بيروت ١٩٧١ .
الصيرفي (علي بن منجب)
الاشارة الى من نال الوزارة . القاهرة
١٩٢٣
الطبري (محمد بن جرير)
تاريخ الرسول والملوك ليدن
١٨٧٩ - ١٩٠١ .
ابن العديم (كمال الدين عمر بن احمد
١ - بغية الطلب في تاريخ حلب . مجلد في
ايا صوفيا برقم ٣٠٣٦ . ٨ مجلدات في
احمد الثالث برقم ٢٩٢٥ ، ومجلد في فيض
الله برقم ١٤٠٤ . استانبول
٢ - الانصاف والتحري (نشر في داخل
كتاب تعريف القدماء بأبي الغلاء) .
٣ - زينة الطلب من تاريخ حلب حقق
سامي الدمان دمشق ، ١٩٥١
١٩٥٤ - ١٩٥٨ .
ابن عساكر (علي بن الحسن)
تاريخ مدينة دمشق ، مخطوطة المكتبة
الفاهرية : ٣ / ٣٣٦٨ : ٦ / ٣٤٥٠ :
٣٣٧٢ / ٨
المجلد الأول والمجلد الثاني حققهما صلاح
المنجد دمشق ١٩٥١ . المجلد العاشر
حققه احمد دهمان دمشق ١٩٦٣ .
العظيمي (محمد بن علي)
تاريخ العظيمي . مكتبة بيازيد رقم ٣٩٨ .

- العمري (أحمد بن يحيى)
مسالك الايصار . أيا صدوفيا ٣٤١٧
العمري (ياسين بن خير الله)
الدر المكثون في مآثر الماضية من القرون
المتحف البريطاني
ابن العميد (جرجس)
تاريخ المسلمين ليدن ١٦٢٥ .
العيني (البدر محمد بن احمد)
عقد الهمان في تاريخ الزمان مكتبة بيازيد
رقم ٢٣١٧ .
الغزالي (أبو حامد)
التبر المسبوك في نصيحة الملوكة الشهيرة
١٩٦٨ .
الفارقي (ابن الأزرق)
تاريخ الفارقي . حقه الجزء الأكبر منه
بدوي عبد اللطيف عوض . القاهرة
١٩٥٩ .
أبو الفداء (اسماعيل بن محمد بن عمر)
١ - تقويم البلدان باريس ١٨٤٠
٢ - المختصر في أخبار البشر استانبول
١٨٦٩ .
الفردوسي (أبو القاسم)
الشاهنامه . ترجمها نثر الفتح بن علي
البنداري .
حقة الدكتور عبد الوهاب عزام
القاهرة ١٩٣٢ .
ابن الفقيه (أبو بكر احمد بن إبراهيم
الهمداني)
مختصر كتاب البلدان ليدن ١٣٠٢ .
ابن فضلان (احمد بن فضلان بن العباس
بن راشد بن حماد) رسالة من فضلان
حقة سامي الدهان .
دمشق ١٩٦٠ .
القزويني (زكريا بن محمد بن محمود
أثار البلاد وأخبار العباد بيروت ١٩٦٠
ابن القلانسي (حمزة)
نيل تاريخ دمشق بيروت ١٩٠٨
الكاشفري (محمود بن الحسين بن محمد
كتاب ديوان لغات الترك استانبول ١٣٣٣
ابن كثير (اسماعيل بن عمر)
البداية والنهاية القاهرة ١٩٣٢ .
ابن ماكولا (أبو نصر علي بن هبة الله
الأكسال حيدر آباد ١٩٦٢ . ١٩٦٧
مجهول
أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس
ترجمة حسن حبشي القاهرة ١٩٥٨
مجهول
حوادث السنين مكتبة احمد الثالث ٢٩٨١
مسكويه (احمد بن محمد)
تجارب الامم القاهرة ١٩١٤ - ١٩١٥
المقدسي (محمد بن احمد)
أحسن التقاسيم ليدن ١٨٧٧
المنريزي (احمد بن علي)
١ - اتعاض الحذف بأخبار الأئمة
الفاطميين الخلفاء احمد الثالث ٣٠١٣ .
٢ - خطط المنريزي القاهرة ١٩٠٦ -
١٩٠٨
٣ - المقفى مجلد باريس مجلدات ليدن
مجلد برتو باشا .
ابن المقفع (ساويروس)
تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية القاهرة
١٩٥٩
منجم باشي (احمد بن لطف الله)
تاريخ رئيس المنجمين مكتبة نور عثمانية
٣١٧١ .
المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى)
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة تحقيق
محمد كامل حسين القاهرة ١٩٤٩ .

Anonymous Geographer, Hudud Al-Alam. English translation London 1937.

Bar Hebraeus (Abu'l-Faraj Son of Aron). History of the world
English translation by Ernest A. wallis Budge, Oxford 1932

Comnena, Anna, the Alexiad, English translation by E Dawes London
1967 English translation by E Sewter, London 1969.

Nustawfi (Hamd-Allah) Nuzhat-Al-Qulab. English Translation. London
1919

Nizam Al-Mulk, The book of Government. English Translation by Harbert
Drabe. London 1960.

Psellus (Michael) Fourteen byzantine Rulers (Eng Trans Penguin Ed.
London 1966).

Archer, T. A, The crusades, London 1894.

Atiya, Aziz, The crusades, Historiography and Bibliography 1962

Barthold (W)

1 — Four studies on the History of central Asia English Translation;
Liden 1962.

2 — Turkestan down to the Mongol invasion, English Translation
London 1968.

Bosworth (Clifford Edmund)

1 — The Ghaznavids. Edinburgh 1963.

2 — The Islamic Dynasties, Edinburgh 1967.

Cahen (Claude)

1 — Mouvements Populaire et Autonomisme Urbains dans l'Asie
Musulmane du Moyen Age I, Arabica vol. V, pp 225-250, 1958

2 — Pre Ottoman Turkey (Eng. Trans) London 1969

3 — D. Souvaget's Introduction to the History of Muslim East,
(Recast, California, 1965).

- أبن ميسر (محمد بن علي)
أخبار مصر تحقيق هنري ماسيه
القاهرة ١٩١٩ .
- الترشحي (أبو بكر محمد بن جعفر)
تاريخ بخاري . عزبه عن الفارسيه : أمين
بدوي ونصر الله الطرازي . القاهرة
١٩٦٥ .
- ابن الهبارية (أبو علي محمد بن محمد
ديوان الصالح والباغم القاهرة ١٢٩٢
ها .
- ابن أبي الهيجاء
تاريخ ابن أبي الهيجاء المكتبة الاحمدية
بقونس رقم ٩٥١٤ .
- ابن الوردي (عمر)
تتمة المختصر في أخبار البشر القاهرة
١٨٦٨ .
- ابن واصل الحموي (محمد بن سالم)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب المجلد
الاول حققه جمال الدين الشيال
القاهرة ١٩٥٣ .
- اليافعي (محمد بن عبد الله)
مراة الجنان وعبرة اليقظان . حيدرآباد
١٩١٩ .
- (أمين حسين)
تاريخ العراق في العصر السلجوقي بغداد
١٩٦٥ .
- تعريف القدماء بأخبار أبي العلاء القاهرة
١٩٤٤ .
- التميمي (رفيع)
الحروب الصليبية القدس ١٩٤٥
الجندي (سليم)
تاريخ المعرة دمشق ١٩٦٣
الزركلي (خير الدين)
الاعلام الطبعة الثانية - القاهرة .
- سالم (السيد عبد العزيز)
طرايس الشام في التاريخ الاسلامي
الاسكندرية ١٩٦٧ .
- سرور (محمد جمال الدين)
الذوق الفاطمي في بلاد الشام والعراق
القاهرة ١٩٦٤ .
- الضابط (شاكر صابر)
موجز تاريخ التركمان في العراق بغداد
١٩٦٠ الطبايع (محمد راجب)
اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء حلب
١٩٢٣ - ١٩٢٥ .
- ظلاس (محمد بن أسعد)
الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب .
دمشق ١٩٥٦ ١ .
- عاشور (سعيد عبد الفتاح)
الحركة الصليبية القاهرة ١٩٦٢
الغريني (السيد اليان)
مؤرخو الحروب الصليبية . القاهرة
١٩٦٢ .
- غرايبة (عبد الكريم)
العرب والأتراك دمشق ١٩٦١
الشرقي (كامل بن حسين)
نهر الذهب في تاريخ حلب . حلب ١٩٢١
كحالة (عمر) .
- معجم المؤلفين دمشق ١٩٥٧ - ١٩٦١
المعاضبي (خاشع)
دولة بني عقيل في الموصل بغداد ١٩٦٨
المكتب المركزي للإحصاء في سورية
التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية
سورية دمشق ١٩٦٨
ناجي (عبد الجبار)
الامارة المزيديّة البصرة ١٩٧٠

- 1 — Cambridge Medieval History, vol. IV, Ed. Jaon M. Hussey. Cambridge, 1966-67.
- 2 — Cambridge History of Islam. Cambridge 1970.
- 3 — The Cambridge History of Iran, Vol. V, Cambridge 1968.
- Cohn, Norman, The Pursuit of the Millezium, London 1970.
- Dunlop (D.M.), The History of the Jewish Khazars, New York 1967.
- Ederhard Wolfram, A History of Chaina, London 1967.
- Ensyslopaedia of Islam, New Eden, London 1960.
- Historians of the Middle East, Ed. B. Lewis and P.M. Holt, Oxford 1964.
- A History of the crusades, I, Ed. K. M. Setton, Philadelphia 1955.
- Kabir (Mafizullah), The Buwayhid Dynasty of Baghdad. Calcutta 1964.
- Lam, Harold, The Crusades, Iron Nen and Saints, London 1970.
- Lambton (A.K.S.), Landlord and peasant in Persia, Oxford 1969.
- Lewis, B. The Assassins, London, 1967.
- Millo, Charles, The History of the crusades, Philadelphia, 1944.
- Ostragosky, D, History of the Byzantine state, Eng. Trans., J. Hussey, Oxford 1968.
- Pearson, J. D., Idex Islamicus, Cambridge 1961, 1962, 1967.
- Pernoud, Régime, The crusades, Eng. Trans., New york 1964.
- Rice (Tamara Talbot), The Sljuks, London 1966.
- Rosenthal, F., A History of the Muslim, Histography, Leiden, 1968.
- Runciman, Steven, A History of the crusades, Penguim Eden.
- Segal, J. B., Edessa, The blessed city, Oxford 1970.
- Sevim, Ali, Suriye Selcuklulari, I, Ankara, 1965.
- Smail, R. C., Crusading warfare, 1097 - 1193. Cambridge, 1957.
- Le strage (Guy)
- 1 — The land of the Eastern Caliphate, London 1966.
- 2 — Palestine under the Muslim, Beirut 1965.
- Vasiliev, A., History of the Byzantine Empire, winsconsin. 1964.
- Zakkar, Suhayl, The Emirate of Aleppo, 1004 - 1094, Beirut 1971.

المفتي

المحتوى

- ٣ - تقديم
٩ - المقدمة
١٤ - الفصل الاول
الهجرة الفرية واستيلاء السلاجقة على خراسان - تركستان وسكاتها. الوضع السياسي في خراسان وبلاد ما وراء النهر في القرن العاشر والنصف الاول من الحادي عشر. الاسرة السلجوقية. الاجتياح السلجوقي لخراسان.
٦٢ - الفصل الثاني
قيام السلطنة السلجوقية - اوضاع بلاد الشام والجزيرة واحوالهما قبل السلاجقة - تأسيس السلطنة السلجوقية من قبل طغر بك.
١٢٠ - الفصل الثالث
الاجتياح السلجوقي للجزيرة والشام - ابن خان - النواكية. حملة الب ارسلان على الشام والجزيرة. اتسز توش بن الب ارسلان. مسلم بن قريش وسقوط الدولة المرباسية. حملة ملك شاه على الشام والجزيرة.
١٩٤ - الفصل الرابع
بلاد الشام والجزيرة تحت الحكم السلجوقي المباشر - حكم اق سنقر في حلب. توش ومحتدولاته لنيل السلطنة. حكم رضوان بن توش في حلب. حكم دقاق بن توش في دمشق. نهاية حكم اسرة توش في الشام.

ملاحق الكتاب

- ٢٣٣ - ابو محمود ابراهيم بن جعفر الكتامي
٢٤٢ - ابو نصر التستري
٢٤٤ - احمد شاه
٢٤٧ - المستعلي القاطمي
٢٥٠ - احمد بن الكردي
٢٥١ - البساسيري
٢٦١ - اطسز بن اوق
٢٦٥ - آق سنقر. قسم الدولة
٢٧٤ - السلطان الب ارسلان
٢٨٨ - الب ارسلان بن رضوان
٢٩٢ - بدر الجمالي
٣٠٠ - بشارة الاخشيدي
٣٠٢ - ثمال بن صالح
٣٠٦ - جعفر بن فلاح
٣١٣ - جوهري الصقلي
٣٣٤ - جيش بن الصمام

- ٣٣٧ - الحسن الصباح
- ٣٤٥ - نظام الملك
- ٣٦٩ - الحسين بن ملهم
- ٣٧١ - جناح الدولة حسين
- ٣٧٤ - حميدان بن حواس
- ٣٧٥ - حيدرة بن حسين
- ٣٧٦ - خلف بن ملاعب (من بغية الطلب)
- ٣٨٢ - خلف بن ملاعب (من المقفى)
- ٣٨٥ - دقاق بن تتش
- ٣٨٦ - رضوان بن تتش
- ٣٩٥ - سابق بن محمود
- ٤٠٤ - سالم بن مالك
- ٤٠٧ - طفتكين اتابك دمشق
- ٤٠٨ - علي بن المقلد

معركة منازکرد

- ٤١٢ - من تاريخ ميخائيل بسللوس
- ٤١٥ - من مرآة الزمان
- ٤٢٠ - من تاريخ العظمي
- ٤٢١ - من كتاب المنتظم
- ٤٢٦ - من تاريخ آل سلجوق
- ٤٣٠ - من تاريخ ابن الكلاني
- ٤٣١ - من زينة التواريخ
- ٤٣٥ - من بغية الطلب
- ٤٣٩ - من زينة الحلب
- ٤٤٣ - من الكامل لابن الاثير
- ٤٤٥ - من تاريخ ابن ابي الدم
- ٤٤٦ - من تاريخ الفارقي
- ٤٤٧ - من اخبار مصر ابن ميسر
- ٤٤٨ - من تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية
- ٤٥١ - من تاريخ العالم لابن العبري
- ٤٥٤ - من تاريخ المسلمين لابن العميد
- ٤٥٥ - من البداية والنهاية
- ٤٥٧ - من دول الاسلام للنميري
- ٤٥٩ - من اتعاظ الحنفا للمقريني
- ٤٦٠ - من الدرر المضيئة لابن ابيك